الجواب الصحيح

لمن بدل دين المسيح

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

(٦٦١ - ٧٢٨هـ)

تحقيق

د. عبد الله بن غالب الكلاعي

إشراف

د. علي بن محمد العمران

المجلد الثاني



طبع برعاية

مؤسسة عبد اللطيف العيسى الخيرية



راجع هذا المجلد

د. سُلَيْمَان بن عَبْد الله العُمَيْر

د. سُعُود بن عَبْد العَزِيز العرِيفي

ح مركز دار التأصيل للنشر والتوزيع، ١٤٤٠ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

ابن تيمية، احمد بن عبدالحليم
الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح. /احمد بن عبد الحليم ابن تيمية ؛ علي محمد العمران - جدة ، ١٤٤٠ هـ

٥ مج.

ردمك: ٧-٠-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ١-٢-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

١- الإسلام و النصرانية ٢- الديانات المقارنة أ-العمران ، علي محمد (محقق) ب.العنوان

ديوي ٢٩١ ١٤٤٠/١١٣١٧

رقم الإيداع: ١٤٤٠/١١٣١٧
ردمك: ٧-٠-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (مجموعة)
ردمك: ١-٢-٩١٣١٠-٦٠٣-٩٧٨ (ج٢)

الطبعة الأولى

١٤٤١هـ - ٢٠١٩م



جدة، شارع عبدالله السليمان، مقابل اكسترا

المملكة العربية السعودية

هاتف: 00966126288685

جوال: 00966596747896

الرمز البريدي: 22246، الرقم الإضافي: 6929

البريد الإلكتروني: sabban.taseel@gmail.com



لمن بدّل دين المسيح

تأليف

شيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ابن تيمية

(٦٦١ ـ ٧٢٨هـ)

تحقيق

د. عبد الله بن غالب الكلاعي

إشراف

د. علي بن محمد العمران

المجلد الثاني





بسم الله الرحمن الرحيم

المخطوطات المستخدمة في هذا المجلد

(د) نسخة دار الكتب المصرية (نسخة عتيقة عليها خط المصنف، ثم جرىٰ ترميمها وإكمال خرومها سنة ١٢٨١).

(و) نسخة متحف طوبقبوسراي (كتبت سنة ٧٣٠).

(ي) نسخة مكتبة يني جامع (كتبت سنة ١٠٩٤).

(ع) نسخة المكتبة النعمانية (عليها تعليقات بخط نعمان الآلوسي، كتبت في دمشق سنة ١٣٠١).

ط. النيل (الطبعة الأولىٰ للكتاب بمطبعة النيل بالقاهرة سنة ١٣٢٢).

فصل

وإن أرادوا بتصديقه كتبُهم أنه صدَّق ما هم عليه من العقائد والشَّرائع التي ابتدعوها بغير إذنٍ من الله، وخالفوا بها ما تقدَّمه من شرائع المرسلين[1]، أو خالفوا بها الشَّرع الذي بُعِث به، مثل القول بالتَّثليث والأقانيم، والقولِ بالحلول والاتِّحاد بين اللَّاهوت والنَّاسوت، وقولهم: إن المسيح هو الله وابن الله، وما هم عليه من إنكار ما يجب الإيمان به؛ من الإيمان بالله واليوم الآخر، ومن تحليل ما حرَّمه الله ورسلُه، كالخنزير وغيره، ومن[2] أنهم لا يدينون بدين الحقِّ الذي أنزل به كتابه وأرسل به رسوله، بل بدينٍ مبتدعٍ ابتدعه لهم أكابرهم كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ﴾ [التوبة: ٣١].

وقد بيَّن النَّبيُّ ﷺ ذلك لعديِّ بن حاتم ـ وكان نصرانيًّا ـ لما جاءه ليؤمن به، وقد آمن به عديٌّ وكان من خيار الصَّحابة، فسمعه يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] قال عديٌّ: قلت: يا رسول الله، ما عبدوهم، قال: «**إنَّهُمْ أَحلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ وحَرَّمُوا عَلَيْهم الحَلالَ فأَطَاعُوهُمْ، فكَانَتْ تِلْكَ عِبادَتُهم إيَّاهُم**»[3].

---

(١) (ي، ط.النيل): «المسلمين».

(٢) (د، ي، ع، ط.النيل): «بين».

(٣) أخرجه الترمذي (٣٠٩٥) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه. وقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث» وحسّنه المصنف كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٧/ ٦٧).

فإن أرادوا بتصديقهم[1] في هذه الأمور، أو أنَّ[2] محمَّدًا ﷺ صدّق ما عندهم مما لم يأت به الأنبياء عن الله، فقد كذبوا علىٰ محمَّدٍ ﷺ كذبًا ظاهرًا معلومًا بالاضطرار من دينه، وإنما صدَّق ما جاءت به الأنبياء قبله، وأما ما أحدثوه وابتدعوه فلم يصدّقه.

كما أنه لم يَشْرعْ لهم أن يستمرُّوا علىٰ ما هم عليه من الشَّرع الأوَّل ولو لم يكن مبدَّلًا، بل دعاهم وجميعَ الإنس والجنِّ إلىٰ الإيمان به وبما جاء به، واتباع ما بُعث به من الكتاب والحكمة، وحَكَمَ بكفر كلِّ من لم يتَّبع كتابه المنزَّلَ عليه، وأوجب مع خلودهم في عذاب الآخرة جهادَهم في الدنيا حتَّىٰ يكون الدين كلُّه لله، وحتَّىٰ تكون كلمةُ الله هي العليا.

وقد دعا أهلَ الكتاب من اليهود والنَّصارىٰ عمومًا، ثم كلًّا من الطائفتين خصوصًا في غير موضع، مع دعائه الناس كلَّهم أهلَ الكتاب وغيرَهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِىَّ ٱلْأُمِّىَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا

(١) بعدها في (ع، د، ط.النيل) «كتبهم».
(٢) (ع): «وأن» بدل: «أو أن».

هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِي يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٨]

وقال تعالىٰ يخاطب النَّصارىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٣].

وقال تعالىٰ: ﴿ لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢] في موضعين[(١)].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ ﴾ [المائدة: ١٤]

أخبر سبحانه أنَّ النَّصارىٰ تركوا حظًّا ممَّا ذكَّرهم به؛ وبسبب ذلك أغرىٰ بينهم العداوة والبغضاء إلىٰ يوم القيامة، فعُلِم أنه سبحانه بَيَّنَ أنهم تركوا بعضَ ما جاء به المسيحُ ومَنْ قَبْلَه من الأنبياء، واستحَقُّوا لذلك أن يغريَ بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلىٰ يوم القيامة.

---

(١) «في موضعين» ساقطة من (المطبوع).

﴿هُوَ يُحْيِۦ وَيُمِيتُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِيِّ ٱلْأُمِّيِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٦ - ١٥٨]

وقال تعالىٰ يخاطب النَّصارىٰ: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِى دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْحَقَّ ۚ إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُواْ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسْتَنكَفُواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٣].

وقال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧، ٧٢] في موضعين(١).

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤]

أخبر سبحانه أنَّ النَّصارىٰ تركوا حظًّا ممَّا ذكَّرهم به؛ وبسبب ذلك أغرىٰ بينهم العداوة والبغضاء إلىٰ يوم القيامة، فعُلِم أنه سبحانه بَيَّنَ أنهم تركوا بعضَ ما جاء به المسيحُ ومَنْ قَبْلَه من الأنبياء، واستحَقُّوا لذلك أن يغريَ بينهم العداوةَ والبغضاءَ إلىٰ يوم القيامة.

---

(١) «في موضعين» ساقطة من (المطبوع).



وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ(١) ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

فنهاهم عن الغلوِّ في دينهم وعن اتِّباع أهواء الذين ابتدعوا بدعًا غيَّروا بها شرع المسيح، فضلَّوا من قَبْلِ هؤلاء الأتباع، وأضلُّوا كثيرًا من هؤلاء الأتباع وغيرهم، وضلُّوا عن سواء السبيل، وهو وسط السبيل، بيَّنَ الضَّلالَ، وقَيَّدَه بعد أن أطلقه وأجْمَله.

وقال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]

وقد خرج النَّبيُّ ﷺ لقتالهم بنفسه عام تبوك، واستنفر لقتالهم جميع المؤمنين، لم يأذن لأحدٍ من القادرين علىٰ الغزو في التخلُّف، ومن تخلَّف لأنه لم يرَ قتالهم واجبًا كان كافرًا، وإن أظهر الإسلام كان منافقًا ملعونًا، بيَّن الله أنه لا يَغْفِر لهم، ونهىٰ نبيَّه عن الصَّلاة عليهم، وأنزل في ذلك جُمهورَ سورة براءة بالنقل المتواتر، حتىٰ بيَّن كفر الذين استأذنوه في ترك الخروج معه لقتال النصارىٰ، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ

---

(١) مفتتح الآية بـ«قل» وقد جرىٰ المصنف في بعض المواضع علىٰ هذا النحو، يقتصر علىٰ جزء من الآية لاستيفائه موضع الدلالة. وقد نبهت علىٰ هذا لئلا يتوهَّمَ أنه سقط أو خطأ في إيراد الآية.

ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدۡ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذۡ أَخۡرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ثَانِيَ ٱثۡنَيۡنِ إِذۡ هُمَا فِي ٱلۡغَارِ إِذۡ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحۡزَنۡ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَاۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيۡهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٖ لَّمۡ تَرَوۡهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفۡلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلۡعُلۡيَاۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُواْ خِفَافٗا وَثِقَالٗا وَجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِكُمۡ وَأَنفُسِكُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكُمۡ خَيۡرٞ لَّكُمۡ إِن كُنتُمۡ تَعۡلَمُونَ ﴿٤١﴾ لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾ عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمۡ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَتَعۡلَمَ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ أَن يُجَٰهِدُواْ بِأَمۡوَٰلِهِمۡ وَأَنفُسِهِمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسۡتَـٔۡذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱرۡتَابَتۡ قُلُوبُهُمۡ فَهُمۡ فِي رَيۡبِهِمۡ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴾ [التوبة: ٣٨ - ٤٨].

فصل

فتبين أن قولهم: «فثبَّت بهذا ما معَنا، نعم، ونفىٰ عن إنجيلنا وكتبنا التي في أيدينا التهمَ والتبديلَ لها والتغييرَ لما فيها بتصديقه إياها».

إن أرادوا به أنه ثبَّت ما جاءت به الأنبياء قبله عن الله فهذا حقٌّ.

وإن أرادوا به أنه ثبَّت ما هم عليه بعد مبعثه من الشَّرع الذي خالف شرعه أو ما ابتدعوه مِمَّا[1] لم يأت به الأنبياء عليهم السلام قبله فهذا باطل.

وإن أرادوا بذلك أنه صدَّق ألفاظ الكتب التي بأيدينا، أي: التَّوراةِ والإنجيل، فهذا مما يُسَلِّمه لهم بعضُ المسلمين، ويُنازِعُهم فيه أكثر المسلمين، وإن كان أكثر ذلك مما يسلِّمه أكثرُ المسلمين.

فأما تحريفُ معاني الكتب بالتَّفسير، والتَّأويل، وتبديل أحكامها، فجميع المسلمين، واليهود، والنصارىٰ يشهدون عليهم[2] بتحريفها وتبديلها، كما يشهدون هم والمسلمون علىٰ اليهود بتحريف كثيرٍ من معاني التَّوراة وتبديل أحكامها، وإن كانوا هم واليهود يقولون: إن التَّوراة لم تُحرَّف ألفاظُها.

وحينئذٍ فلا ينفعهم بقاء حروف الكتب عندهم مع تحريف معانيها، إلا كما ينفع اليهود بقاء حروف التَّوراة والنُّبوات عندهم مع تحريف معانيها، بل جميعُ النُّبوات التي يُقِرُّونَ بها هي عند اليهود، وهم مع اليهود ينفون عنها التُّهم والتبديل لألفاظها، مع أن اليهود عندهم من أعظم الخلق كفرًا واستحقاقًا لعذاب الله في

---

(١) (و): «ومما».

(٢) (ع): «عليها».



الدنيا والآخرة، وهم عند النصارىٰ الذين يُكَفِّرون المسلمين أكفر[1] من هؤلاء وشرٌّ منهم، فإن النَّصارىٰ متَّفقون علىٰ أن المسلمين خيرٌ من اليهود، وكذلك اليهود متَّفقون علىٰ أن المسلمين خيرٌ من النَّصارىٰ، بل جميع الأمم المخالفين للمسلمين يشهدون أن المسلمين خيرٌ من سائر الأمم و[2]الطوائف إلا أنفسهم، وشهادتُهم لأنفسهم لا تقبل، فصار هذا اتِّفاق أهل الأرض علىٰ تفضيل دين الإسلام.

فعُلِم أن بقاء حروف الكتاب مع الإعراض عن اتِّباع معانيها وتحريفها لا يوجب إيمان أصحابها، ولا يمنع كفْرهم.

وحينئذٍ فليس شهادة محمّدٍ ﷺ وأمّتِه للمسيح عليه السلام ولما أُنزل عليه من الإنجيل في تثبيت ما عند النَّصارىٰ بأعظمَ من شهادة المسيح عليه السلام والحواريِّين وسائرِ[3] من اتَّبعه لموسىٰ ولما أنزل عليه من التَّوراةِ في تثبيت ما عند اليهود؛ فإن المسيح أمر أتباعه باتِّباع التَّوراة إلا القدرَ اليسير الذي نسخه منها.

وأما محمّدٌ ﷺ فبُعث بكتابٍ مستقلٍّ، وشرعٍ مستقلٍّ كاملٍ تامٍّ، لم يحْتَجْ معه إلىٰ شرعٍ سابقٍ تتعلمه أمَّتُه من غيره، ولا إلىٰ شرعٍ لاحقٍ يُكَمِّلُ شرعَه؛ ولهذا قال النَّبيُّ ﷺ في الحديث الصَّحيح: «إنَّه[4] قَدْ كَانَ فِي الأُمَمِ قَبْلَكَم

---

(١) المثبت من (و)، وفي سائر النسخ: (أكثر).

(٢) «الأمم و»: من (و) وليست في باقي الأصول.

(٣) (و): «للحواريين ولسائر» (د، ع، ط. النيل): «والحواريين وبسائر» والمثبت من (ي) وهو أنسب للسياق.

(٤) بعدها في جميع النسخ: «قال» وليست في المصادر.

محدَّثون[1]**، فإن يَكُنْ في أُمَّتِي أحَدٌ فعُمَرُ»**[2].

فجَزَم بأنَّ من كان قبله كان فيهم محدَّثون، وعلَّق الأمر في أمَّتِه، وإن كان هذا المعلَّق قد تحقَّق؛ لأن أمَّتَه لا تحتاج بعده إلىٰ نبيٍّ آخر، فَلأن لا تحتاج معه إلىٰ محدَّثٍ مُلْهَمٍ أوْلىٰ وأحْرىٰ.

وأما مْنَ كان قبله فكانوا[3] يحتاجون إلىٰ نبيٍّ بعد نبيٍّ، فأَمْكَنَ حاجتهم إلىٰ المحدَّثين المُلْهَمِين؛ ولهذا إذا نزل المسيح ابن مريم في أمَّتِه لم يحكم فيهم إلا بشرع محمَّدٍ ﷺ.

وإذا كان مع هذا شهادة المسيح والحواريين وكلُّ من آمن بالمسيح للتَّوراة بأنها حقٌّ، ولموسىٰ بأنه رسولٌ، لا تمنع كفر اليهود؛ لكونهم بدَّلوا شرع التَّوراة، وكذَّبوا بالمسيح وبالإنجيل، فكيف تكون شهادة محمَّدٍ وأمَّتِه للإنجيل بأنه منزَّلٌ من عند الله، وللمسيح بأنه رسول الله مانعةً من كفر النّصارىٰ، مع تبديلهم شرعَ الإنجيل، وتكذيبهم بمحمَّدٍ ﷺ وشرعِ القرآن؟

وأما إيمان من يؤمن منهم بأن محمَّدًا رسول الله إلىٰ العرب، أو بكثيرٍ مما جاء به القرآن، فلا يمنع كفرَهم إذا كفروا ببعض ما جاء به، بل من كذَّبَ بشيءٍ مما جاءت به الرُّسل عن الله فهو كافر وإن آمن بأكثر ما جاءت به الرسل، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُوا۟ بَيْنَ ٱللَّهِ

---

(١) قال ابن وهب: «تفسير محدَّثون: ملهمون». أورده مسلم في صحيحه (٤/ ١٨٦٤) عقب هذا الحديث.

(٢) أخرجه البخاري (٣٤٦٩)، ومسلم (٢٣٩٨) عن أبي هريرة وعائشة رضي الله عنهما.

(٣) (ط. النيل): «فإنهم كانوا».



وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيْنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠] وقال تعالىٰ: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ٨٥].

وقد صرَّح بكفر النصارىٰ في غير موضعٍ، وأمر بجهادهم وقتالِهم، وحَكَمَ بكفر من لا يوجب جهادَهم وقتالَهم، أو لا يرىٰ ذلك عبادةً لله وطاعةً له، كما تقدم التَّنبيه علىٰ ذلك[1]. فإذا كان مَن لا يرىٰ جهادَهم عبادةً لله كافرًا عند محمد ﷺ فكيف حالُهُم هم[2] عنده ﷺ؟

(١) انظر: (١/ ١٥١-١٥٢، ٤٠٩).

(٢) «هم» ساقطة من (المطبوع).



فصـل

وإذا تبين للخاصَّة والعامَّة مِمَّن آمن بمحمَّدٍ ﷺ ومن كفر به أنه كان مصدِّقًا لما بين يديه من الكتب والأنبياء، مصدِّقًا للتَّوراة والإنجيل، شاهدًا بأن موسىٰ عليه السلام ومن كان متَّبعًا له علىٰ الحقِّ، وأن المسيح عليه السلام ومن اتَّبعه علىٰ الحقِّ، وإن[1] كان يُكَفِّرُ جميعَ اليهود والنصارىٰ وغيرِهم ممن بلغته رسالتُه ولم يؤمن به، وشهد عليهم بأنهم حرَّفوا كثيرًا من معاني التَّوراة والإنجيل قبل نبوَّته، وأنَّ أهل الكتاب كلَّهم مع المسلمين يشهدون أيضًا بأن كثيرًا من معاني التَّوراة والإنجيل حرَّفها كثيرٌ من أهل الكتاب= لم يجُزْ لأحدٍ من أهل الكتاب أن يحتجَّ بقول محمَّدٍ ﷺ علىٰ صحَّة دينهم الذي شهد محمَّدٌ ﷺ بأنه باطلٌ مبدَّلٌ منسوخ، وأهله من أهل النار، كما تقدم بسطه[2].

وإذا قالوا: نحن نذكر ذلك لنُبيِّنَ تناقُضَه حيثُ صدَّقَها وهي تُناقض بعضَ ما أخبر به، أو لنبيِّن أنّ ما أخبرت به الأنبياء قبله يناقض خبره، فيكون ذلك قدحًا فيما جاء به.

أجاب المسلمون عن هذا بعدة طرق:

أحدها: أن يقولوا: أمَّا مناقضة بعض خبره لبعضٍ كما يزعمه هؤلاء؛ من أن[3] كتابه يَمْدح أهل الكتاب مرَّةً ويذُمُّهم أخرىٰ، وأنه يصدِّق الكتب المنزَّلة تارةً، ويذمُّها أخرىٰ، فهذا قد ظهر بطلانه؛ فإنه إنما مدَحَ من اتَّبع موسىٰ والمسيح علىٰ الدِّين الذي لم يبدَّل ولم ينسخ.

---

(١) أشير في هامش (و) بقوله: لعله «محمدًا». فتكون العبارة: «وإن محمدًا كان يكفر...».

(٢) انظر: (١/ ٤٥، ٢٧٤).

(٣) (ي): «أهل» كذا.

وأما من اتبع الدِّين المبدَّل المنسوخ فقد كفَّره.

فأما دعواهم مناقضةَ خبره لخبر غيره فيقال: هو مصدِّقٌ للأنبياء فيما أخبروا به.

وأما ما بُدِّل من ألفاظهم أو غُيِّر[1] بالترجمة أو فُسِّر بغير مرادهم فلم يصدِّقه.

ويقال أيضًا: إن نبوَّة محمَّدٍ ﷺ تَثْبُت[2] بمثل ما تَثْبُت به نُبُوَّات الأنبياء قبله وبأعظم من ذلك، كما قد بُسِط في موضعٍ آخر[3] وبُيِّنَ أن التكذيب بنبوة محمد ﷺ مع التصديق بنبوة غيره في غاية التناقض والفساد، وأنه ما من طريق يُعْلَمُ بها نبوَّةُ غيره إلا ونبوَّتُه تُعلم بمثل تلك الطريق وبأعظمَ منها، فلو لم تكن نبوَّته وطريق ثبوتها[4] إلا مثلَ نبوَّةِ غيره وطريقِ ثبوتها[5] لوجب التصديق بنبوَّتِه، كما وجب التصديق بنبوَّة غيره، ولكان تكذيبه كتكذيب إبراهيم وموسىٰ وغيرِهما من الرُّسل، فكيف إذا كان ذلك أعظمَ من وجوهٍ متعددة؟

وحينئذٍ فالأنبياء كلهم صادقون مصدوقون[6] معصومون فيما يخبرون به[7] عن الله، لا يجوز أن يَثْبُتَ في خبرهم عن الله خبرٌ باطلٌ لا عمدًا ولا خطأً، فلا يجوز أن يُخْبِرَ أحدُهُم بخلاف ما أَخْبَرَ به غيرُه، بل ولا يفترقون في الدين

---

(١) (ع، ط.النيل): «غيرها».

(٢) (ط. النيل): «ثبتت»، (ي، د): بلا نقط.

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٤/ ٢٠١).

(٤) المثبت من (و)، وسائر النسخ «بطريق نبوتها».

(٥) (د، ي، ع): «نبوتها» (ط.النيل) «نبواتها».

(٦) (المطبوعتان): «مصدقون».

(٧) «به» من (و) وليست في باقي النسخ.

الجامع، كما قال تعالىٰ: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ﴾ [الشورىٰ: ١٣] وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥١ - ٥٣].

وإنما يقع النسْخ في بعض الشَّرائع كما يقع النسْخ في شريعة الرسول الواحد، وحينئذٍ فيُعْلَمُ أن كلَّ ما يُنقَلُ عن الأنبياء المتقدِّمين ممَّا يناقض ما عُلِم من إخبار محمدٍ ﷺ فهو باطلٌ، سواءٌ كان اللَّفظ نفسه باطلًا لم يقلْه ذلك النبيُّ، أو قد قال لفظًا وغلط المترجمون له من لغةٍ إلىٰ لغة، أو كان اللَّفظ وترجمته صحيحين لكن وقع الغلط في معرفة مراد ذلك النبيِّ[1] بذلك الكلام.

فإنَّ كلَّ ما يُحتَجُّ به من الألفاظ المنقولة عن الأنبياء؛ أنبياءِ بني إسرائيل وغيرهم مِمَّن أُرْسِل بغير اللَّغة العربيَّة لا بدَّ في الاحتجاج بألفاظه من هذه المقدِّمات: أن يُعلمَ اللفظُ الذي قاله، ويُعْلَمَ تَرجمتُه، ويُعلمَ مرادُه بذلك اللَّفظ.

والمسلمون وأهلُ الكتاب متَّفقون علىٰ وقوع الغلط في تفسير بعض الألفاظ وبيان مراد الأنبياء بها، وفي ترجمة بعضها، فإنك تجد بالتَّوراة عدَّةَ نسخٍ مترجمةٍ وبينها فروقٌ يختلف بها المعنىٰ المفهوم، وكذلك في الإنجيل وغيره.

فهذا الطَّريق في الجواب طريقٌ عامٌّ لكلِّ من آمن بمحمَّدٍ ﷺ وشهد أنه رسول الله باطنًا وظاهرًا، يخاطَب به كلُّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ علىٰ وجه الأرض، وإن لم يكن عارفًا بما عند أهل الكتاب؛ فإنه لا يقدر أحدٌ من أهل الأرض

---

(١) (ي، ع): «الشيء».

أن(١) يقيم دليلًا صحيحًا علىٰ نبوَّة موسىٰ وعيسىٰ وبطلان نبوة محمَّدٍ ﷺ، فإنَّ هذا ممتنعٌ لذاته، بل ولا يمكنه أن يقيم دليلًا صحيحًا علىٰ نبوَّة أحدهما إلا وإقامةُ مثلِ ذلك الدَّليلِ أو أعظمَ منه علىٰ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ أولىٰ، وحينئذٍ فلا يمكن أحدًا من أهلِ الكتاب أن يحتجَّ بشيءٍ من المنقولات عن الأنبياء المخالفة لما ثبت عن محمَّدٍ ﷺ، سواءٌ أقرَّ بنبوَّتِه أو أنكرها، بل إن احتجَّ بشيءٍ ممَّا نُقِل عن محمَّدٍ ﷺ بُيِّنَ له بطلانُ احتجاجه به، وأنه حجةٌ عليه لا له.

وإن احتجَّ بشيءٍ من المنقول عن غيره من الأنبياء عليهم السلام طولِب بتقدير نبوَّة ذلك النَّبيِّ مع تكذيب محمَّدٍ ﷺ، وإلا فبتقدير أن يُنقل عن اثنين ادَّعيا النُّبوَّة، وأَتيا بالآيات التي تَثْبُتُ بها النُّبوَّات خبَرَان مناقِضَان، لا يجوز تصديق هذا وتكذيب ذاك إن لم يتبيَّن ما يدلُّ علىٰ صدق هذا وكذب هذا، وكذلك إذا عورض أحدُهما بجنس ما يعارَض الآخر.

وهذا لا يَرِدُ علىٰ المسلمين إذا رَدُّوا ما يَحتَجُّ به أهل الكتاب ممَّا ينقلونه عن الأنبياء مخالفًا لخبر محمَّدٍ ﷺ؛ فإنَّ المسلمين لا يطعنون في نبوَّة أحدٍ من الأنبياء المعروفين، وإنما يطْعنون في أنهم أَخْبَرُوا بما يخالِف خبرَ محمَّدٍ ﷺ، فإن ذلك لا يثبت، أي: لم يثبت اللَّفظ والتَّرجمة وتفسير اللَّفظ.

وهذه المقدِّمات يمتنع أن تقوم علىٰ شيءٍ يخالف خبر محمَّدٍ ﷺ لا جملةً ولا تفصيلًا. **فأهل الكتاب يطالَبون فيما يعارِضونَ به بثلاث مقدمات.**

أحدها: تقدير أن أولئك صادقون، ومحمّدٌ ﷺ كاذب.

والثاني: ثبوت ما أتوا به لفظًا.

(١) كتبت «أن» فوق السطر في (ع) بقلم مغاير. وليست في سائر النسخ.

والثالث: معرفة المراد باللفظ ترجمة وتفسيرًا.

وإن قال الكتابيُّ للمسلم: أنت توافقني علىٰ نبوَّة هؤلاء المتقدِّمين؟

أجابه المسلم بوجوه:

منها أن يقول: إني لم أوافقك علىٰ نبوَّة واحدٍ منهم مع التكذيب بمحمّدٍ ﷺ، بل دين المسلمين كلِّهم أنه من آمن ببعضٍ الأنبياء وكفر ببعضٍ فهو كافر، فكيف بمن كَفَرَ بمن هو عند المسلمين أفضلُ الأنبياء وخاتمُهم؟! بل قد يقول له أكثر المسلمين: نحن لم نعلم نبوَّة أولئك إلا بإخبار محمَّدٍ أنهم أنبياء، فلو قدحنا في الأصلِ الذي قد علمنا[1] به نبوَّتهم لزم القدح في نبوَّتهم، والفرع إذا قُدِحَ في أصله دلَّ علىٰ فساده في نفسه سواء؛ قُدِّرَ أصْلُه صحيحًا أو فاسدًا، فإنه إن كان أصلُه فاسدًا فسد هو، وإن كان أصْله صحيحًا وهو يناقضه بطل هو[2]، فهو إذا ناقَضَ[3] أصْلَه= باطلٌ علىٰ كل تقدير.

وكذلك إذا قال له الكتابيُّ: قد اتَّفقنا علىٰ تصديق موسىٰ والتَّوراة أو[4] المسيح والإنجيل.

قال له المسلم: إنَّما وافقتك علىٰ تصديق موسىٰ وعيسىٰ اللَّذَيْنِ بَشَّرا بمحمَّدٍ ﷺ كما أخبرنا به محمَّدٌ ﷺ عن الله، حيث قال الله تعالىٰ: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ ﴿١٥٦﴾ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ﴾

---

(١) (ي): «علمت».

(٢) «فإنه إن كان أصله...بطل هو». العبارة مكررة في (المطبوع).

(٣) بعدها في (ع) «من». وبعدها في (و): «بان». وقد أشار إليها في الهامش بقوله: «كأنها زائدة، أو تكون «بان» ماضي «تبين» بمعنىٰ: ظهر، وتكون أنّ ولكن سقطت. والله أعلم».

(٤) (و): «و» بدل: «أو».

[الأعراف: ١٥٦ - ١٥٧] الآية.

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ يَٰبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِي ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦] إلىٰ أمثال ذلك.

فأما الإيمان بموسىٰ الذي ذَكَرَ أن شريعتَه مؤبَّدةٌ[١] لا يُنسخ منها شيء، أو بمسيح ادَّعىٰ أنه الله، أو أن الله اتَّحد به أو حلَّ فيه، ونحو ذلك مما يدَّعيه أهل الكتاب في الرَّسولين والكتابين، ويخالفهم فيه المسلمون، فهذا من موارد النِّزاع لا من مواقع الإجماع، فليس لأحدٍ من أهل الكتاب أن يحتجَّ علىٰ أحدٍ من المسلمين بموافقته له علىٰ ذلك.

ومن تمام ذلك أن يقول المسلم: نعم أنا أُقِرُّ بنبوَّة موسىٰ والمسيح، وأن التَّوراة والإنجيل كلامُ الله، لكن يمتنع عقلًا الإقرارُ بنبوَّة واحدٍ من هؤلاء دون نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، فإن البراهين والآيات والأدلَّة الدَّالة علىٰ صدق موسىٰ والمسيح تدلُّ علىٰ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ بطريق الأولىٰ، فلو انْتَقَضَتْ تلك الأدلةُ لزم فسادُها، وأن لا أُصَدِّقَ بأحدٍ من الأنبياء، وإن كانت حقًّا لزم تصديقُهم كلِّهم، فلزم إما أن نُصَدِّقهم كلَّهم، وإما أن نُكَذِّبهم[٢] كلَّهم، ولهذا كان من آمن ببعضٍ، وكذَّب ببعضٍ كافرًا.

ومن الأجوبة للمسلمين أن يقولوا: نحن نُصدِّق الأنبياء المتقدِّمين في كلِّ ما أخبروا به، لكن مَن نقل عنهم أنهم أخبروا بما يناقِض خبر محمَّدٍ ﷺ فلا بُدَّ

---

(١) في (المطبوع): «مؤيدة»، خطأ.

(٢) (د، ع، ط.النيل): «فلزم أن أصدقهم كلهم، وإما أن أكذبهم» بدل: «فلزم إما أن نصدقهم كلهم وإما أن نكذبهم».

له من مقدِّمتين: ثبوتُ ذلك اللَّفظ عن الأنبياء، والعلمُ بمعناه الذي يعلم أنه مناقضٌ للمعنىٰ الذي عُلِمَ أن محمَّدًا ﷺ عناه.

ثم العلم باللَّفظ يحتاج مع الخطاب بغير ألسن الأنبياء العربيَّة، سواء كانت عَربيَّةً، أو رُوميَّةً، أو سُرْيانيَّةً، أو قِبطيَّةً، إلىٰ أن يُعرف أن هذا اللَّفظ الذي تُرجم به لفظُه مطابقٌ للفظه، ويمتنع ثبوت المقدِّمتين؛ لأن في ثبوتهما تَنَاقُضَ الأدلَّة العلمِيَّة، والأدلَّةُ العلميَّةُ لا تتناقض.

الطريق[1] **الثاني**: أن يقول المسلمون: ما تذكرونه من المنقول عن الأنبياء مناقَضَةً لما أخبر به محمَّدٌ ﷺ أمورٌ لم تُعْلَم صحَّتُها، فلا يجوز اعتقاد ثبوتها والجزم بها، ولو لم يُعْلَم أن محمّدًا ﷺ أخبر بخلافها، فكيف إذا عُلِم أنه أخبر بخلافها؟ **وذلك أن العلمَ بثبوتها مبنيٌّ علىٰ مقدِّماتٍ**:

أحدها[2]: العلم بنبوَّتِهم، وهذا ممتنعٌ مع تكذيب محمَّدٍ ﷺ.

والثَّانية: أنهم قالوا هذه الألفاظ، وهذا يحتاج إلىٰ إثبات تواتُر هذه الألفاظ عن الأنبياء، ولم يثْبُت أنها تواترت عنهم.

والثَّالثة: أنَّ معناها هو المعنىٰ المناقِضُ لخبر محمَّدٍ ﷺ، ولم يُعلم ذلك.

وكلُّ واحدةٍ من هذه المقدِّمات تَمنع العلم بثبوت هذه المعاني المناقضةِ لخبر محمَّدٍ ﷺ، فكيف إذا اجتمعت؟! وهي تمنع العلمَ بصحَّتها ولو لم تُناقِض خبر محمَّدٍ ﷺ، فكيف إذا ناقضته؟!

---

(١) «الطريق» ليست في (د، ع).

(٢) كذا في الأصول، والوجه: «إحداها».



الطَّريق الثَّالث: طريق من يُبيِّنُ[1] أنَّ ألفاظ هذه الكتبِ لم تتواتر، ويثبتون ذلك بانقطاع تواتر التَّوراة[2] لما خُرِّبَ بيتُ المقدس، وانقطاعِ تواتر الإنجيل في أول الأمر.

الطَّريق الرَّابع: طريق من يُبيِّنُ أنَّ بعض ألفاظ الكتب حُرِّفت، ويقيمُ الأدلَّة الشَّرعيَّة والعقليَّة علىٰ تبديل بعض ألفاظها.

الطَّريق الخامس: أن يُبيِّن أنَّ الألفاظ التي بأيديهم لا تُناقِضُ ما أخبر به محمّدٌ ﷺ، بل تدلُّ علىٰ صدق محمَّدٍ ﷺ، ويتكلَّم علىٰ تفسيرِ تلك الألفاظ بأعيانها.

وهذه الطَّريق يسْلكها من لا ينازع في ثبوت الألفاظ من المسلمين.

وأما الجمهور الذين يقولون بتبديل هذه الألفاظ فيسلكون هذه الطريق[3]، ويسلكون أيضًا بيانَ عدم تواتر الألفاظ، بل بيانَ التَّبديلِ في ألفاظها.

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «يتبيّن».

(٢) بعدها في (جميع النسخ): «وبسط الأمر»، (ي): «وفي بسط الأمر»، وأشير إليها في هامش(و) بحرف (ظ) والظاهر أنها مقحمة هنا. وسيأتي موضعها قريبًا.

(٣) (د): «الطرق».

فصل[1]

ومن حُجَّةِ الجمهور الذين يمنعون أن تكون جميعَ ألفاظِ هذه الكتب المتقدِّمة الموجودةِ عند أهل الكتاب منزَّلةً من عند الله لم يقع فيها تبديل، ويقولون: إنه وقع التبديل في بعض ألفاظها، أو[2] يقولون: إنه لم يُعلم أن ألفاظها منزلةٌ من عند الله، فلا يجوز أن يُحْتَجَّ بما فيها من الألفاظ في معارضة ما عُلِم ثبوته= أنهم قالوا: التَّوراة والإنجيل الموجودة اليوم بيد أهل الكتاب لم تتواتر عن موسىٰ وعيسىٰ عليهما السلام، أما التَّوراة فإنَّ نقْلها انقطَع لما خُرِّبَ بيتُ المقدس أولًا، وأُجليَ منه بنو إسرائيل، ثم ذكروا أن الذي أملاها عليهم بعد ذلك شخصٌ واحدٌ يقال له: عازر[3]، وزعموا أنه نبيٌّ.

ومن النَّاس من يقول: إنه لم يكن نبيًّا، وإنها قوبلت بنسخةٍ وجِدت[4] عتيقة.

---

(١) بياض في (د).

(٢) (و): «و» بدل: «أو».

(٣) (المطبوع): «عزرا» خلافًا للأصول. وجاء اسمه في «الكتاب المقدس» عندهم، كما في الإصحاح السابع من سفره: «عزرا بن سرايا بن عزريّا. كان عظيم الكهنة وهو كاتب ماهر في شريعة موسىٰ» اهـ.
وكان من أمر عزرا أنه لما استولىٰ بختنصر علىٰ بيت المقدس، «رأىٰ أن القوم قد أحرق هيكلهم وزالت دولتهم وتفرَّق جمعهم ورفع كتابهم، فجمع من محفوظاته ومن الفصول التي يحفظها الكهنة ما لفَّق منه هذه التوراة التي بأيديهم، ولذلك بالغوا في تعظيمه غاية المبالغة، وزعموا أن النور إلىٰ الآن يظهر علىٰ قبره عند بطائح العراق، لأنه عمِل لهم كتابا يحفظ دينهم، فهذه التوراة التي بأيديهم علىٰ الحقيقة كتاب عزرا وإن كان فيها أو أكثرها من التوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ». انظر: «هداية الحيارىٰ» (ص٢٤٨).

(٤) (د، ع، ط.النيل): «وجدوها».



وقد قيل: إنه أحضرت نسخة كانت بالمغرب، وهذا كلُّه لا يوجب تواتر جميع ألفاظها، ولا يمنع وقوعَ الغلط في بعضها؛ كما يجري مثل ذلك في الكتب التي يلي نسخَها ومقابلتَها وحفظَها القليلُ: الاثنان والثلاثة.

وأما الإنجيل الذي بأيديهم فهم معترفون بأنه لم يكتبه المسيح عليه السلام ولا أملاه علىٰ مَن كَتَبه، وإنما أَمْلَوْه بعد رفع المسيح: «متَّىٰ ويوحنَّا»، وكانا قد صحبا المسيح - ولم يحفظه خلقٌ كثيرٌ يبلغون عدد التواتر - و«مرقس ولوقا»، وهما لم يريا المسيح عليه السلام.

وقد ذكر هؤلاء أنهم ذكروا بعض ما قاله المسيح وبعضَ أخباره، وأنهم لم يستوعبوا ذِكْر أقواله وأفعاله.

ونقْلُ اثنين، وثلاثة، وأربعة يجوز عليه الغلط، لا سيَّما وقد غلطوا في المسيح نفسه حتىٰ اشتبه عليهم بالمصلوب.

ولكنَّ النصارىٰ يزعمون أن الحواريِّين رسلُ الله مثلُ إبراهيم[١] وموسىٰ عليهما السلام، وأنهم معصومون، وأنهم سَلَّموا إليهم التَّوراة والإنجيل، وأن لهم معجزات، وقالوا لهم: هذه التَّوراة وهذا الإنجيل، ويُقِرُّون مع هذا بأنهم ليسوا بأنبياء، فإذا لم يكونوا أنبياء فمن ليس بنبيٍّ ليس بمعصومٍ من الخطأ ولو كان من أعظم أولياء الله، ولو كان له خوارقُ عادات، فأبو بكرٍ وعمرُ وعثمان وعليٌّ وغيرهم من أفاضل الصحابة عند المسلمين أفضلُ من الحواريِّين، ولا معصوم عندهم إلا مَن كان نبيًّا.

ودعوىٰ أنهم رسل الله مع كونهم ليسوا بأنبياء تناقُض، وكونهم رُسُل الله

---

(١) (د، ع): «ابن مريم» بدل: «إبراهيم»، (المطبوعتان): «عيسىٰ بن مريم». وهو خطأ، إذ ابن مريم عندهم هو الله، والحواريون رسله، فهم بمنزلة رسل الله كإبراهيم وموسىٰ وغيرهما.

هو مبنيٌّ علىٰ كون المسيح هو الله، فإنهم رُسُل المسيح، وهذا الأصل باطل، ولكن في طريق المناظرة والمجادلة بالتي هي أحسن نمنعهم في هذا المقام ونطالبهم بالدليل علىٰ أنهم رُسُل الله، وليس لهم علىٰ ذلك دليل؛ فإنه لا يَثْبُتُ أنهم رسل الله إن لم يَثْبُتْ أن المسيح هو الله.

وإثباتهم أن المسيح هو الله إما أن يكون بالعقل أو بالسمع، والعقل لا يُثْبِتُ ذلك بل يُحِيْلُه[1]، وهم لا يدَّعون ثبوت ذلك بالعقل، بل غاية ما يدَّعون إثبات إمكانه بالعقل، لا إثبات وجوده، مع أن ذلك أيضًا باطل، وإنما يدَّعون ثبوت[2] وجوده بالسَّمع، وهو ما ينقلونه عن الأنبياء من ألفاظٍ يدَّعون ثبوتَها عن الأنبياء، ودلالتَها علىٰ أن المسيح هو الله، كسائر من يحتجُّ بالحجَّة السَّمعية، فإن غايتهم[3] بيان صحَّة الإسناد[4] دون بيان دلالة المتن، وكلا المقدمتين باطلة.

ولكن يقال لهم في هذا المقام: أنتم لا يمكنكم إثباتُ كونِ المسيح هو الله إلا بهذه الكتب، ولا يمكنكم تصحيح هذه الكتب إلا بإثبات أن الحواريِّين رُسُل الله معصومون، ولا يمكنكم[5] إثباتُ أنهم رسل الله إلا بإثبات أن المسيح هو الله، فصار ذلك دورًا ممتنعًا.

فإنه لا تُعلَم إلهيَّة المسيح إلا بثبوت هذه الكتب، ولا تثبت هذه الكتب إلا بثبوت أنهم رسل الله، ولا يثبت ذلك إلا بثبوت أنه الله، فصار ثبوت الإلهية

---

(١) (د، ع): «بحيلة».
(٢) «ثبوت» ليست في (ع).
(٣) المثبت من هامش (و)، وفي سائر النسخ: «عامة».
(٤) في أصل (و): «الأشياء» وكتب في الهامش: لعله: «الإسناد».
(٥) (ي، د، ع، ط.النيل): «يمكنهم».

متوقفًا علىٰ ثبوت إلهيته، وثبوت كونهم رسل الله متوقفًا علىٰ كونهم رسل الله، فصار ذلك دَورًا ممتنعًا.

وقد يدَّعون عصْمة الحواريِّين وعِصْمةَ أهلِ المجامع[1] بعد الحواريِّين، كأهل المَجْمَعِ الأوَّلِ الذي كان بحضْرة قُسْطَنطين، الذي حضره ثلاثُمائةٍ وثمانيةَ عشر، ووضعوا لهم «الأمانة»[2] التي هي عقيدة النَّصارىٰ، التي لا يصحُّ لهم قربانٌ إلا بها، فيزعمون أن الحواريِّين، أو هؤلاء جرت علىٰ أيديهم خوارق، وقد يذكرون أنَّ منهم من جرىٰ إحياء الموتىٰ علىٰ يديه.

وهذا إذا كان صحيحًا -مع أن صاحبه لم يذكر أنّه نبيٌّ- لا يدلُّ علىٰ عصمته؛ فإن أولياء الله من الصَّحابة والتَّابعين بعدهم بإحسانٍ، وسائر أولياء الله من هذه الأمة وغيرها لهم من خوارق العادات ما يطول وصفه، وليس فيهم معصومٌ يجب قبول كل ما يقول، بل يجوز الغلط علىٰ كلِّ واحدٍ منهم، وكلُّ أحدٍ يؤخذ من قوله ويترك إلا الأنبياء عليهم السلام؛ ولهذا أوجب الله الإيمان بما أوتِيَتْه الأنبياء، ولم يوجب الإيمان بكل ما يقوله كلُّ وليٍّ لله.

قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ﴾ [البقرة: ١٣٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلۡبِرَّ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلۡكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [البقرة: ١٧٧] ولهذا وجب الإيمان بالأنبياء جميعهم وما أوتوه كلهم.

---

(١) انظر تفصيل ابن القيم لهذه المجامع في «هداية الحيارىٰ» حيث صدّر كلامه بقوله (ص٣٨٦): «ونحن نذكر الأمر كيف ابتدأ، وتوسَّط، وانتهىٰ، حتىٰ كأنَّك تراه عيانًا».

(٢) تقدّمت الإشارة إلىٰ هذه الأمانة. انظر: (١/ ١٧٣، ٢٥٣).

ومن كذَّب نبيًّا واحدًا تُعلَم نبوَّتُه فهو كافرٌ باتِّفاق المسلمين، ومن سبَّه وجب قتله كذلك، بخلاف من ليس بنبيٍّ فإنه لا يكفُر أحدٌ بمخالفته ولا يقتل بمجرَّد سبِّه إلا أن يقْترن بالسبِّ ما يكون مبيحًا للدم.

والذي عليه سلف الأمَّة كالصَّحابة، والتابعين لهم بإحسان، وأئمَّة الدِّين، وجماهير المسلمين: أنّ أفضل هذه الأمة بعد نبيِّها أبو بكرٍ، ثم عمر، وليس بعد الأنبياء أفضل منهما، وهذه الأمَّة أفضل الأمم، وقد ثبت في «الصحيحين» عن النبي ﷺ أنه قال: «**قَدْ كَانَ قَبْلَكُم فِي الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ، فإن يَكُنْ فِي أُمَّتِي أحدٌ فَعُمَرُ**»[1]. والمُحَدَّث: المُلهَم المخاطَب.

وكان عُمَرُ قد جعل الله الحقَّ علىٰ قلبه ولسانه، وما كان يقول لشيءٍ «إني لأراه كذا وكذا» إلا كان كما يقول، وكانت السَّكينة تنطق علىٰ لسانه، ومع هذا فلم يكن لا هو ولا غيره - ممَّن ليس بنبيٍّ - معصومٌ[2] من الغلط، ولا يجب علىٰ المسلم قبولُ ما يقولُه إن لم يدلَّ عليه الكتاب والسنة، ولا كان يجوز له العمل بما يُلقىٰ في قلبه إن لم يعرضْه علىٰ الكتاب والسُّنَّة، فإن وافق ذلك قَبِلَه، وإن خالف ذلك ردَّه.

وعند المسلمين أنه ليس في أتْباعِ المسيح عليه السلام مثلُ أبي بكرٍ وعمر رضوان الله عليهما، فإذا قالوا عن الحواريِّين: إنهم ليسوا معصومين. فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضلُ من الحواريِّين، كما أنهم إذا قالوا عن المسيح: إنه عبدٌ مخلوقٌ ليس بإله. فهم يقولون ذلك فيمن هو عندهم أفضلُ من المسيح، كمحمَّدٍ وإبراهيم، عليهما أفضل الصلاة والسلام.

---

(١) تقدّم تخريجه (٢/ ١١).

(٢) كذا في الأصول، والوجه: النصب.

وفي الملاحدة المنتسبين إلىٰ الأمَّة مَن فيه بدع من الغلو يشبه غلو النصارىٰ، كمن يدَّعي الإلهيَّةَ من الإسماعيليَّةِ[1] كبني عُبيدٍ القَدَّاح[2] كالحاكم[3] وغيره، أو من[4] يدَّعي الإلهيَّةَ في علي بن أبي طالبٍ أو غيره كدعوىٰ النُّصَيْرِيَّة[5]، وهؤلاء كفارٌ عند المسلمين.

وكذلك من يدَّعي الإلهيَّةَ في بعض المشايخ كغُلاة العَدَوِيَّة[6]، والحَلَّاجِيَّةِ[7]، واليُونُسِيَّة[8]، وغيرهم، وكذلك من يدَّعي عصمة بني عُبيدٍ، أو عصمة الاثني عشر، أو عصْمة بعض المشايخ، فإن النَّصارىٰ يدَّعون عصمة

---

(١) نسبة إلىٰ إسماعيل بن جعفر الصَّادق، فرقةٌ من فِرَقِ الإماميّة، يزعمون أن الإمامة صارت من جعفر إلىٰ ابنه إسماعيل، وكذَّبهم في هذه المقالة جميع أهل التواريخ، لما صح عندهم من موت إسماعيل قبل أبيه جعفر، يقولون بكفر من خالف عليًا، وهي من الفرق الباطنية الذين يرون أن للقرآن باطنًا لا يعرفه إلا الأئمة.
انظر: «التنبيه والرد علىٰ أهل الأهواء والبدع» (ص٣٢)، «الفصل في الملل» (٢/ ٩١)، «التبصير في الدين» (ص٣٨).

(٢) نسبة إلىٰ عبيد الله، أبو محمد، أول من قام من الخلفاء الخوارج العبيديَّة الباطنيَّة الذين قلبوا الإسلام، وأعلنوا بالرَّفض، وأبطنوا الكفر، فهم «قرامطةٌ باطنيَّة» الذين منهم الإسماعيلية والنصيرية. وادعىٰ هذا أنه فاطمي من ذرية جعفر الصادق، وما زالت علماء الأمة المأمونون علمًا ودينًا يقدحون في نسبهم ودينهم.
انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣٥/ ١٣١) «سير أعلام النبلاء» (١٥/ ١٤١).

(٣) تقدّم ذكره (١/ ٢٧).

(٤) (و): «ويدعي»، (ي): «أو يدّعي».

(٥) تقدّم ذكرهم (١/ ٢٧).

(٦) نسبة إلىٰ عدي بن مسافر. تقدّم ذكره (١/ ٤٨٢).

(٧) نسبة إلىٰ الحسين الحلاج. تقدّم ذكره (١/ ٢٧).

(٨) أتباع يونس بن يوسف بن مساعد الشيباني، المخارقي، القنيي، شيخ الطائفة اليونسية، صوفيَّةٌ من أولي الشّطح، وقلَّة العقل. انظر: «تاريخ الإسلام» (٤٤/ ٤٧١).



الحواريِّين الاثْني عشر، وهؤلاء يدَّعون عصمة الأئمَّة الاثْنيْ عشر.

وهؤلاء يسندون أصل دينهم إلىٰ قول الحواريِّين المعصومين عندهم، ويقولون: إنهم معصومون في النَّقل عن المسيح وفي الفتيا، وإنَّ ما قالوه فقد قاله المسيح عليه الصلاة والسلام.

وهؤلاء يقولون عن أولئك: إنهم معصومون في النَّقل والفُتْيا، وإنَّ ما قالوه فقد قاله الرسول ﷺ.

وهذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر[1].

والمقصود هنا أنه ليس مع النَّصارىٰ نقلٌ متواترٌ عن المسيح بألفاظ هذه الأناجيل، ولا نقلٌ لا متواترٌ ولا آحادٌ بأكثر ما هم عليه من الشرائع، ولا عندهم ولا[2] عند اليهود نقلٌ متواترٌ بألفاظ التَّوراة ونبوَّات الأنبياء كما عند المسلمين نقلٌ متواترٌ بالقرآن، وبالشَّرائع الظَّاهرة المعروفة للعامَّة والخاصَّة.

وهذا مثل «الأمانة» التي هي أصل دينهم، وصلاتهم إلىٰ الشَّرق، وإحلال الخنزير، وترك الختان، وتعظيم الصَّليب، واتخاد الصُّور في الكنائس، وغير ذلك من شرائعهم، ليست منقولةً عن المسيح، ولا لها ذِكْرٌ في الأناجيل التي ينقلونها عنه.

وهم متَّفقون علىٰ أن «الأمانة» التي جعلوها أصْل دينهم، وأساسَ اعتقادهم، ليست ألفاظها موجودةً في الأناجيل، ولا هي مأثورةٌ عن الحواريِّين،

---

(١) انظر ما تقدّم (١/ ٣٠٠)، ومنهاج السنة (٦/ ١٨٧).
(٢) «لا» ليست في (د، ع).



وهم متَّفقون علىٰ أن الذين[1] وضعوها أهلُ المَجْمَع الأوّلِ الذين كانوا عند قُسْطَنطين الذي حضره ثلاثُمائةٍ وثمانيةَ عشر، وخالفوا عبد الله بن أريوس[2] الذي جعل المسيح عبدًا لله كما يقوله المسلمون، ووضعوا هذه «الأمانة».

وهذا المَجْمَع كان بعد المسيح بمدةٍ طويلةٍ تزيد علىٰ ثلاثِمائةِ سنة، وبَسْطُ هذا[3] له موضعٌ آخر[4].

وإنما المقصود هنا الجواب عن قولهم: «إن محمدًا ﷺ ثبَّت ما معهم، وأنه نفىٰ عن إنجيلهم وكتبهم التي بأيديهم التُّهَم والتَّبديل لها والتغييرَ لما فيها بتصديقه إياها».

وقد تبيَّن أن محمَّدًا ﷺ لم يصدِّق شيئًا من دينهم المبدَّل والمنسوخ، ولكن صدَّق الأنبياء قبله وما جاءوا به، وأثنىٰ علىٰ من اتَّبعهم، لا علىٰ من خالفهم، أو كذَّب نبيًّا من الأنبياء، وأنَّ كفر النَّصارىٰ من جنس كفر اليهود؛ فإن اليهود بدَّلوا معاني الكتاب الأول، وكذَّبوا بالكتاب الثاني وهو: الإنجيل، وكذلك النَّصارىٰ بدَّلوا معاني الكتاب الأول: التَّوراة والإنجيل، وكذَّبوا بالكتاب الثاني وهو: القرآن، وأنهم ادَّعوا أن محمَّدًا ﷺ صدَّق بجميع ألفاظ

---

(١) (د، ي، ع): «الذي».

(٢) كان بطريرك الإسكندرية، من قوله: التوحيد المجرد، وأن عيسىٰ عليه السلام عبدٌ مخلوق، وأنه كلمة الله التي بها خلق السموات والأرض، مخلوق قبل خلق العالم، وهو خالق الأشياء. وكان في زمن قسطنطين الأول، وأول من تنصَّر من ملوك الروم. انظر: «الفصل في الملل» (١/ ٤٧)، «الملل والنحل» (٢/ ٣٢).

(٣) «هذا» ساقطة من (ي، د، ع)، (ط.النيل): «وبسطه له».

(٤) انظر ما تقدّم (١/ ١٧٢)، وما سيأتي (٢/ ٣٩٢)، (٣/ ٢٩١).

الكتب التي عندهم.

فجمهور المسلمين يمنعون هذا، ويقولون: إن بعض ألفاظها بُدِّل كما قد بُدِّل كثيرٌ من معانيها.

ومن المسلمين من يقول: التَّبديل إنما وقع في معانيها لا في ألفاظها[١]. وهذا القول يُقِرُّ به عامَّة اليهود والنَّصارىٰ.

وعلىٰ القولين فلا حُجَّة لهم في تصديق محمَّدٍ ﷺ لما هم عليه من الدِّين الباطل؛ فإن الكتب الإلهيَّةَ التي بأيديهم لا تدلُّ علىٰ صحَّة ما كفَّرهم به محمّدٌ ﷺ وأمَّتُه، مثل التثليث، والاتحاد[٢]، وتغيير شريعة المسيح، وتكذيب محمَّدٍ ﷺ.

فليس في الكتب التي بأيديهم ما يدل -لا نصًّا ولا ظاهرًا- علىٰ «الأمانة» التي هي أصل دينهم، وما في ذلك من التثليث، والاتحاد، والحلول، ولا فيها ما يدلُّ علىٰ أكثر شرائعهم، كالصَّلاة إلىٰ الشَّرق، واستحلال المحرَّمات من الخنزير، والميتة، ونحو ذلك، كما قد بُسِطَ في موضعٍ آخر[٣].

ويقال لهم: أين ما[٤] معكم عن محمَّدٍ ﷺ ما[٥] يدلُّ علىٰ أنّ ألفاظ

---

(١) «بدل كما قد... لا في ألفاظها» ساقطة من (ي) لانتقال النظر.

(٢) بعدها في (المطبوعتين): «والحلول» وليست في الأصول، وضرب عليها في (د).

(٣) كتب في هامش (د، ع، ط.النيل): «وسيأتي ما بدَّلوه من الشرائع وغيرها بنقل علمائهم في آخر هذا الكتاب».
تقدّم بعض ذلك: (١/ ٣٠٥)، (٢/ ٥)، وسيأتي (٢/ ٣٩١).

(٤) «ما» ليست في (ع، ي، د).

(٥) (المطبوعتان): «مما».

الكتب التي بأيديكم لم يُغَيَّر فيها شيء؟

ومعلومٌ أن المسلمين وغيرهم إذا اختلفوا لم يكن قول فريق حجَّةً على الفريق الآخر.

فإذا كان المسلمون قد اختلفوا في تبديل بعض ألفاظ الكتب[1] المتقدِّمة لم يكن قول فريقٍ حجَّةً على الأخرى، ولا يجوز لأحدٍ من المسلمين ولا منكم أن يضيف إلى الرَّسول قولًا إلا بدليل.

فأين في القرآن والسُّنَّة الثابتة عن محمَّدٍ ﷺ أن جميع ما بأيدي أهل الكتاب من التَّوراة والإنجيل والزَّبور ونبوَّات الأنبياء لم تبدَّل بشيءٍ من ألفاظها حتَّى يقولوا: إن محمَّدًا ﷺ نفى عن كتبهم ذلك؟

وهؤلاء بَنَوْا كلامهم على أنَّ ألفاظَ كتُبِهم تدلُّ على صحَّة دينهم الذي هم عليه بعد مبعث محمَّدٍ ﷺ، وبعد تكذيبهم لمحمَّدٍ ﷺ، وأنه لم يُبدَّل شيءٌ من ألفاظها.

وقد تبيَّن فسادُ ذلك من وجوهٍ متعدِّدة.

ثم زعموا أن المسلمين يدَّعون أن ألفاظ هذه الكتب حُرِّفت كلُّها بجميع لغاتها بعد مبعث محمَّدٍ ﷺ، وهذا القول لم يقلْه أحدٌ من المسلمين فيما أعلم، وظنُّوا أنّهم بالجواب عن هذا يكونون[2] قد أجابوا المسلمين.

---

(١) بعدها في (ط. النيل): «الإلـهية».

(٢) (و): «يكونوا».



فصل

فقال الحاكي عنهم: «فقلتُ لهم: إن قال قائل: إن التَّبديل والتغيير يجوز أن يكون بعد هذا القول. فقالوا: إنّا نعجب من هؤلاء القوم -علىٰ علمهم وذكائهم ومعرفتهم - كيف يحتجُّون علينا بمثل هذا القول؟ وذلك أنَّا أيضًا إذا احتجَّينا عليهم بمثل هذا القول، وقلنا: إن الكتاب الذي في أيديهم يومَنا هذا قد غيَّروه وبدَّلوه وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا، هل كانوا يجوِّزون كلامنا؟

قال الحاكي عنهم: فقلت لهم: هذا مِمَّا لا يجوز، ولا يمكن أحدًا أن يقوله، ولا يمكن أن يتغير منه...» إلىٰ آخر الفصل، وسيأتي بألفاظٍ بعد هذا.

والجواب: أن هذا السَّائل النَّصرانيَّ الذي ذكر عن المسلمين سؤالًا لا يقولونه، وعن علماء النصارىٰ جوابه، هو وهُم بَنَوْا كلامهم علىٰ **أصلين فاسدين**:

أحدهما: أن الرسول ثبَّتَ ما معهم، ونفىٰ عن كتبهم التي بين أيديهم التُّهمَ والتَّبديلَ والتَّغييرَ لها.

ومقصودهم بذلك لا يتمُّ إلا إذا نَفَىٰ التَّبديلَ عن لفظها ومعناها، وهذا مما يَعلم كلُّ عاقلٍ أن الرَّسول لم ينفه عنها، بل النَّقل المتواتر عنه بنقيض ذلك.

وهم أيضًا وكلُّ عاقلٍ يعلم أن الكتب التي بأيديهم في تفسيرها من الاختلاف والاضطراب بين فرقِ النَّصارىٰ، وبين النصارىٰ واليهود ما يوجب القطع بأن كثيرًا من ذلك مبدَّلٌ محرَّف، وكذلك وقع في تغيير شرائع هذه الكتب، فإن الكتب تضمَّنت أصلين: الإخبارَ والأَمرَ. والإيمانُ بها[1] لا يتمُّ إلا

---

(١) «بها» ساقطة من (ع).

بتصديقها فيما أخبرت، وإيجابِ طاعتها فيما أوجبته.

وأهل الكتاب يُكذِّبون بكثيرٍ ممَّا أخبرت به[1]، ولا يوجبون طاعتها في كثيرٍ مما أوجبته وأمرت به، وكلُّ فرقةٍ منهم تشهد علىٰ الفرقة الأخرىٰ بمثل ذلك.

والنَّصارىٰ لهم سبْعُ مجامِعَ مشهورةٍ عندهم، وهم في كلِّ مَجْمَعٍ يلعنون طائفةً منهم كبيرة[2] ويُكَفِّرونهم، ويقولون عنهم: إنهم كذَّبوا ببعض ما في تلك الكتب ولم يوجبوا طاعةَ بعضِ أمرها، وتلك الطائفة تشهد علىٰ الأخرىٰ بأنها كذَّبت ببعض[3] ما فيها، ثم فِرَقُهم الثَّلاثةُ المشهورةُ: النُّسْطُوريَّةُ والملَكِيَّةُ واليَعْقُوبيَّة[4]، كلُّ طائفةٍ تكفِّر الأخرىٰ، وتلعنُها، وتشهد عليها أنها مكذِّبةٌ ببعض ما في النُّبوَّات، غيرُ موجبةٍ لطاعة بعض ما فيها.

بل اختلافهم في نفس التَّوحيد والرِّسالة، يزعم[5] كلُّ فريقٍ منهم أن المسيح جاء بما هم عليه، والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وجميع الرسل بريئون من الذين فرَّقوا دينهم وكانوا شِيَعًا، وبريئون ممَّن يقول علىٰ الله غير الحقّ، أو يقول علىٰ الله ما لا يَعلم، وبريئون من كل قولٍ باطلٍ يقال علىٰ الله عَزَّ وَجَلَّ وإن كان قائله مخطئًا لم يتعمَّد الكذب، وفي مقالات النَّصارىٰ من هذه الأنواع ما يطول وصفه، وقد بُسِطَ في غير هذا الموضع[6].

---

(١) «به» ساقطة من (المطبوع).

(٢) (د، ع، ط.النيل): «كثيرة».

(٣) المثبت من (و)، وفي سائر النسخ: «لبعض».

(٤) تقدّم الكلام عن هذه الفرق (١/ ٢٥٣).

(٥) (المطبوعتان): «فزعم».

(٦) انظر ما سيأتي (٣/ ٥).

وإذا عرفت أن جميع الطَّوائف من المسلمين، واليهود، والنصارىٰ يشهدون أنه قد وقع في هذه الكتب تحريفٌ وتبديلٌ في معانيها، وتفاسيرها، وشرائعها، فهذا القدر كاف، وهم من حين بعث محمدٌ ﷺ صار كلُّ من لم يؤمن به كافرًا، بخلاف حال النَّصارىٰ قبل مبعث محمّدٍ ﷺ فإنه كان فيهم مَنْ هو متَّبعٌ لدين المسيح.

والمسلمون وإن كان فيهم مَن حرَّف الدين وبدَّله، فجمهورهم خالفوا هؤلاء، فلا يزال فيهم طائفةٌ ظاهرةٌ علىٰ الحقِّ لا يضُرُّهم من خالفهم وخذلهم حتىٰ تقوم الساعة، بخلاف النصارىٰ؛ فإنهم كفروا جميعُهم، كما كفرت اليهود بتكذيب المسيح.

والمسلمون يُثبتون بالدَّلائل الكثيرة أنهم بدَّلوا معاني التَّوراة والإنجيل والزبور وغيرهم من نبوَّات الأنبياء، وابتدعوا شرعًا لم يأت به المسيح ولا غيرُه، ولا يقوله عاقل، مثل زعمهم: أن جميع بني آدم من الأنبياء والرُّسل وغيرهم كانوا في الجحيم في حبس الشيطان؛ لأجل أنّ أباهم آدم أكل من الشجرة، وأنهم إنما تخلَّصوا من ذلك لما صُلِب المسيح.

فإن هذا الكلام لو نقله ناقلٌ عن بعض الأنبياء لقطعنا بكذِبه عليهم، فكيف وهذا الكلام ليس منقولًا عندهم عن أحدٍ من الأنبياء؟ وإنما ينقلونه عمَّن ليس قوله حجَّةً لازمة، فإنّ كثيرًا من دينهم مأخوذٌ عن رؤوسهم الذين ليسوا بأنبياء. فإذا قطعنا بكذب من ينقُلُه عن الأنبياء فكيف إذا لم ينقله[1] عنهم[2]؟

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «ينقل».

(٢) (و): «غير» وكتب في الهامش: لعله «عنهم». وفي (ي): «يبين» فتكون العبارة: «فكيف إذا لم ينقله. يبين ذلك أن». وفي (د، ع، ط. النيل): «عنهم، ذلك فإن»، والمثبت من هامش (و).

وذلك أن الأنبياء عليهم السلام يخبرون الناس بما تَقْصُر عقولُهم عن معرفته، لا بما يعرفون أنه باطلٌ ممتنع، فيخبرونهم بمَحَارات[1] العقول لا بمُحالات[2] العقول.

وآدم عليه السلام وإن كان أكل من الشَّجرة فقد تاب الله عليه واجتباه وهداه، قال تعالىٰ: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ۝١٢١ ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾ [طه: ١٢١-١٢٢] وقال تعالىٰ: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [البقرة: ٣٧] وليس عند أهل الكتاب في كتبهم ما ينفي توبتَه، وإنما قد يقول قائلهم: إنّا لا نعلم أنه[3] تاب، أو: ليس عندنا توبته، وعدم العلم بشيءٍ ليس علمًا بعدمه، وعدم وجود الشيء في كتابٍ من كتب الله لا ينفي أن يكون في كتابٍ آخر، ففي التَّوراة ما ليس في الإنجيل، وفيهما ما ليس في الزَّبور، وفي الإنجيل والزبور ما ليس في التوراة، وفي سائر النبوَّات ما لا يوجد في هذه الكتب، والقرآن لو كان دون التَّوراة والإنجيل والزَّبور والنبوَّات، أو كان مثلَها لأمكن أن يكون فيه ما ليس فيها، فكيف إذا كان أفضلَ وأشرف، وفيه من العلم أعظمُ مما في التَّوراة والإنجيل؟

وقد بيَّن الله تعالىٰ فضله عليهما في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ ٱلْحَدِيثِ كِتَٰبًا مُّتَشَٰبِهًا مَّثَانِيَ﴾ [الزمر: ٢٣] وقال تعالىٰ: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ

---

(١) (المطبوع): «بمحيرات» وأشار في الهامش إلىٰ النسخ الأخرىٰ بأنها: «بمحاراث» بالثاء. وليس كذلك.

(٢) (المطبوعتان): «محالات».

(٣) «أنه» ساقطة من (ي، د، ط. النيل). وكتب في هامش (و): لعله: «أنه». وكتبت في (ع) فوق السطر بخط صغير.

﴿أَحْسَنَ ٱلْقَصَصِ بِمَآ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ﴾ [يوسف: ٣] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة: ٤٨].

وسواءٌ تاب آدم أو لم يتب؛ فكيف يجوز أن يكون رُسُل الله الذين هم أفضلُ منه محبوسين في حبس الشَّيطان في جهنم بذنبه؟

وإبراهيمُ خليل الرحمن كان أبوه كافرًا ولم يؤاخذْه الله بذنبه؛ فكيف يجعله في جهنَّم في حبس الشيطان بسبب ذنب أبيه الأقصىٰ آدم مع أنه كان نبيًّا؟

ونوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ قد مكث في قومه ألف سنةٍ إلا خمسين عامًا يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده، وأغرق الله أهلَ الأرضِ بدعوته، وجعل ذرِّيَّته هم الباقين، فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان لأجل ذنب آدم؟

وموسىٰ بن عمران[1] كلمه الله تكليمًا، وأظهر علىٰ يديه من البراهين والآيات ما لم يَظْهَر مثله علىٰ يَدَيِ المسيح، وقَتَل نفسًا لم يُؤمر بقتلها، فغفر الله له ذلك، وله من المنزلة عند الله والكرامة ما لا يُقْدَر قدرُه، فكيف يكون في جهنم في حبس الشيطان؟

ثم أيُّ مناسبةٍ بين الصَّلب الذي هو من أعظم الذنوب، سواء صلبوا المسيح، أو المُشَبَّه به وبين تخليص هؤلاء من الشيطان؟ فإنَّ الشَّيطان إن فعل ذلك بالذُّرِّيَّة كان ظالمًا معتديًا، والله عَزَّ وَجَلَّ قادرٌ علىٰ منعه من ظلمهم، بل وعلىٰ عقوبته إذا لم ينته عن ظلمهم، فلماذا أخَّر منعه من ظلمهم[2] إلىٰ زمن المسيح؟

---

(١) بعدها في (و): «الذي» وألحقت في الهامش بقلم مغاير.

(٢) «فلماذا أخر منعه من ظلمهم» ساقطة من (و).



وهو سبحانه وليُّ المؤمنين وناصرهم ومؤيِّدُهم، وهم رُسُله الذين نصرهم علىٰ من عاداهم، بل أهلك أعداءهم الذين هم جُند الشيطان، فكيف لا يمنع الشيطانَ بعد موتهم أن يظلمهم ويجعل أرواحهم في جهنم؟ هذا إن قُدِّر أن الشيطان كان قادرًا علىٰ ذلك، وكيف يجوز أن يجعل الشيطان بعد موت أنبيائه وأوليائه، وسقوطِ التكليف عنهم واستحقاقِهم كرامتَه وإحسانَه وجنَّتَه بحكم وعده ومقتضىٰ حكمته، فجعله مسلَّطًا علىٰ حبسهم في جهنم؟!

وإن قالوا: الربُّ ﷻ ما كان يقدر علىٰ تخليصهم من الشّيطان مع علمه بأنه ظالمٌ معتدٍ عليهم بعد الموت إلا بأن يحتال عليه بإخفاء نفسه ليتمكن الشيطان منه كما يزعمون -فهذا مع ما فيه من الكفر العظيم وجعْلِ الربِّ سبحانه عاجزًا كما جعلوه أولًا ظالمًا- فيه من التَّناقُض ما يقتضي عظيمَ جهْلِهِم الذي جعلوا به الربَّ جاهلًا.

فإنهم يقولون: إنه احتال علىٰ الشّيطان ليأخذه بعدل، كما احتال الشّيطان علىٰ آدم بالحيَّة فاختفىٰ منه لئلا يعلم أنه ناسوتُ الإله، وناسوتُ الإله لم يعمل خطيئةً قطُّ بخلاف غيره، فلما أراد الشيطان أخْذَ روحِه ليحبسه في جهنم كسائر من مضىٰ، وهو لم يعمل خطيئة؛ استحقَّ الشيطانُ أن يأخذه الربُّ ويُخلِّصَ الذريَّة من حبسه.

وهذا تجهيلٌ منهم للرَّبِّ ﷻ عمَّا يقولون، مع تعجيزه وتظليمه، فإنه إن كان هو سلَّط الشيطانَ علىٰ بني آدم كما يقولون، فلا فرق بين ناسوت المسيح وغيره؛ إذ الجميع بني[1] آدم، وأيضًا فإذا قُدِّر أن النَّاسوت دفع[2] الشيطان عن

---

(١) كذا في (و)، والوجه الرفع «بنو»، وفي (د، ع، ط.النيل): «ببني».

(٢) (و): «يدفع».



نفسه بحق، فإنهم يقولون: إنه دخل الجحيم وأخرج منه ذرية آدم.

فيقال: إن كان تسلط الشيطان علىٰ حبسهم في الجحيم بحق لأجل ذنوبهم مع ذنب أبيهم، لم يجز إخراجهم لأجل سلامة ناسوت المسيح[1] من الذنب، وإن كانوا مظلومين مع الشيطان وجب تخليصُهم[2] قبل صَلْبِ الناسوت، ولم يجز تأخير ذلك، فليس في مجرَّد سلامة المسيح من الذنوب ما يوجب سلامة غيره، وإن قالوا: إنه كان بدون تسلطه علىٰ صَلْبِه عاجزًا عن دفعه، فهو مع تسلطه علىٰ صَلْبِه أعجزُ وأعجزُ.

الأصل الثاني الفاسد الذي بنوا عليه سؤالهم الذي جعلوه من جهة المسلمين وجوابهم: ظنُّهُم أن المسلمين يقولون: إن هذه الكتب حُرِّفَت ألفاظُ جميع النُّسخ الموجودة منها بعد مبعث محمّدٍ ﷺ.

وهذا ممَّا لا يقوله المسلمون، ولكن قد يقول بعضهم: إنه حُرِّف بعد مبعث محمدٍ ﷺ ألفاظُ بعضِ[3] النسخ، فإن الجمهور الذين يقولون: إن بعض ألفاظها حُرِّفَتْ؛ منهم من يقول: كان هذا قبل المبعث[4]. ومنهم من يقول: كان بعده، ومنهم من يثبت الأمرين أو يُجَوِّزهما، ولكن لا يقولون: إنه حُرِّفَت ألفاظُ جميع النسخ الموجودة في مشارق الأرض ومغاربها، كما حكاه هذا الحاكي عنهم، ولكن علماء المسلمين، وعلماء أهل الكتاب متفقون علىٰ وقوع التحريف في المعاني والتفسير، وإن كانت كلُّ طائفةٍ تزعم أن الأخرىٰ هي التي حرَّفت المعاني.

---

(١) (ع): «الجحيم» خطأ.

(٢) (و، ي): «تخلّصهم».

(٣) (د، ع، ط.النيل): «بعد» تصحيف.

(٤) المثبت من (و) وفي سائر النسخ: «البعث».



وأما ألفاظ الكتب؛ فقد ذهبت طائفة من علماء المسلمين إلىٰ أن ألفاظها لم تبدَّل، كما يقول ذلك من يقوله من أهل الكتاب، وذهب كثيرٌ من علماء المسلمين، وأهل الكتاب إلىٰ أنه بُدِّل بعضُ ألفاظها.

وهذا مشهورٌ عن كثيرٍ من علماء المسلمين، وقاله أيضًا كثيرٌ من علماء أهل الكتاب.

حتىٰ في صَلْب المسيح ذهبت طائفةٌ من النَّصارىٰ إلىٰ أنه إنما صلب الذي شُبِّهَ بالمسيح كما أخبر به[1] القرآن، وإن الذين أخبروا بصلبه كانوا قد أخبروا بظاهر الأمر، فإنه لما أُلقي شبهُهُ علىٰ المصلوب ظنوا أنه هو المسيح، أو تعمَّدوا الكذب[2].

ثم هؤلاء منهم الذين يقولون: «إن في ألفاظ الكتب ما هو مُبَدَّل» فيهم[3] من يجعل المبدَّل من التَّوراة والإنجيل كثيرًا منهما، وربما جعل بعضُهم المبدَّل أكثرَهما لا سيَّما الإنجيل؛ فإن الطَّعن فيه أكثر وأظهر منه في التَّوراة[4]. ومن هؤلاء من يُسْرِف حتىٰ يقول: إنه لا حُرْمة لشيءٍ منهما، بل يجوز الاستنجاء بهما!

ومنهم من يقول: الذي بُدِّلتْ ألفاظُه قليلٌ منهما. وهذا أظهر. والتبديل في الإنجيل أظهر، بل كثيرٌ من الناس يقول: هذه الأناجيل ليس فيها من كلام الله إلا القليل، والإنجيل الذي هو كلام الله ليس هو هذه الأناجيل[5].

---

(١) بعدها في (د، ع، ط.النيل): «في».

(٢) «أو تعمّدوا الكذب» ليست في (و).

(٣) (المطبوعتان) «وفيهم».

(٤) هنا أتت عبارة: «أو تعمّدوا الكذب» التي سقطت من (و) قريبًا. والسياق هنا لا يقتضيها.

(٥) (و): «هذا الإنجيل».

والصَّحيح أن هذه التوراة والإنجيل[1] الذي بأيدي أهل الكتاب فيها ما هو حكم الله، وإن كان قد بُدِّل وغُيِّر بعضُ ألفاظهما[2]، لقوله[3] تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحۡزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡكُفۡرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَلَمۡ تُؤۡمِن قُلُوبُهُمۡۛ وَمِنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْۛ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ سَمَّٰعُونَ لِقَوۡمٍ ءَاخَرِينَ لَمۡ يَأۡتُوكَۖ يُحَرِّفُونَ ٱلۡكَلِمَ﴾ [المائدة: ٤١] إلىٰ قوله: ﴿وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ﴾ [المائدة: ٤٣] فعُلمَ أن التوراة التي كانت موجودةً بعد خراب بيت المقدس، وبعد مجيء بُخْتُنَصَّر[4]، وبعد مبعث المسيح، وبعد مبعث محمَّدٍ ﷺ= فيها حُكْم الله.

والتَّوراة التي كانت عند يهود المدينة علىٰ عهد رسول الله ﷺ وإن قيل: إنه غُيِّرَ بعضُ ألفاظها بعد مبعثه، فلا نشهد علىٰ كل نسخةٍ في العالم بمثل ذلك، فإن هذا غيرُ معلوم لنا، وهو أيضًا متعذِّر، بل يمكن تغييرُ كثيرٍ من النُّسَخ، وإشاعةُ ذلك عند الأتباع حتىٰ لا يوجد عند كثيرٍ من الناس إلا ما غُيِّر بعد ذلك، ومع هذا فكثيرٌ[5] من نسخ التَّوراة والإنجيل متَّفِقةٌ في الغالب، إنما تختلف في اليسير من ألفاظها، فتبديل ألفاظ اليسير من النُّسَخ بعد مبعث الرسول ﷺ ممكنٌ، لا يمكن أحدٌ أن يجزم بنفيه، ولا يقدر أحدٌ من اليهود والنَّصارىٰ أن يشهد بأن كلَّ نسخةٍ في العالم بالكتابين متَّفقةُ الألفاظ؛ إذ هذا لا سبيل لأحدٍ إلىٰ عِلْمِه، والاختلافُ اليسير في ألفاظ هذه الكتب موجودٌ في الكثير من النسخ،

(١) (والإنجيل): ساقطة من (المطبوع).
(٢) (و، ي): «ألفاظها».
(٣) (و، ي): «كقوله».
(٤) تقدّم ذكره (١/ ٥٦).
(٥) (و، ي): «التي» بدل «فكثير» وأشير إليها في هامش (و) بحرف (ظ).

كما قد تختلف نسخ بعض كتب[1] الحديث، أو تُبدَّل بعضُ ألفاظ بعض النُّسخ، وهذا بخلاف القرآن المجيد الذي حُفِظَت ألفاظُه في الصُّدور بالنَّقْل[2] المتواتر، لا يَحتاج أن يُحفظ في كتاب، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩]

وذلك أن اليهود قبل النَّبيِّ ﷺ، وعلىٰ عهده، وبعده منتشرون في مشارق الأرض ومغاربها، وعندهم نسخٌ كثيرةٌ من التَّوراة.

وكذلك النَّصارىٰ عندهم نسخٌ كثيرةٌ من التَّوراة، ولم يتمكَّن أحدٌ مِن جمع[3] هذه النسخ وتبديلها، ولو كان ذلك ممكنًا لكان هذا من الوقائع العظيمة التي تتوفَّر الدواعي علىٰ نقلها.

وكذلك في الإنجيل، قال تعالىٰ: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧] فَعُلِمَ أن في هذا الإنجيل حكمًا أنزله الله تعالىٰ، لكنَّ الحكمَ هو من باب الأمر والنهي، وذلك لا يمنع أن يكون التغيير في باب الأخبار، وهو الذي وقع فيه التَّبديل لفظًا، وأما الأحكام التي في التَّوراة فما يكاد أحدٌ يدّعي التبديل في ألفاظها.

وقد ذكر طائفةٌ من العلماء[4] أنّ قوله تعالىٰ في الإنجيل: ﴿ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ﴾ [المائدة: ٤٧] هو خطابٌ لمن كان علىٰ دين المسيح قبل النسخ والتبديل، لا الموجودين بعد مبعث محمّدٍ ﷺ.

---

(١) بعدها في (و): «أهل».

(٢) المثبت من (و) وفي سائر النسخ: «وبالنقل».

(٣) (و): «جميع».

(٤) انظر: «تفسير القرطبي» (٦/ ٢٠٩).

وهذا القول يناسب مناسبةً ظاهرةً لقراءة من قرأ: ﴿وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ﴾ بكسر اللام، كقراءة حمزة[1]، فإن هذه لام كي، فإنه تعالىٰ قال: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ ۖ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ (٤٦) وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنجِيلِ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة: ٤٦ - ٤٧] فإذا قرئ: ﴿وَلِيَحْكُمَ﴾ كان المعنىٰ: وآتيناه الإنجيل لكذا وكذا، وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه، وهذا يوجب الحكم بما أنزل الله في الإنجيل الحقّ، لا يدلُّ علىٰ أن الإنجيل الموجود في زمن الرسول ﷺ هو ذلك الإنجيل.

وأما قراءة الجمهور: ﴿وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ الْإِنجِيلِ﴾ [المائدة: ٤٧] فهو أَمْرٌ بذلك، فمن العلماء من قال: هو أمر لمن كان الإنجيل الحقّ موجودًا عندهم أن يحكموا بما أنزل الله فيه، وعلىٰ هذا يكون قوله تعالىٰ: ﴿وَلْيَحْكُمْ﴾ أمر لهم قبل مبعث محمدٍ ﷺ.

وقال آخرون: لا حاجة إلىٰ هذا التكلُّف[2]؛ فإن القول في الإنجيل كالقول في التَّوراة، وقد قال تعالىٰ: ﴿۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ مِنَ الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِن قُلُوبُهُمْ ۛ وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا ۛ سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ ۖ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِن بَعْدِ مَوَاضِعِهِ ۖ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَٰذَا فَخُذُوهُ وَإِن لَّمْ تُؤْتَوْهُ فَاحْذَرُوا ۚ

---

(١) انظر: «النشر» لابن الجزري (٢/ ٢٥٤).

(٢) المثبت من (ي) وهو الأصوب. وفي سائر النسخ: «التكليف».

وَمَن يُرِدِ ٱللَّهُ فِتۡنَتَهُۥ فَلَن تَمۡلِكَ لَهُۥ مِنَ ٱللَّهِ شَيۡـًٔاۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُرِدِ ٱللَّهُ أَن يُطَهِّرَ قُلُوبَهُمۡۚ لَهُمۡ فِي ٱلدُّنۡيَا خِزۡيٞۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿٤١﴾ سَمَّٰعُونَ لِلۡكَذِبِ أَكَّٰلُونَ لِلسُّحۡتِۚ فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ ﴿٤٢﴾ وَكَيۡفَ يُحَكِّمُونَكَ وَعِندَهُمُ ٱلتَّوۡرَىٰةُ فِيهَا حُكۡمُ ٱللَّهِ ثُمَّ يَتَوَلَّوۡنَ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَۚ وَمَآ أُوْلَٰٓئِكَ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٤٣﴾ إِنَّآ أَنزَلۡنَا ٱلتَّوۡرَىٰةَ فِيهَا هُدٗى وَنُورٞۚ يَحۡكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسۡلَمُواْ لِلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلرَّبَّٰنِيُّونَ وَٱلۡأَحۡبَارُ بِمَا ٱسۡتُحۡفِظُواْ مِن كِتَٰبِ ٱللَّهِ وَكَانُواْ عَلَيۡهِ شُهَدَآءَۚ فَلَا تَخۡشَوُاْ ٱلنَّاسَ وَٱخۡشَوۡنِ وَلَا تَشۡتَرُواْ بِـَٔايَٰتِي ثَمَنٗا قَلِيلٗاۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٤٤﴾ وَكَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفۡسَ بِٱلنَّفۡسِ وَٱلۡعَيۡنَ بِٱلۡعَيۡنِ وَٱلۡأَنفَ بِٱلۡأَنفِ وَٱلۡأُذُنَ بِٱلۡأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلۡجُرُوحَ قِصَاصٞۚ فَمَن تَصَدَّقَ بِهِۦ فَهُوَ كَفَّارَةٞ لَّهُۥۚ وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٤٥﴾ وَقَفَّيۡنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَ مُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيۡهِ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡإِنجِيلَ﴾

[المائدة: ٤١ - ٤٦]

فهذا قد صرَّح بأن أولئك الذين تحاكموا إلىٰ النَّبيِّ ﷺ من اليهود عندهم التَّوراة فيها حُكْم الله، ثم تولوا عن حكم الله، وقال بعد ذلك: ﴿وَلۡيَحۡكُمۡ أَهۡلُ ٱلۡإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ﴾ [المائدة: ٤٧]. وهذه لامُ الأمر، وهو أمرٌ من الله أنزله علىٰ لسان محمد، وأمْرُ مَن مات قبل هذا الخطاب ممتنع، وإنما يكون الأمر أمرًا لمن آمن به من(١) بعد خطاب الله لعباده بالأمر، فُعلم أنه أمرٌ لمن كان موجودًا حينئذ أن يحكموا بما أنزل الله في الإنجيل، والله أنزل في الإنجيل الأمرَ

(١) «من» ليست في (د، ي، ع).

باتباع محمد ﷺ كما أمر به في التَّوراة، فليحكموا[١] بما أنزل الله في الإنجيل مما لم ينسخه محمَّدٌ ﷺ، كما أمر أهل التَّوراة أن يحكموا بما أنزله مما لم ينسخه المسيح، وما نسخه فقد أُمِروا فيها باتِّباع المسيح، وقد أمر في الإنجيل باتِّباع محمَّدٍ ﷺ، فمن حكَم من أهل الكتاب بعد مبعث محمّدٍ ﷺ بما أنزل الله في التَّوراة والإنجيل لم يحكم بما يخالف حكم محمَّدٍ ﷺ؛ إذ كانوا مأمورين في التَّوراة والإنجيل باتباع محمَّدٍ ﷺ، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة: ٤٨].

فجَعَلَ القرآنَ مهيمنًا. والمهيمنُ: الشَّاهد الحاكم المؤتَمَن، فهو يحكم بما فيها ممَّا لم ينسخه الله، ويشهد بتصديق ما فيها مما لم يُبدَّل؛ ولهذا قال: ﴿لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا﴾ [المائدة: ٤٨]

وقد ثبت في الصِّحاح والسنن والمسانِد هذا. ففي «الصحيحين»[٢] عن عبد الله بن عُمَر رضي الله عنهما أنه قال[٣]: «**إنَّ اليَهُودَ جَاءوا إلىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ فذَكَرُوا لَهُ أَنَّ امْرَأَةً مِنْهُم ورجلًا زنَيَا، فقالَ لهُمْ رسُولُ اللهِ ﷺ: مَا تَجِدونَ في التَّوْراة في شَأْنِ الرَّجْمِ؟ قالوا: نفضَحُهُم ويُجلَدُونَ. فقال عبدُ الله بنُ سَلَام: كذَبْتُم، إنَّ فِيهَا**

---

(١) (و، ي): «فيحكموا».
(٢) البخاري (٦٨٤١)، ومسلم (١٦٩٩).
(٣) «أنه قال» ليست في (و).

الرَّجْم. فأَتَوا بالتَّوراة فَنَشَرُوها، فَوَضَعَ أحدُهم يدَه علىٰ آيةِ الرَّجْمِ، فَقرأَ ما قَبْلَهَا وَمَا بَعْدَها، فقَالَ لهُ عبدُ اللهِ بنُ سلامٍ[1]: ارْفَعْ يدَكَ. فَرفَع يَدَه فَإِذَا فِيهَا آيةُ الرَّجم. فَقَالُوا: صَدَقَ يا مُحَمَّد. فَأمَر بِهِما النَّبيُّ ﷺ فَرُجِمَا».

وأخرج البخاري[2] عن عبد الله بن عمر أنه قال: «أُتِيَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بيهَودِيٍّ ويهُودِيَّةٍ قدْ زَنَيَا، فانْطَلَقَ حتَّىٰ جاءَ يهُودَ، فقَالَ: ما تَجِدُونَ في التَّوراةِ علىٰ من زنىٰ؟ قالوا: نُسَوِّدُ وجوهَهُما، ويُطافُ بهِما. قال: ﴿فَأْتُواْ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٩٣﴾ [آل عمران: ٩٣] قال: فجَاءُوا بها فقرأُوها، حتَّىٰ إذا مرُّوا بآيةِ الرَّجْم وضَعَ الفتَىٰ الذي يقْرَأُ يده علىٰ آيةِ الرَّجْمِ، وقَرَأَ ما بَيْنَ يَدَيْها، وما وَرَاءَهَا، فَقَال عبْدُ اللهِ بن سَلامٍ وهُوَ مع رَسُولِ اللهِ ﷺ: مُرْهُ فلْيَرفعْ يدَه. فرفَعَها فإِذَا تَحْتَهَا آيةُ الرَّجْم. قَالُوا: صَدَقَ، فيهَا آيةُ الرَّجْم، ولكنَّنا نتكَاتَمُه بيْنَنَا، وإنَّ أحْبَارَنَا أحْدَثُوا التَّحْمِيمَ والتَّجْبِيَةَ[3]، فأمَرَ رَسُولُ اللهِ ﷺ برَجْمِهِمَا فَرُجِمَا».

وأخرج مسلم[4] عن البراء بن عازب رضي الله عنه أنه قال: «مُرَّ علىٰ رَسُولِ اللهِ ﷺ بيَهُودِيٍّ مُحَمَّمٍ مَجْلُودٍ؛ فَدَعَاهُمْ، فَقَالَ: هَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي فِي كِتَابِكُمْ؟ قَالُوا: نَعَمْ. فَدَعَىٰ رَجُلًا مِنْ عُلَمَائِهِمْ، فَقَالَ: أَنْشُدُكَ اللهَ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ، أهَكَذَا تَجِدُونَ حَدَّ الزَّانِي في كِتَابِكُمْ[5]؟ قَالَ: لا، وَلَوْلا أَنَّكَ نَشَدْتَنِي

---

(١) «بن سلام» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٢) أخرج أجزاء من هذا الحديث في مواضع متعددة من صحيحه. انظر: (٣٦٣٥)، (٦٨١٩)، (٧٥٤٣).

(٣) سيأتي (ص٤٧).

(٤) (١٧٠٠).

(٥) «قالوا: «نعم فدعىٰ... حد الزاني في كتابكم» ساقطة من (ي) لانتقال النظر.

بِهَذَا لَمْ أُخْبِرْكَ، نَجِدُهُ الرَّجْمَ، وَلكِنَّهُ كَثُرَ فِي أَشْرَافِنَا، فَكُنَّا إِذَا أَخَذْنَا الشَّرِيفَ تَرَكْنَاهُ، وَإِذَا أَخَذْنَا الضَّعِيفَ أَقَمْنَا عَلَيْهِ الْحَدَّ، فَقُلْنَا تَعَالَوْا فَلْنَجْتَمِعْ عَلَىٰ شَيْءٍ نُقِيمُهُ عَلَىٰ الشَّرِيفِ وَالْوَضِيعِ، فَجَعَلْنَا التَّحْمِيمَ وَالْجَلْدَ مَكَانَ الرَّجْمِ. فَقَالَ: رَسُولُ اللهِ ﷺ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَوَّلُ مَنْ أَحْيَا أَمْرَكَ إِذْ أَمَاتُوه. فأَمَرَ به فَرُجِم، فأنزل اللهُ تَعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ ٱلَّذِينَ يُسَٰرِعُونَ فِي ٱلْكُفْرِ مِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [المائدة: ٤١] إلىٰ قوله: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾، إلىٰ ﴿ٱلظَّٰلِمُونَ﴾، إلىٰ ﴿ٱلْفَٰسِقُونَ﴾. قال: هي في الكفَّارِ كلِّها.

وفي «صحيح مسلمٍ»[1] عن جابر بن عبد الله رَضِيَ اللهُ عَنْهُ أنه قال: «رَجَمَ النَّبيُّ ﷺ رجلًا مِنْ أَسْلَمَ، ورُجَلًا من اليَهُودِ».

وأما السُّنن: ففي «سنن أبي داود»[2]، عن زيد بن أسلم، عن ابن عُمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أنه قال: «أَتَىٰ نَفَرٌ مِنَ اليَهُودِ[3] فَدَعَوْا رَسُولَ اللهِ ﷺ إلىٰ القُفِّ[4]، فَأَتَاهُمْ فِي بَيْتِ الْمِدْرَاسِ فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ إِنَّ رَجُلًا مِنَّا زَنَىٰ بِامْرَأَةٍ، فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ، فَوَضَعُوا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وِسَادَةً فَجَلَسَ عَلَيْهَا، ثُمَّ قَالَ: ائْتُونِي بِالتَّوْرَاة. فَأُتِيَ بِهَا فَنَزَعَ الْوِسَادَةَ مِنْ تَحْتِهِ وَوَضَعَ التَّوْرَاةَ عَلَيْهَا، وَقَالَ: آمَنْتُ بِكِ وَبِمَنْ أَنْزَلَكِ، ثُمَّ قَالَ: ائْتُونِي بِأَعْلَمِكُمْ. فَأُتِيَ بِشَابٍّ»، ثم ذكر قصَّة الرَّجم.

---

(١) (١٧٠١).

(٢) (٤٤٤٩). والحديث أصله في الصحيحين. وقد تقدّم قريبًا.

(٣) «من اليهود» ساقطة من: (ع).

(٤) أصل القف: ما غلظ من الأرض وارتفع. وقفّ البئر: هو الدّكة التي تجعل حولها. «النهاية في غريب الحديث» (٤/ ٩١).

وأخرج أيضًا أبو داود[1] وغيره عن أبي هريرة أنه قال: «زَنَىٰ رَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ بِامْرَأَةٍ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ: اذْهَبُوا بِنَا إِلَىٰ هَـٰذَا النَّبِيِّ؛ فَإِنَّهُ نَبِيٌّ بُعِثَ بِالتَّخْفِيفِ، فَإِنْ أَفْتَانَا بِفُتْيَا دُونَ الرَّجْمِ قَبِلْنَاهَا وَاحْتَجَجْنَا بِهَا عِنْدَ اللهِ؛ فَقُلْنَا: نَبِيٌّ مِنْ أَنْبِيَائِكَ. قَالُوا: فَأَتَوُا النَّبِيَّ ﷺ وَهُوَ جَالِسٌ فِي الْمَسْجِدِ فِي أَصْحَابِهِ، فَقَالُوا: يَا أَبَا الْقَاسِمِ مَا تَرَىٰ فِي رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ مِنْهُمْ زَنَيَا. فَلَمْ يُكَلِّمْهُمْ كَلِمَةً حَتَّىٰ أَتَىٰ بَيْتَ مِدْرَامِهِمْ[2] فَقَامَ عَلَىٰ الْبَابِ، فَقَالَ: أَنْشُدُكُمْ بِاللهِ الَّذِي أَنْزَلَ التَّوْرَاةَ عَلَىٰ مُوسَىٰ مَا تَجِدُونَ فِي التَّوْرَاةِ عَلَىٰ مَنْ زَنَىٰ إِذَا أَحْصَنَ؟ قالوا نُحَمِّمُه[3]، ونُجْبِيهِ، ونَجْلِدُه[4]. والتَّجْبِيَةُ: أن يُحْمَلَ الزَّانِيَانِ علىٰ حِمَارٍ ويُقَابَلَ أقفيتُهُمَا، ويُطافَ بهما[5]. قال: وَسَكَتَ شابٌّ مِنْهُمْ، فلمَّا رَآهُ النَّبِيُّ ﷺ سَكَتَ أَلَظَّ بِهِ النَّشْدَةَ[6]، فَقَالَ: اللَّهم إِذْ نَشَدْتَنَا فَإِنَّا نَجِدُ فِي التَّوراةِ الرجم. فَقَالَ ﷺ: فَمَا أَوَّلُ ما ارْتَخَصْتُم أَمْرَ الله؟ قال: زَنَىٰ ذُو قَرَابَةٍ مِنْ مَلِكٍ مِنْ مُلُوكِنَا، فَأَخَّرَ عَنْهُ الرَّجْمَ،

---

(١) (٤٤٥٠)، قال ابن حجر في «التلخيص الحبير» (٤/ ١٥٥): إسناده ضعيف، وأصل قصة اليهوديين في الزنا والرجم، دون ذكر الإحصان في «الصحيحين» من حديث ابن عمر.

(٢) (و، ي): «مدارسهم». والمدراس: البيت الذي يدرسون فيه. «النهاية في غريب الحديث» (٢/ ١١٣).

(٣) (و، د، ع، ط): «نحمم». قال الخطابي: التحميم: تسويد الوجه بالحمم. «معالم السنن» (٣/ ٣٢٧).

(٤) (ي) «ويُجلد»، (ع): وفي (و، د) بلا نقط في الكلمة.

(٥) نقل ابن حجر كما في «فتح الباري» (١٢/ ١٦٨) عن إبراهيم الحربي أنه جزم بأن تفسير التجبية من قول الزهري، فكأنه أدرج في الخبر؛ لأن أصل الحديث من روايته.اهـ.

(٦) قوله: «سكت ألظّ به النشدة» مكانها بياض في (و، د)، وفي (ي) بياض في قوله: «ألظّ به النشدة». وفي (ع): «سكت ألظ به النشدة». وهو الموافق للفظ رواية أبي داود. وفي هامش(د، ع) كتب: «بياض في الأصل، ولعله: فلما رآه النبي ﷺ ساكتًا لا يتكلم أنشده. أو نحو هذا». وفي (المطبوعتين): «ساكتًا أنشده». ومعنىٰ: «ألظّ به النشدة»: ألحّ في سؤاله وألزمه إياه. انظر: «النهاية» (٤/ ٢٥٢).

ثُمَّ زَنَىٰ رَجُلٌ فِي أُسْرَةٍ مِنَ النَّاسِ، فَأَرَادَ رَجْمَهُ، فَحَالَ قَوْمُه دونَه وقَالَوا: لا يُرْجَمُ صَاحِبُنَا حَتَّىٰ تَجِيءَ بِصَاحِبِكَ فَتَرْجُمَهُ. فاصْطَلَحُوا هَذِهِ العُقُوبَةَ بَيْنَهُمْ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: فإِنِّي أَحْكُمُ بِمَا فِي التَّوْرَاةِ فَأَمَرَ بِهِمَا فَرُجِمَا». قال الزُّهريّ: فبلغنا أن هذه الآية نزلت فيهم: ﴿ إِنَّآ أَنزَلْنَا ٱلتَّوْرَىٰةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ ۚ يَحْكُمُ بِهَا ٱلنَّبِيُّونَ ٱلَّذِينَ أَسْلَمُوا ﴾ [المائدة: ٤٤] **فكَانَ النَّبِيُّ ﷺ مِنْهُمْ.**

وأيضًا فقد تحاكموا إليه في القوَد الذي كان بين بني قريظةَ والنضير، وكان النضيرُ أشرفَ من قريظة، فكان إذا قتل بعضُ إحدىٰ القبيلتين قتيلًا من الأخرىٰ فيقتلونه[1] ولم يضعِّفوا الدِّية، وإذا قُتِلَ من القبيلة الشَّريفة قَتَلُوا به، وأضعفوا الدِّية.

قال أبو داود سليمان بن الأشعث في «سننه»[2]: حدثنا محمد بن العلاء[3]، حدثنا عبيد الله بن موسىٰ[4]، عن علي بن صالح[5]، عن سِماك بن

---

(١) بعدها في هامش (ي): «به».

(٢) (٤٤٩٤)، وأخرجه النسائي (٤٧٣٢)، والحاكم (٨٠٩٤) وصحّحه، ووافقه الذهبي.
وقد أُعلّ هذا الإسناد من أجل اضطراب رواية سماك عن عكرمة وأنه قد وهم في متن الحديث إذ جعل للنضير القصاص ولقريظة الدية، والمحفوظ أنه كان للنضير الدية كاملة ولقريظة نصف الدية، كما رواه عبد الرحمن بن أبي الزناد، عن أبيه، عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، عن ابن عباس عند أحمد (٢٢١٢)، وكما رواه داود بن الحصين عن عكرمة عن ابن عباس كذلك عند أحمد (٣٤٣٤) وأبي داود (٣٥٩١). ليس فيهما ذكر القتل قصاصًا. والإسنادان حسنان.

(٣) هو ابن كريب الهمداني، أبو كريب الكوفي، مشهور بكنيته، من الثقات روىٰ عنه أصحاب الكتب الستة. انظر: «التقريب» (ص٥٠٠).

(٤) ابن أبي المختار ابن باذام العبسي الكوفي، أبو محمد، من الثقات وكان يتشيع، روىٰ عنه أصحاب الكتب الستة. انظر: «التقريب» (ص٣٧٥).

(٥) الهمداني، أبو محمد الكوفي، أخو حسن، من الثقات العبّاد. انظر: «التقريب» (ص٤٠٢).

حرب[1]، عن عكرمة، عن ابن عباس، قال: «كان قريظة والنضير، وكان النضير أشرف من قريظة، فكان إذا قَتَل رجلٌ من قريظة رجلًا من النضير قُتِل به، وإذا قَتَلَ رجلٌ من النضير رجلًا من قريظة وُدِيَ مائة وَسْقٍ مِن تمر. فلمَّا بُعِث النبي ﷺ قتلَ رجلٌ من النضير رجلًا من قريظة فقالوا: ادفعوه إلينا نقتلْه. فقالوا: بيننا وبينكم محمَّدٌ فأتوه، فنزلت: ﴿وَإِنْ حَكَمْتَ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِٱلْقِسْطِ﴾ [المائدة: ٤٢] والقسط: النفس بالنفس. ثم نزلت: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] قال أبو داود: «قريظة والنضير من ولد هارون».

وَبَسْطُ هذا له موضعٌ آخر[2]، وعلىٰ كلِّ قولٍ، فقد أخبر الله ﷻ أن في التَّوراة الموجودة بعد المسيح ﵇ حكم الله، وأن أهل الكتاب اليهود تركوا حكم الله الذي في التَّوراة مع كفرهم بالمسيح، وهذا ذمٌّ من الله لهم علىٰ ما تركوه من حُكْمه الذي جاء به الكتابُ الأول ولم ينسخه الرَّسول الثَّاني.

وهذا من التَّبديل الثَّاني الذي ذُمُّوا عليه، ودلَّ ذلك علىٰ أنَّ في التَّوراة الموجودة بعد مبعث المسيح حُكمًا أنزله الله أُمِرُوا أن يحكموا به، وهكذا يمكن أن يُقال في الإنجيل.

ومعلومٌ أن الحكم الذي أُمِرُوا أن يحكموا به من أحكام التَّوراة لم ينسخه الإنجيل ولا القرآن، فكذلك ما أمروا أن يحكموا به من أحكام الإنجيل هو ما لم ينسخه القرآن؛ وذلك أن الدِّين الجامع: أن يُعبدَ الله وحدَه، ويأمرَ بما أمر الله به، ويحكمَ بما أنزله الله[3] في أيِّ كتابٍ أنزله ولم ينسخه، فإنه يُحْكَم به.

---

(١) هو ابن أوس ابن خالد الذهلي البكري الكوفي أبو المغيرة (صدوق) وروايته عن عكرمة خاصة مضطربة وقد تغير بأخرة فكان ربما تلقن. انظر: «التقريب» (ص٢٥٥).

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ١٠٢).

(٣) بعدها في هامش (ي): «فما أنزله الله» وهي مناسبة للسياق.

ولهذا كان مذهب جماهير السلف والأئمة أن شرع من قبلنا شرع لنا ما لم يرد شرعنا بخلافه[1]، ومن حكَم بالشَّرع المنسوخ فلم يحكم بما أنزل الله، كما أن الله أمر أمَّة محمَّدٍ ﷺ أن يحكموا بما أنزل الله في القرآن، وفيه الناسخ والمنسوخ[2]. فهكذا القول في جنس الكتب المُنزَّلة.

قال تعالىٰ: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٤٨﴾ وَأَنِ ٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ وَٱحْذَرْهُمْ أَن يَفْتِنُوكَ عَنۢ بَعْضِ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُصِيبَهُم بِبَعْضِ ذُنُوبِهِمْ ۗ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ لَفَٰسِقُونَ ﴿٤٩﴾ أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿٥٠﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ

---

(١) انظر: «المسوّدة» (ص١٩١).

(٢) بعدها في هامش (ي): «وإنما علّمهم أن يحكموا بالناسخ دون المنسوخ».

﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [المائدة: ٤٨ - ٥٦].

فقد أمَر نبيَّه محمدًا ﷺ أن يحكم بما أنزل الله إليه، وحذَّره اتباع أهوائهم، وبيّن أن المخالف لحكمه هو حُكْمُ الجاهليَّة، حيث قال تعالىٰ: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ ۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] وأخبره تعالىٰ أنه جعل لكلٍّ من أهل التوراة والإنجيل والقرآن شِرْعةً ومنهاجًا، وأمْرُه تعالىٰ بالحكم بما أنزل الله أَمْرٌ عامٌّ لأهل التَّوراة والإنجيل والقرآن، ليس لأحدٍ في وقتٍ من الأوقات أن يحكم بغير ما أنزل الله، والذي أنزله الله هو دينٌ واحدٌ اتفقت عليه الكتب والرُّسل، وهم متَّفقون في أصول الدين وقواعد الشريعة - وإن تنوَّعوا- في الشِّرْعَة والمنهاج، بين ناسخٍ ومنسوخ، فهو شبيهٌ بتنوُّع حال الكتاب[1]، فإنَّ المسلمين كانوا أولًا مأمورين بالصَّلاة لبيت المقدس، ثم أمروا أن يُصَلُّوا إلىٰ المسجد الحرام، وفي كلا الأمرين إنما اتَّبعوا ما أنزل الله ﷻ.

وكذلك موسىٰ عليه السلام كان مأمورًا بالسبت[2] محرَّمًا عليه ما حرَّمه الله في التوراة، وهو متبع ما أنزل الله ﷻ، والمسيحُ ﷺ أحلَّ بعض ما حرَّمه الله في التوراة، وهو متّبعٌ ما أنزل الله ﷻ، فليس في أمر الله لأهل التَّوراة والإنجيل أن يحكموا بما أنزل الله أمرٌ بما نُسخ، كما أنه ليس في أمر أهل القرآن أن يحكموا بما أنزل الله أمْرٌ بما نسخ، بل إذا كان ناسخٌ ومنسوخ؛ فالذي أنزل الله هو الحكم

(١) بعدها في هامش (ي): «الواحد» وليست في سائر النسخ. والسياق يقتضيها.
(٢) (و): «بالسبب» تصحيف. وفي (ع): بلا نقط.

بالناسخ دون المنسوخ، فمن حكم بالمنسوخ فقد حكم بغير ما أنزل الله ﷻ.

ومما يوضِّح هذا قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ ۗ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ۖ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٦٨] فإن هذا يُبيِّن أنّ هذا أمرٌ لمحمّدٍ ﷺ أن يقول لأهل الكتاب الذي بعث إليهم: إنهم ليسوا علىٰ شيء حتىٰ يقيموا التَّوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم. فدلَّ ذلك علىٰ أنهم[١] عندهم ما يُعْلَم أنه منزلٌ من الله، وأنهم مأمورون بإقامته؛ إذ كان ذلك مما قرَّره محمَّدٌ ﷺ ولم ينسخه.

ومعلومٌ أن كلَّ ما أمر الله به علىٰ لسان نبيٍّ ولم ينسخه النبيُّ الثاني بل أقرَّه، كان الله أمر به علىٰ لسان نبيٍّ بعدَ نبيٍّ، ولم يكن في بِعْثَة الثاني ما يُسقط وجوبَ اتباع ما أمر به النبيُّ الأول، وقرَّره النبيُّ الثاني.

ولا يجوز أن يقال: إن الله ينسخ بالكتاب الثاني جميعَ ما شرَعَه بالكتاب الأول، وإنما المنسوخ قليلٌ بالنسبة إلىٰ ما اتفقت عليه الكتب والشرائع.

وأيضًا ففي التَّوراة والإنجيل ما دلَّ علىٰ نبوَّة محمَّدٍ ﷺ، فإذا حَكَمَ أهلُ التَّوراة والإنجيل بما أنزل الله فيهما حكموا بما أوجبَ عليهم اتباع محمد ﷺ.

وهذا يدلُّ علىٰ أن في التَّوراة والإنجيل ما يعلمون أن الله أنزله؛ إذ لا يؤمرون أن يحكموا بما أنزل الله ولا يعلمون ما أنزل الله، والحكم إنما يكون في الأمر والنهي، والعلمُ ببعض معاني الكتب لا ينافي عدمَ العلم ببعضها.

وهذا متَّفقٌ عليه في المعاني؛ فإن المسلمين واليهود والنَّصارىٰ متَّفقون

---

(١) (ي): «أن».

علىٰ أن في الكتب الإلهيَّة الأمرَ بعبادة الله وحده لا شريك له، وأنه أَرْسَل إلىٰ الخلق رسلًا من البشر، وأنه أَوْجَب العدل، وحرم الظُّلم والفواحش والشِّرك، وأمثالَ ذلك من الشَّرائع الكُلِّية، وأن فيها الوعد بالثَّواب، والوعيد بالعقاب، بل هم متَّفقون علىٰ الإيمان باليوم الآخر، وقد تنازعوا في بعض معانيها، واختلفوا في تفسير ذلك، كما اختلفت اليهود والنَّصارىٰ في المسيح المبَشَّرِ به [في] النبوَّات، هل هو المسيح ابن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ أو مسيحٌ آخر ينتظر؟

والمسلمون يعلمون أن الصَّواب في هذا مع النَّصارىٰ، لكن لا يوافقونهم علىٰ ما أحدثوا فيه من الإفك والشرك.

وكذلك يقال: إذا بُدِّل قليلٌ من ألفاظها الخبريَّة لم يمنع ذلك أن يكون أكثر ألفاظها لم يبدل، لا سيما إذا كان في نفس الكتاب ما يدلُّ علىٰ المبدَّل.

وقد يقال: إنَّ ما بُدِّل من ألفاظ التَّوراة والإنجيل، ففي نفس التَّوراة والإنجيل ما يدلُّ علىٰ تبديله.

فبهذا يحصل الجواب عن شبهة من يقول: إنه لم يبدَّل شيءٌ من ألفاظها، فإنهم يقولون: إذا كان التبديل قد وقع في ألفاظ التَّوراة والإنجيل قبل مبعث محمَّدٍ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لم يُعلم الحقُّ من الباطل، فسقط الاحتجاج بهما، ووجوبُ العمل بهما علىٰ أهل الكتاب؛ فلا يُذَمُّون حينئذٍ علىٰ ترك اتِّباعهما، والقرآنُ قد ذمَّهم علىٰ ترك الحكم بما فيهما واستشهد بهما في مواضع.

وجواب ذلك: أن ما وقع من التَّبديل قليل، والأكثر لم يُبدَّل، والذي لم يبدَّل فيه ألفاظٌ صريحةٌ بيِّنةٌ بالمقصود تُبيِّن غلط[1] ما خالفها، ولها شواهد

(١) العبارة في (و): «يتبين بها المقصود من غلط».



ونظائر متعدِّدةٌ يُصَدِّق بعضُها بعضًا، بخلاف المبدَّل فإنه ألفاظٌ قليلة، وسائر نصوص الكتب يناقضها، وصار هذا بمنزلة كتب الحديث المنقولة عن النَّبيِّ ﷺ؛ فإنه إذا وقع في «سنن أبي داود» والترمذي أو غيرِهما أحاديثُ قليلةٌ ضعيفةٌ، كان في الأحاديث الصَّحيحة الثابتة عن النبيِّ ﷺ ما يُبيِّن ضعف تلك.

بل وكذلك «صحيح مسلم» فيه ألفاظٌ قليلةٌ غلط، وفي نفس الأحاديث الصَّحيحة مع القرآن ما يُبيِّنُ غلطَها، مثل ما روي: «**أنَّ الله خَلقَ التُّربَةَ يَوْمَ السَّبتِ وجَعَل خَلْقَ المخْلُوقَاتِ في الأيَّام السَّبْعةِ**»[1]. فإن هذا الحديث قد بيَّن أئمَّة الحديث، كيحيىٰ بن معين، وعبد الرحمن بن مهدي، والبخاري، وغيرهم أنه غلط، وأنه ليس في كلام النَّبيِّ ﷺ، بل صرَّح البخاري في «تاريخه الكبير»[2] أنه من كلام كعب الأحبار[3]، كما قد بُسِطَ في موضعه[4].

والقرآن يدلُّ علىٰ غلط هذا، ويبيِّن[5] أن الخلق[6] في ستة أيام، وثبت في «الصَّحيح»[7] أن آخر الخلق كان يومَ الجمعة، فيكون أولُ الخلق يومَ الأحد.

---

(١) أخرجه مسلم (٢٧٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) قال البخاري (١/ ٤١٣): «وروىٰ إسماعيل بن أمية عن أيوب بن خالد الأنصاري عن عبد الله بن رافع عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: «خلق الله التربة يوم السبت»، وقال بعضهم: عن أبي هريرة عن كعب. وهو أصح».

(٣) هو كعب بن ماتع الحميري، الحبر، كان يهوديًّا، فأسلم بعد وفاة النبي ﷺ، وقدم المدينة من اليمن في أيام عمر رضي الله عنه، فجالس الصحابة وكان يحدثهم عن الكتب الإسرائيلية، ويحفظ عجائب، ويأخذ السنن، وكان حسن الإسلام.

انظر: «الطبقات الكبرىٰ» (٧/ ٣٠٧)، «سير أعلام النبلاء» (٣/ ٤٨٩).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوىٰ»: (١/ ٢٥٧-٢٥٦)، (١٧/ ٢٣٦-٢٣٥)، (١٨/ ١٨-١٩).

(٥) المثبت من (ي)، وسائر النسخ: «بيّن».

(٦) زاد بعدها في هامش (ي): «كان».

(٧) مسلم (٢٧٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك ما روي: أنه ﷺ صلىٰ الكسوف بركوعين أو ثلاثة[1]، فإن الثابت المتواتر عن النبي ﷺ في «الصَّحيحين» وغيرِهما من حديث عائشةَ[2]، وابنِ عبَّاس[3]، وعبد الله بن عَمرو[4]، وغيرهم، أنه صلىٰ كلَّ ركعةٍ بركوعين.

ولهذا لم يخرِّج البخاريُّ إلا ذلك، وضعَّف الشافعيُّ والبخاريُّ[5] وأحمدُ في إحدىٰ[6] الروايتين عنه وغيرهم حديثَ الثَّلاثِ والأربع؛ فإن النَّبيَّ ﷺ إنما صلَّىٰ الكسوف مرةً واحدة، وفي حديث الثلاث والأربع أنه صلَّاها يوم مات إبراهيمُ ابنه، وأحاديث الركوعين كانت ذلك اليوم.

فمثل هذا الغلط إذا وقع: كان في نفس الأحاديث الصَّحيحة ما يبيِّن أنه غلط. والبخاريُّ إذا روىٰ الحديث بطُرُقٍ[7] في بعضِها غلطٌ في بعض الألفاظ ذَكَر معه الطُّرقَ التي تبيِّنُ ذلك الغلط، كما قد بسطْنا الكلامَ علىٰ ذلك في موضعه[8].

فكذلك إذا قيل: إنه وقع تبديل في بعض ألفاظ الكتب المتقدِّمة كان في الكتب ما يبيِّنُ ذلك الغلط، وقد قدَّمنا أن المسلمين لا يدَّعون أن كلَّ نسخةٍ في العالم من زمن محمَّدٍ ﷺ بكلِّ لسانٍ من التَّوراة والإنجيل والزَّبور بُدِّلت

---

(١) مسلم (٩٠١) عن عائشة رضي الله عنها.
(٢) البخاري (١٠٤٦)، ومسلم (٩٠١).
(٣) البخاري (٣٢٠٢)، ومسلم (٩٠٢).
(٤) البخاري (١٠٤٥)، ومسلم (٩١٠).
(٥) «البخاري» ليس في (ع).
(٦) (د، ع): «آخر». (ي): بلا نقط. (ط.النيل): «أخذ» تصحيف.
(٧) «بطرق» ليست في (و).
(٨) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٣/ ٣٥٠).

ألفاظها، فإن هذا لا أعرف أحدًا من السَّلف[1] قاله، وإن كان من المتأخِّرين من قد يقول ذلك، كما في بعض المتأخِّرين من يُجوِّز الاستنجاء بكل ما في العالم من نسخ التَّوراة والإنجيل، فليست هذه الأقوال ونحوُها من أقوال سلف الأمة وأئمَّتِها.

وعمرُ بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ لما رأىٰ بيد كعبِ الأحبار نسخةً من التَّوراة قال: «يا كعب إن كنت تعلم أن هذه هي التَّوراة التي أنزلها الله علىٰ موسىٰ بن عمران فاقرأها»[2]. فعلَّق الأمر علىٰ ما يمتنع العلم به، ولم يجزم عمر رَضِيَ اللهُ عَنْهُ بأن ألفاظ تلك مبدَّلةً لمَّا لم يتأمَّل كلَّ ما فيها.

والقرآن والسُّنة المتواترة يدلَّان علىٰ أن التَّوراةَ والإنجيل الموجودَيْنِ في زمن النَّبيِّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فيها ما أنزله الله عَزَّ وَجَلَّ. والجزم بتبديل ذلك في جميع النُسَّخ التي في العالم متعذِّر، ولا حاجة بنا إلىٰ ذكره، ولا علم لنا بذلك، ولا يمكن أحدًا من أهل الكتاب أن يدَّعيَ أن كلَّ نسخةٍ في العالم بجميع الألسنة من الكتب متَّفقةٌ علىٰ لفظٍ واحد، فإنَّ هذا ممَّا لا يمكن أحدًا من البشر أن يعرفه باختباره[3] وامتحانه، وإنما يعلم مثلُ هذا بالوحي، وإلا فلا يمكن أحدًا من البشر أن يقابل كلَّ نسخةٍ موجودةٍ في العالم بكلِّ نسخةٍ من جميع الألْسِنة بالكتب الأربعة والعشرين، وقد رأيناها مختلفةً في الألفاظ اختلافًا بيِّنًا.

---

(١) (و): «المسلمين».

(٢) أخرجه مالك في «الموطأ» (١/ ١٠٨) رواية أبي مصعب الزهري، بسنده عن زيد بن أسلم. وانظر: «التمهيد» (١٤/ ٣٨٧).

(٣) (ع، ط.النيل): «باختياره».

والتَّوراة هي أصحُّ الكتب، وأشهرُها عند اليهود والنصارىٰ، ومع هذا فنسخة السَّامِرة مخالفةٌ لنسخة اليهود والنَّصارىٰ، حتىٰ في نفس الكلمات العشر، ذُكِرَ في نسخة السَّامِرة منها من أمر استقبال الطُّورِ ما ليس في نسخة اليهود والنَّصارىٰ، وهذا ممَّا يبيِّن أن التَّبديل وقع في كثيرٍ من نسخ هذه الكتب، فإن عند السَّامِرة نسخًا متعدِّدة.

وكذلك رأينا في الزَّبور نسخًا متعدِّدةً تخالف بعضُها بعضًا مخالفةً كثيرةً في كثيرٍ من الألفاظ والمعاني، يقطَعُ من رآها أن كثيرًا منها كذبٌ علىٰ زبور داود، ليست من زبور داود عَلَيْهِ السَّلَامُ[1]، وأما الأناجيل فالاضطراب فيها أعظم منه في التَّوراة.

فإن قيل: فإذا كانت الكتب المتقدِّمة منسوخةً؛ فلماذا ذُمَّ أهلُ الكتاب علىٰ ترك الحكم بما أنزل الله منها؟

قيل: النَّسْخ لم يقع إلا في قليلٍ من الشَّرائع، وإلا فالإخبار عن الله وعن اليوم الآخر وغير ذلك لا نسخ فيه.

وكذلك الدِّينُ الجامع، والشَّرائع الكلِّيَّةُ لا نسخ فيها، وهو سبحانه ذمَّهم علىٰ ترك اتِّباع الكتاب الأول؛ لأن أهل الكتاب كفروا من وجهين: من جهة تبديلهم الكتابَ الأوَّل وتركِ الإيمان والعمل ببعضه، ومن جهة تكذيبهم بالكتاب الثاني وهو القرآن، كما قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ

(١) «ليست من زبور داود» ليست في (ي).



﴿فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩١] فبيَّن أنهم كفروا قبل مبعثه بما أنزل عليهم وقتلوا الأنبياء، كما كفروا حين مبعثه[1] بما أنزل عليه[2].

وقال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٨٣] وقال تعالىٰ: ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقَدْ كُذِّبَ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ جَآءُو بِٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلزُّبُرِ وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُنِيرِ﴾ [آل عمران: ١٨٤] وقال تعالىٰ: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُمُ ٱلْحَقُّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا۟ لَوْلَآ أُوتِىَ مِثْلَ مَآ أُوتِىَ مُوسَىٰٓ ۚ أَوَلَمْ يَكْفُرُوا۟ بِمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ مِن قَبْلُ ۖ قَالُوا۟ سِحْرَانِ تَظَٰهَرَا وَقَالُوٓا۟ إِنَّا بِكُلٍّ كَٰفِرُونَ ﴿٤٨﴾ قُلْ فَأْتُوا۟ بِكِتَٰبٍ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ هُوَ أَهْدَىٰ مِنْهُمَآ أَتَّبِعْهُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [القصص: ٤٨ - ٤٩]

وإذا كان الأمر كذلك فهو سبحانه يذمُّهم علىٰ ترك اتِّباع ما أنزله في التَّوراة والإنجيل، وعلىٰ ترك اتِّباع ما أنزله في القرآن، ويبيِّن كُفْرهَم بالكتاب الأول، وبالكتاب الثاني، وليس في شيءٍ من ذلك أمْرُهم أن يحكموا بالمنسوخ من الكتاب الأول، كما ليس فيه أمرُهم أن يحكموا بالمنسوخ في الكتاب الثاني.

---

(١) (ي): «مبعثك».
(٢) (ي): «عليك».

فحينئذ فقولهم: «إنّا نعجب من هؤلاء القوم علىٰ علمهم وذكائهم ومعرفتهم، كيف يحتجُّون علينا بمثل هذا القول؟

وذلك أنا أيضًا إذا قلنا واحتججنا عليهم[١] بمثل هذا القول: إن الكتاب الذي بأيديهم يومَنا هذا قد غيروه، وبدَّلوه، وكتبوا فيه ما أرادوا واشتهوا، هل كانوا يجوِّزون كلامنا؟

قال الحاكي عنهم: فقلت لهم: هذا ما[٢] لا يجوز ولا يمكن لأحدٍ أن يقوله، ولا يمكن تغييرُه، ولا تبديل حرفٍ واحدٍ منه.

فقالوا: سبحان الله العظيم! إذا كان الكتاب الذي لهم، الذي هو باللِّسان الواحد لا يمكن تبديلُه، ولا تغييرُ حرفٍ واحدٍ منه، فكيف يمكن تغييرُ كتبنا التي هي مكتوبةٌ باثنين وسبعين لسانا؟ وفي كلِّ لسانٍ منها كذا وكذا ألفِ مصحف[٣]، وجاز عليها إلىٰ مجيء محمَّدٍ أكثر من سِتِّمائة سنة[٤]، وصارت في أيدي الناس يقرؤونها باختلاف ألسنتهم علىٰ تشاسُع بلدانهم.

فمن الذي تكلَّم باثنين وسبعين لسانًا؟ ومن هو الذي حكم علىٰ الدنيا جميعِها؛ ملوكها، وقساقستها[٥]، وعلمائها[٦]، حتىٰ حكم علىٰ جميعها في

---

(١) «عليهم» ليست في (ع).
(٢) (ط.النيل): «مما».
(٣) كذا في (جميع النسخ)، وسيأتي كذلك في (٢/ ٧٨). وفي (المطبوعتين): «نسخة».
(٤) «سنة» ساقطة من (ي).
(٥) كذا في الأصول، وهو جمع صحيح «القسّ» علىٰ غير قياس، كما في «لسان العرب» (٦/ ١٧٤). وسيأتي كذلك في (٢/ ٨٦، ٩٢). وفي (المطبوع): «قساوستها».
(٦) (د، ع، ط.النيل): «وغالبها». والصواب المثبت، كما سيأتي في (٢/ ٨٦، ٩٢).

أقطار الأرض[1]، وجمعها في أربع زوايا العالم حتىٰ يغيِّرها؟

وإن كان غيَّر بعضَها وترك بعضَها، فهذا لا يمكن أن يكون؛ لأن كلَّها قولٌ واحدٌ، ولفظٌ واحد في جميع الألسُن، فهذا ما[2] لا يجوز لقائل أن يقوله أبدًا».

والجواب أن يقال:

أولًا: هذا الكلام منهم يدل علىٰ غاية جهلهم بما يقوله المسلمون في كتبهم، وتَبَيَّن أنهم -لفرط جهلهم- يظنُّون أن المسلمين يقولون مقالةً لا يخفىٰ فسادُها علىٰ من له أدنىٰ عقلٍ ومعرفة.

والمسلمون فلا يشكُّ أحدٌ من الأمم أنهم أعظم الأمم عقولًا وأفهامًا، وأتمّهم معرفةً وبيانًا، وأحسنُ قصدًا وديانةً وتحرِّيًا للصِّدق والعدل، وأنهم لم يحصل في النَّوع الإنسانيِّ أمَّةٌ أكملُ منهم، ولا ناموسٌ أكملُ من النَّاموس الذي جاء به نبيُّهم محمَّدٌ ﷺ، وحُذَّاقُ الفلاسفة معترفون لهم بذلك، وأنه لم يقْرع العالمَ ناموسٌ أكملُ من هذا النَّاموس.

وقد جمع الله للمسلمين جميعَ طرقِ المعارف الإنسانيَّةِ وأنواعها، فإن الناس نوعان: أهل كتاب، وغير أهل كتاب، كالفلاسفة والهند[3].

والعلم ينال بالحسِّ والعقل وما يحصل بهما، وبوحي الله إلىٰ أنبيائه الذي هو خارجٌ عما يشترك فيه الناس من الحسِّ والعقل.

ولهذا قيل: الطرق العلمية: البصر والنظر والخبر. الحس والعقل

---

(١) (ي): «جميع من بأقطار».

(٢) «ما» ليست في (و)، (ط.النيل): «مما».

(٣) (المطبوعتان): «والهنود».

والوحي. الحس والقياس والنبوة.

فأهل الكتاب امتازوا عن غيرهم بما جاءهم من النُّبوَّة، مع مشاركتهم لغيرهم فيما يشترك فيه النَّاس من العلوم الحسِّيَّة والعقليَّة.

والمسلمون حصل لهم من العلوم النبويَّةِ والعقليَّةِ ما كان للأمم قبلهم، وامتازوا عنهم بما لا تعرفه الأمم. وما اتَّصل إليهم من عقليَّات الأمم هذَّبوه لفظًا ومعنًى حتىٰ صار أحسنَ ممَّا كان عندهم، ونفوْا عنه من الباطل[1]، وضمُّوا إليه من الحقِّ ما امتازوا به علىٰ من سواهم.

وكذلك العلوم النبويَّة أعطاهم الله منها[2] ما لم يعطه أمَّةً قبلهم، وهذا ظاهرٌ لمن تدبَّر القرآنَ مع تدبُّر التَّوراة والإنجيل؛ فإنه يجد من فضل علم القرآن ما لا يخفىٰ إلا علىٰ العُمْيان.

فكيف يُظَنُّ مع هذا بالمسلمين أن يخفىٰ عليهم فسادُ هذا الكلام الذي ظنَّه بهم هؤلاء الجُهَّال.

ويقال ثانيًا: **الجواب من وجوه:**

أحدها: أن المسلمين لم يدَّعوا أن هذه الكتبَ حُرِّفت بعد انتشارها وكَثْرة النُسَّخ بها، ولكنَّ جميعَهم متَّفِقون علىٰ وقوع التَّبديل والتغيير في كثيرٍ من معانيها، وكثيرٍ من أحكامها.

وهذا ممَّا تُسَلِّمه النصارىٰ جميعُهم في التَّوراة، والنُّبوَّات المتقدِّمة، فإنهم

---

(١) (و، ع، ط.النيل): «الناموس» كذا، والصواب هو المثبت؛ لدلالة سياق ما بعده؛ إذ هو مقابَل «بالحق».

(٢) «منها» سقطت من (المطبوع).

يسلمون أن اليهود بدلوا كثيرًا من معانيها وأحكامها.

ومما تُسَلِّمه النَّصارىٰ في فرقهم، فإن كلَّ فرقةٍ تخالف الأخرىٰ فيما تفسِّر به الكتبَ المتقدِّمة، وتُسَلِّمه اليهود؛ فإنهم متَّفِقون علىٰ أن النَّصارىٰ تفسِّر التَّوراة والنُّبوَّات المتقدِّمة علىٰ الإنجيل بما يخالف معانيها، وأنها بَدَّلت أحكامَ التَّوراة، فصار تبديل كثيرٍ من معاني الكتب المتقدِّمة متَّفقًا عليه بين المسلمين واليهود والنصارىٰ.

وأما تغييرُ بعضِ ألفاظها ففيه نزاعٌ بين المسلمين.

والصواب الذي عليه الجمهور: أنه بُدِّل بعضُ ألفاظها، كما ذُكِر ذلك في مواضعه[1].

الوجه الثاني: أن قياسَهم كتبَهم علىٰ القرآن وأنه كما لا تُسْمَع دعوىٰ التبديل فيه فكذلك في كتبهم= قياسٌ باطلٌ في معناه ولفظِه.

أما معناه: فكلُّ ما أجمع المسلمون عليه من دينهم إجماعًا ظاهرًا معروفًا عندهم فهو منقولٌ عن الرَّسول نقلًا متواترًا، بل معلومًا بالاضطرار من دينه، فإن الصَّلوات الخمس، والزكاةَ، وصيامَ شهر رمضان، وحجَّ البيت العتيق، ووجوبَ العدل والصِّدقِ، وتحريمَ الشرك والفواحشِ والظُّلمِ، بل[2] وتحريمَ الخمر، والميسر، والرِّبا، وغير ذلك، منقولٌ عن النَّبيِّ ﷺ نقلًا متواترًا كنقل ألفاظ القرآن الدَّالَّة علىٰ ذلك.

ومن هذا الباب: عمومُ رسالته ﷺ، وأنه مبعوثٌ إلىٰ جميع الناس، أهل الكتاب وغيرِ أهل الكتاب، بل إلىٰ الثَّقلين، الإنس والجن، وأنه كان يُكَفِّرُ

---

(١) انظر ما مضىٰ (٢/ ٢٢، ٢٩).

(٢) «بل» ليست في (و).

اليهود والنصارىٰ الذين لم يتِّبعوا ما أنزل الله عليه، كما كان يُكَفِّر غيرَهم ممَّن لم يؤمن بذلك، وأنه جاهدهم وأمر بجهادهم.

فالمسلمون عندهم منقولًا عن نبيِّهم نقلًا متواترًا ثلاثةُ أمور: لفظ القرآن، ومعانيه التي أجمع المسلمون عليها، والسُّنَّة المتواترة، وهي الحكمة التي أنزلها الله عليه غير القرآن[1].

كما قال تعالىٰ: ﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِّنكُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [البقرة: ١٥١]، وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [البقرة: ٢٣١]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤].

وبذلك دعا الخليل حيث قال لمَّا بنىٰ هو وإسماعيل الكعبة بأرض فاران[2] المذكورة في الكتاب الأول، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٢٩﴾﴾ [البقرة: ١٢٧-١٢٩].

---

(١) «غير القرآن» ليست في (و).

(٢) فاران: كلمة عبرانية معربة، وهي من أسماء «مكة» ذكرها في التوراة، قيل: هو اسم لجبال مكة. «معجم البلدان» (٤/ ٢٢٥).

وقال ﷺ: «ألا إنِّي أوتيتُ الكِتابَ ومِثْلَه مَعَهُ»[1].

فالمسلمون عندهم نقلٌ متواترٌ عن نبيِّهم بألفاظ القرآن ومعانيه المتَّفق عليها، وبالسُّنة المتواترة عنه، مثلُ: كون الظهر والعصر والعشاء أربعًا، وكونُ المغرب ثلاثَ ركعات، وكون الصُّبْح ركعتين، ومثل الجهر في العشائين والفجر، والمخافتةِ في الظُّهر والعصْر، ومثلُ كون الرَّكعة فيها سجدتان، وكونُ الطَّواف بالبيت وبين الصَّفا والمروة سبعًا، ورمي الجمرات كلُّ واحدةٍ سبعُ حصيات، وأمثال ذلك.

وأيضًا فالمسلمون يحفظون القرآن في صدورهم حفظًا يستغنون به عن المصاحف، كما ثبت في الصَّحيح الذي رواه مسلم[2] عن النبي ﷺ أنه قال: «إنَّ رَبِّي قال لي: إني مُنَزِّلٌ عَلَيْكَ كتابًا لا يَغْسِلُه المَاء، تَقْرَؤُهُ نَائِمًا ويَقْظَانَ».

يقول: ولو غُسِلَ بالماء من المصاحف لم يُغْسَل من القلوب كالكتب المتقدمة؛ فإنه لو عُدِمت نسخُها لم يوجد من ينقلها نقلًا متواترًا محفوظةً في الصُّدور.

والقرآن ما زال محفوظًا في الصُّدور نقلًا متواترًا، حتىٰ لو أراد مريدٌ أن يغيِّر شيئًا من المصاحف وعَرض ذلك علىٰ صِبْيان المسلمين لعرفوا أنه قد غَيَّر المصحفَ -لحفظهم للقرآن من غير أن يقابلوه بمصحف- وأنكروا ذلك.

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٧٤) وأبو داود (٤٦٠٤) عن المقدام بن معدي كرب ﷺ. ورجال إسناد هذا الحديث ثقات رجال الصحيح، غير عبد الرحمن بن أبي عوف الجرشي، وهو ثقة كما في «التقريب» رقم (٣٩٧٤).

(٢) (٢٨٦٥).

وأهل الكتاب يقدر الإنسان[1] أن يكتب نُسَخًا كثيرةً بالتوراة والإنجيل، ويُغَيِّرَ بعضَها، ويعرضَها علىٰ كثيرٍ من علمائهم، ولا يعرفون ما غُيِّر منها إن لم يعرضوه علىٰ النُّسَخ التي عندهم.

ولهذا لما غُيِّر مِن[2] نسخ التَّوراة راجَ ذلك علىٰ طوائف منهم ولم يعلموا التَّغْيِير.

وأيضًا فالمسلمون لهم الأسانيد المتَّصلة بنقل العدول الثقات[3] لدقيق الدين، كما نقلَ العامَّةُ جليلَه، وليس هذا لأهل الكتاب.

وأيضًا فما ذكروه من أن كتبهم مكتوبةٌ باثنين وسبعين لسانًا هو أقرب إلىٰ التَّغْيير من الكتاب الواحد باللُّغة الواحدة؛ فإنّ هذا مما يحفظه الخلق الكثير فلا يقدر أحدٌ أن يغيِّره.

وأما الكتب المكتوبة باثنين وسبعين لسانًا، فإذا قُدِّرَ أن بعض النُّسخ الموجودة ببعض الألسنة غُيِّرَ بعضُ ما فيها، لم يعلم بذلك سائر أهل الألسُن الباقية[4]، بل ولم يعلم بذلك سائرُ أهل النُّسَخ الأُخَر، فالتغيير فيها ممكنٌ كما يمكن في نظائر ذلك.

وما ادَّعوه مِن تعذُّر جمْعِ جميع النُّسَخ هو حجّةٌ عليهم، فإن ذلك إذا كان متعذِّرًا لم يمكن الجزم باتفاق جميع[5] النسخ لواحد، حتىٰ يشهد بأنها كلَّها متَّفقةٌ لفظًا ومعنًى، بل إمكان التَّغْيير فيها أيسر من إمكان الشَّهادة باتفاقها.

---

(١) بعدها في (المطبوعتين): زيادة «منهم» وليست في الأصول.

(٢) (ي): «بعض».

(٣) بعدها في (ي) «الناقلين».

(٤) «الباقية» ليست في (ي).

(٥) (د، ع، ط.النيل): «جمع».

ولهذا لا يمكن أحدًا تغيير القرآن، مع كونه محفوظًا في القلوب منقولًا بالتَّواتر، مع أنَّا لا نشهد لجميع المصاحف بالاتفاق، بل قد يقع في بعض نسخ المصاحف ما هو غلطٌ يعلمه حفَّاظ القرآن، ولا يحتاجون إلىٰ اعتبار ذلك بمصحفٍ آخر.

وتلك الكتب لا يحفظ كلًّا منها قومٌ من أهل التَّواتر حتىٰ تُعتَبر النُّسَخ بها، ولكن لمَّا كان الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ فيهم موجودين، كانوا هم المرجع للنَّاس فيما يعتمدون عليه إذا غَيَّر بعضُ الناس شيئًا من الكتب، فلما انقطعت النبوَّة فيهم أسرع فيهم التغيير.

فلهذا بدَّل كثيرٌ من النصارىٰ كثيرًا من دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بعد رفعه بقليلٍ من الزمان، وصاروا يبدِّلون شيئًا بعد شيء، وتبقَّىٰ فيهم طائفةٌ متمسكةٌ بدين الحقِّ إلىٰ أن بعث الله محمدًا صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد بقي من أولئك الذين علىٰ[1] الحقِّ طائفةٌ قليلة، كما في الحديث الصَّحيح الذي رواه مسلم[2] في «صحيحه»، عن عياض بن حمار المجاشعي[3] عن النبي صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنه قال: «**إنَّ الله نَظَرَ إلىٰ أهْلِ الأرْضِ فمَقَتَهم عَربَهُم وعجَمَهُم إلا بقَايَا مِنْ أهْلِ الكِتَابِ**» ماتوا قبيل مبعثه صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وقد أدرك سلمانُ الفارسي - وكان قد تنصَّر بعد أن كان مجوسيًّا - طائفةً

---

(١) بعدها في هامش (ي): «الدين».
(٢) (٢٨٦٥).
(٣) (د، ع، ط.النيل): «المشاجعي» تصحيف. وقد كانت هكذا في (و) فضرب عليها، وألحقها في الهامش علىٰ الصواب.

ممن كانوا متَّبعين لدين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، واحد بالموصل، وآخَرُ بنَصيبِين[1]، وآخرُ بعَمُّوريِّة[2].

وكل منهم يخبره بأنه لم يبْق علىٰ دين المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إلا قليل، إلىٰ أن قال له آخرهم: لم يبق عليه أحد، وأخبره أنه يُبْعَث نبيٌّ بدين إبراهيم من جهة الحجاز، فكان ذلك سببَ هجرة سلمانَ إليه وإيمانه به.

فالدِّين الذي اجتمع عليه المسلمون اجتماعًا ظاهرًا معلومًا، هو منقولٌ عن نبيِّهم نقلًا متواترًا، نقلوا القرآن ونقلوا سنَّته[3]، وسنَّته مفسِّرةٌ للقرآن مبيِّنةٌ له، كما قال تعالىٰ له: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل: ٤٤]، فبَيَّنَ ما أنزل اللهُ[4] لفظَه ومعناه، فصار معاني القرآن التي اتَّفق عليها المسلمون اتفاقًا ظاهرًا ممَّا توارثته الأمَّة عن نبيِّها، كما توارثت عنه ألفاظ القرآن.

فلم يكن -ولله الحمد- فيما اتَّفقت عليه الأمَّة شيءٌ محرَّفٌ مبدَّلٌ من المعاني، فكيف بألفاظ تلك المعاني؟ فإنَّ نقْلها والاتفاقَ عليها أظهر منه في الألفاظ، فكان الدِّين الظاهرُ للمسلمين الذي اتَّفقوا عليه مما نقلوه عن نبيِّهم، لفظه ومعناه، فلم يكن فيه تحريفٌ ولا تبديل، لا للَّفظ ولا للمعنىٰ، بخلاف التوراة والإنجيل فإن من ألفاظها ما بَدَّل معانيَه وأحكامه اليهودُ والنصارىٰ،

---

(١) مدينة كانت علىٰ جادّة القوافل من الموصل إلىٰ الشام، بينها وبين الموصل ستة أيام. «معجم البلدان» (٥/ ٢٨٨)، «المعالم الأثيرة» (٢٨٨).

(٢) كانت مدينة كبيرة للروم في هضبة الأناضول، تقع وسط تركيا، جنوب غربي أنقرة، وتسمىٰ اليوم «سيلفي حصار». انظر: «معجم البلدان» (٤/ ١٥٨)، «المعالم الأثيرة» (٢٠٢).

(٣) «نقلوا القرآن ونقلوا سنته» ليست في (و).

(٤) (ي): «إليه».

أو مجموعَهما تبديلًا ظاهرًا مشهورًا في عامَّتهم، كما بدَّلت اليهودُ ما في الكتب المتقدِّمة من البشارة بالمسيح ومحمَّدٍ ﷺ، وما في التَّوراة من الشرائع، وأمره، وفي بعض الأخبار.

وكما بدَّلت النَّصارىٰ كثيرًا مما في التَّوراة والنبوَّات من الأخبار، ومن الشَّرائع التي لم يغيِّرها المسيح، فإنَّ ما نسَخَه الله علىٰ لسان المسيح من التَّوراة يجب اتباعُ المسيح فيه.

وأما ما بُدِّل بعد المسيح، مثل: استحلال لحم الخنزير، وغيره مما حرَّمه الله ولم يبحه المسيح، ومثلُ: إسقاط الخِتان، ومثلُ الصَّلاة إلىٰ الشَّرق[1]، واتخاذِ الصُّور في الكنائس، وتعظيم الصَّليب، واتباع الرَّهْبانيَّة، فإن هذه كلَّها شرائعُ لم يشرعها نبيٌّ من الأنبياء، لا المسيحُ ولا غيرُه، خالفوا بها شرع الله الذي بَعَثَ به الأنبياء من غير أن يشرعها[2] الله علىٰ لسان نبي.

الوجه الثالث: أن القرآن قد ثبت بالنَّقل المتواتر المعلوم بالضَّرورة للموافق والمخالف أنَّ محمدًا ﷺ كان يقول: إنه كلامُ الله لا كلامُه، وإنه مبلِّغ له عن الله، وكان يفرِّق بين القرآن وبين ما يتكلَّم به من السُّنة، وإن كان ذلك ممَّا يجب اتِّباعه فيه تصديقًا وعملًا؛ فإن الله أنزل عليه الكتاب والحكمة، وعلَّم أمته الكتاب والحكمة، كما قال تعالىٰ: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ﴾ [آل عمران: ١٦٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمَآ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ

---

(١) بعدها في (المطبوعتين): «وزيادة الصوم ونقله من زمان إلىٰ زمان». وليست في الأصول.
(٢) الأقرب في الأصول أنها: «شرعها»، والمثبت من (المطبوعتين).

وَٱلْحِكْمَةِ يَعِظُكُم بِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣١] وقال تعالىٰ: ﴿وَأَنزَلَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُن تَعْلَمُ﴾ [النساء: ١١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْنَ مَا يُتْلَىٰ فِى بُيُوتِكُنَّ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ وَٱلْحِكْمَةِ﴾ [الأحزاب: ٣٤] وقال تعالىٰ عن الخليل وابنه إسماعيل: ﴿رَبَّنَا وَٱجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَآ أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ﴾ [البقرة:١٢٨-١٢٩].

وقال النَّبيُّ ﷺ: «ألا إِنِّي أُوتيتُ الكِتَابَ ومثْلَه مَعَهُ»(١)، فكان يُعَلِّمُ أمَّته الكتاب، وهو القرآن العزيز الذي أخبرهم أنه كلامُ الله لا كلامُه، وهو الذي قال عنه: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء:٨٨].

وهو الذي شرع لأمَّته أن تقرأه في صلاتهم، فلا تصحُّ صلاةٌ إلا به، وعلَّمهم مع ذلك الحكمةَ التي أنزلها اللهُ عليه، وفرَّق بينها وبين القرآن من وجوه:

منها: أن القرآن معجز.

ومنها: أن القرآن هو الذي يُقرأ في الصلاة دونها.

ومنها: أن ألفاظ القرآن العربيَّةَ منزلةٌ علىٰ ترتيب الآيات، فليس لأحدٍ أن يغيرها باللِّسان العربيِّ باتِّفاق المسلمين، ولكن يجوز تفسيرها باللسان العربي، وترجمتها بغير العربيّ.

---

(١) تقدّم تخريجه (ص٦٤).

وأما تلاوتها بالعربيِّ بغير لفظها فلا يجوز باتفاق المسلمين، بخلاف ما علَّمهم من الحكمة، فإنه ليس حكمُ ألفاظها حكمَ ألفاظ القرآن.

ومنها: أن القرآن لا يمسُّه إلا طاهر(١)، ولا يقرؤه الجنب(٢)، كما دلَّت عليه سنَّتُه عند جماهير أمَّتِه، بخلاف ما ليس بقرآن.

والقرآن تلقَّتْه الأمَّةُ منه حفظًا في حياته، وحفظ القرآن جميعه في حياته غيرُ واحدٍ من أصحابه، وما من الصَّحابة إلا من حفظ بعضه، وكان يحفظ بعضهم ما لا يحفظه الآخر، فهو جميعه منقول سماعًا منه بالنَّقْل المتواتر، وهو يقول: إنه مُبلِّغٌ له عن الله، وهو كلام الله لا كلامُه.

وفي القرآن ما يُبَيِّن أنه كلام الله نصوصٌ كثيرة، وكان الذين رأوا محمدًا ﷺ ونقلوا ما عاينوه من معجزاته، وأفعاله، وشريعته، وما سمعوه من القرآن، وحديثه، ألوفًا مؤلفةً، أكثرَ من مائة ألف رأوه وآمنوا به.

وأما الإنجيل الذي بأيدي النصارىٰ، فهي أربعة أناجيل: إنجيل متَّىٰ، ويوحنَّا، ولوقا، ومرقس، وهم متَّفقون علىٰ أن لوقا ومرقس لم يريا المسيح،

---

(١) مشهور عند أهل العلم بكتاب رسول الله ﷺ لعمرو بن حزم رضي الله عنه. أخرجه الدارمي (٢٣١٢)، وابن حبان (٦٥٥٩) والدارقطني (٤٣٨)، وغيرهم. قال الإمام أحمد كما في «جزء في مسائل عن أحمد للبغوي» (ص٥١): «أرجو أن يكون صحيحًا». ونقل عنه ابن عبد الهادي في «تنقيح التحقيق» (٣/ ١١) أنه قال: «صحيح». وقال ابن عبد البر في «التمهيد» (١٧/ ٣٣٨): «روي مسندًا من وجه صالح، وهو كتاب مشهور عند أهل السير معروف ما فيه عند أهل العلم معرفة تستغني بشهرتها عن الإسناد؛ لأنه أشبه التواتر في مجيئه؛ لتلقي الناس له بالقبول والمعرفة».

(٢) أخرجه أبو داود (٢٢٩) والترمذي (١٣١) وابن ماجه (٥٩٤) وقال الترمذي: وهو قول أكثر أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ، والتابعين، ومن بعدهم. مثل: سفيان الثوري، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد. وصححه الحاكم (١/ ٢٥٣) ووافقه الذهبي.



وإنما رآه متَّىٰ ويوحنَّا، وأن هذه المقالات الأربعة التي يُسَمُّونها الإنجيل، وقد يسمُّون كلَّ واحدٍ[1] إنجيلًا، إنما كتبها هؤلاء بعد أن رُفِع المسيح، فلم يذكروا فيها أنها كلامُ الله، ولا أنَّ المسيح بلَّغها عن الله، بل نقلوا فيها أشياء من كلام المسيح، وأشياء من أفعاله ومعجزاته.

وذكروا أنهم لم ينقلوا كلَّ ما سمعوه منه ورأوه، فكانت من جنس ما يرويه أهل الحديث، والسِّيَر والمغازي عن النبي ﷺ من أقواله وأفعاله التي ليست قرآنًا.

فالأناجيل التي بأيديهم شِبْهَ كتاب السِّيرة، وكتب الحديث، ومثل هذه الكتب، وإن كان غالبها صحيحًا.

وما قاله المسيح[2] عليه السلام فهو مبلِّغٌ له عن الله، يجب فيه تصديقُ خبره وطاعةُ أمره كما[3] قاله الرسول من السُّنة، فهو يشبه ما قاله الرسول من السُّنة، فإنّ منها ما يذكر الرسول أنه قول الله، كقوله: يقول الله تعالىٰ: «**مَنْ عَادَىٰ لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُه بالحَرْبِ**»[4] ونحو ذلك.

ومنها ما يقوله هو، ولكن هو أيضًا ممَّا أوحاه الله إليه، فمن أطاع الرسول فقد أطاع الله، فهكذا ما يُنقَلُ في الإنجيل هو من هذا النَّوع، فإنه وإن[5] كان أمرًا من المسيح، فأمْرُ المسيح أمرُ الله، ومن أطاع المسيح فقد أطاع الله.

---

(١) بعدها في (المطبوعتين): «منهم».
(٢) «المسيح» ليس في (المطبوع).
(٣) كتب في هامش (و): لعله: «فما».
(٤) أخرجه البخاري(٦٥٠٢).
(٥) (وإن) ساقطة من (المطبوع).

وما أخبر به المسيحُ عن الغيب فاللهُ أخبَرَه به، فإنه معصومٌ أن يَكْذِبَ[1] فيما يخبِرُ به.

وإذا كان الإنجيل يشبه السُّنَّة المنَزَّلة، فإنه قد يقع في بعض ألفاظها غلط، كما يقع في كتاب[2] السِّيرة، و«سننِ أبي داود»، والتِّرمذي، وابن ماجه.

ثم هذه الكتب قد اشتهرت واستفاضت بين المسلمين فلا يمكن أحدٌ - بعد اشتهارها وكثرة النُّسَخ بها- أن يبدِّلها كلَّها، لكن في بعض ألفاظها غلطٌ وقع فيها قبل أن تشتهر، فإن المحدِّث - وإن كان عدلًا - فقد يغلط، لكن[3] ما تلقَّاه المسلمون بالقبول، والتَّصديق، والعمل من الأخبار فهو مما يجزم جُمْهورُ المسلمين بصدْقِهِ عن نبيِّهم، هذا مذهب السَّلف، وعامَّة الطَّوائف، كجمهور الطَّوائف الأربعة، وجمهور أهل الكلام، من الكُلَّابية، والكَرَّاميَّة، والأشعريَّة، وغيرهم[4].

ولكن ظنّ بعض أهل الكلام أنه لا يُجزم بصدقها؛ لكون الواحد قد يغلط أو يكذب، وهذا الظن إنما يتوجَّه في الواحد الذي لم يُعرف صدقُه وضبطُه، أما إذا عُرِفَ صدقُه وضبطُه، إما بالمعجزات كالأنبياء، وإما بتصديق النَّبيِّ له فيما

---

(١) «أن يكذب» ليست في (و، ي).

(٢) (المطبوع): «كتب». خلافًا للأصول.

(٣) «لكن ما تلقاه...ماعند المسلمين» ساقط من (د) وهو في نحو صفحتين.

(٤) تقدّم ذكر الكرّامية والأشعرية (١/ ٣٧٦). وأما الكُلّابية فهم: أتباع عبد الله بن سعيد بن كُلّاب، الذي سلك الأشعري خطته، وهو أول من عرف عنه إنكار قيام الأفعال الاختيارية بذات الربّ تعالىٰ، وأن القرآن معنًى قائم بالذات. انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٣٠) و«اجتماع الجيوش الإسلامية» (ص٤٣٢).

يقول، وإمَّا باتِّفاق الأمَّة المعصومة علىٰ صدقه، أو اتِّفاقهم[1] علىٰ العمل بخبره، أو اتفاقهم علىٰ قبول خبره وإقراره، وذكره من غير نكير، أو ظهور دلائلَ وشواهدَ وقرائنَ احتفَّت بخبره، ونحوِ ذلك من الدَّلائل الدَّالَّة[2] علىٰ صدق المخبِر، فهذه يجب معها الحكم بصدقه، وأنه لم يكذب ولم يغلط، وإن كان خبره لو تجرَّد عن تلك الدَّلائل أمكن كذِبُه أو غلطه، كما أن الخبرَ المجرَّد لا يُجْزَمُ بكذِبه إلا بدليلٍ يدلُّ علىٰ ذلك، إما قيامِ دليلٍ عقليٍّ قاطع، أو سمعيٍّ قاطع علىٰ أنه بخلافٍ مخبره، فيُجزم ببطلان خبره[3]، وحينئذ فالمخبِرُ إمَّا كاذب، أو غالط، وقد يُعلم أحدهما بدليل.

فالمسلمون عندهم من الأخبار عن نبيِّهم ما هو متواتر، وما اتَّفقت الأمَّةُ المعصومة علىٰ تصديقه، وما قامت دلائل صدقه من غير هذه الجهة مثل: أن يخبر واحدٌ، أو اثنان، أو ثلاثة بحضرة جمْعٍ كثير لا يجوز أن يتواطؤوا علىٰ الكذب بخبر يقولون: إن أولئك عاينوه وشاهدوه، فَيُقِرُّونهم علىٰ هذا ولا يكذِّبُه[4] منهمٍ أحد، فيُعلم بالعادة المطَّرِدة أنه لو كان كاذبًا لامتنع اتفاق أهل التَّواتر علىٰ السُّكوت عن تكذيبه، كما يمتنع اتفاقُهم علىٰ تعمُّد الكذب.

وإذا نقل الواحدُ والاثنانُ ما توجِبُ العادةُ اشتهارَه وظهورَه ولم يظهر، ونقلوه مسْتَخْفين بنقله لم ينقلوه علىٰ رؤوس الجمهور، عُلِم أنهم كذبوا فيه.

---

(١) (ع. ط.النيل): «واتفاقهم».

(٢) «الدالة» ساقطة من (المطبوع).

(٣) (ي، ع، ط.النيل): «مخبره».

(٤) (المطبوعتان): «يكذب به».



ودلائل صدق المخبِر وكذبِه كثيرةٌ متنوعةٌ، ليس هذا موضع بسْطِها. **ولكنَّ المقصود هنا**: أنَّ المسلمين تواتر عندهم عن نبيِّهم ألفاظُ القرآن ومعانيه المجمع عليها، والسُّنَّةُ المتواترة. وعندهم عن نبيِّهم أخبارٌ كثيرةٌ معلومةُ الصِّدق بطرقٍ متنوعة، كتصديق الأمَّة المعصومة، ودلالةِ العادات، وغير ذلك، وهم يحفظون القرآن في صدورهم، لا يحتاجون في حفظه إلىٰ كتابٍ مسطور، فلو عُدِمت المصاحفُ من الأرض لم يقدح ذلك فيما حفظوه.

بخلاف أهل الكتاب؛ فإنه لو عُدمت نُسَخ[1] الكتب لم يكن عندهم به نقلٌ متواترٌ بألفاظها؛ إذ لا يحفظها -إن حفظها- إلا قليلٌ لا يوثَقُ بحفظهم؛ فلهذا كان أهل الكتاب بعد انقطاع النُّبوَّة عنهم يقع فيهم من تبديل الكتب، إمّا تبديل بعض معانيها وأحكامها، وإما تبديل بعض ألفاظها ما لم يقوموا بتقويمه؛ ولهذا لا يوجد فيهم الإسناد الذي للمسلمين، ولا لهم كلامٌ في نَقَلَة العلم، وتعديلِهم وجرحِهم، ومعرفةِ أحوال نَقَلَة العلم ما للمسلمين، ولا قام دليلٌ سمعيٌّ ولا عقليٌّ علىٰ أنهم لا يجتمعون علىٰ خطأ، بل قد عُلم أنهم اجتمعوا علىٰ الخطأ لمَّا كذَّبوا المسيح، ثم كذَّبوا محمَّدًا ﷺ.

فإذا كانت الكتب المنقولة عن الأنبياء من جنس الكتب المنقولة عن محمّد، ولم تكن[2] متواترةً عنهم، ولم يكن تصديقُ غير المعصوم حجَّة، لم يكن عندهم من العلم بالتمييز بين الصِّدق والكذب ما عند المسلمين[3].

---

(١) «نسخ» ساقطة من (و).

(٢) (و، ي): «وليست» بدل: «ولم تكن».

(٣) هنا انتهىٰ السقط في (د).

فهذه الأناجيل التي بأيدي النصارىٰ من هذا الجنس، فيها شيءٌ كثيرٌ من أقوال المسيح وأفعاله ومعجزاته، وفيها ما هو غلطٌ عليه بلا شك، والذي كتبها في الأوَّل إذا لم يكن ممَّن يُتَّهم بتعمُّد[1] الكذب[2]؛ فإن الواحد والاثنين والثلاثة والأربعة لا يمتنع وقوعُ الغلط والنسيان منهم، لا سيَّما ما سمعه الإنسان ورآه ثم حدَّث به بعد سنينَ كثيرة، فإن الغلط في مثل هذا كثير، ولم يكن هناك أمَّةٌ معصومةٌ يكون تلقيها لها بالقبول والتصديق موجبًا للعلم بها، لئلا تجتمع الأمَّةُ المعصومة علىٰ الخطأ، والحواريُّون كلهم اثنا عشر رجلًا.

وقصَّة الصَّلب ممَّا وقع فيها الاشتباه، وقد قام الدَّليل علىٰ أن المصلوب لم يكن هو المسيح عليه السلام، بل شَبَهه، وهم ظنوا أنه المسيح، والحواريُّون لم يَر أحدٌ منهم المسيحَ مصلوبًا، بل أخبرهم بصَلْبه بعضُ مَن شهد ذلك من اليهود[3].

فبعض الناس يقول: إن أولئك تعمَّدوا الكذب، وأكثر الناس يقول: اشتبه عليهم، ولهذا كان جمهور المسلمين يقولون في قوله: ﴿وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧] عن أولئك، ومن قال بالأول جعل الضمير في ﴿شُبِّهَ لَهُمْ﴾ عن السَّامعين لخبر أولئك، فإذا جاز أن يغلطوا في هذا، ولم يكونوا معصومين في نقله، جاز أن يَغلطوا في بعض ما ينقلونه عنه. وليس هذا مما يقدح في رسالة المسيح، ولا فيما تواتر نقْلُه عنه بأنه رسولُ الله الذي يجب اتباعه، سواء صُلِب

---

(١) «بتعمد» ليست في (و، ي).

(٢) (و): «بالكذب».

(٣) (و): «الشهود».

أو لم يُصْلب، وما تواتر عنه فإنه يجب الإيمان به، سواء صلب أو لم يصلب.

والحواريون مصدَّقون فيما ينقلونه عنه، لا يُتَّهَمُون بتعمُّد الكذب عليه، لكن إذا غلط بعضهم في بعض ما ينقله لم يمنع ذلك أن يكون غيره معلومًا، لا سيَّما إذا كان ذلك الذي غلط فيه مما تبيَّن غلطُه فيه في مواضعَ أخر.

وقد اختلف النَّصارىٰ في عامَّة ما وقع فيه الغلط، حتّىٰ في الصَّلْب، فمنهم من يقول: المصْلوب لم يكن المسيح، بل الشَّبَه كما يقوله المسلمون، ومنهم من يُقِرُّ بعبوديَّته لله وينكر الحلولَ والاتحاد كالأريوسيَّة، ومنهم من ينكر الاتحاد، وإن أقرَّ بالحُلول كالنُّسطورية.

وأما الشَّرائع التي هم عليها، فعلماؤهم يعلمون أن أكثرها ليس عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فالمسيح لم يشرع لهم الصَّلاة إلىٰ المشرق، ولا الصِّيام الخمسين[1]، ولا جعَلَه في زمن الرَّبيع، ولا عيدَ الميلاد والغطَّاس، وعيد الصَّليب، وغير ذلك من أعيادهم[2]، بل أكثر ذلك مما ابتدعوه بعد الحواريين، مثل: عيد الصَّليب؛ فإنه مما ابتدعتْه هيْلانة الحرَّانيَّة أمُّ قُسْطَنطين[3].

وفي زمن قُسْطَنطين غيَّروا كثيرًا من دين المسيح، العقائد والشرائع، فابتدعوا «الأمانة» التي هي عقيدة إيمانهم، وهي عقيدةٌ لم ينطق بها شيءٌ من كتب الأنبياء التي هي عندهم، ولا هي منقولةٌ عن أحدٍ من الأنبياء، ولا عن أحدٍ من الحواريِّين الذين صحبوا المسيح، بل ابتدعها لهم طائفةٌ من أكابرهم، قالوا:

---

(١) بعدها في (ع): «يومًا».
(٢) تقدّم ذكر هذه الأعياد وغيرها (١/ ١٨٧).
(٣) تقدّم ذكر هيلانة (١/ ١٨٨).

كانوا ثلاثَمائةٍ وثمانيةَ عشر، واستندوا في ذلك إلىٰ ألفاظٍ متشابهة في الكتب. وفي الكتب: ألفاظٌ محكمةٌ تناقض ما ذكروه، كما قد بُسِط في موضعٍ آخر[1].

وكذلك عامَّة شرائِعهم التي وضعوها في كتاب «القانون»[2]، بعضها منقولٌ عن الأنبياء، وبعضها منقولٌ عن الحواريِّين، وكثيرٌ منها مما ابتدعوه ليست منقولةً عن أحدٍ من الأنبياء، ولا عن الحواريين، وهم يجوِّزون لأكابر أهل العلم والدِّين أن يغيِّروا ما رأوه من الشِّرائع، ويضعوا شرعًا جديدًا؛ فلهذا كان أكثرُ شرعهم مبتدعًا، لم يَنْزِل به كتاب[3]، ولا شرَعَه نبيٌّ.

---

(١) انظر: (٢/ ٢٢٢-٢٢٣).

(٢) وهو «قانون الإيمان» أو «شريعة الإيمان» أو «القانون النيقاوي» المعروفة بـ«الأمانة». وانظر: «تخجيل من حرف التوراة والإنجيل» (٢/ ٤٩٩)، وما تقدّم (١/ ١٧٣).

(٣) (و): «ينزل الله به كتابًا».

فصـل

وأمـا قـولهم: «كيـف يمكـن تغييـرُ كتبنـا التـي هـي مكتوبـةٌ بـاثنين وسبعين لسانًا، وفي كل لسانٍ منها كذا وكذا ألفِ مصحف[1]، ومضىٰ عليهـا إلىٰ مجـيء محمَّدٍ أكثر من ستِّمِائة سنة»؟

فيقال: أما بعد انتشارها هذا الانتشـار فلـم يقُـل المسـلمون، بـل ولا طائفـةٌ معروفـةٌ مـنهم: إن ألفـاظ جميـعِ كـلِّ نسـخةٍ في العـالم غُيِّـرَت، لكـنَّ جمهـورَ المسلمين الذين يقولون: إن في ألفاظها ما غُيِّر، إنما يدَّعون تغييرَ بعضِ ألفاظها قبل المبعث، أو تغييرَ بعضِ النُّسَخ بعد المبعث، لا تغيير جميع النُّسَخ، فبعض الناس يقول: إن ذلك التغيير وقع في أوَّلِ الأمر، ويقول بعضهم: إن منها مـا غُيِّـر بعد مبعث محمَّدٍ ﷺ، ولا يقولون: إنه غُيِّـر كـلُّ نسـخةٍ في العـالم، بـل يقولـون: غُيِّر بعضُ النُّسَخ دون البعض، وظهر عند كثيرٍ مـن النَّـاس النُّسـخُ المبدَّلـة دون التي لـم تُبدَّل، والنسخ التي لـم تُبدَّل هي موجودةٌ عند بعض الناس.

ومعلومٌ أن هذا لا يمكن نفيه؛ فإنه لا يمكن أحدًا أن يعلم أن كلَّ نسـخةٍ في العالم بكلِّ لسانٍ مطابقٌ لفظُها سائرَ النُّسخ بسـائر الألسـنة، إلا مـن أحـاط علمًـا بذلك، وهم قد سلَّموا أن أحدًا لا يمكنه ذلك.

وأمـا مَـن ذَكَـر أن التَّغْييـر وقـع في أوَّل الأمـر، فهـم يقولـون: إنمـا أُخِـذت الأناجيـل عـن أربعـة: اثنـان منهم لـم يريـا المسـيح، بـل إنمـا رآه اثنـان مِـن نَقَلَـة الإنجيل: متَّىٰ، ويوحنَّا. ومعلومٌ إمكانَ التَّغيير في مثل ذلك.

---

(١) (ع): «كذلك مصحف».



وأما قولهم: «إنها مكتوبة باثنين وسبعين لسانًا» فمعلومٌ باتِّفاق النَّصارىٰ أن المسيح لم يكن يتكلَّم إلا بالعِبْرية كسائر أنبياء بني إسرائيل، وأنه كان مختونًا، خُتِن بعد السابع كما يخْتَتِن بنو إسرائيل، وأنه كان يصلِّي إلىٰ قبلتهم، لم يكن يصلي إلىٰ الشرق، ولا أُمِر بالصَّلاة إلىٰ الشَّرق.

ومن قال: إن لسانه كان سُريانيًّا كما يظنّه بعض الناس فهو غالط، فالكلام المنقول عنه في الأناجيل إنما تكلَّم به عِبْريًا، ثم[1] تُرْجِمَ من تلك اللغة إلىٰ غيرها.

والتَّرجمة يقع فيها الغلط كثيرًا، كما وجدنا في زماننا ما يترجموا[2] التَّوراة من العِبْريَّة إلىٰ العربيَّة، ويَظْهَر في التَّرجمة من الغلط ما يشهد به الحُذَّاق الصَّادقون ممَّن يعرف اللُّغتين.

والنصارىٰ يقولون: إنما كُتِبَت بأربع لغات: بالعِبْريَّة، والرُّوميَّة، واليونانيَّة، والسُّريانيَّة[3].

وأما قولهم: «إنها كتبت باثنين وسبعين لغة» فهذا إن كان صحيحًا فإنما كتبت بعد أن كتبت تلك الأربعة، فإذا كان الغلط وقع في مواضع من تلك الأربعة لم يرفعه بعد ذلك كتابتُها باثنين وسبعين لغة، فإن المسلمين لا يقولون: إنها[4] كتبت باثنين وسبعين لغة غُيِّرَ لفظُه[5] في جميع الألسن لاثنين وسبعين

(١) «ثم» ساقطة من (ي). وفي (أ) زاد بعد (ثم) جملة: «نقله الإنجيل إن نقوله بلغته كان عبريًا فقد» مقحمة. وقد كانت أثبتت في (د) ثم ضرب عليها.
(٢) كذا في الأصول: «ما يترجموا». وفي (المطبوعتين): «من يترجم».
(٣) «والسريانية» ليست في (ي).
(٤) كتب في هامش (و) هنا: «لعله: بعد». فتكون العبارة: «فإن المسلمين لا يقولون: إنها بعد كتبت...».
(٥) (المطبوعتان): «لفظها».

لغة في كل نسخة من ذلك.

وإنما يقال[1]: التَّغيير وقع قبل ذلك، كما يقال في سائر ما يروونه[2] عن المسيح وموسىٰ ومحمد - عليهم صلوات الله وسلامه - من الحديث، مثل «سيرة ابن إسحاق» وأحاديث السُّنن والمسانِد المأثورة عن النبي ﷺ، فإنّ في العالم بكلِّ كتابٍ منها نسخٌ كثيرة، لا يمكن أن يُغَيَّر منها فصلٌ طويل، ولكن في نفس السِّيرة وقع غلطٌ في مواضع، وأحاديث وقعت في السُّنن هي غلطٌ في الأصل، فاشتهار النُّسخ بها بعد ذلك لا يَمْنع وقوعَ الغلط في الأصل، وهذه كتب التَّفسير، والفقه، والرقائق[3]، ما من كتابٍ إلا وبه نسخٌ كثيرةٌ في العالم، لا يمكن تغييرُ فصلٍ طويلٍ منها، وفيها أحاديثُ غلطٌ في الأصل.

والأناجيل التي بأيدي النَّصارىٰ تشبه هذا؛ ولهذا أُمِروا أن يحكموا بما فيها، فإن فيها أحكامَ الله، وعامَّة ما فيها من الأحكام لم يبدَّل لفظُه، وإنما بُدِّلت بعضُ ألفاظ الخبريَّات، وبعضُ معاني الأمْريَّات، كما نؤمر نحن أن نعمل بأحاديث الأحكام المعروفة عن النَّبيِّ ﷺ، فإن العلماء اعتنَوْا بضبطها أكثرَ من اعتنائهم بضبط الخبريَّات، كأحاديث الزُّهد، والقصص، والفضائل، ونحوِ ذلك؛ إذ حاجة الأمم إلىٰ معرفة الأمر والنَّهي أكثرُ من حاجتهم إلىٰ معرفة التَّفاصيل بالخبريَّات التي يُكتفىٰ بالإيمان[4] المُجْملِ[5] بها.

---

(١) «يقال»: ليست في (و، ي).

(٢) (د، ط.النيل): «يرونه»، (ي): «يرويه»، (المطبوع): «ورد».

(٣) (المطبوعتان): «الدقائق» تصحيف.

(٤) (و، د، ع): «بالآيات». وكتب في هامش (و): لعله «بالإيمان» وهو الذي اقتضاه السياق.

(٥) (ي): «الإنسان بالمجمل».

وأما الأمر والنَّهي، فلابد من معرفته علىٰ وجه التَّفصيل؛ إذ العمل بالمأمور لا يكون إلا مفصَّلًا، والمحظور الذي يجب اجتنابه لابد أن يُمَيَّز بينه وبين غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَىٰهُمْ حَتَّىٰ يُبَيِّنَ لَهُم مَّا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥].

والنَّصارىٰ لا يحتاجون عند أنفسهم إلىٰ هذا؛ فإنه لا يجب عندهم أن يتمسَّكوا بشرعٍ منقولٍ عن المسيح عليه السلام، و[1]عندهم لأكابرهم أن يشرعوا دينًا لم يشرعه المسيح، ويقولون: ما شرعه هؤلاء فقد شرعه المسيح، فلم يكن لهم عنايةٌ ولا معرفةٌ بشرع المسيح كما للمسلمين عنايةٌ ومعرفةٌ بشرعِ محمَّدٍ ﷺ.

(١) هامش(ي): «بل يجوز عندهم...».

فصـل

وأما التَّوراة، فمن المعلوم عند المسلمين واليهود والنَّصارىٰ أن بيت المقدس خَرِبَ الخراب الأوَّل، وجلا[1] أهله منه وسُبُوا، ولم يكن هناك بالتوراة[2] نسخٌ كثيرةٌ ظاهرة، بل إنما أُخِذَت عن نفرٍ قليل.

كما يقولون: إن عُزَيرًا أملاها، وإنهم وجدوا نسخةً أخرىٰ فقابلوها بها. والمقابلة تحصل باثنين، وقد يغلط أحدهما. وهم يذكرون أن من الملوك من أَمَر اثنين وسبعين حَبْرًا منهم بنقلها، واعْتُبِرَ بعضُ تلك النُّسخِ ببعض، وهذا إذا كان صدقًا لا يمنع أن يكون الغلط وقع في بعض ألفاظها قبل ذلك، إلا أن يَثْبُت أنها مأخوذةٌ عن نبيٍّ معصوم، أو أقَرَّ جميعَ ألفاظها نبيٌّ معصوم.

فما قاله المعصوم فهو حقٌّ، وما ثبت بالنَّقل المتواتر فهو حقٌّ.

وهؤلاء القائلون: إنه وقع التَّغْيير في بعض ألفاظها في ذلك الزَّمان[3] يقولون: لم تؤخذ عن نبيٍّ معصوم، ولا نُقِلَت بالتَّواتر.

ومن نازع من المسلمين وأهل الكتاب يقولون: أُخِذَت عن العُزَير، وهو نبيٌّ معصوم. وهذا ممَّا يَحْتَاجُ المثبت فيه والنَّافي إلىٰ تحقيقه.

وإذا قالت النَّصارىٰ: فالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أقرَّها.

قيل: المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يمكنه[4] أن يُلْزِمَهم بما أوجبه الله عليهم من

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «وخلا».
(٢) غيّرت في (المطبوعتين) إلىٰ: «من التوراة».
(٣) بعدها في هامش (ي): «فإنهم».
(٤) المثبت من (و) وفي سائر النسخ: «يمكن».



الإيمان به وطاعته، فكيف كان يمكنه أن يغير نُسَخَ التَّوراة التي عندهم مع كثرتها، وهم قد طلبوا قتْلَه وصلْبَه لعجزه وضعفه، وصلبوا شبيهه كما يقوله المسلمون، أو صلبوه[1] نفسَه كما يقوله النَّصارىٰ[2]، فكيف كان يمكنه أن يُصلح ما غُيِّر منها؟

وأما مَن بعد المسيح فليس معصومًا، والمسيح غيَّر بعض أحكامها، وأقرَّ أكثرها، والأحكام إنما يدَّعي المسلمون فيها النَّسْخَ وتبديلَها بالاعتقادِ بخلاف موجبها والعمل بذلك، لا يحتاجون إلىٰ دعوىٰ تبديل ألفاظها، كما بدَّلوا شريعة الرَّجم بغيرها، وهو مكتوبٌ في التَّوراة، بخلاف الخبريَّات؛ فإن هذه يقول أكثر المسلمين: إن التَّغيير وقع في بعض ألفاظها.

وأما النبوَّاتُ المنقولةُ عن الاثنين وعشرين نبيًّا، فهذه لا تُعْلَم منها نبوةٌ واحدةٌ تواترت جميعُ ألفاظها، بل أحسنُ أحوالها أن تكون بمنزلة الإنجيل، وهو بمنزلة ما يُنْقَل من أقوال الأنبياء وسيرهم، كسيرة ابن إسحاق، أو بعض كتب المساند والسُّنن التي يَنْقُل فيها ما ينقله النَّاقلون من أقوال النَّبيِّ ﷺ وأفعاله، وأكثره صدق، وبعضه غلط، ولكنَّ هذه الأمة حفظ الله لها ما أنزله، كما قال تعالىٰ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾.

فما[3] في تفسير القرآن أو نقل الحديث أو تفسيره من غلطٍ، فإن الله يقيم له من الأمَّة من يُبَيِّنه، ويذكرُ الدَّليل علىٰ غلط الغالط وكَذِب الكاذب؛ فإنّ هذه الأمَّةَ لا تجتمع علىٰ ضلالة، ولا يزال فيها طائفة ظاهرة علىٰ الحقِّ حتىٰ تقوم

---

(١) (و، ع، ط.النيل): «صلبوا». ولم تحرر في (د).

(٢)(و، ي): «علىٰ قولهم» بدل: «كما يقوله النصارىٰ». وسقطت العبارة من (د).

(٣) بعدها في هامش (ي): «وقع».

الساعة؛ إذ كانوا آخر الأمم فلا نبيَّ بعد نبيِّهم، ولا كتاب بعد كتابهم.

وكانت الأمم قبلهم إذا بدَّلوا وغيّروا بعث الله نبيًّا يبيِّن لهم ويأمرهم وينهاهم، ولم يكن بعد محمَّدٍ ﷺ نبي، وقد ضمن الله أنه يحفظ ما أنزله من الذِّكر، وأن هذه الأمة لا تجتمع علىٰ ضلالة، بل[1] أقام الله لهذه الأمة في كل عصرٍ من يحفظ به دينَه من أهل العلم والقرآن[2]، وينفي به تحريف الغالين، وانتحال المبطلين[3]، وتأويل الجاهلين.

---

(١) أثبتها من (المطبوعتين). وليست في الأصول.

(٢) (ي): ضرب علىٰ كلمة «والقرآن» وكتب في الهامش: «والعدل». وقد يشهد له أنه مقتبس من الأثر: «يحمل هذا العلم من كل خلف عدوله...»، ولأن القرآن أصل العلوم كلها.

(٣) المثبت من (و) وفي باقي النسخ: «المضلّين».

فصل

وأما من قال: إنه غُيِّر بعضُ ألفاظها بعد مبعث محمَّدٍ ﷺ.

فهؤلاء يقولون: إنه كان في التَّوراة والإنجيل وغيرهما ألفاظٌ صريحةٌ بأمورٍ منها: اسمُ محمَّدٍ ﷺ، وأنه عمَد بعضُ أهل الكتاب فغيَّروا بعض الألفاظ في النُّسخ التي كانت عندهم. لا يقولون: إن هؤلاء غيَّروا كلَّ نسخةٍ كانت علىٰ وجه الأرض، لكن غيَّروا بعض ألفاظ النُّسَخ، وكَتَبَ النَّاسُ من تلك النُّسَخ المُغَيَّرة نُسَخًا كثيرةً انتشرت، فصار أكثرُ ما يوجد عند كثيرٍ من أهل الكتاب هو من تلك النُّسخ المُغَيَّرة.

وفي العالم نسخٌ أخرىٰ لم تُغَيَّر، فذكر كثيرٌ من النَّاس أنه رآها وقرأها، وفي تلك النُّسخ ما ليس في النُّسخ الأخرىٰ. ومما يدلُّ علىٰ ذلك أنك في هذا الزمان إذا أخذت نُسَخَ التَّوراة الموجودةَ عند اليهود والنَّصارىٰ والسَّامِرَةِ وجدت بينهما اختلافًا في مواضعَ متعدِّدة.

وكذلك نُسَخُ الإنجيل، وكذلك نُسَخُ الزَّبور مختلفةً اختلافًا متباينًا، بحيث لا يعلم العاقل أنَّ جميع نُسَخِ التَّوراة الموجودةِ متفقةٌ علىٰ لفظٍ واحد، ولا يعلم أن جميع نسخ الإنجيل متَّفقة علىٰ لفظٍ واحد، ولا يعْلَم أنَّ جميع نسخ الزَّبُور متَّفقة علىٰ لفظٍ واحدٍ فضلًا عن سائر النُّبوَّات.

ومعلومٌ أنه لا يمكن أهلَ الكتاب إقامة حجَّةٍ علىٰ أن جميع النُّسخ بجميع اللُّغات في زوايا الأرض متَّفقةٌ علىٰ لفظٍ واحدٍ في جميع ما هو موجودٌ من جميع النُّبوَّات، والحُجَّة التي احتجَّوا بها علىٰ تعذُّر تغييرها كلِّها تدلُّ علىٰ تعذُّر العلم بتساويها كلها.

فإذا قالوا: فمن هو الذي تكلَّم باثنين وسبعين لسانًا؟ ومن هو الذي حكم علىٰ الدُّنيا كلها ملوكِها وقساقستها وعلمائها حتىٰ حَكَم علىٰ جميع مَنْ بأقطار الأرض وجَمَعَها من أربع زوايا الأرض حتّىٰ يُغَيِّرها؟

قيل لهم: ومن الذي يعلم اثنين وسبعين لغة؟ ومن هو الذي حكم علىٰ الدنيا ملوكها وقساقِسَتها وعلمائها، حتىٰ حكم علىٰ جميع مَنْ بأقطار الأرض وجمَعَها من أربع زوايا الأرض، وأحضر كلَّ نسخةٍ موجودةٍ في جميع الأرض، وقابل كلَّ نُسْخةٍ موجودةٍ في جميع الأرض[1] بجميع النُّسخ، فوجد جميع ألفاظِ جميع النُّسخ التي باثنين وسبعين لسانًا من جميع أقطار الأرض لفظًا متَّفقًا لم يختلف ألفاظها؟

فإن دعوىٰ العلم بهذا ممتنعٌ أعظمُ من امتناع دعوىٰ تغييرها، فإنه إن أمكن أحدًا أن يجمع جميع النُّسَخ كانت قدرتُه علىٰ تغيير بعض ألفاظها كلِّها أيسرُ عليه من مقابلة كلِّ ما في نسخةٍ بجميع ما في سائر النُّسَخ.

فإنا إذا أحضرنا بكتابٍ[2] من الكتب عشر نسخ، كان تغييرُ بعض ألفاظ العشرة أيسرُ علينا مِن مقابلة كلِّ واحدةٍ من العشرة بالتِّسعة الباقية؛ إذ المقابلة يُحتَاجُ فيها إلىٰ معرفة جميع ألفاظ كلِّ نسخةٍ ومساواتها للأخرىٰ.

وأما التغيير فيُكْتَفَىٰ فيه أن يغيِّر من كلِّ نسخةٍ ما يغيِّرُه من الأخرىٰ، فإن كان تغيير[3] جميع النُّسَخ ممتنعًا في العادة فالعلم باتِّفاقها أشدُّ امتناعًا، وإن كان العلم باتفاقها ممكنًا، فإمكان تغيير بعضِ ألفاظها أيسرُ وأيسر.

---

(١) «موجودة في جميع الأرض» ليست في: (و، ي).

(٢) كذا في الأصول، وهو مستعملٌ في كلام المصنف كثيرًا.

(٣) (و): «يعتبر».

وأما قولهم: «إن قيل: إنه غَيَّرَ بعْضَها وتَرَك بعضها، فهذا لا يمكن أن يكون؛ لأن[1] كلَّها قولٌ واحد، ولفظٌ واحدٌ في جميع الألسن».

فيقال: أما إمكان هذا فظاهرٌ لا ينازع فيه عاقل، وهو واقع؛ فإنا قد رأينا التَّوراة التي عند السَّامِرة تخالف توراة اليهود والنَّصارىٰ حتىٰ في «العشر الكلمات»، فذَكَر السامرةُ فيها من أمْرِ استقبال الطُّور ما لا يوجد في نُسخ اليهود والنَّصارىٰ[2]، وكذلك بين نسخ اليهود والنَّصارىٰ اختلافٌ معروف، ونسخ الإنجيل مختلفة، ونسخُ الزَّبور مختلفةٌ اختلافًا أكثرَ من ذلك.

وبكلِّ حالٍ فلا يقدر عاقلٌ أن يقول: يمتنع تغييرُ بعض النُّسخ، ولكن إذا قالوا: لم يُغَيَّر شيءٌ منها؛ لأن جميعها قولٌ واحدٌ، ولفظٌ واحد في جميع الألسن، **كانت هذه الدَّعوىٰ باطلةً من وجهين.**

أحدهما: أن دعوىٰ العلمِ بتساوي جميعِ النُّسخ أبلغُ من دعوىٰ إمكان تغييرِها، فإن كان التغييرُ ممتنعًا علىٰ جميعها، كان علمُ الواحد بما في جميعها وأنها متماثلةُ الألفاظ مع اختلاف الألسن أولىٰ بالامتناع.

الثَّاني: أن هذا دعوىٰ خلافِ الواقع، فإنَّ الاختلاف في نسخ التَّوراة والإنجيل والزبور موجودٌ قد رأيناه نحن بأعيننا، ورآه غيرنا، فرأيت عِدَّة نسخٍ بالزَّبور يخالف بعضُها بعضًا اختلافًا كثيرًا، ورأينا بعضَ ألفاظ التَّوراة التي ينقلها هذه الطائفة، وهي مكتوبةٌ عندهم يدَّعون أنها هي التَّوراةُ الصَّحيحة المنقولةُ عندهم بالتَّواتر تخالف بعض ألفاظ توراة الطَّائفة الأخرىٰ،

---

(١) (المطبوعتان): «لأنها».

(٢) «حتىٰ في العشر الكلمات...نسخ اليهود والنصارىٰ» سقطت من (و) لانتقال النظر.

وكذلك بالإنجيل[1].

وبالجملة قولهم: «هذا لا يمكن أن يكون؛ لأنها كلَّها قولٌ واحدٌ ولفظٌ واحدٌ في جميع الألسن»= **تضمَّن شيئين:**

تضمَّن دعوىٰ كاذبة، وحُجَّةً باطلة، فإن قولهم: «هذا لا يمكن» مكابرةٌ ظاهرة، فإن إمكان تغييرِ بعض النُّسخ ممَّا لا ينازِع عاقلٌ في إمكانه، لكن قد يقول القائل: إذا غُيِّرَ بعضُ النُّسخ وأُظْهِرَ ذلك، شاع ذلك، فرأىٰ سائرُ أهل النُّسخ تلك النسخةَ مغايرةً لنُسْختِهم فأنكروه، فإن الهمم والدَّواعي متوفرةٌ علىٰ إنكار ذلك، كما يوجَدُ اليومَ مثلُ ذلك لو أراد رجلٌ أن يُغَيِّرَ كتابًا مشهورًا عند الناس، به نسخٌ متعدِّدة، فإذا غَيَّره فوصلت تلك النُّسْخة إلىٰ من يعرفُ ما في تلك النُّسخ أنكروا ذلك.

فيقال: هذا يمكن إذا كانت تلك النُّسْخةُ المغيَّرة وصلت إلىٰ طائفةٍ يمتنع عليهم مواطأتُهُم علىٰ الكذب؛ فإنه كما يمتنع في الأخبار المتواترة التواطؤ علىٰ الكذب، فيمتنع التواطؤ علىٰ كتمان ما يتعذَّر كتمانه في العادة.

ومعلومٌ أنه لا يمتنع علىٰ الجماعة القليلة التواطؤ علىٰ تغيير بعض النُّسخ، والنُّسخ إنّما هي موجودةٌ عند علماء أهلِ الكتاب، وليس عامَّتُهم[2] يحفظ ألفاظها كما يحفظ عوامُّ المسلمين ألفاظَ القرآن، فإذا قصد طائفةٌ منهم تغييرَ نسخةٍ أو نسخٍ عندهم أمكن ذلك، ثم إذا تواطئوا[3] طائفةٌ أخرىٰ علىٰ أن

---

(١) (المطبوعتان): «الإنجيل».

(٢) (د، ع): «عامّيهم».

(٣) (المطبوعتان): «تواطأت» والمثبت من النسخ علىٰ لغة: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾ [المائدة٧١].

لا يذكروا ذلك أمكن ذلك، ولكن إذا كانت الطَّوائف ممَّن لا يمكن تواطؤها علىٰ الكذب أو الكتمان امتنع ذلك فيهم.

وقد رأينا عند أهل الكتاب كتبًا يدَّعون أنها عندهم من النَّبيِّ ﷺ بخطِّ عليِّ بن أبي طالب[1]، فيها أمورٌ تتعلَّق بأغراضهم، وقد التبس أمرُها علىٰ كثيرٍ من المسلمين، وعظَّموا ما فيها، وأعطَوْا أهلَ الكتاب ما كُتِب لهم فيها معتقدين أنهم ممتثلين ما فيها، فلما وصلت إلىٰ مَن وصلت إليه من علماء المسلمين بيَّنوا كَذِبها بطرقٍ معلومةٍ بالتَّواتر، مثل ذكرهم فيها: «شهد بما فيها كعب بن مالكٍ الحَبْرُ علىٰ النَّبيِّ ﷺ» يعنون كعبَ الأحبار، وكعب الأحبار إنما أسلم علىٰ عهد عمر بن الخطاب، لم يدرك النَّبيَّ ﷺ، واسمه: كعب بن ماتع[2]، ولكن في الأنصار كعبُ بن مالك، الشَّاعر، الذي أنزل الله توبته في سورة (براءة)، فظنَّ هؤلاء الجهال أن هذا هو ذاك.

ومثلُ ذِكْرِهم شهادةَ سعد بن معاذٍ الذي اهتزَّ لموته عرشُ الرَّحمن، ذكروا شهادتَه عام خيبر، وقد اتَّفق أهلُ العلم أنه مات عَقِب غزوة الخندق، قبل غزوة خيبر بمدَّة، وأمثال ذلك.

وأما حجَّتُهُم الدَّاحضةُ فقولهم: «إن جميع كتبِ النُّبوَّات التي في العالم من التَّوراة، والإنجيل، والزبور، والنبوَّات، موجودةٌ باثنين وسبعين لسانًا، بلفظٍ واحد، وقولٍ واحد». فهل يقول عاقلٌ من العقلاء إنه علم ذلك؟ وإنه علم أن

---

(١) هذه إشارة من المؤلف لوثيقة اليهود المزوّرة بوضع الجزية عنهم. وذكرها أيضًا في «مجموع الفتاوىٰ» (٢٨/ ٦٦٤)، وانظر: «زاد المعاد» (٣/ ١٧٧)، و«أحكام أهل الذمة» (١/ ١٧٠).

(٢) تقدّم ذكره (١/ ٤٢٧).

كلَّ نسخةٍ من النُّبوَّات الأربعة وعشرين بأحد الألْسِنة الاثنين وسبعين موافقةٌ لكلِّ نسخةٍ في سائر الألسنة؟ ولو ادَّعىٰ مدّعٍ أن كلَّ نسخةٍ من التَّوراة في العالم باللِّسان العربي، أو كلَّ نسخةٍ من الإنجيل في العالم باللِّسان العربي، أو كلَّ نسخةٍ في العالم من الزَّبور باللِّسان العربيِّ موافقةٌ لجميع النُّسخ العربيَّة الموجودة في زوايا العالم، لَكَان قد[1] ادَّعىٰ ما لا يعْلَمُه ولا يمكنه علْمُه، فمن أين له ذلك؟وهل رأىٰ كلَّ نسخةٍ عربيَّةٍ بهذه الكتب، أو أخبَرَه من يعلم صدقه أنّ جميع النُّسخ العربيَّة الموجودة في العالم موافقةٌ لهذه النُّسخة؟

وكذلك إذا ادَّعىٰ ذلك في اللِّسان اليوناني، والسُّرياني، والرُّومي، والعِبْرانِي، والهندي، فإن كان في العالم بكلِّ كتابٍ من هذه اثنان وسبعون لسانًا، فدعوىٰ[2] اتفاقُ نُسَخِ كلِّ لسانٍ من جنس دعوىٰ اتِّفاق النُّسخ العربيَّة، فكيف إذا ادَّعىٰ اتفاق[3] النُّسخ بجميع الألسنة؟

وهب أنه يمكن أن يقال ذلك في نسخ لسانٍ يقلُّ أهلُه والناطقون به، فكيف يمكن دعواه في لسانٍ كَثُر النَّاطقون به وانتشر أهله؟

وليس هذا كدعوىٰ اتّفاق مصاحف المسلمين بالقرآن؛ فإن القرآن لا يَتَوقَّف نقْلُه علىٰ المصاحف، بل القرآن محفوظٌ في قلوب ألوفٍ مؤلفةٍ من المسلمين، لا يحصي عدَدَهم إلا الله ﷻ، فلو عُدِمَ كلُّ مصحفٍ في العالم لم يقدح ذلك في نقل لفظٍ من ألفاظ القرآن، بخلاف الكُتُب المتقدِّمة؛ فإنه قلَّ أن تجد من أهل الكتاب أحدًا يحفظ كتابًا من هذه الكتب، فقلَّ أن يوجد من

---

(١) «قد» ليست في (و).

(٢) (د): «بدعوىٰ»، (ع): «يدَّعوا»، (ط.النيل): «يدّعون».

(٣) (ي): بعدها في الهامش: «جميع».

اليهود من يحفظ التوراة.

وأما النَّصارىٰ فلا يوجد فيهم من يحفظُ التَّوراة والإنجيل والزَّبور والنبواتِ كلَّها فضلًا عن أن يحفظها باثنين وسبعين لسانًا، وإن وُجِد ذلك فهو قليلٌ لا يمتنع عليهم لا الكذب ولا الغلط.

فتبيَّن أن ما ذكروه من انتشار كتبهم بالألسنة المختلفة هو من أقوىٰ الأمور في عدم العلم بتماثل ما فيها من الألفاظ، وأن القرآن إذا كان منقولًا بلغةٍ واحدة، وذلك اللِّسان يحفظه خلقٌ كثير من المسلمين= فكان ذلك مما يُبيِّن أن القرآن لا يمكن أحدًا أن يغيِّر شيئًا من ألفاظه، وإن أمكن تغييرُ بعض ألفاظ التَّوراة والإنجيل عند كثيرٍ من أهل الكتاب.

والمسلمون لا يدَّعون أنه غُيِّرَ جميعُ ألفاظ جميع النسخ بعد مبعث النبي ﷺ كما ظنَّه بهم هؤلاء الجهَّال، بل إنما ادَّعوا ما يسوِّغه العقل، بل ويظهر دليلُ صدقه، ولكن هؤلاء الجهال ادَّعوا العلم بأن جميع النسخ بجميع الألسِنة بجميع الكتب بلفظٍ واحد، فادَّعوا ما لا يمكن أحدًا علمُه، وادعوا ما يُعْلَم بطلانُه.

فصل

وقد ظهر الجواب عن قولهم: «فمَنْ هو الذي تكلَّم باثنين وسبعين لسانًا، أو من هو الذي حكم علىٰ الدنيا جميعِها، ملوكِها وقساقِستها وعلمائها، حتىٰ حكم علىٰ[1] جميعها من أربعِ زوايا العالم حتىٰ غيَّرها، وإن كان ممَّا أمكنه جمعُها كلّها ولكن[2] بعضها، فهذا ما لا يُمكن؛ إذ جميعُها قولٌ واحدٌ، ونصٌّ واحدٌ، واعتقاد واحد».

وقد ظهر الجواب عن ذلك من وجوه:

أحدها: أنَّا لم ندَّع تغييرَها بعد أن صارت بهذه الألسُن وانتشرت بها النُّسَخ، بل لا ندَّعي التغيير بعد انتشار النُّسَخِ فيما ليس من كتب الأنبياء، مثل كُتب النَّحو، والطِّب، والحساب، والأحاديث، والسُّنَن المنقولة عن الأنبياء، ممَّا نُقِل في الأصْل نقْلَ آحاد، ثم صارت النُّسَخ به كثيرةً منتشرةً، فإنّ أحدًا لا يدَّعي أنه بعد انتشار النُّسَخ بكتابٍ في مشارق الأرض ومغاربها حَكَمَ إنسانٌ علىٰ جميع المعْمُورة وجمَعَ النسخَ به[3] وغيَّرها.

ولا ادَّعىٰ أحدٌ مثل ذلك في التَّوراة والإنجيل، وإنما ادَّعىٰ ذلك فيها لمَّا كانت النُّسَخُ قليلة: إما نسخةً، وإمَّا اثنتين، وإما أربعة، ونحوَ ذلك.

أو ادَّعىٰ تغْييرَ بعضِ ألفاظ النُّسَخ، فإن بعض النسخ يمكن تغييرها.

---

(١) بعدها في (المطبوع): «الدنيا» وليست الأصول.

(٢) (المطبوعتان): «أو».

(٣) (المطبوع): «التي بها». وليست في الأصول.



ونُسَخُ التَّوراة والإنجيل والزَّبور موجودةٌ اليوم وفي بعضها اختلاف، لكنه اختلافٌ قليل، والغالب عليها الاتفاق.

وذلك يظهر **بالوجه الثاني**: أن قولهم: «إن جميعها قولٌ واحد، ونصٌّ واحد، واعتقادٌ واحد» ليس كما قالوه، بل نسخ التَّوراة مختلفةٌ في مواضع، وبين توراة اليهود والنَّصارىٰ والسَّامِرة اختلافٌ، وبيْنَ نُسَخِ الزَّبور اختلافٌ أكثرُ من ذلك، وكذلك بين الأناجيل، فكيف بنسخ النُّبوَّات؟

وقد رأيتُ أنا من نُسخ الزَّبور ما فيه تصريحٌ بنبوَّة محمَّدٍ ﷺ باسمه، ورأيتُ نسخةً أخرىٰ بالزبور، فلم أرَ ذلك فيها، وحينئذٍ فلا يمتنع أن يكون في بعض النُّسَخ من صفات النَّبيِّ ﷺ ما ليس في أخرىٰ.

الوجه الثالث: أن التَّبديل في التفسير أمرٌ لا ريب فيه، وبه يحصل المقصود في هذا المقام، فإنَّا نعْلم قطعًا أن ذِكْر محمَّدٍ ﷺ كان[1] موجودًا في زمنه من التَّوراة والإنجيل، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ﴾ [الأعراف: ١٥٧].

ولا ريب أن نُسَخَ التَّوراة والإنجيل علىٰ عهده كانت كثيرةً منتشرةً في مشارق الأرض ومغاربها، فلابدَّ من أحد الأمرين:

إما أن يكون غُيِّر اللفظُ من بعض النسخ، وانتشرت النُّسخُ المغيَّرة.

---

(١) المثبت: من (و)، وفي سائر النسخ: «فيما كان موجودًا» بزيادة «فيما» وقد كانت مثبتة في (و) فضرب عليها. وفي (المطبوع): «مكتوب فيما كان موجودًا» بزيادة «مكتوب» وقد ذكر المحقق أن (مكتوب) ساقطة من (ط) فقط. وهي ليست في الأصول.

وإما أن يكون ذِكْرُه في جميع النُّسخ، كما استخرجه كثيرٌ من العلماء ممَّن كان من أحبار اليهود والنَّصارىٰ، وممَّن لم يكن من أحبارهم استخرجوا ذِكْرَه والبشارةَ به في مواضعَ كثيرةٍ متعدِّدةٍ من التَّوراة والإنجيل ونبوَّاتِ الأنبياء، كما هو مبسوطٌ في موضعٍ آخر[1].

ومن قال: إن ذِكْرَه موجودٌ فيها أكثرَ من هذا وأصرحَ في بعض النُّسخ، لا يمكن هؤلاء دفعه بأن يقولوا: قد اطلعنا علىٰ كلِّ نسخة[2] بالتَّوراة والإنجيل في مشارق الأرض ومغاربها، فوجدناها علىٰ لفظٍ واحد، فإن هذا لا يقوله إلا كذَّاب، فإنه لا يمكن بشرًا أن يطَّلع علىٰ كلِّ نسخةٍ في مشارق الأرض ومغاربها، كما لا يمكنه أن يغيِّر كلَّ نسخةٍ في مشارق الأرض ومغاربها، فلو لم يَعْلَم اختلافَ النُّسَخ لم يمكنه الجزمُ باتِّفاقها في اللَّفظ، فكيف وقد ذَكَرَ الناسُ المطَّلعون عليها من اختلاف لفظها ما تَبَيَّنَ به كذبُ من ادَّعىٰ اتفاقَ لفظها؟ وكيف يمكن اتفاقُ لفْظِها وهي بلغاتٍ مختلفة[3]؟

---

(١) انظر ما تقدّم: (١/ ٢٦٤)، وما سيأتي: (٢/ ٣٦٧)، (٣/ ٥٢١)، (٤/ ٥).

(٢) بعدها في (المطبوعتين): «في العالم».

(٣) «وكيف يمكن اتفاق لفظها وهي بلغات مختلفة» ساقطة من (ي، ع، ط.النيل).

فصل

قالوا: «ثم وجدنا في هذا الكتاب، ما هو أعظم من هذا برهانًا، مثل[1] قوله في سورة الشورى: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

وأما لغير أهل الكتاب، يقول: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:١-٣] السورة كلها».

والجواب: أما قوله: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورى: ١٥] فهذه الآية مذكورةٌ بعد قوله تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴿١٣﴾ وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴿١٤﴾ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ﴾ الآية. [الشورى:١٣-١٥].

فقد أخبر أنه شَرَع لنا مِن الدِّين ما وصَّىٰ به نوحًا وإبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ أن أقيموا الدين، ولا تتفرقوا فيه، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ:

---

(١) مثبتة من (ي)، وليست في باقي الأصول. وفي «رسالة بولس» (ص٤١٦): «وهو».

﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ ۞ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَٱتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَلَا تَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٣١﴾ مِنَ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [الروم: ٣٠-٣٢].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُوا۟ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴿٥٢﴾ فَتَقَطَّعُوٓا۟ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًا ۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥١-٥٣]. ثم أخبر عن تفرُّق الذين أوتوا الكتاب، كتفرُّق اليهود والنَّصارىٰ، وتفرُّق فرق اليهود، وفرق النَّصارىٰ كالنُّسطُوريَّة واليعْقُوبيَّة والملكيَّة.

ثم قال: ﴿ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ ﴾ [الشورىٰ: ١٤] – أولئك المفترِّقين – ﴿لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾[الشورىٰ:١٤]. وهكذا توجد عامَّة اليهود والنصارىٰ في شكٍّ من ذلك مُريب.

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ ﴾ [فصلت:٤٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ﴾ [الشورىٰ: ١٥]. إلىٰ الدِّين الذي شرعه الله لنا ﴿وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ﴾ [الشورىٰ: ١٥]. هذا يتناول أهواء

أهل الكتاب، كما يتناول أهواءَ المشركين، وقد صرّح بذلك في قوله تعالىٰ: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ ۗ قُلْ إِنَّ هُدَى ٱللَّهِ هُوَ ٱلْهُدَىٰ ۗ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ ٱلَّذِى جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال تعالىٰ: ﴿وَلَئِنْ أَتَيْتَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ بِكُلِّ ءَايَةٍ مَّا تَبِعُوا۟ قِبْلَتَكَ ۚ وَمَآ أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ ۚ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ ۙ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [البقرة:١٤٥].

كما صرَّح بنهيه عن اتِّباع أهواء المشركين في قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلُمَّ شُهَدَآءَكُمُ ٱلَّذِينَ يَشْهَدُونَ أَنَّ ٱللَّهَ حَرَّمَ هَٰذَا ۖ فَإِن شَهِدُوا۟ فَلَا تَشْهَدْ مَعَهُمْ ۚ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ وَهُم بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[1] [الأنعام:١٥٠].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ﴾ [الشورىٰ: ١٥]. حق؛ فإن الله أمره وجميعَ الخلق أن يؤمنوا بجميع ما أنزل الله[2].

وكذلك قوله: ﴿وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ﴾ [الشورىٰ: ١٥]. فإنَّ الله أمره أن يعدل بين جميع الخلق. وقوله: ﴿ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورىٰ: ١٥]. هذه براءةٌ منه لمن يُخاطَب بذلك من المشركين

---

(١) بعدها في هامش (ي): « ونهاه عن اتِّباع كل من خالف شريعته في قوله: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَن يُغْنُوا۟ عَنكَ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۚ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۖ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الجاثية: ١٨-١٩].

(٢) بعدها في (و): «إليه».

وأهل الكتاب، كقوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

ومثله قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

وكذلك قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون ١-٦] فإن هذه الكلمة كقوله: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١] وهي كلمةٌ توجب براءَته من عملهم، وبراءتهم من عمله؛ فإنّ حرفَ اللَّام في لغة العرب يدلُّ علىٰ الاختصاص.

فقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ﴾ [الكافرون:٦] يدل[1] علىٰ أنكم مختصُّون بدينكم لا أشْرَككم فيه، وأنا مختصٌّ بديني لا تَشْركوني فيه، كما قال: ﴿لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِيٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

ولهذا قال النبي ﷺ في ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾ [الكافرون: ١] «**هي بَراءةٌ من الشِّرك**»[2]، وليس في هذه الآية أنه رضي بدين المشركين، ولا أهل الكتاب، كما يظنُّه بعض الملحدين، ولا أنه نهىٰ عن جهادهم، كما ظنَّه بعض

---

(١) (و، ي): «يوجب».

(٢) أخرجه أحمد (٢٣٨٠٧) وأبو داود (٥٠٥٥) والترمذي (٣٤٠٣) وصحح بعض طرقه، وكذا صنع الدارقطني في «العلل» (١٣/ ٢٧٧)، وقال ابن حجر في «تغليق التعليق» (٤/ ٤٠٨): «إسناده صحيح».

الغالطين، وجعلوها منسوخة، بل فيها براءتُه من دينهم وبراءتُهم من دينه، وأنه لا تضُرُّه أعمالُهم، ولا يُجْزَون بعمله ولا ينفعهم.

وهذا أمرٌ مُحْكَمٌ لا يقبل النَّسْخ، ولم يرض الرَّسول بدين المشركين ولا أهلِ الكتاب طرفة عينٍ قط، ومن زعم أنه رضي بدين الكفَّار واحتج بقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون١-٦]. فظنّ[1] هذا الملحد أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾[2] [الكافرون: ٦] معناه: أنه رضي بدين الكفار، ثم قال: هذه الآية منسوخة، فيكون قد رضي بدين الكفار، وهذا من أبين الكذب والافتراء علىٰ محمَّدٍ ﷺ، فإنه لم يرض قطّ إلا بدين الله الذي أرسل به رسله، وأنزل به كتبه، ما رضي قطُّ بدين الكفَّار، لا من المشركين، ولا من أهل الكتاب.

وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] لا يدل علىٰ رضاه بدينهم، بل ولا علىٰ إقرارِهم عليه، بل يدلُّ علىٰ براءته من دينهم، ولهذا قال النبي ﷺ: «**إنَّ هَذِه السُّورَةَ براءةٌ مِن الشِّرْك**».

ونظير هذه الآية قوله تعالىٰ: ﴿وَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل لِّى عَمَلِى وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيٓـُٔونَ مِمَّآ أَعْمَلُ وَأَنَا۠ بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [يونس: ٤١].

---

(١) (و): «فقال».

(٢) «فظن هذا الملحد...ولي دين». سقطت من: (د، ع) لانتقال النظر.

وكذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ﴾ [الشورىٰ:١٥].

وقد يظنُّ بعض الناس أيضًا أن قوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦] الآية، أني لا آمر بالقتال، ولا أنهىٰ عنه، ولا أتعرَّض له بنفيٍ ولا إثبات، وإنما فيها أن دينكم لكم أنتم مختصُّون به، وأنا بريءٌ منه، وديني لي وأنا مختصٌّ به، وأنتم برآء منه.

وهذا أمرٌ محكمٌ لا يمكن نسْخُه بحال، كما قال تعالىٰ عن الخليل: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِۦٓ إِنَّنِى بَرَآءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا ٱلَّذِى فَطَرَنِى فَإِنَّهُۥ سَيَهْدِينِ﴾ [الزخرف: ٢٦-٢٧]. وقد قال تعالىٰ: ﴿وَكُلَّ إِنسَٰنٍ أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ﴾ [الإسراء:١٣]. وهو ما طار عنه من خيرٍ وشر. وقال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ﴾ [الأنعام: ١٦٤].

وقال تعالىٰ:[1] ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا ٱكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقال تعالىٰ: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ﴾ [الإسراء: ٧].

بل قد قال تعالىٰ لنبيِّه: ﴿وَٱخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢١٥﴾ فَإِنْ عَصَوْكَ فَقُلْ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ﴾ [الشعراء: ٢١٥-٢١٦]. فإذا كان قد برَّأه الله من معصية من عصاه من أتباعه المؤمنين، فكيف لا يبرئه مِن كُفْر الكافرين الذين هم أشدُّ له معصية ومخالفة؟!

---

(١) في (و، ي) الآية من أولها: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.



فصل

وأما قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ۝٤ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ ۝٥ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون١-٦]. فهو أمرٌ بالقول لجميع الكافرين من المشركين وأهل الكتاب.

فإن أهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بما أنزل إليه من ربِّه كافرون، قد شهد عليهم بالكفر، وأمر بجهادهم، وكفَّر من لم يجعلهم كافرين ويوجب جهادهم، قال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ﴾ [البينة:١].

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة:١٧]. ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة:٧٣].

وقال تعالىٰ: ﴿قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩]. وحرف «من» في مثل[1] هذه المواضع لبيان الجنس، فتُبَيِّنُ جنس المُتَقَدِّم، وإن كان ما قبلها يدخل في جميع الجنس الذي بعدها، بخلاف ما إذا كانت للتبعيض، كقوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟

(١) «مثل» ليست في (د، ع، ط.النيل).



مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ [(1)]﴾ [البينة:1]؛ فإنه يدخل في (الذين كفروا) بعد مبعث النَّبيِّ ﷺ جميعُ المشركين، وأهل الكتاب.

وكذلك دخل في (الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله، ولا يدينون دين الحق)، جميعُ أهل الكتاب الذين بلغَتْهم دعوته ولم يؤمنوا به.

وكذلك قوله: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم [(2)]﴾ [الفتح:29].

وإن كان جميعهم آمنوا وعملوا الصَّالحات، وهذا إذا كان الجنس يتناول المذكورين وغيرهم، لكن لم يبق في الجنس إلا المذكورون، كما يقول: هنا رجلٌ من بني عبد المطلب، وإن لم يكن بقيَ منهم غيره.

ووصفهم بالشِّرك، وبأنهم يعبدون غير الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة:31].

فأخبر أنهم اتَّخذوا من دون الله أربابًا، واتَّخذوا المسيح ربًّا، وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا، وهؤلاء باتخاذهم غيرَه أربابًا عبدوهم فأشركوا بالله ﷻ عمَّا يشركون.

---

(1) «والمشركين» ليست في (و).

(2) (المطبوعتان): ﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ ﴾ [النور:55]. وخطَّأ محقق (المطبوع) ما ورد في (الأصول) بأن الآية فيها زيادة «منهم» بعد «الصالحات». وهما آيتان متغايرتان.

وقال تعالىٰ: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٧٩-٨٠]. فقد أخبر أيضًا أنه من اتَّخذ الملائكة والنبيِّين أربابًا فهو[1] كافر.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ۗ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْءَايَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [المائدة:٧٣-٧٦]. فقد وبَّخ أهل التثليث علىٰ أنهم يعبدون ما لا يملك لهم ضرًّا ولا نفعًا، والله هو السميع العليم، فدخلوا في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾ لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ﴿٢﴾ وَلَآ أَنتُمْ عَٰبِدُونَ مَآ أَعْبُدُ﴾ [الكافرون:١-٣].

كما دخل في ذلك غيرُهم من الكفَّار، لا سيَّما وقد دخل في ذلك اليهود، وهم أوْلىٰ بالدخول من غيرهم، فإن قوله: ﴿مَا تَعْبُدُونَ﴾ يتناولُ صفاتِ المعبود، والإلهُ الذي يعبده المؤمنون هو الإله الذي أنزل التَّوراةَ والإنجيلَ والقرآن، وأرسل موسىٰ وعيسىٰ ومحمدًا - صلوات الله عليهم وسلامه -.

(١) (و، ي): «أنه»، (المطبوعتان): «فإنه».



والإله المتَّصف بهذه الصِّفات لا يعبدُه اليهود والنَّصارىٰ، وهذا كقوله: ﴿قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

فهذا الإله الذي يعبده محمَّدٌ ﷺ وأمَّتُه، وليس هو إلهَ المشركين الذي يعبدونه، وإن كان هو المستحقَّ لأن يعبدوه، فإنهم يشركون بعبادته ويصفونه بما هو بريءٌ منه، فلا يخلصون له الدِّين، فعبدوا معه آلهةً أخرىٰ، إن لم يستكبروا عن عبادته، وإله العبد الذي يعبده بالفعل ليس حالُه معه كحاله مع الذي يستحقُّ أن يعبُدَه، وهو لا يعبده، بل يشرك به، أو يستكبر عن عبادته، فهذا هو الذي قال فيه: ﴿لَآ أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ﴾ [الكافرون:٢].

والشِّرك غالبٌ علىٰ النصارىٰ، والكبر غالبٌ علىٰ اليهود.

فصـل[1]

وأما قوله تعالىٰ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورىٰ: ١٥] الآية، فهذا ليس خطابًا للنَّصارىٰ خصوصًا، بل هو خطابٌ للجميع، وهؤلاء النَّصارىٰ ظنُّوا أن معنىٰ هذا: لا تحاجُّوا أهل الكتاب؛ كما ظنوا في قوله: ﴿۞ وَلَا تُجَـٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦] أن معناه: لا تجادلوا أهل الكتاب - أي النصارىٰ - إلا بالتي هي أحسن إلا الذين ظلموا، أي: اليهود.

وهذا من تحريف كَلِم الله عن مواضعه، وهو يشبه تحريفهم[2] لما عندهم من التوراة، والإنجيل، والزبور، وسائر النبوات؛ فإنهم أعظم تسلُّطًا علىٰ تحريف معانيها منهم علىٰ تحريف معاني القرآن؛ إذ كان القرآن له أمَّةٌ تحفظه، وتعرف معانيه، وتذبُّ عنه من يحرِّف لفظَه أو معناه.

وأما تلك الكتب، فليس لها من يذبُّ عن لفظها ومعناها، فلهذا عَظُم تحريفُهم لها، وكان أعظمَ من تحريفهم للقرآن.

ومما يبيِّن أن هذا الخطاب ليس مختصًّا بالنَّصارىٰ، أن هذه السورة مكيّة، والسور المكِّيَّة كانت تتناول من لا يقرأُ الكتاب[3]، لا تختصُّ بأهل الكتاب، بل كانت تعمُّ الأممَ، أو تختصُّ بالمشركين.

---

(١) بياض في (د).

(٢) (د، ع، ط.النيل): «تشبيه بتحريفهم»، (ي، المطبوع): «شبيه بتحريفهم».

(٣) (و): «يقرّ بالكتاب».

والسُّور المدنيَّة خطابها تارةً لأهل الكتاب، وتارةً تخْتَصُّ بالمؤمنين[1]، وتارةً تعم، وقد قال تعالىٰ: ﴿كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورىٰ:١٣]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓاْ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِىَ بَيْنَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُورِثُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِنۢ بَعْدِهِمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [الشورىٰ: ١٤].

فالخطاب إمّا أن يعمَّ المشركين وأهل الكتاب، أو يخصَّ المشركين. وأهلُ الكتاب: اليهود والنصارىٰ. وبكل تقدير فلا وجه لتخصيص النصارىٰ به.

وأمّا قوله تعالىٰ: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورىٰ: ١٥]. فهو نظير قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩]. وقوله: ﴿فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّۦنَ ءَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ [آل عمران: ٢٠].

فالحُجَّة: اسمٌ لما يُحتجُّ به مِن حقٍّ وباطل، كقوله: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنْهُمْ﴾ [البقرة: ١٥٠].

فإن الظَّالمين يحتَجُّون عليكم بحجَّةٍ باطلة، كقول المشركين لما حُوِّلت القبلةُ إلىٰ الكعبة: قد عاد إلىٰ قبلتكم فسوف يعود إلىٰ مِلَّتكم[2]. فهذه حُجَّةٌ داحضةٌ من الظالمين.

---

(١) (و، ي): «تارة يخصُّ أهل الكتاب، وتارة يخصُّ المؤمنين».

(٢) انظر: «تفسير الطبري» (٢/ ٦٨٥).

ومما يبيِّنُ ذلك قوله بعد ذلك: ﴿وَٱلَّذِينَ يُحَآجُّونَ فِى ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مَا ٱسْتُجِيبَ لَهُۥ حُجَّتُهُمْ دَاحِضَةٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ﴾ [الشورىٰ:١٦].

فسمَّاها حُجَّةً وجعلها داحضة، وهؤلاء الذين يُحَاجُّون في الله من بعد ما استجيب له، هم: الكفَّار من المشركين وأهل الكتاب. فهم يحاجُّون المؤمنين ليردُّوهم عن دينهم.

وقال عن النَّصارىٰ: ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [آل عمران:٦١].

فكان الكفَّار يحاجُّون المؤمنين حتىٰ يردُّوهم عن دينهم، كما كانوا[1] يؤذونهم، فهؤلاء حجَّتُهم داحضةٌ عند ربهم، وعليهم غضب، ولهم عذابٌ شديد.

ومُحَاجَّتُهم للمؤمنين من باب الظلم لهم، والعدوان عليهم، وقولِ الباطل، فأمره تعالىٰ أن يقول: ﴿لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ﴾ [الشورىٰ: ١٥].

أي ليس لكم أن تظلمونا، وتعتدوا علينا بحجَّتِكم الدَّاحضة، وليس المراد بذلك أنَّا نحن لا نحاجُّكم وندعوكم إلىٰ الحقِّ بالحجج الصحيحة؛ فإنه تعالىٰ قال: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

---

(١) «كانوا» سقطت من (المطبوع).



فأمره تعالىٰ أن يجادل أهل دعوته مطلقًا من المشركين وأهل الكتاب بالتي هي أحسن، وقد قال تعالىٰ: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت: ٤٦]؛ فإن الظالمَ باغٍ معتدٍ مستحقٌّ للعقوبة، فيجوز أن يقابَل بما يستحقُّه من العقوبة، لا يجب الاقتصار معه علىٰ التي هي أحسن، بخلاف مَن لم يظلم، فإنه لا يُجادَل إلا بالتي هي أحسن.

وأهل الكتاب: اسمٌ يتناول اليهود والنصارىٰ، كما في نظائره من القرآن؛ كقوله تعالىٰ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ﴾ [المائدة: ٥] الآية. وقوله: ﴿لَمۡ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ مُنفَكِّينَ﴾ [البينة: ١]. وأمثال ذلك.

والظالم يكون ظالمًا بترك ما تبيَّن له من الحق، واتِّباعِ ما تبين له أنه باطل، والكلامِ بلا علم، فإذا ظهر له الحق فعَنِد عنه كان ظالمًا.

وذلك مثل الألدِّ في الخصام، قال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُعۡجِبُكَ قَوۡلُهُۥ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَيُشۡهِدُ ٱللَّهَ عَلَىٰ مَا فِي قَلۡبِهِۦ وَهُوَ أَلَدُّ ٱلۡخِصَامِ﴾ [البقرة: ٢٠٤]. وقال: ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلۡحَقِّ بَعۡدَ مَا تَبَيَّنَ﴾ [الأنفال: ٦]. وقال: ﴿هَٰٓأَنتُمۡ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجۡتُمۡ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيۡسَ لَكُم بِهِۦ عِلۡمٞ﴾ [آل عمران: ٦٦].

فصـل

وقولهم: «إنه لم يقل: كونوا له مسلمين، ولكن ﴿وَنَحْنُ﴾، أي: عنه وعن العرب التابعين له، ولِما أتىٰ به وجاء في كتابه».

فيقال لهم: هذا ونظائرُه كلامُ من لم يفهم القرآن، بل ولا يفهمُ كلامَ سائر النَّاس، فإنَّه إذا عُرِفَ مِن صاحب كتابٍ يقول: إنه مُنَزَّلٌ من الله، أو يقول: إنه صنَّفه هو، أنه يدعو قومًا بالأقوال الصَّريحة الكثيرة، والأعمالِ البيِّنة الظَّاهرة، كان سكوته عن دعائهم في بعض الألفاظ لا ينافي دعاءهم له. لكن إن كان حكيمًا في كلامه كان للسُّكوت عن دعائهم في بعض المواضع حكمةٌ تناسب ذلك، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿ قُلْ أَتُحَآجُّونَنَا فِى ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٩].

أفتراه لمَّا أمرَ أُمَّته أن يقولوا: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُخْلِصُونَ ﴾ } [البقرة: ١٣٩] لم يكن أهل الكتاب مأمورين بالإخلاص لله؟ وقد ذَكَر أمْرَ أهلِ الكتاب بالإخلاص في غير موضع، كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا تَفَرَّقَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿٤﴾ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلْقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٤-٥].

وكذلك دعاهم إلىٰ الإسلام وتوعَّدهم علىٰ التَّولِّي عنه في مثل: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَـٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ

وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ [آل عمران: ١٨-٢٠]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَٰهِـۧمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُۥۚ وَلَقَدِ ٱصْطَفَيْنَٰهُ فِى ٱلدُّنْيَاۖ وَإِنَّهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٣٠﴾ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٣١﴾ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٠-١٣٣].

فقد بيَّن سبحانه أنه لا يرغَبُ عن مِلَّة إبراهيم إلا مَن سَفِهَ نَفْسَه، أي: سَفِه نفسًا، أي كانت نفسُه سفيهةً جاهلة. هذا أصحُّ القولين في ذلك، وهو مذهب الكوفيِّين من النحاة، يجوِّزون أن يكون المنصوب على التمييز معرفة، كما يكون نكرة[1].

ثم أخبر عنه أنه: ﴿قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْۖ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة: ١٣١]، وذكر أنَّ إبراهيم وصَّىٰ بها بَنِيه، ويعقوبُ وصَّىٰ بها بنيه أيضًا[2]، كلاهما قال لبنيه: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٢].

ثم ذكر أن يعقوب عند موته: ﴿قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣].

---

(١) انظر: «شرح الأشموني» علىٰ ألفية ابن مالك (١/ ١٧٠).
(٢) «أيضًا» ليست في (و).

فهؤلاء إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب كلُّهم على الإسلام، وهم يأمرون بالإسلام. ثم قال بعد ذلك: ﴿وَقَالُواْ كُونُواْ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ تَهْتَدُواْۗ قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَٰهِـۧمَ حَنِيفًاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البقرة:١٣٥].

ثم قال: ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

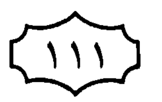
ثم قال: ﴿فَإِنْ ءَامَنُواْ بِمِثْلِ مَآ ءَامَنتُم بِهِۦ فَقَدِ ٱهْتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍۖ فَسَيَكْفِيكَهُمُ ٱللَّهُۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧].

فقد أخبر أنهم إن تولَّوْا عن الإيمان بمثل ما آمنتم به المتضمِّنِ قولَكُم: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾؛ فإنما هم في شقاق، أي: مشاقُّون لله ورسوله كما قال تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ مِن دِيَٰرِهِمْ لِأَوَّلِ ٱلْحَشْرِۚ مَا ظَنَنتُمْ أَن يَخْرُجُواْۖ وَظَنُّوٓاْ أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّنَ ٱللَّهِ فَأَتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُواْۖ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلرُّعْبَۚ يُخْرِبُونَ بُيُوتَهُم بِأَيْدِيهِمْ وَأَيْدِى ٱلْمُؤْمِنِينَ فَٱعْتَبِرُواْ يَٰٓأُوْلِي ٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [الحشر: ٢]. إلى قوله: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَآقُّواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥۖ وَمَن يُشَآقِّ ٱللَّهَ فَإِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ [الحشر: ٤].

وقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت:٤٦] في العنكبوت فهو مثل قوله: ﴿وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣] في البقرة، مع دعائهم[1] إلى الإسلام.

---

(١) (و، ي): «دعائه لهم».



وكذلك في سورة آل عمران في قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. فقد دعاهم أولًا إلىٰ الإسلام، وهو عبادة الله وحده لا شريك له، وأن لا يتَّخذ بعضُهم بعضًا أربابًا من دون الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١].

ثم قال تعالىٰ: ﴿فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤]. وهذه الآية هي التي كتبَ بها النَّبيُّ ﷺ إلىٰ قيْصَرَ مَلِكِ الرُّوم لما دعاه إلىٰ الإسلام، وقال في كتابه: «بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، مِنْ مُحَمَّدٍ رَسُولِ الله، إلىٰ هِرَقْلَ عَظِيمِ الرُّومِ، سَلامٌ علىٰ مَنِ اتَّبعَ الهُدىٰ، أَمَّا بَعْدُ: فَإِنِّي أَدْعُوكَ بِدِعَايَةِ الإِسْلامِ، أَسْلِمْ تَسْلَمْ[١]، أَسْلِم يُؤْتِكَ اللهُ أجْرَكَ مَرَّتَينِ، وإِنْ تَوَلَّيْتَ فَإنَّما عَلَيْكَ إِثْم الأَرِيسِيِّينَ و: ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[٢]». [آل عمران: ٦٤]. فدعاه النَّبيُّ ﷺ إلىٰ الإسلام في كتابه الذي أرسله إليه.

وقال أيضًا في آل عمران: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ

---

(١) «أسلم تسلم» سقطت من (ع).

(٢) تقدّم تخريجه (١/ ١٣٨).

وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُوا۟ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُوا۟ رَبَّٰنِيِّۦنَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ ﴿٧٩﴾ وَلَا يَأْمُرَكُمْ أَن تَتَّخِذُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَٱلنَّبِيِّۦنَ أَرْبَابًا ۗ أَيَأْمُرُكُم بِٱلْكُفْرِ بَعْدَ إِذْ أَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران: ٧٩-٨٠].

فذكر التَّوحيد في هذه الآية، وكفَّر من اتَّخذ الملائكةَ والنبيِّين أربابًا، فكيف بمن اتخذ الأحبارَ والرهبانَ أربابًا؟

ثم ذكر الإيمان بخاتم الرسل فقال: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّۦنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١-٨٥].

فقد ذكر أنه أخذ الميثاق علىٰ النبيِّين وأمَمِهم مهما ﴿ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ﴾. وهذا يتناول الأمرَ لكلِّ أهل كتابٍ إذا جاءهم رسولٌ ثانٍ أن يؤمنوا به وينصروه وإن كان عندهم من الكتاب والحكمة مهما كان، ولا يقولون: نحن مستغنون بما عندنا من الكتاب والحكمة، لا نؤمن بالرسول الذي جاءنا.

ونخصُّ[1] الإيمان بمحمد ﷺ فإنه خاتم الرسل، وهو آخر رسول جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، فوجب علىٰ من جاءه أن يؤمن به وينصره، وإن كان عنده من الكتاب والحكمة ما كان.

وهذا الميثاق أخذه الله علىٰ الأنبياء، وأخذوه علىٰ أُمَمِهم.

ثم قال: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ﴾[2] [آل عمران: ٨٣]. وهذا هو دين الله[3] الذي أرسل به رسلَه وأنزل به كتبَه، فمن ابتغىٰ غيرَه فقد ابتغىٰ غير دين الله، وهذا هو دين الإسلام[4] : ﴿وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي ٱلْأَخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥].

---

(١) قوله: «ونخصّ» ليس تابعًا لكلام أهل الكتاب الذين يقولون: «نحن مستغنون».

(٢) (و، ي) أكمل الآية: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾.

(٣) (د، ع، ط.النيل): «الإسلام».

(٤) بعدها في (د، ع، ط.النيل): «الذي قال».

وأما قوله تعالىٰ: ﴿۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. أَمْرٌ للمؤمنين أن يقولوا الحقَّ الذي أوجبه الله عليهم وعلىٰ جميع الخلق ليُرْضُوا به الله، وتقومَ به الحُجَّة علىٰ المخالفين، فإن هذا من الجدال بالَّتي هي أحسن، وهو أن تقول كلامًا حقًّا يلزمك ويلزم المنازعَ لك أن يقوله، فإن وافقك وإلا ظهر عنادُه وظلمُه، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿قُلۡ أَتُحَآجُّونَنَا فِي ٱللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمۡ وَلَنَآ أَعۡمَٰلُنَا وَلَكُمۡ أَعۡمَٰلُكُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُخۡلِصُونَ﴾ [البقرة: ١٣٩].

فإنا مشتركون في أنه ربُّنا كُلّنا، وأنَّ عملَ كلِّ عاملٍ له لا لغيره، وامْتَزْنا[1] نحن بأنَّا مخلصون له، وأنتم لستم مخلصين له، فأوجبَ هذا أنَّ الحقَّ معنا دونكم، وأن أعمالَنا صالحةٌ مقبولة، وأعمالَكم مردودة.

ويشبه ذلك قولَه تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

فأمْرُه لهم أن يقولوا: ﴿ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ يتضمَّن إقامةَ الحُجَّة عليهم، كما كان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يقول.

(١) (و): «وأمرنا».



فصـل

ثم قالوا: «فأما الذين ظلموا فما يَشُكُّ أحدٌ في أنهم اليهود الذين سجدوا لرأس العجل، وكفروا بالله مرارًا كثيرةً ليست واحدة، وقتلوا أنبياءَه ورسُلَه، وعبدوا الأصنام، وذبحوا للشياطين ليس حيواناتٍ غير ناطقةٍ فقط، بل بنيهم وبناتهم حسب ما شهد الله عليهم قائلًا علىٰ لسان داود النَّبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ في كتاب الزبور في مزمور مائةٍ وخمسةٍ يقول: «ذبحوا بنيهم وبناتهم للشياطين وأراقوا دمًا زكيًّا؛ دمَ بنيهم وبناتهم الذين ذبحوا للمنحوتات بكنْعَان، وقد تنجَّست الأرض بالدِّماء، وتنجَّست أعمالُهم، وزنوا بضعائنهم، وسخِط الرب عليهم، ورذَّل ميراثهم»[1].

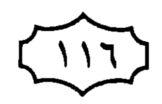
وقال أيضًا علىٰ لسان أشعيا النَّبيِّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «يقول الله في بني إسرائيل: لم يسمعوا وصاياي، لم يحفظوا كلَّ ما أوصيتُهم به، بل غيَّروا ونقضوا الميثاق الذي كنتُ جعلتُه لهم إلىٰ الأبد، فلذلك أجلستُهم علىٰ الحُزْنِ والخراب[2]، وأهلكتهم، وانقطع ممَّن يبقىٰ منهم الفرح والسرور»[3].

---

(١) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (١٠٦)، الفقرة (٣٧-٤٠): «وذبحوا بنيهم وبناتهم للشياطين، وسفكوا دمًا زكيًّا، دم بنيهم وبناتهم، الذين ذبحوهم لأصنام كنعان، فتدنّست الأرض بالدماء، وتنجسوا بأعمالهم، وزنوا بأفعالهم، فغضب الرب علىٰ شعبه، واستقبح ميراثه». وكذلك هو في «رسالة بولس الأنطاكي» (ص٤١٦). وما بعد هذا النقل إلىٰ آخر الفصل ليس في الرسالة المذكورة.

(٢) «والخراب» سقطت من (المطبوع).

(٣) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (٢٤)، الفقرة (٥-٦): «تدنَّست الأرض تحت سكانها؛ لأنهم تعدّوا الشرائع، ونقضوا الحكم، ونكثوا العهد الأبدي؛ فلذلك أكلت اللعنةُ الأرضَ، وعوقب الساكنون فيها؛ ولذلك احترق سكان الأرض فبقي نفرٌ قليل».



هكذا قال الله علىٰ سكان بيت المقدس[1] بني إسرائيل: «سأبدِّدهم بين الأمم، وفي تلك الأيام يرفعون الأممُ أصواتَهم، ويسبِّحون الله ويمجِّدونه بأصواتٍ عالية، ويجتمعون من أقطار الأرض، ومن جزائر البحر، ومن البلدان البعيدة، ويقدِّسون اسم الله، ويرجعون إلىٰ الله إلهِ إسرائيل، ويكونون شعبة، وأما بنو إسرائيل فيكونون مبدَّدين في الأرض»[2].

وقال أشعيا النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: يقول الله: «يا بني إسرائيل نجَّستم جبلي المقدس، فإني سأفنيكم بالحرب وتموتون، وذلك لأني دعوتكم فلم تُجيبوا، وكلمتُكم فلم تسمعوا، وعملتم الشرَّ[3] بين يدي»[4].

وقال أشعيا أيضًا: «إن الله قد بغَّض بني إسرائيل، وأخرجهم من بيوتهم ومن بيته، ولا يغفر لهم؛ لأنهم لعنة، وجُعِلوا لعنة الناس، فلذلك أهلكهم الله، وبدَّدَهم بين الأمم، ولا يعود يرحمهم، ولا ينظر إليهم برحمةٍ[5] إلىٰ أبد الآبدين، ولا يُقَرِّبون لله قربانًا ولا ذبيحةً في ذلك اليوم وذلك الزَّمان، ولا يفرح

---

(١) بعدها في (المطبوعتين) «من».

(٢) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (٢٤)، الفقرة (١): «ها إن هذا الرب يخرب الأرض ويدمّرها، ويقلب وجهها ويبدّد سكانها». وفي الفقرة (١٤-١٥) «هؤلاء يرفعون أصواتهم بالهُتاف لدىٰ عظمة الرب، يهتفون من الغرب، فلذلك في الأنوار مجِّدوا الربّ في جزر البحر، اسم الربّ إلهِ إسرائيل».

(٣) (د، ع، ط.النيل): «الشيء».

(٤) ورد في سفر أشعيا، الإصحاح (٦٥)، الفقرة (١١،١٢): قال: «وأنتم الذين تركوا الرب ونسوا جبل قدسي الذين يهيئون المائدة لجدّ، ويعدّون الممزوج لمناة، فسأعدكم للسيف، وتركعون جميعكم للذبح؛ لأني دعوت ولم تجيبوا، تكلمت فلم تسمعوا، وصنعتم الشر في عينيّ، وما لم أشأ اخترتم».

(٥) (و، ي): «برحمته».

بنو إسرائيل[1]؛ لأنهم قد ضلّوا عن الله ﷻ»[2].

وقال أرْمِيا النَّبيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «كما أن الحَبَشِيَّ لا يستطيع أن يكون أبيض، فكذلك بنو إسرائيل لا يتركون عادتَهم الخبيثة[3]، ولذلك إني لا أرحم، ولا أشفق، ولا أَرِقُّ علىٰ الأمة الخبيثة، ولا أرثي لها»[4].

وقال حَزْقِيل النبي عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قال الله: إنما رفعتُ يدي عن بني إسرائيل وبدَّدتُهم بين الأمم، لأنهم لم يعملوا بوصاياي، ولم يطيعوا أمري، وخالفوني فيها[5] فيما قلت لهم ولم يسمعوا لي»[6].

ومثل هذا القول في التوراة، وكتب الأنبياء، وزبور داود شيء كثير يقرؤونها اليهود في كنائسهم ويُقَرِّونها ولا ينكرون منها حرفًا واحدًا، ومثل ما هو عندهم، وكذلك عندنا في جميع الألسن».

والجواب أن يقال: أما كون اليهود ظالمين كافرين معتدين مستحقين لعذاب الله وعقابه، فهذا معلوم بالاضطرار من دين محمد ﷺ منقول بالتواتر،

---

(١) «بنو إسرائيل» ساقطة من (و).

(٢) لم أعثر علىٰ هذا النص عن أشعيا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٣) «الخبيثة» ليست في (و).

(٤) جاء في سفر «أرميا» الإصحاح (١٣)، الفقرة (٢٣-٢٤): «هل يُغَيِّر الحبشيُّ جلدَه والنَّمِر رقطه؟ وأنتم، فهل تقتدرون أن تصنعوا الخير وأنتم معتادون الشر؟».

(٥) «فيها» ليست في (ع).

(٦) جاء في سفر «حزقيل» الإصحاح (٢٠)، الفقرة (١٥، ١٦): «ورفعت يدي إليهم في البرية علىٰ أن لا آتي بهم إلىٰ الأرض التي أعطيتها لهم التي تدرُّ لبنًا حليبًا وعسلًا، وهي زينة الأرض؛ لأنهم رفضوا أحكامي ولم يسيروا علىٰ فراضي وانتهكوا سُبوتي، إذ كانت قلوبهم تسير وراء قذاراتهم».

كما عُلِم بالاضطرار والنَّقْل المتواتر عنه ﷺ أن النَّصارىٰ أيضًا ظالمون معتدون كافرون مستحقُّون لعذاب الله وعقابه. وفي اليهود من الكفر ما ليس في النصارىٰ، وفي النصارىٰ ما ليس في اليهود؛ فإنَّ اليهود بدَّلوا شريعة التَّوراة قبل أن يأتيهم المسيح ابن مريم، فلما أتاهم كفروا به وكذَّبوه، فلما بُعِث محمَّدٌ ﷺ كذبوه فباءوا بغضبٍ علىٰ غضب.

كما قال تعالىٰ عنهم: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَاءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ ۗ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرَوُا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾ وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِن بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ ۖ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ ۗ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَىٰ أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ ﴿٨٧﴾ وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ۚ بَل لَّعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِّنْ عِندِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُم مَّا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ ۚ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٨٩﴾ بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنفُسَهُمْ أَن يَكْفُرُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ بَغْيًا أَن يُنَزِّلَ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ فَبَاءُوا بِغَضَبٍ عَلَىٰ غَضَبٍ ۚ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿٩٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنبِيَاءَ اللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾ ۞ وَلَقَدْ جَاءَكُم مُّوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنتُمْ ظَالِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا ۖ قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم

بِهِۦٓ إِيمَٰنُكُمۡ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [البقرة: ٨٥-٩٣]. فغضب عليهم أولًا بتكذيب المسيح، وثانيًا بتكذيب محمد ﷺ.

وقال تعالىٰ: ﴿ضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلذِّلَّةُ أَيۡنَ مَا ثُقِفُوٓاْ إِلَّا بِحَبۡلٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبۡلٖ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو بِغَضَبٖ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَسۡكَنَةُۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ يَكۡفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقۡتُلُونَ ٱلۡأَنۢبِيَآءَ بِغَيۡرِ حَقّٖۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ﴾ [آل عمران: ١١٢].

وقال تعالىٰ: ﴿لُعِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُۥدَ وَعِيسَى ٱبۡنِ مَرۡيَمَۚ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَواْ وَّكَانُواْ يَعۡتَدُونَ ٧٨ كَانُواْ لَا يَتَنَاهَوۡنَ عَن مُّنكَرٖ فَعَلُوهُۚ لَبِئۡسَ مَا كَانُواْ يَفۡعَلُونَ﴾[1] [المائدة: ٧٨-٧٩]. وقال تعالىٰ: ﴿قُلۡ هَلۡ أُنَبِّئُكُم بِشَرّٖ مِّن ذَٰلِكَ مَثُوبَةً عِندَ ٱللَّهِۚ مَن لَّعَنَهُ ٱللَّهُ وَغَضِبَ عَلَيۡهِ وَجَعَلَ مِنۡهُمُ ٱلۡقِرَدَةَ وَٱلۡخَنَازِيرَ وَعَبَدَ ٱلطَّٰغُوتَ﴾[2] [المائدة:٦٠].

فتبيَّن أن اليهود لعنهم الله، وأنهم عبدوا الطاغوت، وأنه جعل منهم القردة والخنازير[3]. ومثل هذا في القرآن كثير.

لكن قول القائل إنهم المرادون بقوله تعالىٰ: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡ﴾ [العنكبوت:٤٦]. في قوله: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ﴾ [العنكبوت: ٤٦] غَلَطٌ بيِّن؛ ولهذا كان باطلًا باتِّفاق المسلمين؛ فإن

---

(١) (د، ي، ع، ط.النيل) وقع انتقال نظر بين آيتي سورة المائدة مع آية سورة آل عمران قبلها، فبعد قوله: «يعتدون» في آل عمران اتصل السياق بقوله تعالىٰ: «كانوا لا يتناهون...» ولم تُثبت الآية الكريمة: «لعن الذين كفروا...».

(٢) أشار هنا في هامش (ي) بقوله: «أي من لعنه الله، ومن عبد الطاغوت».

(٣) من قوله: «وقال تعالىٰ» إلىٰ «والخنازير» ليست في (و).

قوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. نهي عن مجادلة أهل الكتاب من اليهود والنصارىٰ إلا بالتي هي أحسن. وقوله: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ ﴾ [العنكبوت:٤٦]. من الطائفتين معًا(١).

ولهذا كان الواجب علىٰ المسلمين إذا جادلهم اليهوديُّ والنصرانيُّ أن يجادلوه بالتي هي أحسن، إلا من ظلم من الطائفتين، فإنه يعاقَب باللِّسان تارةً وباليد أخرىٰ، كما أمر الله ورسوله بجهاد الظالمين من هؤلاء وهؤلاء، فجاهد النَّبيُّ ﷺ اليهودَ الذين كانوا بالمدينة النَّبويَّة وحولَها وقريبًا منها، كما جاهد بني قينقاع، والنضير، وقريظة، وأهل خيبر، وأهل وادي القرىٰ(٢)، وغيرهم.

وكما جاهد النصارىٰ عام تبوك، غزاهم بالشام عربَهم وروَمهم، وأغزاهم قبل ذلك نُوَّابَه: زيدَ بن حارثة، وجعفرَ بن أبي طالب، وعبدَ الله بن رَواحة، وأمر بغزوهم، فغزاهم بعده خلفاؤه الراشدون.

والنَّبيُّ ﷺ لما قدم وفد نجران النصارىٰ(٣) جادلهم في مسجده بالتي هي أحسن، ثم أمره الله سبحانه أن يدعوهم إلىٰ المباهلة، فامتنعوا عن مباهلته، وأقرُّوا بأداء الجزية عن يدٍ وهم صاغرون(٤)، كما تقدَّم ذكر ذلك مفصَّلًا(٥).

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «جميعًا». وقد ذكر في حاشية (المطبوع) أن المثبت من (و، ي) «معنا»، والصواب ما أثبت.

(٢) سمي الوادي بذلك لكثرة قراه، وهو بين المدينة وتبوك، وأعظم مدنه اليوم: مدينة «العلا» شمال المدينة، علىٰ مسافة (٣٥٠) كيلا، ويعرف «وادي القرىٰ» اليوم، باسم: «وادي العلا». انظر: «المعالم الأثيرة» (ص ٢٢٤).

(٣) «النصارىٰ» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٤) تقدّم تخريجه.

(٥) انظر: (١/ ٧٩).

فجادل بعضَهم بالتي هي أحسن، والظالمُ منهم عاقَبَه وجاهدَه، كما عاقب الظَّالم من اليهود.

ومن أعجب الأشياء قولهم: «وأما الذين ظلموا، فلا يَشُكُّ أحدٌ أنهم اليهود» فإن هذا من جنس قولهم: «ثم وجدنا في الكتاب ما هو أعظم من هذا برهانًا، وهو[1] قوله في سورة الشورىٰ: ﴿وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَـٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ﴾ [الشورىٰ:١٥] كما تقدم[2].

ومن جنس قولهم في قوله: ﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَـٰبُ لَا رَيْبَ ۛ فِيهِ ۛ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ يُنفِقُونَ﴾ [البقرة: ٢-٣]. أنه عنىٰ بالكتاب: الإنجيل. و﴿ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱلْغَيْبِ﴾: النصارىٰ. ﴿وَٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ [البقرة: ٤] هم: المسلمون. وزعمُهم أن قولَهم هذا قولٌ[3] ظاهرٌ بيّنٌ[4].

وتفاسير النصارىٰ للكتب الإلهيَّة فيها من التحريف لكلمات الله، والإلحاد في أسماء الله وآياته ما يطول وصفه، ولا ينقضي التعجب منه، لكنَّ إقدامهم علىٰ تفسير القرآن بالإلحاد والتَّحريف أعجبُ وأعجب، كقولهم: إن محمَّدًا ﷺ ذَكَرَ أنه لم يُرسَل إليهم، وأنه أثنىٰ علىٰ الدِّين الذي هم عليه بعد النَّسخ والتَّبديل، بعد مبعثه ﷺ، وأن قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾ [الفاتحة: ٧]

---

(١) بعدها في (و): «قولهم»، فتكون العبارة: «وهو قولهم قوله».
(٢) انظر: (٢/ ٩٥).
(٣) «قول» ليس في (د، ع، ط.النيل).
(٤) ذكر في حاشية (المطبوع) أن المثبت من (و، ي): «ظاهرتين» وليس بصواب. وستكرر قريبًا.

أراد به النصارىٰ. وقوله: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا﴾ [الحديد: ٢٥] أراد به الحواريِّين.
وقوله: ﴿وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ [الحديد: ٢٥] أراد به الإنجيل.

فإن في هذا من الكذب الظَّاهر والافتراء علىٰ محمَّدٍ ﷺ بأنه أراد هذه الأمور ما هو من جنس افترائهم علىٰ الأنبياء، فإنهم أخبروا أن المسيح هو خالق السماوات والأرض، وأن التَّوراة والزَّبور وغيرَهما من الكتب أخبرت بذلك، ثم يأتون إلىٰ ما يعلم كلُّ عاقلٍ أن محمَّدًا ﷺ لم يُرِدْه، فيقولون: إنه لا يشكُّ فيه أحد، وإنه قول ظاهرٌ بيِّن.

وكل مَن عَرف حال محمَّدٍ ﷺ، وما جاء به من القرآن والدين يعلم علمًا يقينيًّا ضروريًّا أن محمدًا ﷺ لم يكن يجعل النصارىٰ مؤمنين دون اليهود، بل كان يكفِّر الطائفتين، ويأمرُ بجهادهم، ويكفِّرُ مَن لم ير جهادَهم واجبًا عليه.

وهذا ممَّا اتَّفق عليه المسلمون، وهو منقولٌ عندهم عن نبيِّهم نقلًا متواترًا، بل هذا يعلمُه مِن حاله الموافقُ والمخَالِف، إلا من هو مُفْرِطٌ في الجهل بحاله، أو من هو معاندٌ عنادًا ظاهرًا.

فصــل

وأما ما نقلوه عن الأنبياء مما يدلُّ علىٰ كفر اليهـود، فهـذا لا ننازعهم فيه، ولا حاجة بنا إلىٰ الاستدلال بما نقلوه، وإن كان فيما يَثْبُت عـن الأنبياء مـا يبيِّن كُفْرَهم لمَّا بدَّلوا دين موسىٰ عليه السلام، كما كَفَرَ النصارىٰ لمَّا بـدَّلوا ديـن المسيح، فهذا حقٌّ موافقٌ لما أخبر به خاتَمُ الرُّسل ﷺ، فإنا قد علمنا كفرَهم من جهةٍ لا نشكُّ في صدقها.

وما أخبرونا به عن الأنبياء إن عَلِمْنا صِدْقَهم فيه صدَّقناهم فيه، وإن عَلِمنا كَذِبَهم فيه كذَّبناهم فيه، وإن لم نعلم صدقه ولا كَذِبَه لم نصدِّقه ولم نكذِّبه، بل نقول: ﴿ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

فإن الإيمان بجميع ما أوتي النبيُّون حقٌّ واجب، لكن وجوب التصديق في الشيء[١] المعيَّن الذي لم نعْلَمْه مِن غيرهم يقف علىٰ مقدِّمتين: أن يكون اللفظ قد قاله النَّبيّ، وأن يكون المعنىٰ الذي فسَّروه به مرادًا للنبيِّ الـذي تكلـم بـذلك القول. فلابد من ثبوت الإسناد ودلالة المتن.

وهاتـان المقـدِّمتان[٢]، لابـدَّ منهمـا في جميـع المنقـول عـن الأنبيـاء. وقد يُحتاج إلىٰ مقدِّمة ثالثةٍ في حقِّ مَن لم يعرف اللغة العِبْريَّة، فإن موسىٰ وداود والمسيح وغيرهم إنما تكلموا باللغة العبرية، فمن لـم يُعرف بها، وإنما يُعرَف بالعربيَّة أو الرُّوميَّة، لابد أن يعرف أن المترجِم من تلك اللغة إلىٰ هذه قد ترجم ترجمةً مطابقة.

---

(١) المثبت من (ي). وسائر النسخ: «النبي» والمثبت أظهر.

(٢) أشير في هامش (و) بما نصّه: «أراد أن هاتين هي المقدمتان اللتان قال: تقف علىٰ مقدمتين، ففسر المقدّمتين بثبوت الإسناد ودلالة المتن، والله أعلم».

فصل

وأما[1] قولهم: «وأما نحن النصارىٰ فلم نعمل شيئا مما عملته اليهود».

فيقال لهم: الكُفْر والفسوق والعصيان لم ينْحصر في ذنوب اليهود، فإن لم تعملوا مثل أعمالهم فلكم من الأقوال والأعمال ما بعضُه أعظمُ من كفر اليهود، وإن كنتم أنتم ألينَ من اليهود وأقربَ مودَّة، فأنتم أيضًا أجهلُ وأضلُّ من اليهود. وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَٰنُ وَلَدًا (٨٨) لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَاوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الْأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَٰنِ عَبْدًا (٩٣) لَّقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

وقال تعالىٰ: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجًا (١) قَيِّمًا لِّيُنذِرَ بَأْسًا شَدِيدًا مِّن لَّدُنْهُ وَيُبَشِّرَ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا حَسَنًا (٢) مَّاكِثِينَ فِيهِ أَبَدًا (٣) وَيُنذِرَ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا (٤) مَّا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ ۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ ۚ إِن يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ١-٥].

وقال تعالىٰ: ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّىٰ يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾[التوبة:٢٩].

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ

---

(١) «وأما» ليست في (د، ع، ط.النيل).



ٱبۡنُ ٱللَّهِۖ ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوۡلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبۡلُۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُۖ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١].

وقال تعالىٰ: ﴿يُرِيدُونَ أَن يُطۡفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفۡوَٰهِهِمۡ وَيَأۡبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوۡ كَرِهَ ٱلۡمُشۡرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلۡأَحۡبَارِ وَٱلرُّهۡبَانِ لَيَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلۡبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٢ - ٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۚ وَسَوۡفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصۡنَعُونَ﴾ [المائدة: ١٤].

وقال تعالىٰ لما قصَّ قِصَّة المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾ وَإِنَّ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُوهُۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ ﴿٣٦﴾ فَٱخۡتَلَفَ ٱلۡأَحۡزَابُ مِنۢ بَيۡنِهِمۡۖ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن مَّشۡهَدِ يَوۡمٍ عَظِيمٍ ﴿٣٧﴾ أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [مريم: ٣٤-٣٨].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].



فصـــل

ومن تدبَّر حال اليهود والنَّصارىٰ مع المسلمين، وجد اليهود والنصارىٰ متقابلين، هؤلاء في طرف ضلال، وهؤلاء في طرفٍ يقابله، والمسلمون هم الوسط، وذلك في التَّوحيد، والأنبياء، والشَّرائع، والحلال والحرام، والأخلاق[1]، وغير ذلك.

فاليهود يشبّهون الخالقَ بالمخلوق في صفات النَّقص المختصَّة بالمخلوق التي يجب تنزيه الربِّ سبحانه عنها، كقول من قال منهم: إنه فقير، وإنه بخيل، وإنه تَعِب لما خلقَ السماوات والأرض.

والنَّصارىٰ يُشَبِّهون المخلوقَ بالخالق في صفات الكمال المختصَّة بالخالق التي ليس له فيها مِثْلٌ، كقولهم: إن المسيح هو الله، وابن الله.

وكلٌّ من القولين يستلزم الآخر.

والنَّصارىٰ أيضًا يصفون اللَّاهوت بصفات النَّقص التي يجب تنزيهُ الربِّ عنها، ويسبُّون الله سبًّا ما سبَّه إياه أحدٌ من البشر، كما كان معاذ بن جبل يقول: «لا ترحموهم؛ فإنهم قد سبُّوا الله مسبَّة ما سبَّه إياها أحدٌ من البشر»[2]. واليهود تزعم أن الله يمتنع منه أن ينسخ ما[3] شرعه، كما يمتنع منه ما لا يدخل في القُدْرة أو ما ينافي العلم والحكمة.

---

(١) (و): «والاختلاف».

(٢) أخرجه الطبراني بنحوه في «مسند الشاميين» (١٠٤١) عنه رضي الله عنه، بلفظ: «لا تلووا عليكم - يعني أهل الذمة - فإن الله ضرب علىٰ رقابهم بذلِّ مُغْرَمٍ، وإنهم سبُّوا الله سبًّا لم يسبّه أحد من خلقه، -وعزّ الله- ثالث ثلاثة».

(٣) (د، ع، ط.النيل): «مما».



والنصارىٰ يجوِّزون لأكابرهم أن ينسخوا شرعَ الله الذي بعث به رسله، فَيُحَلِّلوا ما حرَّم، كما حلَّلوا الخنزير وغيرَه من الخبائث، بل لم يحرِّموا شيئًا، ويحرِّمون ما حلل، كما يحرِّمون في رهبانيتهم التي ابتدعوها، وحرَّموا فيها من الطَّيِّبات ما أحلّه الله، ويُسْقِطون ما أوجب، كما أسقطوا الخِتَان وغيرَه، وأسقطوا أنواعَ الطَّهارة من الغُسْل، وإزالة[1] النَّجاسة، وغير ذلك. ويوجبون ما أسقط، كما أوجبوا من القوانين ما لم يوجبه الله وأنبياؤه.

والمسلمون وصفوا الربَّ بما يستحِقُّه من صفات الكمال، ونزَّهوه عن النقص، وأن يكون له مِثْلٌ، فوصفوه بما وصَف به نفسَه، وبما وصفتْه به رسُلُه من غير تحريفٍ ولا تعطيلٍ، ومن غير تكييفٍ ولا تمثيلٍ، مع علمهم أنه ليس كمثله شيءٌ لا في ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

وقالوا: له[2] الخلق والأمر، فكما لا يخلق غيره لا يأمر غيره، بل الدين كلُّه له، هو المعبود المطاع الذي لا يستحقُّ العبادة إلا هو، ولا طاعةَ لأحدٍ إلا[3] طاعته، وهو ينسخ ما ينسخه مِن شَرْعِه، وليس لغيره أن ينسخَ شَرْعَه.

واليهود بالغوا في اجتناب النَّجاسات، وتحريم الطَّيبات.

والنَّصارىٰ استحلُّوا الخبائث، وملابسةَ[4] النَّجاسات.

والمسلمون أحلَّ الله لهم الطيبات خلافًا لليهود، وحرم عليهم الخبائث، خلافًا للنصارىٰ.

---

(١) (و): «ومن» بدل «وإزالة».

(٢) (المطبوعتان): «ألا له» بزيادة: «ألا» خلافًا للأصول.

(٣) بعدها في هامش (ي): «في».

(٤) (ي): «وملامسة».

واليهود يبالغون في طهارة أبدانهم مع خبث قلوبهم، والنَّصارىٰ يدَّعون أنهم يطهِّرون قلوبَهم مع نجاسة أبدانهم.

والمسلمون يطهِّرون أبدانهم وقلوبهم جميعًا.

والنصارىٰ لهم عباداتٌ وأخلاق، بلا علمٍ ومعرفةٍ ولا ذكاء.

واليهود لهم ذكاءٌ و[1]علمٌ ومعرفةٌ، بلا عباداتٍ ولا أخلاقٍ حسنة.

والمسلمون جمعوا بين العلم النَّافع والعمل الصَّالح، بين الزَّكاء والذَّكاء، فإن الله أرسل رسوله بالهدىٰ ودين الحق، فالهدىٰ يتضمَّن العلمَ النافع، ودينُ الحقِّ يتضمَّن العملَ الصَّالح؛ ليُظْهِره علىٰ الدِّين كلِّه، والظهورُ يكون بالعلم واللسان؛ ليبيِّن أنه حقٌّ وهدىٰ، ويكون باليد والسِّلاح؛ ليكون منصورًا مؤيَّدًا، والله أظهره هذا الظهور وهذا الظهور[2]، فهم أهل الصِّراط المستقيم، صراطِ الذين أنعم الله عليهم من النَّبيِّين والصِّديقين والشهداء والصَّالحين وحَسُنَ أولئك رفيقًا، ﴿غَيْرِ ٱلْمَغْضُوبِ﴾ عليهم الذين يعرفون الحقَّ ولا يعملون به، كاليهود، ﴿وَلَا ٱلضَّآلِّينَ﴾ الذين يعملون ويعبدون ويزهدون بلا علمٍ كالنَّصارىٰ.

واليهود قتلوا النبيِّين، والذين يأمرون بالقسط من الناس.

والنَّصارىٰ اتَّخذوا أحبارَهم ورهبانَهم أربابًا من دون الله والمسيحَ ابنَ مريم.

والمسلمون اعتدلوا فآمنوا بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، ولم يُفَرِّقوا بين أحدٍ من رسله، وآمنوا بجميع النّبيِّين وبكلِّ كتابٍ أنزله الله، فلم يُكَذِّبوا الأنبياء

---

(١) «ذكاء و» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٢) «وهذا الظهور» ليست في (د، ع، ط.النيل).

ولا سبُّوهم ولا غَلَوْا فيهم ولا عبدوهم، وكذلك في أهل العلم والدين لا يبخسونهم حقَّهم ولا غَلَوْا فيهم.

واليهود يغضبون لأنفسهم وينتقمون، والنصارىٰ لا يغضبون لربِّهم ولا ينتقمون.

والمسلمون المعتدلون المتَّبعون لنبيِّهم يغضبون لربِّهم، ويعفون عن حظوظهم، كما في «الصحيحين»(١) عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أنها قالت: «**ما ضَرَبَ رَسُولُ اللهِ ﷺ بِيَدِهِ خَادِمًا لَهُ، ولا امْرَأَةً ولا شيْئًا قطّ، إلا أن يُجَاهِدَ في سَبِيلِ اللهِ، ولا نِيلَ مِنْهُ شيءٌ قطُّ فانْتَقَمَ لِنَفْسِهِ، إلا أَنْ تُنْتَهكَ مَحَارِمُ اللهِ فيَنْتَقِمُ للهِ**». وفي «الصَّحيحين»(٢) عن أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال: «**خَدَمْتُ رَسُولَ اللهِ ﷺ عَشْرَ سِنِينَ، فمَا قَالَ لِي: أُفٍّ قَطُّ، ومَا قَالَ لِي لِشَيْءٍ فعَلْتُه: لِمَ فَعَلْتَه؟ وَلا لِشَيْءٍ لمْ أَفْعَلْهُ: لِمَ لا فَعَلْتَه**(٣)؟». وكان بعضُ أهله إذا عاتبني علىٰ شيءٍ يقول: «**دَعُوهُ فَلَوْ قُضِيَ شيءٌ لكان**»(٤). هذا في حقِّ نفسه.

وأما في حدود الله، ففي «الصَّحيحين»(٥)، عن عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: أن قريشًا أهمَّهم شأنُ المخْزوميَّة التي سرقت، فقالوا: من يكلِّم فيها رسولَ الله ﷺ؟

---

(١) مسلم (٤/ ١٨١٤) والبخاري (٦١٢٦) وليس عنده إلا قوله: «وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه في شيء قط، إلا أن تنتهك حرمة الله، فينتقم بها لله»

(٢) البخاري(٦٠٣٨) مسلم (٢٣٠٩).

(٣) (المطبوعتان): «لِمَ لمْ تفعله». ولفظ البخاري «فما قال لي: أف، ولا: لم صنعت؟ ولا: ألا صنعت». وعند مسلم: «ولا قال لي لشيء: لم فعلت كذا؟ وهلا فعلت كذا».

(٤) أخرجه أحمد في «مسنده» (١٣٤١٩) والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٧٣). ورجال أحمد ثقات.

(٥) البخاري (٣٤٧٥)، مسلم (١٦٨٨).

فقالوا: من يجْترئ عليه إلا أسامةُ بن زيد، حِبُّ رسولِ الله ﷺ[1] فكلَّمه فيها أسامة، فقال: «**يا أسَامَةُ، أتَشْفعُ في حَدٍّ مِنْ حُدُودِ اللهِ، إنّما أهْلَك مَنْ كَانَ قَبْلكُمْ أنَّهُمْ كَانُوا إذَا سَرَقَ فِيهِمُ الشَّرِيفُ تَركُوهُ، وإذَا سَرَقَ فِيهِمُ الضَّعِيفُ أقَامُوا عَلَيْهِ الحُدُودَ، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ أنَّ فَاطِمَةَ بنتَ مُحَمَّدٍ سَرَقَتْ لقَطَعْتُ يَدَهَا**».

وقد وصف الله أمَّة محمَّدٍ ﷺ بأنهم أنفع الأمم للخلق، فقال: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ۗ وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم ۚ مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ففي أمَّة محمَّدٍ ﷺ من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي فيه صلاحُ العباد في المعاش والمعاد ما لم يوجد مثلُه في الأُمَّتين.

---

(١) «فقالوا: من يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد، حِبُّ رسول الله ﷺ» ليست في (و، ي).

فصـل

ثم قالوا: «وكذلك جاء في هذا الكتاب يقول: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾[المائدة:٨٢].

فذكر القِّسيسين والرهبانَ، لئلا يقال: إنَّ هذا قيل عن غيرنا، ودلَّ بهذا علىٰ أفعالِنا وحُسْنِ نيَّاتنا، ونفىٰ عنَّا اسم الشِّرك بقوله: اليهود والذين أشركوا أشدُّ عداوةً للذين آمنوا، والذين قالوا إنا نصارىٰ أقربهم مودَّة»[1].

والجواب أن يقال: تمام الكلام: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ وَمَا لَنَا لَا نُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَا جَآءَنَا مِنَ ٱلْحَقِّ وَنَطْمَعُ أَن يُدْخِلَنَا رَبُّنَا مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٤﴾ فَأَثَٰبَهُمُ ٱللَّهُ بِمَا قَالُواْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [المائدة: ٨٣-٨٥].

فهو سبحانه لم يَعِدْ بالثَّواب في الآخرة إلا لهؤلاء الذين آمنوا بمحمَّدٍ ﷺ الذين قال فيهم: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [المائدة: ٨٣].

والشَّاهدون هم الذين شهدوا له بالرِّسالة فشهدوا أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسولُ الله، وهم الشُّهداء الذين قال فيهم:

---

(١) «رسالة بولس» (ص٤١٦-٤١٧).



﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ﴾[1] [البقرة:١٤٣].

ولهذا قال ابن عبَّاسٍ وغيرُه في قوله: ﴿فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣]. قال: مع محمد ﷺ وأمته[2].

وكل من شهد للرُّسل بالتَّصديق فهو من الشَّاهدين، كما قال الحواريُّون: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٥٣].

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾[3] [الحج:٧٧-٧٨].

---

(١) بعدها في (ي): وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ وَٱفْعَلُوا۟ ٱلْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ۩ ﴿٧٧﴾ وَجَٰهِدُوا۟ فِى ٱللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِۦ ۚ هُوَ ٱجْتَبَىٰكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَٰهِيمَ ۚ هُوَ سَمَّىٰكُمُ ٱلْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِى هَٰذَا لِيَكُونَ ٱلرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ ﴾ فهو سبحانه جعلهم أمة وسطًا وسماهم المسلمين من قبل، أي من قبل نزول القرآن، وفي القرآن ليكون الرسول عليهم شهيدًا ويكونوا شهداء علىٰ الناس.

وبعدها في (و): وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾.

(٢) أخرجه ابن المنذر في «تفسيره» (٥٢١) وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦٦٨٢) والحاكم في «المستدرك» (٣٢٢٢) وصححه.

(٣) تقدّمت الإشارة قريبًا إلىٰ ورود هاتين الآيتين في (ي). وفي (و) أورد صدر الآية الأولىٰ إلىٰ قوله: ﴿وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾.



وأما قوله في أول الآية: ﴿ ۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢].

فهو كما أخبر ﷻ؛ فإن عداوةَ المشركينَ واليهود للمؤمنين أشدُّ من عداوة النصارىٰ، والنصارىٰ أقرب مودة لهم، وهذا معروف من أخلاق اليهود، فإن اليهود فيهم من البُغْض والحَسَدِ والعداوة ما ليس في النَّصارىٰ، وفي النَّصارىٰ من الرَّحمة والمودَّة ما ليس في اليهود.

والعداوة أصلها البغض، فاليهود كانوا يُبغضون أنبياءَهم، فكيف ببغضهم للمؤمنين؟!

وأمَّا النَّصارىٰ فليس في الدِّين الذي يَدِينون به عداوةٌ ولا بغضٌ لأعداء الله الذين حاربوا الله ورسوله وسعوْا في الأرض فسادًا، فكيف بعداوتهم وبغضهم للمؤمنين المعتدلين أهل ملَّة إبراهيم، المؤمنين بجميع الكتب والرسل.

وليس في هذا مدحٌ للنَّصارىٰ بالإيمان بالله، ولا وعدٌ لهم بالنَّجاة من العذاب واستحقاق الثواب، وإنما فيه أنهم أقربُ مودَّة.

وقوله تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ۝٨٢﴾ [المائدة: ٨٢] أي: بسبب هؤلاء، وسبب ترك الاستكبار، يَصير فيهم من المودَّة ما يصير، وهم بذلك خيرٌ من المشركين وأقرب مودَّةً من اليهود والمشركين.

ثم قال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا سَمِعُواْ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُواْ مِنَ ٱلْحَقِّ﴾ [المائدة:٨٣].



فهؤلاء الذين مدحهم بالإيمان ووعدهم بثواب الآخرة. والضميرُ وإن عاد إلىٰ المتقدِّمين، فالمراد به جنسُ المتقدِّمين لا كلُّ واحدٍ منهم، كقوله تعالىٰ: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَـٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾[1] [آل عمران: ١٧٣].

وكأنَّ جنس النَّاس قالوا لهم: إن جنسَ النَّاس قد جمعوا. ويمتَنعُ العموم؛ فإن القائل من النَّاس، والمقول له من النَّاس، والمقول عنه من النَّاس، ويمتنع أن يكون جميع النَّاس قال لجميع النَّاس: إنه قد جمع لكم جميع النَّاس.

ومثل هذا قوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣٠]. أي جنس اليهود قال هذا، لم يقل هذا كلُّ يهودي.

ومن هذا أنَّ في النَّصارىٰ من رقَّة القلوب التي توجب لهم الإيمانَ ما ليس في اليهود، وهذا حقٌّ.

وأما قولهم: «ونفىٰ عنَّا اسم الشرك» فلا ريب أن الله فرَّق بين المشركين وأهل الكتاب في عدَّة مواضع، ووصف مَن أشرك منهم في بعض المواضع، بل قد ميَّز بين الصَّابئين والمجوس وبين المشركين في بعض المواضع، وكلا الأمرين حق، فالأول كقوله تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]. وقوله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟﴾ [الحج:١٧]. وقال تعالىٰ: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟﴾ [المائدة: ٨٢].

---

(١) وردت الآية في (و، ي) إلىٰ قوله: ﴿جَمَعُوا۟ لَكُمْ﴾.



وأما وصفهم بالشِّرك ففي قوله: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١].

فنزَّه نفسه عن شركهم، وذلك أن أصل دينهم ليس فيه شرك، فإن الله إنَّما بعث رسُلَه بالتَّوحيد والنهي عن الشِّرك، كما قال تعالىٰ: ﴿ وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةٗ يُعۡبَدُونَ ﴾ [الزخرف: ٤٥].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَ ﴾ [النحل: ٣٦]. وقال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا يُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴾ [الأنبياء:٢٥].

فالمسيح صلوات الله عليه وسلامه وَمَن قبله من الرسل إنما دَعَوا إلىٰ عبادة الله وحده لا شريك له، وفي التوراة من ذلك ما يَعْظُم وصفه، لم يأمر أحدٌ[1] من[2] الأنبياء بأن يُعبد ملكٌ ولا نبيٌّ ولا كوكبٌ ولا وثن، ولا أن تُسأل ولا تُطلب الشَّفاعةُ إلىٰ الله من ميِّتٍ ولا غائب، لا نبيٍّ ولا ملك، فلم يأمر أحدٌ[3] من الرُّسل بأن يدعو الملائكة، ويقول: اشفعوا لنا إلىٰ الله، ولا يدعوَ الأنبياءَ والصَّالحين الموتىٰ والغائبين، ويقول: اشفعوا لنا إلىٰ الله، ولا تُصوَّر تماثيلُهم، لا مجسَّدةً ذاتَ ظل، ولا مصوَّرةً في الحيطان، ولا يُجعلُ دعاءُ تماثيلهم وتعظيمُها قربةً وطاعةً، سواءٌ قصدوا دعاء أصحاب التماثيل وتعظيمَهم والاستشفاعَ بهم، وطلبوا منهم أن يسألوا الله تعالىٰ، وجعلوا تلك

---

(١) (و): «أحدًا».

(٢) «من» ساقطة من (المطبوع).

(٣) (و): «أحدًا».

التماثيل تذكرة[1] بأصحابها، أو قصدوا دعاء التماثيل، ولم يستشعروا أنَّ المقصود دعاءُ أصحابها، كما فعله جُهَّال المشركين، وإن كان في هذا جميعه إنما يعبدون الشَّيطان وإن كانوا لا يقصدون عبادته، فإنه قد يتصوَّر لهم في صورةٍ ما، يظنُّون أنها صورةُ الذي يعظِّمونه، ويقول: أنا الخَضِر، أنا المسيح، أنا جرجس، أنا الشَّيخ فلان. كما قد وقع هذا لغير واحدٍ من المنتسبين إلىٰ المسلمين والنَّصارىٰ. وقد يدخل الشيطان في بعض التَّماثيل فيخاطبُهُم، وقد يقضي بعضَ حاجاتِهم؛ فبهذا السَّبب وأمثاله ظهر الشركُ قديمًا وحديثًا، وفَعَل النصارىٰ وأشباهُهُم ما فعلوه من الشِّرك.

وأما الأنبياء والرسل -صلوات الله عليهم وسلامه- فنهوا عن هذا كلِّه، ولم يشرع أحدٌ منهم شيئًا من ذلك.

والنَّصارىٰ لا يأمرون بتعظيم الأوثان المجسَّدة، ولكن بتعظيم التماثيل المصوَّرة، فليسوا علىٰ التَّوحيد المحض، وليسوا كالمشركين الذين يعبدون الأوثان ويُكَذِّبون الرُّسل، فلهذا جعلهم الله نوعًا غيرَ المشركين تارة، وذمَّهم علىٰ ما أحدثوه من الشِّرك تارة.

وإذا أُطْلِق لفظُ الشِّرك فطائفةٌ من المسلمين تُدْخِلُ فيه جميعَ الكفَّار من أهل الكتاب، وغيرهم، كقوله تعالىٰ: ﴿وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾ ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ﴾[2] [البقرة: ٢٢١].

---

(١) (ي): «مذكرة».

(٢) قدّم المصنف في نصّ الآية «الذكور» لمناسبتهم لاستشهاده. ونصُّ الآية بتمامها: ﴿وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟﴾.

فمن الناس من يجعل اللفظ عامًّا لجميع الكفار، ولا سيَّما النصارىٰ، ثم من هؤلاء من ينهىٰ عن نكاح هؤلاء، كما كان عبد الله بن عمر ينهىٰ عن نكاح النصرانيَّة[1]، ويقول: «لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول: إن عيسىٰ ربها»[2].

وهذا قول طائفةٍ من الشِّيعة وغيرهم. وأما جُمهورُ السَّلف والخلف، فيُجَوِّزون نكاحَ الكتابيَّات ويبيحون ذبائحَهم[3]، لكن إذا قالوا: لفظُ المشركين عام، قالوا: هذه الآية مخصوصةٌ أو منسوخةٌ بآية المائدة، وهو قوله تعالىٰ: ﴿وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حِلٌّ لَّكُمْ وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَّهُمْ ۖ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْمُحْصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحْصِنِينَ غَيْرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِىٓ أَخْدَانٍ﴾ [المائدة: ٥].

وطائفة أخرىٰ تجعل لفظ المشركين إذا أطلق لا يدخل فيه أهل الكتاب.

وأما كون النصارىٰ فيهم شرك - كما ذكره الله - فهذا مُتَّفقٌ عليه بين المسلمين، كما نطق به القرآن، كما أنَّ المسلمين مُتَّفِقون علىٰ أنّ قوله: ﴿۞ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُواْ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰ﴾ [المائدة: ٨٢]. أنَّ النصارىٰ لم يدخلوا في لفظ الذين أشركوا، كما لم يدخلوا في لفظ اليهود.

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «هؤلاء».

(٢) (د، ع، ط.النيل): «لا أعظم شركًا من أن يقول: عيسىٰ ربنا» بدل: «لا أعلم شركًا أعظم من أن تقول: إن عيسىٰ ربها».
وقد أخرج البخاري هذا الأثر في صحيحه (٥٢٨٥) عن نافع، أن ابن عمر، كان إذا سئل عن نكاح النصرانية واليهودية، قال: «إن الله حرم المشركات علىٰ المؤمنين، ولا أعلم من الإشراك شيئا أكبر من أن تقول المرأة: ربها عيسىٰ، وهو عبد من عباد الله».

(٣) وانظر كلام المصنف علىٰ هذه المسألة في «مجموع الفتاوىٰ» (٣٢/ ١٨١).

وكذلك قوله: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [البينة: ١]. ونحو ذلك، وهذا لأن اللَّفظ الواحد تتنوَّع دلالتُه بالإفراد[1] والاقتران، فيدْخُلُ فيه مع الإفراد والتَّجْريد ما لا يدخل فيه عند الاقتران بغيره، كلفظ المعروف والمنكر في قوله تعالىٰ: ﴿يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]. فإنه هنا يتناول جميعَ ما أمر الله به فإنه معروف، وجميع ما نهىٰ عنه فإنه منكر.

وفي قوله: ﴿۞ لَّا خَيْرَ فِى كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَىٰهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَٰحٍۭ بَيْنَ ٱلنَّاسِ﴾ [النساء: ١١٤]. فهنا قرن الصَّدقة بالمعروف[2] والإصلاح بين الناس.

وكذلك المنكر في قوله: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].قرن الفحشاء بالمنكر.

وقوله: ﴿۞ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآئِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٩٠]. قرن الفحشاء بالمنكر والبغي.

وكذلك لفظ البرِّ والإيمان، إذا أفردَه أدْخَلَ فيه الأعمالَ الصَّالحة[3] والتَّقوىٰ، كقوله: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ﴾ الآية [البقرة: ١٧٧]. وقال: ﴿إِنَّ ٱلْأَبْرَارَ لَفِى نَعِيمٍ﴾ [الانفطار:١٣]. وقوله:

---

(١) (ي): «بحسب الإفراد».

(٢) (و، ي): «المعروف بالصدقة».

(٣) «الصالحة» ليست في (د، ع، ط.النيل).

﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾[1]. وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال:٢].

وقد يقرنه بغيره كقوله:﴿وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ﴾ [المائدة: ٢]. وقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [البقرة: ٢٧٧].

وكذلك لفظُ الفقير والمسكين إذا أُفْرِد أحدُهما دخل فيه معنىٰ[2] الآخر، وقد يجمع بينهما في قوله: ﴿۞ إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]. فيكونان هنا صنفين، وفي تلك المواضع صنفٌ واحد.

فكذلك لفظ الشِّرك في مثل قوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا۟ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا﴾[3] [التوبة: ٢٨]. يدخل فيه جميعُ الكفار، أهلُ الكتاب وغيرُهم عند عامَّة العلماء؛ لأنه أفرده وجرَّده، وإن كانوا إذا قُرِن بأهل الكتاب كانا صنفين.

وفي «صحيح مسلم»[4] عن بُرَيْدة أن النَّبيَّ ﷺ: كان إذا أَرْسَل أميرًا علىٰ سريَّةٍ، أو جيشٍ أوصاه في خاصَّةِ نفسه بتقوىٰ الله، وأوصاه بمن معه من المسلمين خيرًا، وقال لهم: «**اغْزُوا بِسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ**[5]، **قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ**

---

(١) وقوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ جَنَّٰتٍ﴾ ليست في (و، ي).

(٢) (د، ع، ط.النيل): «لفظ».

(٣) «بعد عامهم» ليست في (و، ي)، فختم الآية عند قوله: «المسجد الحرام» وكلمة: «هذا» متعلقة بما بعدها في السياق.

(٤) (١٧٣١).

(٥) بعدها في (د، ع، ط.النيل): «في دعة» وليست في المصدر.

باللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا، وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ فادْعُهُمْ إِلىٰ إحْدَىٰ خِلَالٍ ثَلاثٍ فأَيُّهُم ما[1] أجَابُوكَ إِلَيْهَا فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ، ادْعُهُمْ إِلىٰ الإسْلامِ فإنْ أَجَابُوكَ إِلىٰ ذَلِكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وكُفَّ عَنْهُم، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلىٰ التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلىٰ دَارِ المُهَاجِرينَ، وأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إن فَعَلُوا ذَلِكَ؛ فإِنَّ لَهُمْ ما للمُهَاجِرينَ وعَلَيْهِم مَا عَلَيْهِم، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَىٰ المُسْلِمِينَ[2]، وَلَيْسَ لَهُمْ في الغَنِيمَةِ والفَيْءِ نَصِيبٌ، إِلَّا أن يُجَاهِدُوا مع المُسْلِمينَ، فإِنْ هُمْ أَبوا فاسْأَلْهُمُ الجِزْيَةَ، فإِنْ هُمْ أجَابُوا[3] فَاقْبَلْ مِنْهُمْ وَكُفَّ عَنْهُمْ».

وهذا الحديث كان بعد نزول آية الجزية، وهي إنَّما نزلت عام تبوك لمَّا قاتل النَّبيُّ ﷺ النصارىٰ بالشَّام، واليهودَ باليمن.

وهذا الحكم ثابتٌ في أهل الكتاب باتِّفاق المسلمين، كما دلَّ عليه الكتابُ والسُّنَّة، ولكن تنازعوا في الجزية: هل تؤخذ من غير أهل الكتاب؟ وهذا مبسوطٌ في موضعه[4].

---

(١) المثبت من (و)، وفي (د، ع، ط.النيل): «فإنهم ما»، (ي): «فإنْ هم ما»، (المطبوع): «فإن هم» ولفظ الصحيح: «فأيتهن ما».

(٢) هامش (و): «الأعراب في الإسلام» بدل: «المسلمين».

(٣) (و): «أجابوك إلىٰ ذلك».

(٤) انظر مسألة (من تؤخذ منهم الجزية) في: «المغني» (٩/ ٣٢٨)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١٩/ ١٩-٢٣)، و«شرح الزركشي علىٰ مختصر الخرقي» (٦/ ٥٦٧).

فصـل[1]

قالوا: «وقال في سورة البقرة: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢] فسَاوىٰ بهذا القول بين سائر الناس: اليهودِ و[2] المسلمين وغيرهم».

والجواب أن يقال: أولًا: لا حُجَّة لكم في هذه الآية علىٰ مطلوبكم؛ فإنه يسوِّي بينكم وبين اليهود والصَّابئين، وأنتم مع المسلمين متَّفِقون علىٰ أنَّ اليهود كفارٌ من حين بُعِث المسيحُ إليهم فكذَّبوه.

وكذلك الصَّابئون، من حين بُعِث إليهم رسولٌ فكذَّبوه، فهم كفار.

فإن كان في الآية مدحٌ لدينكم الذي أنتم عليه بعد مَبْعَثِ محمَّدٍ ﷺ، ففيها مدحُ دينِ اليهود أيضًا، وهذا باطلٌ عندكم وعند المسلمين. وإن لم يكن فيها مدحٌ لدين[3] اليهود بعد النَّسْخ والتَّبديل فليس فيها مدحٌ لدين النَّصارىٰ بعد النَّسخ والتبديل.

وكذلك يقال لليهوديِّ إن احتجَّ بها علىٰ صحَّة دينه.

وأيضًا، فإنَّ النَّصارىٰ يكفِّرون اليهود. فإن كان دينهم حقًّا لَزِم كفرُ اليهود، وإن كان باطلًا لَزِم بطلانُ دينِهم، فلابد من بطلان أحد الدِّينَيْن، فيمتنع أن تكون الآية مدحتهما، وقد سوَّت بينهما، فَعُلِم أنها لم تمدح واحدًا منهما بعد النسخ

---

(١) بياض في (د).
(٢) «الناس اليهود و» ليست في (و، ي).
(٣) «الدين» ساقطة من (المطبوع).

والتبديل، وإنما معنىٰ الآية: أن المؤمنين بمحمَّدٍ ﷺ، والذين هادوا الذين اتَّبعوا موسىٰ عليه السلام، وهم الذين كانوا علىٰ شرعه قبل النَّسْخ والتبديل، والنَّصارىٰ الذين اتَّبعوا المسيح عليه السلام، وهم الذين كانوا علىٰ شريعته قبل النَّسخ والتبديل، والصَّابئين وهم الصَّابئون الحنفاء، كالذين كانوا من العرب وغيرهم علىٰ دين إبراهيمَ وإسماعيلَ وإسحاقَ قبل التَّبديل والنسخ.

فإن العرب من ولد إسماعيلَ وغيرِه[1] الذين كانوا جيرانَ البيتِ العتيق الذي بناه إبراهيم وإسماعيل، كانوا حنفاءَ علىٰ ملَّةِ إبراهيم، إلىٰ أن غيَّر دِينَه بعضُ ولاة خزاعة، وهو عَمرو بن لُحَيٍّ، وهو أولُ من غيَّر دينَ إبراهيم بالشِّرك وتحريمِ ما لم يحرِّمْه الله، ولهذا قال النبي ﷺ: **«رَأَيْتُ عَمْرَو بنَ لُحَيٍّ يَجُرُّ قُصْبَه - أي أمْعَاءَه - فِي النَّارِ، وَهُوَ أول من بحَّر البَحِيرَة، وسَيَّبَ السَّوائِبَ، وغيَّر دينَ إبْرَاهِيمَ»**[2].

وكذلك بنو إسحاق الذين كانوا قبل مبعث موسىٰ متمسِّكين بدين إبراهيم، كانوا من السُّعداء المحمودين، فهؤلاء الذين كانوا علىٰ دين موسىٰ والمسيح وإبراهيم ونحوُهم، هم الذين مدحهم الله تعالىٰ: فقال[3]: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ وَٱلصَّـٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَـٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة: ٦٢].

---

(١) «وغيره» ليست في (و، ي).

(٢) أخرجه البخاري (٤٦٢٣) ومسلم (٢٨٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «فقال» ساقطة من (المطبوع).

فأهل الكتاب بعد النَّسخ والتبديل ليسوا مِمَّن آمن بالله ولا باليوم الآخر وعمل صالحًا، كما قال تعالىٰ: ﴿قَـٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَـٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُوا۟ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَـٰغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقد تقدَّم أنه كفَّر أهلَ الكتاب الذين بدَّلوا دينَ موسىٰ والمسيح، وكذَّبوا بالمسيح أو بمحمَّدٍ ﷺ في غير موضع، وتلك آياتٌ صريحة، ونصوصٌ كثيرة، وهذا مُتَواتِرٌ معلومٌ بالاضطرار من دين محمَّدٍ ﷺ.

ولكن هؤلاء النَّصارىٰ سلكوا في القرآن ما سلكوه في التَّوراة والإنجيل، يدَعون النصوصَ المحكمةَ الصَّريحةَ البيِّنةَ الواضحةَ التي لا تحتمل إلا معنًى واحدًا، ويتمسَّكُون بالمتشابه المُجْمل[1] المُحْتَمل، وإن كان فيه ما يدل علىٰ خلاف مرادهم، كما قال تعالىٰ فيهم وفي أمثالهم: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾[2] [آل عمران: ٧].

---

(١) (د، ع): «المحكم» خطأ.

(٢) من قوله: «كما قال تعالىٰ فيهم وفي أمثالهم...» إلىٰ آخر الآية، ليست في (و).

فصـل[1]

قالوا: «ثم مدح قرابيننا وتواعدنا[2] إن أهمَلْنا ما معَنا وكَفَرْنا بما أُنْزِل إلينا أن يعذِّبنا عذابًا لم يعذبْه أحدًا من العالمين بقوله ذلك في سورة المائدة: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ إلىٰ قوله[3]: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة:١١٥] فالمائدة هي: القُرْبان المقدَّس الذي يُتقَرَّبُ به في كلِّ قُدَّاس».

والجواب أن يقال: هذا كذبٌ ظاهرٌ علىٰ القرآن في هذا الموضع، كما كذبتم عليه في غير هذا الموضع، فإنه ليس في الآيات ذكرُ قرابينِكُم البتَّة، وإنما فيه ذكرُ المائدة التي أنزلها الله تعالىٰ في عهد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وقولهم: «فالمائدة هي: القُربان الذي يُتَقَرَّب به في كلِّ قدَّاس».

هو أولًا: قولٌ لا دليل عليه، **وثانيًا:** هو قولٌ معلومُ الفساد بالاضطرار من دين المسلمين الذين نقلوا هذا القرآن عن محمَّدٍ ﷺ لفظَه ومعْنَاه، فإنهم متَّفقون علىٰ أن المائدةَ مائدةٌ أنزلها الله من السماء[4] علىٰ عهد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقصَّتُها مشهورةٌ في عامَّةِ الكتب، تعرفها العامَّةُ والخاصَّة، ولم يقل أحدٌ إنها

---

(١) بياض في (د)، وكتب في هامش (و): «آخر الكتاب الأول هنا». وفي (ي): «هذا أول الجزء الرابع من الجواب الصحيح».
(٢) كذا في الأصول. وفي «رسالة بولس» (ص٤١٧): «وتوعّدنا».
(٣) وفي (المطبوع) ساق الآيات بتمامها. خلافًا للأصول.
(٤) «من السماء» ليست في (د، ع، ط.النيل).

قرابين النَّصارىٰ، وليس في لفظ الآية ما يدلُّ علىٰ ذلك، بل يدلُّ علىٰ خلاف ذلك، فإنَّ الآية تُبيِّن أن المائدة منزَّلةٌ من السماء، وقرابينُهم هي عندهم في الأرض لم تنزل من السماء.

وفي الآية أنّ عيسىٰ قال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾ قَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّىٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [المائدة: ١١٤-١١٥].

وفي أوَّل الكلام: ﴿إِذْ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۖ قَالَ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾ قَالُوا۟ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [المائدة: ١١٢-١١٣]. فأين هذا من قرابينِهم الموجودة اليوم[١]؟

(١) «اليوم» ليست في (ي).



فصـل

قالوا: «ولِما تقدَّم به القول؛ لأنه غيرُ لائقٍ عند ذوي الألباب أن نهمل «روح القدس» و«كلمةَ الله» الذي شهد لهما في هذا الكتاب بالعظائم، فقال عن «كلمة الله»: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا﴾ [النساء: ١٥٩].

والجواب: أن الله تعالىٰ لم يبعث محمَّدًا ﷺ بإهمال ما يجب من حقِّ المسيح عليه السلام، بل أمره بالإيمان بالمسيح وبما جاء به، كما أمر بالإيمان بموسىٰ وبما جاء به، وكما أمر المسيح بالإيمان بموسىٰ وبما جاء به، ولكنه أَمَرَ بإهمال ما ابتُدع من الدِّين الذي لم يشرعه الله علىٰ لسان المسيح عليه السلام، وما نسخه الله من شرعه علىٰ لسان محمَّدٍ ﷺ، فيهمل المبدَّل والمنسوخ، كما أمر الله المسيح أن يهْمِل ما ابتدعتْه اليهود من الدِّين الذي لم يشرعه، وما نسخه من شرع موسىٰ.

فكما أَمَرَ المسيحَ أن يُهْمِل المبدَّلَ والمنسوخَ من التَّوراة التي جاء بها موسىٰ عليه السلام، ولم يكن في ذلك إهمالٌ لما يجب من حقِّ التَّوراة وموسىٰ عليه السلام، فكذلك إذا أُهْمِلَ المُبَدَّلُ والمنسوخُ من دين أهل الإنجيل لم يكن في ذلك إهمالٌ لما يجب من حقِّ الإنجيل والمسيح، بل ما جاء به محمَّدٌ ﷺ يتضمَّن الإيمانَ بجميع الكتب والرُّسل، وأن لا نفرِّق بين أحدٍ منهم، ونحن له مسلمون، كما قال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

والنصارىٰ كاليهود، آمنوا ببعضٍ وكفروا ببعض، فأيُّما هو اللائق عند أولي الألباب، أن نؤمنَ بجميع كتب الله ورسله، أو نؤمنَ ببعضٍ ونكفرَ ببعضٍ؟ وأيُّما هو اللائق عند أولي الألباب أن نعبدَ الله وحده لا نشركَ به شيئًا، ونعبدَه بما شرعه علىٰ لسان رسوله، أو نبتدعَ من الشِّرك والعبادات المبتدعة ما لم يُنْزِل به الله[1] كتابًا، ولا بعَثَ به رسولًا، ونضاهي المشركين عبَّاد الأوثان[2]؟

قال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾[3] [آل عمران: ٦٤]. فالمسلمون لم يُهْمِلوا «روح القدس» و«كلمةَ الله». وقد قال تعالىٰ عن «كلمة الله»: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩].

بل هم الذين اتبعوا دينه ودين الرسل قبله، فإنَّ دين الأنبياء عليهم السلام جميعهم

---

(١) (و، ي): «الله به».

(٢) (و): «الأصنام».

(٣) هذه الآية ليست في (و). وفي (ي) بعدها: «وقال تعالىٰ: ﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ﴾ الآية».

واحد، كما ثبت في «الصحيحين»[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «**إِنَّا مَعَاشِرَ الأنبياءِ دِينُنَا وَاحِدٌ**». وقد قال تعالىٰ: ﴿۞ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورىٰ: ١٣].

فدين المرسلين كلِّهم دينٌ واحدٌ، ويتنوَّع شرْعُهم ومناهجُهم كتَنَوُّعِ شريعة الرَّسول الواحد، فإن دين المسيح هو دينُ موسىٰ، وهو دين[2] الخليل قبلهما، ودين محمد بعدهما، مع أن المسيح كان علىٰ شريعةِ التَّوراة، ثم نسخ الله علىٰ لسانه ما نسخ منها، وهو قبل النَّسخ وبعده دينُه دين موسىٰ، ولم يُهْمِل دينَ موسىٰ.

كذلك المسلمون هم علىٰ دين المسيح وموسىٰ وإبراهيم[3] وسائرِ الرُّسل، وهم الذين اتبعوا المسيح، ولهذا جعلهم الله فوقَ النَّصارىٰ إلىٰ يوم القيامة.

والنَّصارىٰ الذين بدَّلوا دينَ المسيح وكذَّبوا محمَّدًا ﷺ بريئون من دين المسيح، والمسيحُ بريءٌ منهم كبراءة موسىٰ ممَّن بدَّل وغيَّر دينَه وكذَّب المسيح.

والمسلمون أشدُّ تعظيمًا للمسيح عليه السلام واتِّباعًا له بالحقِّ ممن بدَّل دينه وخالفه من النصارىٰ، فإن المسلمين يصدِّقونه[4] في كل ما أخبر به عن نفسه،

---

(١) البخاري (٣٤٤٣) ومسلم (٢٣٦٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه. ولفظه عند البخاري: «أنا أولىٰ الناس بعيسىٰ ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لعلات، أمهاتهم شتىٰ ودينهم واحد».

(٢) بعدها في (ع): «إبراهيم».

(٣) «وإبراهيم» ليس في (و).

(٤) «فإن المسلمين يصدقونه» ليست في (و، ي).

ولا يُحَرِّفون ما قاله عن مواضعه، ولا يفسِّرون كلامَه بغير مرادِه وكلامِ غيره من الأنبياء كما فعلت النَّصارىٰ.

فإنهم نقلوا عن المسيح أنه قال: «عَمِّدُوا الناسَ باسم الأبِ والابن وروحِ القُدُس»[1]. وهذا إذا قاله المسيح فإنه[2] يُفَسَّر بلغته وعادتِه في خطابه وعادة سائر الأنبياء، وليس في كلام المسيح ولا في كلام سائر[3] الأنبياء ولا كلام غيرهم أن كلمة الله القائمةَ بذاتِه سبحانه و تعالىٰ تُسَمَّىٰ ابنًا، ولا روح قدس، ولا تُسَمَّىٰ صِفَتُه القديمةُ ابنًا، ولا روح قدس، ولا يوجد قطُّ في كلام الأنبياء اسمُ الابن واقعًا إلا علىٰ مخلوق.

والمراد في تلك اللغة: أنه مصطفًى محبوبٌ لله، كما ينقلونه أنه قال لإسرائيل[4]: «أنت ابني بكري»[5]. ولداود: «أنت ابني وحبيبي»[6]. وأن المسيح قال للحواريِّين: «أبي وأبيكم»، فجَعَله أبًا للجميع، وهم كلُّهم مخلوقون، فيكونُ اسمُ الابن واقعًا علىٰ المسيح الذي هو ناسوتٌ مخلوق، فعَمَدَ هؤلاء الضُّلَّال فجعلوا اسمَ الابن واقعًا علىٰ اللَّاهوت، قديمٌ أزليٌّ مولودٌ غير مخلوق.

---

(١) تقدم هذا النص عن المسيح عليه السلام (١/ ٢٠٠).
(٢) «فإنه» ليست في (و).
(٣) «المسيح ولا في كلام سائر» ليست في (و، ي) فأصبحت العبارة: «وليس في كلام الأنبياء ولا كلام غيره أن صفة الله...».
(٤) (و): «ليعقوب».
(٥) المثبت من (و)، وقد تقدم بنصِّه (١/ ٣٥٨) وسائر الأصول: «أنه ابنه بكره».
(٦) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (٢)، الفقرة (٧): «أعلنت حكم الرب، قال لي: أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك».

وزعموا أن «الابن» يراد به الابن بالوضع، وهو المخلوق، وهو الابن بالطبع، وهو القديم الأزليُّ المولود غيرُ المخلوق، وهذا التَّفريق هم أحدثوه وابتدعوه، ولا يوجد قطُّ في كلام المسيح ولا غيرِه أنه سمَّىٰ القديمَ الأزليَّ ابنًا، ولا جعل له ابنًا قديمًا[1] مولودًا غير مخلوق[2]، ولا سمىٰ شيئًا من صفات الله قطّ ابنًا.

وكذلك لفظ «روح القدس» موجودٌ في غير موضع من كلام الأنبياء عليهم السلام، لا يراد بهذا قطُّ حياة الله ولا صفةٌ قائمةٌ به، وإنما يراد به: ما أيّد الله به الأنبياء والأولياء ويجعله في قلوبهم مِن هُدَاهُ ونورِه ووحيِهِ وتأييدِهِ، ومِمَّا[3] يُنزِّلُ بذلك من الملائكة.

وهذا الذي تُسَمِّيه الأنبياء «روحَ القُدُس» لم يختصَّ به المسيحُ باتِّفاق المسلمين وأهل الكتاب، بل قد أنزله الله علىٰ غيره من الأنبياء والصَّالحين، كما هو موجودٌ في كتبهم: إن «روح القدس» كانت في داود وغيره، وكانت أيضًا عندهم في الحواريين[4]. وهكذا خاتم الرسل، كان يقول لحسَّانَ بنِ ثابت: «**إنَّ رُوحَ القُدُسِ مَعَكَ مَا دُمْتَ تُنَافِحُ عَنْ نَبِيِّه**»، ويقول: «**اللَّهُمَّ أَيِّدْهُ بِرُوحِ القُدُسِ**»[5].

---

(١) «قديمًا» ليست في (و). وفي (ي) «مولودًا قديمًا».

(٢) «غير مخلوق» ليست في (و).

(٣) (د، ع، ط.النيل): «ومن».

(٤) «وكانت أيضًا عندهم في الحواريين» ليست في (و).

(٥) تقدّم تخريج الحديثين (١/ ٣٨١).

وقد قال الله تعالىٰ عن عباده المؤمنين: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فروح القدس لا اختصاص للمسيح عليه السلام بها، بل ما يُفَسَّرُ به اسمُ «الابن» واسمُ «روح القدس» وغير ذلك مما وُصِف به المسيح= فهو مشتركٌ بينه وبين غيره من الرُّسل، وإذا فسَّروا الحلول بظهور نور الله وعلمِه وهدَاه في الأنبياء فهذا حق، وهو مشتركٌ بين المسيح وغيره.

فأمَّا نفسُ ذاتِ الله فلم تحلَّ في أحدٍ من البشر.

والمسلمون مع شهادتهم للمسيح بأنه عبدُ الله ورسولُه يقولون: إنه مؤيَّدٌ منصورٌ، عصَمَه الله من أعدائه، وطهَّره منهم، ولم يسلِّطْهم عليه.

والنَّصارىٰ يدَّعون أن اسم المسيح اسمُ اللَّاهوت والنَّاسوت، وأنه إلهٌ تامٌّ وإنسانٌ تام، وهذا يمتنع شرعًا وعقلًا، ثم يصفونه بالصِّفات المتناقضة، يصفونه بأن طائفةً من شِرَار اليهود وضعوا الشَّوك علىٰ رأسه، وبصقوا في وجهه، وأهانوه، وصلبوه، وفعلوا به ما لا يُفعل بأخسِّ الناس، ويقولون مع هذا: إنه(١) ربُّ السَّماوات والأرض وما بينهما.

---

(١) بعدها في (و، ي): «هو».

فصــل

قالوا: «ثم شهد لقرابيننا وذبائحنا أنها مقدَّسةٌ مقبولةٌ لدىٰ الله من كتب اليهود التي في أيديهم يومَنا هذا، المُنَزَّلة من الله علىٰ أفواه الأنبياء المرسلين».

قال أشعيا: «قال الله: إني أعرف بني إسرائيل وقلوبَهم القاسية الخبيثة، فإذا أنا ظهرتُ إلىٰ الأمم فنظروا إلىٰ كرامتي، أُقِيمُ منهم أنبياءَ وأبعث منهم مخلِّصين يُخَلِّصُونَ الأممَ من البلدان القاصية الذين لم يسمعوا بسماعي، ولم يعرفوه من قَبْلِ كرامتي، ويكونُ اسمي فيهم، ويَجْلِبون إخوتهم من الأمم كلها، ويُجِيبون[1] قرابينَ الله علىٰ الدَّوابِّ والمراكب إلىٰ جبلٍ قدسيٍّ، بيتِ المَقْدِس[2]، فَيُقَرِّبون لي القرابين بالسَّميد، كما كان بنو إسرائيل من قبل، وكذلك باقي الأمم، وتقرِّب القرابين بين يدَيّ، فهم وزرعُهم إلىٰ الأبد، ويحُجُّون في كلِّ سنة، وفي كلِّ شهر، ومن سنةٍ إلىٰ سنةٍ إلىٰ بيت المقدس، بيت الله، ويُقَرِّبون لله ربِّهم فيه قرابينَ زكيَّةً نقيَّة، وينظرون إلىٰ الأمَّة الخبيثة الماردة، بني إسرائيل، لا يبلىٰ حُزْنُها[3] ولا ينقطعُ بلاؤها إلىٰ الأبد»[4].

---

(١) (ع): «يجلبون».

(٢) ستكرر العبارة في (٢/ ١٥٦) هكذا: «جبلِ قدسٍ بيت اللهِ المقدس».

(٣) (د، ع، ط.النيل): «حرمها».

(٤) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (٦٦)، الفقرة (١٨-٢٣): «أما أنا فأنظُرُ إلىٰ أعمالِهم وأفكارهم، قد حان أحشرُ جميعَ الأمم والألسنة، فتأتي وترىٰ مجْدي، وأجعلُ بينهم آية، وأرسِل ناجين منهم إلىٰ الأمم إلىٰ ترشيش و فول ولود التي تشدُّ القسي، وتوبل وياوان والجزر البعيدة التي لم تسمع بسمعتي، و لم تر مجْدِي، فينادون بمجدي بين الأمم، ويأتون بجميع إخوتكم من جميع الأمم، تقدمةً للربِّ علىٰ الخيل والمركبات والهوادِج والبغال والمَحَامل إلىٰ جبل قدسي أورشليم.
قال الرب: كما يأتي بنو إسرائيل بالتقدمة في إناءٍ طاهر إلىٰ بيت الرب، ومنها أيضًا أتخذ كهنة ولاويين. قال الرب: لأنه كما أن السماوات الجديدة والأرض الجديدة التي أصنعها =

وقال دانيال النَّبيُّ[1] عَلَيْهِ السَّلَامُ: «وسيأتي علىٰ شعبِك[2] وقريةِ قدسِك سبعون سابوعًا، وتنقضي الذنوب، وتفنىٰ الخطايا وغفران الإثم، ويؤتىٰ بالحقِّ الذي لم ينزل من قبل، وتتِمُّ نبوَّاتُ الأنبياء وكتبُ الرسل، وتبيد قرية القُدْس، وتخْرب مع مجيء المسيح، ويفنىٰ الميثاقُ العتيقُ من الناس، ومن بعد أسبوعٍ ونصفٍ تَبْطُلُ ذبائحُ اليهود وقرابينُهم، وتصير علىٰ كفِّ النَّجاسة والفساد إلىٰ انقضاء الدَّهر»[3].

وقال ميخا النَّبيُّ عَلَيْهِ السَّلَامُ: «قال الله في آخر الزمان: إذا أتىٰ المسيحُ يدعو الأممَ المبدَّدة، ويضعُهم شعبًا واحدًا، ويبطُل قتال بني إسرائيل وسلاحهم وقرابينهم إلىٰ الأبد»[4].

وقال عاموص النَّبيُّ: «لا تذبحوا[5] العجول بعد؛ فإنّ الربَّ سيأتي

= تدوم أمامي، يقول الرب: فكذلك تدوم ذريتكم و اسمكم، ومن رأس شهرٍ إلىٰ رأس شهر، ومن سبت إلىٰ سبت، كلُّ بشرٍ يأتي ليسجد أمامي».

(١) «النبي» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٢) (د، ع، ط.النيل): «بيعتك».

(٣) ورد في سفر «دانيال» الإصحاح (٩)، الفقرة (١٠-١٧): «إن سبعين أسبوعًا حُدِّدت علىٰ شعبك، وعلىٰ مدينة قدسك، لإفناء المعصية، وإزالة الخطيئة، والتكفير عن الإثم، والاتيان بالبرّ الأبدي، وختم الرؤيا والنبوءة ومسح القدوسين، فاعلم وافهم، إنه من صدور الأمر بإعادة أورشليم إلىٰ رئيس مسيح، سبعة أسابيع ثم في اثنين وستين أسبوعًا، تعود وتبنىٰ السوق والسور، ولكن في ضيق الأوقات. وبعد الأسابيع الاثنين والستين، يفصل مسيح ولا يكون له... ويأتي رئيس فيدمر المدينة والقدس بالطُّوفان تكون نهايتها، وإلىٰ النهاية يكون ما قضي من القتال والتخريب».

(٤) لم أعثر علىٰ هذا النص عن ميخا عَلَيْهِ السَّلَامُ.

(٥) (و): «تدعوا»، (د، ع، ط.النيل): «يذبحوا».

صِـهْيونَ ويُحْـدِثُ وصـيةً جديـدةً طـاهرةً مـن الخُبْـزِ النَّقِـيّ والخمـر الزَّكِـيّ، ويصيرون بنو[1] إسرائيل مطرودين»[2].

والجواب من وجوه:

أحـدها: أن مـا يحتجُّـون بـه مـن النَّقـل عـن الأنبيـاء صـلوات الله علـيهم يحتاجون فيه إلىٰ أربع مقدمات: إلىٰ أن تُعْلَم نبوَّةُ المنقـول عنـه، والـىٰ أن يُعْلَـم لفظُه الذي تكلَّم به، وإلىٰ أن يُعْلَم [أن] ما ذكروه ترجمـةً صـحيحةً عنـه[3]، فـإن أولئك الأنبياء لم يتكلموا بالعربيَّة، بل ولا بالرُّوميَّة والسُّريانيَّة واليونانيَّة، وإنّمـا تكلمـوا بالعِبْريَّـة، كالمسـيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، والرابـع: أن يُعلَـم أنّ مـا ذكـروه مـن كـلام الأنبياء دليلٌ علىٰ ما ادَّعوه من قبول قرابينهم في هذا الزمان.

ونحن في هذا المقام نقتصر علىٰ منازعتهم في هـذه المقدِّمـة، فلـيس فيمـا ذكروه دليلٌ علىٰ مدح قرابينهم وذبائحهم بعد التَّبديل والنسخ، ولكن غايتهـا أن يدلَّ علىٰ مدحها قبل النّسخ والتَّبديل، وهذا ممَّا لا ينازع فيه المسلمون.

---

(١) (و، ي): «بني»، المطبوعتان: «ويصير بنو».

(٢) أشير في هامش (ي) بقوله: «فما يكون أعظم من هذا وأقوىٰ شهادة، وقـد أوردنـا مـن كتـب أعدائنا المخالفين لـديننا، وهـم يقرّون بـذلك ويقرؤونـه في كتابهم ولـم ينكـروا منـه حرفًـا واحدًا».

وأما هذا النص عن عاموص فقد ورد في الإصحاح (٦) الفقرة (٤-٧): «يضّـجعون علـىٰ أسرَّة من عاجٍ، وينبطحون علىٰ أرائكهم، ويأكلون الحُملان من الغنم والعجول المختـارة من المعلف، ويرتجلون علىٰ صوت العود، ومثل داود يخترعون آلات الطرب، ويشربـون الخمـر بـالكؤوس، ويـدّهنون بالأدهـان النفيسـة، ولا يكتئبـون لانكسـار يوسـف، لـذلك يُجلون في رأس المجْلوِّين فيزول فجور المنبطحين».

(٣) (و، ي): «عنده».

الوجه الثاني: أن هذه النُّعوتَ المذكورةَ عن «أشعيا» وغيره من الأنبياء لا توافق ما عليه النَّصارىٰ؛ فإن النَّصارىٰ لا يُقَرِّبونَ القرابينَ بالسَّميد كما كان بنو إسرائيل من قبل، ولا يحجُّون في كل شهرٍ، ومن سنة إلىٰ سنة إلىٰ بيت المقدس بيت الله ويُقَرِّبون لله ربهم فيه قرابينَ نقيَّةً زكيَّةً، وإنما يحُجُّون إلىٰ «قمامةَ»[1] الخارجةِ عن بيت الله الذي كانت الأنبياء تقصده وتصلِّي فيه؛ فإن الأنبياء إنما كانوا يُصَلُّون في بيت المقدس، ويزورون بيتَ المقدس نفسَه، وأمَّا «قمامة» فليس لها ذكرٌ في كتب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، بل إنما ظهرت «قمامة» في زمن قُسطنطين الملك، لما أظهرتها أمُّه هَيْلانة الحرَّانيَّة لما جاءت بيت المقدس واختارت من اليهود ثلاثة، وسألتهم أن يدلُّوها علىٰ موضع الصَّلْب[2] فامتنعوا، فعاقبتهم بالحبس والجوع، فدلّوها علىٰ موضعه في مزبلةٍ فاستخرجوه، وجعَلَتْه في غلافٍ من ذهبٍ وحمَلَتْه، وبَنَتْ كنيسة «القمامة» في موضعه، كما ذكر ذلك ابن البطريق في «تاريخه»[3] وغيره، كما سيأتي[4]. وذلك بعد المسيح بأكثر من ثلاث مائة سنة.

ومن ذلك الوقت أظهروا الصليب[5]، وجعلوا «عيد الصليب»، ولم يشرع ذلك لا المسيحُ ولا الحواريُّون، وهذا مذكورٌ في كتبهم متفقٌ عليه بين علمائهم، كما قد ذُكِر في موضعٍ آخر[6]، ولا هم يأتون بقرابين لله علىٰ الدوابِّ والمراكب

(١) تقدّم ذكر «قمامة» (١/ ١٨٧)، وانظر ما يأتي (٣/ ١٤٧).
(٢) (المطبوع): «الصليب». خلافًا للأصول.
(٣) انظر: «تاريخ ابن البطريق» (ص١٢٩)، وقد تقدّمت ترجمته (١/ ٢٥٥).
(٤) انظر: (٣/ ١٤٦).
(٥) (ي): «الصلب».
(٦) «كما قد ذكر في موضع آخر» ليس في (ي). ومن قوله: « بل إنما ظهرت قمامة...» إلىٰ هذا الموضع ليس في (و). وانظر ما يأتي: (٣/ ١٤٤ وما بعدها).

إلىٰ جبلِ قدسِ بيت الله المقدس.

الوجه الثَّالث: أن ما ذكروه عن «دانيال» لا يتضمَّن مدح دينهِم بعد النسخ والتبديل، وإنما يتضمَّن أن الله يبعث المسيحَ عليه السلام بالحقِّ الذي لم يزَلْ من قبل، وهو الدِّين الذي بُعثت به الرسلُ قبله، وهو عبادة الله وحده، وأن «بيت المقدس» يخرب مع مجيء المسيح، ويفنىٰ الميثاق العتيق، يعني ما نُسِخ من شرع التَّوراة، وأنه يُبْطِلُ ذبائحَ اليهود وقرابينَهم.

وهذا كلُّه إنما يدلُّ علىٰ نسخ شرع التَّوراة وبطلانِ دولة اليهود، ويدلُّ علىٰ أن المسيح جاء بالحق، ومن اتَّبع المسيح كان علىٰ الحق، وهذا ممَّا لا ينازع فيه المسلمون؛ فإنهم متَّفقون علىٰ أن من كان متمسكًا بما أَمَر به المسيح فإنه من عباد الله الصالحين، ولكن من جاء بشرعٍ لم يأت به المسيح، أو أراد اتِّباع شرْعَه بعد النسخ فهو بمنزلة اليهود الذين نسَخَ اللهُ ما نسخه من شَرْعِهم وأزال دولتَهم، وكذلك فعل بالنَّصارىٰ لما بعث الله محمَّدًا صلى الله عليه وسلم أزال دولتهم عن وسط الأرض وخيارِها، وحيث بُعِثَت الأنبياء، كأرض الشام، ومصر، والجزيرة، والعراق، وإرْمينيَة[1]، وأَذْرَبِيجان[2]، وأجلاهم إلىٰ طرَفَي الأرض من جهة الشّمال والجنوب، وصار الذين في وسط الأرض منهم أحسن أحوالهم إذا لم يُسْلِمُوا أن

---

(١) بكسر أوله ويفتح، وإسكان ثانيه، بعده ميم مكسورة وياء، ثم نون مكسورة. فتحت في زمان عثمان رضي الله عنه، فتحها سلمان بن ربيعة الباهلي سنة أربع وعشرين.
تحدّها تركيا من الغرب، وأذربيجان من الشرق، وإيران من الجنوب، وجورجيا من الشمال. انظر: «معجم ما استعجم» (١/ ١٤١)، «معجم البلدان» (١/ ١٥٩) «الروض المعطار» (ص٢٥) «موسوعة دول العالم» (ص٦٢).

(٢) بفتح أوله وإسكان ثانيه، بعده راء مهملة مفتوحة، وباء مكسورة. تقع علىٰ الساحل الغربي لبحر كاذبيان في أقصىٰ الجنوب الشرقي من القوقاز. انظر: «معجم ما استعجم» (١/ ١٢٩)، «معجم البلدان» (١/ ١٢٨) «موسوعة دول العالم» (ص٦٤).

يؤدّوا الجزية عن يدٍ وهم صاغرون.

وكذلك ما ذكروه عن «ميخا» و «عاموص» إنما يدلُّ علىٰ مجيء المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وبطلان ما نسخه الله وأبطله من شَرْعِ اليهود ومُلْكِهم، لا يدلُّ علىٰ صحَّة دين النَّصارىٰ الذي لم يشْرَعه المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولا علىٰ صِحَّته بعد أن نُسخ بشرع محمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ نسخًا هو أبلغ مِن[1] نسخ بعضِ شرع موسىٰ بشرع المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ.

هذا إذا سُمِّي الشَّرع المؤقَّت بغايةٍ مجهولةٍ نسخًا؛ فإن الأوَّل لم يبشِّر بالثاني، وأما إذا كان الأول بشَّر بالثَّاني، وكانت شريعةُ الأول مؤقَّتةٌ إلىٰ مجيء الثَّاني لم يُسَمَّ ذلك نسخًا، فالمسيح ومحمَّدٌ صلىٰ الله عليهما وسلم لم ينسخا شيئًا، بل كان شَرْع موسىٰ إلىٰ مجيء المسيح، وشَرْعُ المسيح إلىٰ مجيء محمَّدٍ صلىٰ الله عليهما وسلم[2].

وأما ما حُكيَ عن «أشْعِيا» عن الله أنه قال: «فإذا ظهرتُ إلىٰ الأمم» فهذا قد يحتجَّ به النصارىٰ وبأمثاله من كلام الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ علىٰ الحُلول الذي ابتدعوه، وهو باطل؛ فإن مثل[3] هذا اللَّفظ مذكورٌ في كتب أهل الكتاب في غير موضع، ولا يراد بشيء منها حلولُ ذاتِ الله في أحدٍ من البشر، كما ذكر في التَّوراة أن الله جَلَّ جَلَالُهُ اسْتَعْلن لإبراهيم وغيره، وأن الله يأتي من طور سَيْناء، ويشرفُ من سَاعِير، ويستعلن من جبال فاران[4].

---

(١) (و، ي): «مما».

(٢) «هذا إذا سمي الشرع... صلىٰ الله عليهما وسلم» ليست في (و، ي).

(٣) «مثل» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٤) ورد هذا النص في سفر التثنية كما في الإصحاح (٣٣) الفقرة (٢): قال: «أقبل الرب من سيناء، وأشرق لهم من سِعير، وسطع من جبل فاران».

ومعلومٌ عند جميع أهل الملل أن الله سبحانه و تعالىٰ لم يحُلَّ في موسىٰ ولا غيره لمَّا كلَّمه، ولا يحُلُّ في شيءٍ من جبال فاران، مع إخباره أنه اسْتَعلن منها.

وقد[1] قال تعالىٰ: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ ﴾ [التوبة: ٣٣]. فأظهره بالعلم والحُجَّة والبيان، وأظهره باليد والسِّنان[2]، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشۡكَوٰةٖ فِيهَا مِصۡبَاحٌۖ ٱلۡمِصۡبَاحُ فِي زُجَاجَةٍۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوۡكَبٞ دُرِّيّٞ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٖ مُّبَٰرَكَةٖ زَيۡتُونَةٖ لَّا شَرۡقِيَّةٖ وَلَا غَرۡبِيَّةٖ يَكَادُ زَيۡتُهَا يُضِيٓءُ وَلَوۡ لَمۡ تَمۡسَسۡهُ نَارٞۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٖۚ يَهۡدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾[3] [النور: ٣٥]. قال أُبيُّ بن كعبٍ وغيره: «مثل نوره في قلب المؤمن»[4].

وقال تعالىٰ: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَءَامِنُواْ بِرَسُولِهِۦ يُؤۡتِكُمۡ كِفۡلَيۡنِ مِن رَّحۡمَتِهِۦ وَيَجۡعَل لَّكُمۡ نُورٗا تَمۡشُونَ بِهِۦ ﴾ [الحديد: ٢٨].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَا ﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

---

(١) «وقد» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٢) (ع): «واللسان».

(٣) أكمل بعدها في (د، ع) قوله تعالىٰ: ﴿ وَيَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَٰلَ لِلنَّاسِ ﴾.

(٤) انظر: «تفسير الطبري» (١٩/ ١٨٣)، «تفسير ابن كثير» (٦/ ٥٩).

وفي الترمذي[1]، عن أبي سعيد الخدري، عن النبي ﷺ أنه قال: «**اتَّقُوا فِرَاسَةَ المُؤْمِنِ فَإِنَّهُ يَنْظُرُ بِنُورِ اللهِ، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴿٧٥﴾﴾** [الحجر:٧٥]. قال الترمذي: حديثٌ حسن.

وقد جاء عن بعض السَّلف أن قلوب المؤمنين تضيء لأهل السَّماوات كما تضيء الكواكب لأهل الأرض[2].

والمخلوق الذي تظهر محبَّتُه وذِكْرُه وطاعتُه في بعض البلاد يقال: فلانٌ قد ظهر في هذه الأرض. فإذا ظهر ذِكْرُ الله وذِكْرُ أسمائه وصفاته وتوحيدِه وآياته وعبادته حتىٰ امتلأت القلوب بذلك بعد أن كانت ممتلئةً بظُلْمةِ الكُفْر والشِّرك، كان ذلك مما أخبر به من ظهوره، وهذا أعظمُ ما يكون في بيوته التي يُعْبَد فيها ويذكرُ فيها اسمُه.

ولهذا لما[3] ذكر تعالىٰ آية النور وقال: ﴿۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ

---

(١) (٣١٢٧) وأخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (٧٤٩٧) والبيهقي في «الزهد الكبير» (٣٥٨) من حديث أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال الهيثمي: رواه الطبراني، وإسناده حسن. «مجمع الزوائد» (١٠/ ٢٦٨)، وقال السيوطي: حسن صحيح. «اللآلىء المصنوعة» (٢/ ٢٧٨)، وقال الشوكاني: وعندي أن الحديث حسن لغيره وأما صحيح فلا. «الفوائد المجموعة» (٢٤٤).

(٢) روىٰ ابن أبي شيبة في «مصنفه» (٣٠٠٢٥) بسنده عن ابن سابط، قال: «إن البيوت التي يقرأ فيها القرآن لتضيء لأهل السماء كما تضيء السماء لأهل الأرض» وفي سنده ضعف.

(٣) «لما» من (و) وليست في سائر النسخ.

عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [النور: ٣٥] قال عقب ذلك: ﴿ فِي بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴾ [النور:٣٦-٣٨].

وكذلك ما في الكتب من ظهوره ببيت المقدس فهو كظهوره بطور سيناء، وبجبل فاران، ومع هذا فلم يره موسىٰ ولا غيرُه، لا مجرَّدًا ولا حالًّا في غيره. وقد أخبر المسيحُ أنه لم يره أحدٌ، كما أخبر غيرُه، وذلك نفيٌ عامٌّ يوجب أنه لا يُرىٰ لا مجرَّدًا ولا حالًّا في دار الدنيا، كما قد بُسط هذا في موضعٍ آخر(١).

ومعلومٌ أن ملابسة الشيء أبلغُ من رؤيته، فإذا كان الربُّ تعالىٰ لا يراه ناسوت؛ فأَن لا يلابسه ناسوتٌ بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، والنصارىٰ يزعمون أنه اتَّحد هو والنَّاسوت، وهذا أعظم من الرؤية(٢).

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٣٣٥)، (٥/ ٤٩٠).

(٢) «ومعلوم أن ملابسة...أعظم من الرؤية» ليست في (و).

فصل

قالوا: «فماذا يكون أعظمَ من هذا برهانًا، وأقوىٰ شهادة؛ إذ[1] كُتُب أعدائِنا المخالفين لدينِنا، وهم يُقِرُّون بذلك، ويقرؤونه في كنائسهم، ولم ينكروا منه كلمةً واحدةً، ولا حرفًا واحدًا».

والجواب: أن الأمر إذا كان علىٰ ما قالوه من[2] ثبوت هذه الكلمات عن بعض الأنبياء، فليس فيها مدحٌ لدينهم بعد التَّبديل، فكيف بعد النَّسْخ والتَّبديل؟ وإنما فيها إخبارٌ بزوال مُلْكِ بني إسرائيل، وبنَسْخ ما نُسِخ من شَرْعِهم بمجيء المسيح عليه السلام، وهذا دليل علىٰ نبوَّة المسيح وصدقه، وهذا ممَّا اتَّفق عليه المسلمون.

والمسيح عليه السلام عندهم كما أخبر الله عنه، بقوله تعالىٰ لمريم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٦].

وأما قولهم: «إن هذا وغيره موجودٌ في كتب أعدائنا اليهود».

فيقال لهم: لا ريب أن اليهود يخالفونكم في تفسير الكتب، فأنتم تفسِّرونها بشيء، وهم يفسِّرونها بشيءٍ آخر، وقد يكون كلا التفسيرين باطلًا، وحينئذٍ فيقال لكم: كما أن كُتُبَ الأنبياء شاهدةٌ للمسيح ولدينه وإن خالفكم اليهود في

(١) بعدها في (المطبوع): «هذه» وليست في الأصول.
(٢) (و): «علىٰ».

تفسيرُها، فكذلك هي شاهدةٌ لمحمَّدٍ ﷺ وأمَّتِه، وإنْ خَالَفَ أهلُ الكتاب في تفسيرها، كما قد بَيَّن الله في كتب الأنبياء صفةَ محمَّدٍ وأُمَّتِه[1] في غير موضع.

والواجب في الكتب إذا تنازعت الأمم في تفسيرها أن يُبَيَّن الحقُّ الذي يقومُ عليه الدَّليلُ الشَّرعيُّ والعقليّ، وحينئذٍ يتبيَّن[2] أنكم فسَّرتم كُتُبَ الله بأشياءَ تخالف مرادَ الله في أمر التَّثليث والاتحاد وغيره، كما فعلت اليهود بتفسير الكتب، كما قد بُسِط في غير هذا الموضع[3].

(١) «الله في كتب الأنبياء صفة محمد وأمته» ليست في (و).

(٢) المثبت من (ي)، وفي باقي النسخ: (تبين).

(٣) انظر ما تقدّم (١/ ١٨٩)، (٢/ ٢٩).



فصـل

قالوا: «وأيضًا في قول هذا الإنسان ممَّا أتىٰ في كتابه حيث أتْبَعَ القول إنه لم يُرْسَل إلينا، مع تشكُّكِه فيما أتىٰ به في هذا الكتاب في سورة سبأ حيث يقول: ﴿وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٢٤﴾ [سبأ: ٢٤]. وأيضًا في سورة الأحقاف يقول: ﴿وَمَآ أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ﴾» [الأحقاف: ٩].

والجواب: أن نقلهم عنه أنه قال: «إنه لم يُرْسَل إليهم» كَذِبٌ ظاهرٌ عليه؛ فإنَّ كتابه مملوءٌ بدعوتهم وأَمْرِه لهم بالإيمان به واتِّباعه، بل وبعموم رسالته إلىٰ جميع الناس، بل وإلىٰ الجنِّ والإنس، وليس فيه قطُّ أنه لم يُرْسَل إلىٰ أهل الكتاب، بل فيه التَّصريح بدعوة أهل الكتاب في غير موضعٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

وقد كتب النَّبيُّ ﷺ بهذه الآية إلىٰ قيصرَ مَلِكِ النَّصارىٰ الذي اسمُه «هرقل» بالشَّام، وقد تقدَّم ذكر ذلك[1]، وتقدَّم أيضًا[2] أن قوله تعالىٰ: ﴿لِتُنذِرَ قَوْمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمْ﴾ [يس: ٦] يقتضي أنه ينذر الأمِّيِّين، وليس فيه أنه لا ينذرُ غيرهم، كما أن قوله: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] يقتضي إنذار قومه، ولا ينفي[3] أن ينذر غيرهم من العرب، كما أن قوله في قريش:

---

(١) انظر: (١/ ١٣٦).

(٢) انظر: (١/ ٤١، ٢٣٢).

(٣) (المطبوعتان): «ينافي».

﴿فَلْيَعْبُدُوا۟ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ﴾ [قريش: ٣-٤]. لا يمنع أن يكون غير قريشٍ مأمورين بعبادة ربِّ هذا البيت، بل قد أمر الله جميعَ الثقلين: الجنِّ والإنس أن يعبدوا ربَّ هذا البيت.

فإن قيل: فقد سكت عن ما سوىٰ الأميِّين في هذا، فيُشْعِر بالنَّفْي بدليل الخطاب الذي يُسَمَّىٰ مفهوم المخالفة.

قيل: ذاك إنَّما يدلُّ إذا لم يكن في التخصيص فائدةٌ سوىٰ الاختصاص بالحكم، ولم يكن هناك تصريحٌ بأنَّ حكمَ المسكوتِ كحكم المنطوق، وهنا لمَّا بعث الله محمَّدًا ﷺ، أُمِرَ أن يُنْذِر عشيرتَه الأقربين أوَّلًا، ثم يُنْذِر العربَ الأميِّين، ثم أهلَ الكتاب والمجوسَ وغيرَهم. وقد تقدَّم بسْطُ هذا[1].

---

(١) انظر: (١/ ٦٨).

فصـل[1]

وأما قولهم: «مع تشكُّكِه فيما أتىٰ به». فمن الكذب البيِّن؛ فإنه تعالىٰ قال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ۖ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ (٢٢) وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ۚ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ ۖ قَالُوا الْحَقَّ ۖ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ (٢٣) ۞ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٢٤) قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ (٢٥) قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ﴾ [سبأ: ٢٢-٢٦].

فإنه لمَّا دعاهم إلىٰ التوحيد وبيَّن أن ما يدْعُونَه من دون الله لا يملك مثقالَ ذرَّةٍ في السَّماوات ولا في الأرض، ولا هو شريكٌ ولا ظهير، ولا ينفع شفيعٌ إلا بإذنه= نفىٰ بذلك جميع وجوهِ الشِّرك، فإن ما يشرَكُ به إمَّا أن يكون له ملك، أو شريك في الملك، أو يكونَ مُعينًا، فإذا انتفت الثلاثة لم يبق إلا الشَّفاعةُ التي هي دعاءٌ لك[2] ومسألة، وتلك لا تنفع عنده إلا لمن أذن له.

ثم ذكر بعد هذا: أنه لا رازق يرزق من السَّماء والأرض إلا الله، دلّ بهذا وهذا علىٰ التوحيد، كما في قوله: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ۖ ثُمَّ إِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فَإِلَيْهِ تَجْأَرُونَ (٥٣) ثُمَّ إِذَا كَشَفَ الضُّرَّ عَنكُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنكُم بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ (٥٤) لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ ۚ فَتَمَتَّعُوا ۖ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٥٣-٥٥].

فلما ذكر ما دلَّ علىٰ وجوب توحيده، وبيانِ أن أهلَ التَّوحيد هم علىٰ الهدىٰ، وأن أهلَ الشِّرك علىٰ الضَّلال قال: ﴿وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي

---

(١) بياض في «د».

(٢) هامش (و) لعله «له». وهو أنسب.

ﮋﺿَﻠَٰﻞٍ ﻣُّﺒِﻴﻦٍﮊ [سبأ: ٢٤].

يقول: إن أحد الفريقين: أهلِ التَّوحيد الذين لا يعبدون إلا الله[١]، وأهلِ الشَّرك، لعلىٰ هدًى، أو في ضلالٍ مبين.

وهذا من الإنصاف في الخطاب الذي كلُّ من سمعه من وليٍّ وعدوٍّ قال لمن خُوطِب به: قد أنصفك صاحبُك. كما قال العادل الذي ظهر عدلُه للظَّالم الذي ظهر ظلْمُه: الظالم إمَّا أنا، وإمَّا أنت. لا للشكِّ في الأمر الظَّاهر، لكن لبيان أن أحدَنا ظالمٌ ظاهرُ الظلم، وهو أنتَ، لا أنا.

فإنه إذا قيل: أهلُ التَّوحيد الذين يعبدون الله علىٰ هدًى، أو في ضلال[٢]، وأهلُ الشِّرك الذين يعبدون ما لا يضرُّ ولا ينفع علىٰ هدًى أو في ضلال مبين[٣]= تَبَيَّن أنَّ أهلَ التَّوحيد علىٰ الهدىٰ، وأهلَ الشِّرك علىٰ الضلال، وهذا ممَّا يعلمه جميعُ الملل من المسلمين واليهود والنَّصارىٰ، يعلمون أن أهل التَّوحيد علىٰ الهدىٰ، وأهلَ الشِّرك علىٰ الضَّلال.

وفي القرآن في بيان مثل هذا ما لا يُحْصَىٰ إلا بِكُلْفة، بل قطبُ القرآن، وسائرُ الكتب ومدارُها علىٰ عبادة الله وحده، فكيف يقال: إن الرَّسول كان يشكُّ هل المهتدي هم أهل التَّوحيد أم أهل الشرك؟ وهل يقول هذا إلا من هو في غاية الجهل والعناد؟

ثم الآية خطابٌ للمشركين، ليست خطابًا للنَّصارىٰ خصوصًا[٤].

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «الحق».

(٢) بعدها في (المطبوعتين): «مبين».

(٣) «مبين» مثبتة من (و) وليست في سائر النسخ.

(٤) هذه الجملة ليست في (و، ي).

فَصْلٌ

وأما قوله تعالىٰ: قل ما أدري ما يفعل بي ولا بكم. فلفظ الآية(1): ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ الرُّسُلِ وَمَا أَدْرِي مَا يُفْعَلُ بِي وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ وَمَا أَنَا إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩].

وهذا بعد قوله: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ ۖ قُلْ إِنِ افْتَرَيْتُهُ فَلَا تَمْلِكُونَ لِي مِنَ اللَّهِ شَيْئًا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ۝٨﴾ [الأحقاف: ٨].

ونظير هذا قوله: ﴿قُل لَّا أَقُولُ لَكُمْ عِندِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾(2) [الأنعام: ٥٠].

وهذا قاله نوح عليه السلام أول الرسل، وأَمَرَ محمَّدًا ﷺ آخرَ الرُّسل أن يقوله.

ومثل قوله: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا ۝٢١ قُلْ إِنِّي لَن يُجِيرَنِي مِنَ اللَّهِ أَحَدٌ وَلَنْ أَجِدَ مِن دُونِهِ مُلْتَحَدًا ۝٢٢ إِلَّا بَلَاغًا مِّنَ اللَّهِ وَرِسَالَاتِهِ ۚ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا﴾(3) [الجن: ٢١- ٢٣].

وهذا ونحوُه يتضمَّن اعترافَه بأنه عبدُ الله ورسولٌ من الله، لا يتعدَّىٰ حدَّ الرِّسالة، ولا يدَّعي المشاركةَ في الإلهيَّة، كما ادَّعتْه النَّصارىٰ في المسيح

---

(١) كذا سيق الكلام في (و): «وأما قوله تعالىٰ: قل ما أدري ما يفعل بي ولا بكم إن أتبع إلا ما يوحىٰ إلي وما أنا إلا نذير مبين». فيه سقط وخطأ مخالف للمثبت من سائر النسخ.

(٢) أُكمِلت الآية هنا في جميع النسخ بقوله: «وما أنا إلا نذير مبين» وهو خطأ؛ إذ تمام الآية قوله تعالىٰ: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ﴾.

(٣) «ومن يعص الله ورسوله... خالدين فيها أبدًا» ليست في (و، ي).

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ ۖ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ﴾ [المائدة: ٧٥].

فتبيَّن[١] أنه لا يتعدَّىٰ حدَّ الرِّسالة، وهو كقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

ولهذا قال ﷺ في الحديث المتَّفق علىٰ صِحَّته: «**لا تُطْروني كَمَا أطْرَتِ النَّصارىٰ عيسىٰ ابنَ مرْيم، فَإِنَّما أنا عَبْدٌ، فَقُولُوا: عَبْدُ اللهِ ورَسُولُه**»[٢].

فقال تعالىٰ: ﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ [الأحقاف: ٩]. يقول: لستُ أولُ من أُرسِل أو ادَّعىٰ الرِّسالة، بل قد تقدَّم قبلي رسل: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الأحقاف: ٩] يقول: لا أدَّعي علم الغيب، إن أتَّبعُ إلا ما يُوحَىٰ إليَّ وما أنا إلا نذيرٌ[٣] أُنْذِرُكم بما أمرني الله أن أنذركم به، لا أقول لكم: عندي خزائن الله، ولا أعلم الغيب، ولا أقول إني ملك.

وهذا من كمال صِدْقه وعَدْله وعبوديَّته لله وطاعته، وتمييز ما يستحقُّه الخالقُ وحدَه ممَّا يستحقُّه العبد، فإن العلم بعواقب الأمور علىٰ وجه التَّفصيل ممَّا استأثر الله بعلمه، فلا يعلمه ملكٌ مقرَّب، ولا نبيٌّ مرسل، وليس من شرط الرَّسول أن يعلم كلَّ ما يكون.

---

(١) (و) «فبيّن».
(٢) تقدّم تخريجه (١/ ١٥٣).
(٣) «يقول: لا أدعي...» إلىٰ هنا، ساقطة من (د، ع) لانتقال النظر.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَدۡرِي مَا يُفۡعَلُ بِي وَلَا بِكُمۡۖ﴾ [الأحقاف: ٩]. نفيٌ لعلمه بجميع ما يُفْعَل به وبهم، وهذا لا يعلمه إلا الله ﷻ، وهذا لا ينفي أن يكون عالمًا بأنه سعيدٌ من أهل الجنَّة، وإن[1] لم يَدْرِ تفاصيل ما يجري له في الدُّنيا من المحن والأعمال، وما يتجدَّدُ له من الشَّرائع، وما يُكْرَمُ به في الآخرة من أصناف النعيم، فإنه قد ثبت في الصَّحيح[2] عن النبي ﷺ أنه قال: يقول الله تعالىٰ: «**أعْدَدتُ لعِبَادِيَ الصَّالِحِينَ مَا لا عَيْنٌ رَأَتْ، ولا أُذُنٌ سَمِعَتْ ولا خَطَرَ عَلَىٰ قَلْبِ بَشَرٍ**». وأيضًا هذا مأثورٌ عن غيره من الأنبياء عليهم السلام.

ولا من شَرْطِ النبيِّ أن يعلم حالَ المخاطبين: من يؤمن به، ومن يكفر، وتفصيل ما يصيرون إليه. هذا إن قيل: إنه لم يعلم بعد هذه الآية ما نُفي فيها، وإن قيل: إنه أُعْلِم بذلك، فمعلومٌ أن الله لم يُعْلِمْه بكلِّ شيءٍ جملةً، بل أعلمه بالأمور شيئًا بعد شيء.

وقد قال له[3] بعد ذلك: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ١ لِّيَغۡفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعۡمَتَهُۥ عَلَيۡكَ وَيَهۡدِيَكَ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا ٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصۡرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣] . وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلۡهُدَىٰ وَدِينِ ٱلۡحَقِّ لِيُظۡهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدٗا﴾ [الفتح: ٢٨].

وفي القرآن والأحاديث عنه ﷺ من الإخبار بما سيكون في الدنيا وفي الآخرة أضعافُ أضعافِ ما يوجد عن الأنبياء قبله، حتىٰ إنه ينبئ عن الشَّيء

---

(١) (ع): «فإنه».

(٢) البخاري (٣٢٤٤) ومسلم (٢٨٢٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) (ط.النيل): «الله».

الذي يكون بعد مئين[1] من السِّنين خبراً أكمل من خبر من عاين ذلك، كقوله ﷺ في الحديث الصحيح: «**لا تَقُومُ السَّاعةُ حتَّىٰ تُقَاتِلُوا التُّركَ صِغارَ الأعين، ذُلْفَ الأنوف، حُمْرَ الخُدُودَ، يَنْتَعِلُونَ الشَّعْرَ، كأنَّ وجُوهَهُمُ المَجَانُّ المُطْرَقَة**»[2]، فمن رأىٰ هؤلاء التُّركَ الذين قاتلهم المسلمون من حين خرجَ جَنْكِسْخان[3] مَلِكُهم الأكبر[4]، وأولادُه وأولادُ أولادِه، مثلُ هولاكو، وغيرِه من ملوك[5] التُّركِ الكفار الذين قاتلهم المسلمون لم يحسن أن يصفهم بأحسنَ من هذه الصفة. وقد أخبر بهذا قبل ظهوره بأكثرَ من ستِّمائة سنة.

وقوله ﷺ: «**لا تَقُومُ السَّاعَةُ حتَّىٰ تَخْرُجَ نارٌ مِنْ أَرْضِ الحِجَازِ تُضِيءُ لها أَعْنَاقُ الإبلِ بِبُصْرَىٰ**»[6] وهذه النَّارُ ظهرت سنة خمسٍ وخمسين[7] وستِّمائةٍ بأرض الحجاز، فكانت تُحْرِق الحجر ولا تُنْضِجُ اللَّحم، ورأىٰ أهلُ بُصْرىٰ

---

(١) الأقرب في (و) أنها هكذا. وفي (د، ع، ط.النيل): «يبين» ولم تحرر في (ي).

(٢) البخاري (٢٩٢٨) ومسلم (٢٩١٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) «جنكسخان» ليست في (و، ي). قال الذهبي في ترجمته في «تاريخ الإسلام» (٤٥/ ١٨٦): «جنكزخان طاغية التّتار وملكهم الأوّل. الّذي خرب البلاد، وأباد العباد. وليس للتّتار ذكر قبلَه، وإنّما كانوا ببادية الصّين، فملَّكُوه عليهم، وأطاعوه طاعة أصحاب نبيٍّ لنبيّ، بل طاعة العِباد المُخلصين لربّ العالمين. وكان مبدأ ملْكه في سنة تسع وتسعين وخمسمائة، واستولىٰ علىٰ بخارىٰ وسمرقنْد في سنة ست عشرة، واستولىٰ عَلَىٰ مدن خراسان في سنة ثمان عشرة، وآخر سنة سبعَ عشرة. مات في رابع رمضان من سنة أربع وعشرين».

(٤) بعدها في (و): «هلاوون».

(٥) «ملوك» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٦) البخاري (٧١١٨) ومسلم (٢٩٠٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٧) كذا في الأصول أنها سنة خمس وخمسين. والمعروف أنها سنة أربع وخمسين. انظر: «تاريخ الإسلام» (٤٨/ ١٨)، «البداية والنهاية» (١٣/ ١٨٧)، «السلوك لمعرفة دول الملوك» (١/ ٤٨٩)، «التحفة اللطيفة» (١/ ٤٤).

أعناق الجمال من ضوء تلك النار، وكانت منذرة بما يكون بعدها، ففي سنة ستٍّ وخمسين وستِّمائة دخل هولاكو[1] ملكُ الكفَّار بَغْداد، وقَتَل فيها مَقْتَلَةً عظيمةً مشهورة. وسيأتي إن شاء الله[2] بعضُ أخبار أنه شاهَد الناسُ وقوعَها كما أخبر، عند ذكرنا معجزاته.

---

(١) قال ابن كثير في «البداية والنهاية» (١٧/ ٤٦٨): «هولاكو خان بن تولي خان بن جنكيز خان ملك التتار ابن ملك التتار، وهو والد ملوكهم، وقد كان هولاكو ملكًا جبَّارًا فاجرًا كفَّارًا لعنه الله، قتل من المسلمين شرقًا وغربًا ما لا يعلم عددهم إلا الذي خلقهم وسيجازيه علىٰ ذلك شر الجزاء، كان لا يتقيد بدينٍ من الأديان، كانت همته في تيسير مملكته وتملك البلاد شيئًا فشيئًا، حتىٰ أباده الله في هذه السنة -خمس وستين وستمائة-، وقيل في سنة ثلاث وستين، ودفن في مدينة تلا، لا رحمه الله، وقام في الملك من بعده ولده أبغا خان وكان أبغا أحد إخوة عشرة ذكور».

(٢) في (٤/ ١٨٢، ٢٩٢).



فَصْـلٌ

ثم قـالوا: «مـع الأمـر لـه في فاتحـة الكتـاب أن يسـأل الهداية إلىٰ الصِّـراط المستقيم، صراط الذين أنعم الله عليهم، غير المغضوب عليهم ولا الضَّـالين، فـأعنىٰ[1] بقولـه: المُنْعَمِ عليهم، والمغضـوبِ عليهم، والضَّـالين الثلاثَ أمـم الذين كانوا في عصره، وهـم: النَّصـارىٰ، واليهـودُ وعبَّـادُ الأصـنام، ولـم يكـن في زمانه غيرَ هؤلاء الثَّلاثِ أمم.

فالمُنْعَم عليهم نحن النَّصارىٰ، والمغضوب عليهم فلا يُشَـكُّ أنهـم اليهـود الذين غضب الله عليهم في كتب التَّوراة والأنبياء وهذا الكتـاب، والضَّـالين فهـم عُبَّاد الأصنام الذين ضلُّوا عن الله، فهذا أمرٌ واضحٌ بيِّنٌ ظاهرٌ عند كـلِّ أحـد، ولا سيَّما عند ذوي العقول والمعرفة.

والصِّراط: هـو المـذهب، أي الطَّريـق، وهـذه اللَّفْظـة روميَّـة؛ لأن الطريـق بالروميَّة: اسطراطا»[2].

والجواب: أما قولهم[3]: «المُنْعَم عليهم نحن النصـارىٰ». فمـن العجائـب التي تدلُّ علىٰ فرْطِ جَهْلِ صاحبها، وأعجبُ من ذلك قولُهم: «إن هذا شيءٌ بيِّنٌ واضـحٌ عنـد كـلِّ أحـد، لَا سـيَّما عنـد ذوي العقـل والمعرفـة». فيـا سـبحان الله! ألـم يعْـرِف العـامُّ والخـاصُّ علمًـا ضـروريًّا لا تمكـن المنازَعـةُ فيـه مـن ديـن محمَّدٍ ﷺ ودينِ أمَّتِه الذي تلقَّوه عنه من تكفير النَّصارىٰ وتجهيلهم وتضليلهم واستحلال جهادهم وسبْيِ حريمهم وأخذ أموالهم ما ينـاقض كـلَّ المناقضـة أن

---

(١) (المطبوع): «فإنه عنىٰ». وقد تقدّم التنبيه علىٰ هذه الكلمة (١/ ٤١٢).

(٢) ورد ما سبق من أول هذا الفصل مختصرًا في «رسالة بولس» (٤١٧-٤١٨).

(٣) بعدها في هامش (و، ي): «أنه عنىٰ بقوله».

يكون محمدٌ ﷺ وأمَّتُه في كل صلاة يقولون: اللهم اهدنا صراط النصارىٰ؟!

وهل يَنْسِبُ محمَّدًا ﷺ وأُمَّته إلىٰ أنَّهم في كلِّ صلاةٍ يطلبون من الله أن يهديهم صراطَ النَّصارىٰ إلا من هو مِن أكذبِ الكذَّابين، وأعظمِ الخلق افتراءً ووقاحةً وجَهْلًا وضلالًا؟!

ولو كانوا يسألون الله هدايةَ طريق النَّصارىٰ لدخلوا في دين النَّصارىٰ، ولم يكفِّروهم ويقاتلوهم، ويضعوا عليهم الجزية التي يؤدُّونها عن يدٍ وهم صاغرون، ولم يشهدوا عليهم بأنهم من أهل النار.

وأمَّتُه أخذوا ذلك جميعَه عنه، منقولًا عنه بالنَّقل المتواتر بإجماعهم، لم يبتدعوا ذلك كما ابتدعت النَّصارىٰ من العقائد والشَّرائع ما لم يأذن به الله، فلا يُلامُ المسلمون في اتِّباعهم لرسول الله الذي جاء بالبيِّنات والهدىٰ.

ومحمَّدٌ ﷺ إن كان رسولًا صادقًا، فقد كفَّر النَّصارىٰ وأمرَ بجهادهم، وتبرَّأ منهم ومن دينهم، وإن كان كاذبًا لم يُقبل شيءٌ مما نقله عن الله ﷻ.

وقد تقدَّم غيرُ مرَّةٍ قولُه تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ٧٢]. ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]. ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١].

فمن يقول عن النصارىٰ مثل هذه الأقوال هل يأمر أُمَّته في كل صلاةٍ أن يقولوا: اهدنا طريقَهُم؟!



ثم يقال: أيُّ شيءٍ في الآية ممَّا يدل على أن قوله: ﴿صِرَٰطَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمۡتَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [الفاتحة:٧] هم النصارىٰ. وإنما المُنْعَم عليهم هم الذين ذكرهم الله في قوله تعالىٰ: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾ [النساء: ٦٩].

فهؤلاء الذين أمر الله عبادَه أن يسألوا هدايةَ صِراطِهم.

وأما النَّصارىٰ[١] الذين كانوا علىٰ دين المسيح قبل النَّسخ والتَّبديل فهم من المُنْعَم عليهم، كما أنَّ اليهود الذين كانوا علىٰ دين موسىٰ قبل النَّسخ والتَّبديل كانوا مِن المُنْعَم عليهم.

وأما النَّصارىٰ بعد النسخ والتَّبديل فهم من الضَّالين لا من المُنْعَم عليهم عند الله ورسوله، كما قال تعالىٰ: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧]. وقال تعالىٰ: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَاۖ لَٰكِنِ ٱلظَّٰلِمُونَ ٱلۡيَوۡمَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ [مريم: ٣٨].

وعُبَّاد الأصنام من الضَّالين المغضوب عليهم. وقد قال النَّبيُّ ﷺ: «**اليَهُودُ مَغْضُوبٌ عَلَيْهِمْ، والنَّصَارَىٰ ضَالُّونَ**». رواه الإمام أحمد والتِّرمذي[٢] عن عديِّ بن حاتم، عن النَّبيِّ ﷺ. وقال التِّرمذي: هذا حديثٌ صحيح.

---

(١) بعدها في (و): «منهم».

(٢) «مسند أحمد» (١٩٣٨١) و«جامع الترمذي» (٢٩٥٣) قال ابن أبي حاتم في تفسيره (١/ ٣١) عقب هذا الحديث: «ولا أعلم بين المفسرين في هذا الحرف اختلافـًا» يعني في تفسير الآية بما جاء عن رسول الله ﷺ.

وسبب ذلك أن اليهود يعرفون الحقَّ ولا يعملون به، والنَّصارىٰ يعبدون بلا علم، وقد وصف الله اليهود بأعمال، والنَّصارىٰ بأعمال، فوصف اليهود بالكِبْر والبُخْل والجُبْن والقَسْوة وكِتْمان العلم وسلوك سبيل[1] الغيِّ وهو سبيل الشَّهوات والعدوان.

وذَكَر عن النَّصارىٰ الغلوَّ والبدعَ في العبادات والشِّرك والضَّلال واستحلالَ محارمِ الله، فقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٧١-١٧٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَرَهۡبَانِيَّةً ٱبۡتَدَعُوهَا مَا كَتَبۡنَٰهَا عَلَيۡهِمۡ إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ رِضۡوَٰنِ ٱللَّهِ فَمَا رَعَوۡهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد: ٢٧]. أي: لكن كتبنا عليهم ابتغاء رضوان الله، لم نكتب عليهم الرَّهبانيَّة، بل هم ابتدعوها، ومع ابتداعهم إيَّاها فما رعوها حقَّ رعايتها، وكلُّ بِدْعةٍ ضلالة، فهم مذمومون علىٰ ابتداع الرَّهبانيَّة، وعلىٰ أنهم لم يرعوها حقَّ رعايتِها.

---

(١) «سبيل» ليست في (د، ع، ط.النيل).



وأما ما كَتَب عليهم من ابتغاء رضوان الله فيحصل بفعل ما شرَعَه الله لهم من واجبٍ ومستحب، فإنَّ ذلك هو الذي يرضاه، ومن فعل ما يرضاه الله فقد فعل ما كُتِب عليه. ويحْصُل رضوانُ الله أيضًا بمجرَّد فِعْل الواجبات، وهذا هو الذي كَتَب على العباد، فإذا لم يَكْتُب عليهم إلا ابتغاء رضوان الله كان ابتغاء رضوانه واجبًا، فما ليس بواجبٍ لا يُشترط في حصول ما كَتَب عليهم.

ولهذا ضعَّف أحمدُ بن حنبل وغيره الحديثَ المرويّ: «أوَّلُ الوقتِ رضوانُ الله، وآخرُه عفو الله»[1]، فإنَّ مَن صلىٰ في آخر الوقت كما أُمِر فقد فعل الواجب، وبذلك يرضىٰ الله عنه، وإن كان فِعْل المستحبَّات، والمسابقةُ إلىٰ الطَّاعات أبلغَ في إرضاء الله[2]، ويحصل له بذلك من رضوان الله ومحبَّته ما لا يحصُل بمجرَّد الواجبات. كما قال موسىٰ عليه السلام: ﴿وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَىٰ﴾ [طه: ٨٤].

وفي الحديث الصحيح الذي رواه البخاريُّ[3] وغيره عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: «**يقول الله تعالىٰ: مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ بَارَزَنِي بِالمُحَارَبَة، ومَا تَقَرَّب إليَّ عَبْدِي[4] بِمِثْلِ أداءِ ما افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، ولا يَزَالُ عَبْدِي يتقَرَّبُ إليَّ بالنَّوَافِلِ حتَّىٰ أُحِبَّه، فَإِذَا أَحْبَبْتُه كُنْتُ سَمْعَه الذي يسْمَعُ بِهِ وبَصَرَهُ الذي يُبْصِرُ**

(١) الترمذي (١٧٢) وقال البيهقي عقب روايته للحديث في «السنن الكبرىٰ» (٢٠٤٨): هذا حديث يعرف بيعقوب بن الوليد المدني، ويعقوب منكر الحديث، ضعفه يحيىٰ بن معين، وكذبه أحمد بن حنبل وسائر الحفاظ، ونسبوه إلىٰ الوضع، نعوذ بالله من الخذلان، وقد روي بأسانيد أخر كلها ضعيفة».

(٢) بعدها في (د، ع، ط.النيل): «عنه».

(٣) (٦٥٠٢).

(٤) (د، ع، ط.النيل): «عبد».



به، ويَدَه التي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَه التي يَمْشِي بِهَا، فَبِي يَسْمَعُ، وبي يُبْصِر، وَبِي يَبْطِش، وبِي يَمْشِي، فَلَئِن سَأَلَنِي لأُعْطِيَنَّه، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَ بِي لأُعِيذَنَّه، وما تَرَدَّدتُ عنْ شَيءٍ أنَا فَاعِلُه تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ[1] عَبْدِي المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ، وأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ، وَلا بُدَّ لَهُ مِنْهُ».

فقوله: «حَتَّىٰ أُحِبَّه»: يريد المحبَّةَ المطْلَقةَ الكاملةَ، وأمَّا أصلُ المحبة[2]: فَهِي حاصِلةٌ بِفِعْل الواجبات، فإنَّ الله يُحِبُّ المتَّقين والمقسطين، ومن أدَّىٰ الوَاجِبات فهو من المتَّقين المقسطين.

وقال تعالىٰ فيهم: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓا۟ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓا۟ إِلَٰهًا وَٰحِدًا ۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠-٣١].

وقال تعالىٰ لهم: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُوا۟ فِى دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة:٧٧].

وهو سبحانه خاطب النصارىٰ بهذا؛ لأن النَّصارىٰ يعتمدون في دينهم علىٰ ما يقوله كبراؤهم الذين وضعوا لهم القوانين والنواميس، ويسوِّغون لأكابرهم الذين صاروا عندهم عظماءَ في الدين أن يضعوا[3] لهم شريعة وينسخوا بعضَ

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «روح».

(٢) بعدها في (و، ي): «المطلقة الكاملة» والسياق لا يقتضيها.

(٣) (د، ع، ط.النيل): «يصنعوا».

ما كانوا عليه قبل ذلك، لا يردُّون ما يتنازعون فيه من دينهم إلىٰ الله ورسله، بحيث لا يمكِّنون أحدًا من الخروج عن كُتُبِ اللهِ المُنَزَّلةِ كالتَّوراةِ والإنجيل، وعنِ اتِّباع ما جاء به المسيحُ ومَن قبلَه من الأنبياء عليهم السلام.

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَىْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا۟ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [المائدة:٦٨].

بل ما[1] وضعه لهم أكابِرُهم من القوانين الدِّينيَّة والنواميس الشَّرعيَّة بعضُها ينقلونه عن الأنبياء، وبعضُها عن الحواريين، وكثيرٌ من ذلك ليس منقولًا لا عن الأنبياء ولا عن الحواريِّين، بل مِن وَضْعِ أكابرهم وابتداعهم.

كما ابتدعوا لهم «الأمانة» التي هي أصلُ عقيدتهم، وابتدعوا لهم الصَّلاة إلىٰ الشرق، وابتدعوا لهم تحليل لحم الخنزير، وسائر المحرمات، وابتدعوا لهم الصَّوم وقت الربيع، وجعلوه خمسين يومًا، وابتدعوا لهم أعيادَهم كعيد الصَّليب وغيرِه من الأعياد.

وكذلك قال النبي ﷺ لعَدِيِّ بن حاتِمٍ لمَّا سَمِعَه يقرأ هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓا۟ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٣١].

فقال: لم يعبدوهم. فقال له النبي ﷺ: «**إِنَّهُم أَحَلُّوا لَهُمُ الحَرَامَ فأَطَاعُوهُم، وحَرَّمُوا عَلَيْهِمُ الحَلالَ فَأَطَاعُوهُمْ، فَكَانَتْ تِلْكَ عِبَادَتُهُمْ**»[2].

ولهذا قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓا۟ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا۟ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا۟ كَثِيرًا وَضَلُّوا۟ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

---

(١) (و، ي) «وما» مع سقوط «بل» في (و).
(٢) تقدّم تخريجه (٢/ ٥).

فإنهم يَتَّبعون أهواءَ أكابرهم الذين مضوا من قَبْلِهم، وأولئك ضَلُّوا من قبلِ هؤلاء، وأضَلُّوا أتباعهم، وهم كثيرون، وضَلُّوا عن سواء السَّبيل، وهو وسطَ السَّبيل، وهو الصِّراط المستقيم.

فإذا كانوا هم وأتباعُهم ضالِّين عن الصِّراط المستقيم، فكيف يجوز أن يأمر الله عباده أن يهديهم الصِّراط المستقيم ويعني به صراطَ هؤلاء الضَّالين المضلِّين عن سواء السبيل، وهو الصِّراط المستقيم؟ وقد قال سبحانه: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ﴾ هؤلاء؛ لأن أصل ابتداعِهم هذه البدعةَ كان عن هوًى[1] من أنفسهم مع ظنٍّ كاذب، فكانوا مِمَّن قيل فيهم: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَمَا تَهْوَى ٱلْأَنفُسُ ۖ وَلَقَدْ جَآءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ ٱلْهُدَىٰٓ﴾ [النجم: ٢٣]. ومِمَّن قيل فيه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ﴾ [القصص: ٥٠].

وسبب ذلك: أنَّ المسيح ﷺ لما رفُع إلىٰ السَّماء وعاداه اليهودُ، وعادَوا أتباعه عداوةً شديدة، وبالغوا في أذاهم وإذلالِهم وطلبِ قتلِهم ونَفْيِهم، صار في قلوبهم من بغض اليهود وطلبِ الانتقام منهم ما لا يوصف، فلما صار لهم دولةٌ ومُلْكٌ مثلَ ما صار لهم في دولة قُسْطَنطين صاروا يريدون مقاتلة[2] اليهود، كما جرت العادة في مثل ذلك بين الطَّوائف المتقابلة المتنازِعين في المُلْك، والمتنازعين في البدع كالخوارج والروافض، والجبريَّة مع القدريَّة، والمعطِّلة مع المُمَثِّلة، وكالدَّولتين المتنازِعَتَين علىٰ الملك والأهواء، بمنزلة قيسٍ ويَمَن، وأمثال ذلك، إذا ظهرت طائفةٌ علىٰ الأخرىٰ بعدما آذتْها الأخرىٰ وانتقمت منها

---

(١) «كان عن هوًى» سقطت من (المطبوع).

(٢) المثبت من (و)، وسائر النسخ: «مقابلة».

تريد أن تأخذ بثأرها، ولا تقفَ عند حدِّ العدل، بل تعتدي علىٰ تلك كما اعتدت تلك عليها.

فصار النَّصارىٰ يريدون مناقضةَ اليهود؛ فأحَلُّوا ما يحرِّمه اليهودُ، كالخنزير وغيره، وصاروا يمتحنون مَنْ دَخَل في دينهم بأكل الخنزير، فإن أَكَلَه وإلا لم يجعلوه نصرانيًّا.

وتركوا الختان، وقالوا: إن المعموديَّة عِوَضٌ عنه، وصَلَّوا إلىٰ قبلةٍ غيرِ قبلة اليهود.

وكان اليهود قد أسرفوا في ذمِّ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وزعموا أنه ولدُ زنا، وأنه كذَّابٌ ساحر، فغَلَوْا هؤلاء في تعظيم المسيح وقالوا: إنه الله وابن الله، وأمثال ذلك، وصار من يطْلُبُ أن يقول فيه القولَ العَدْلَ مثلَ كثيرٍ من علمائهم وعُبَّادهم، يجمعون له مجْمَعًا ويلعنونه فيه علىٰ وجه التَّعَصُّب واتِّباع الهوىٰ، والغلُوِّ فيمن يعظمونه، كما يجري مثلُ ذلك لأهل الأهواء، كالغلاة(1) في بعض المشايخ، وبعض أهل البيت، وبعض العلماء، وبعض الملوك، وبعض القبائل، وبعض المذاهب، وبعض الطَّرائق، فإنما كان مصدرُ ضلالهم أهواءَ نفوسهم، قال تعالىٰ للنَّصارىٰ الذين كانوا في وقت النَّبيِّ ﷺ ومَن بعدهم: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ غَيۡرَ ٱلۡحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهۡوَآءَ قَوۡمٖ قَدۡ ضَلُّواْ مِن قَبۡلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرٗا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ﴾ [المائدة: ٧٧].

---

(١) (المطبوع): «كالفلاة» خطأ.



وأما قولهم: «إن الصِّراط هو المذهب، أي: الطريق، وهذه لفظةٌ روميِّة؛ لأن الطَّريق بالرُّوميِّة اسطراطا».

فيقال لهم: الصِّراط في لغة العرب: هو الطريق. يقال: هو الطَّريق الواضح، ويقال: هو الطَّريق المحدود بجانبين الذي لا يخرج عنه. ومنه الصِّراطُ المنصوب علىٰ جهنم، وهو الجِسْر الذي يَعْبُر عليه المؤمنون إلىٰ الجنة، وإذا عَبَر عليه الكفَّارُ سقطوا في جهنم.

ويقال فيه: معنىٰ الاستواء والاعتدال الذي يوجب سرعة العبور عليه.

وفيه ثلاثُ لغات، هي ثلاث قراءات[1]: الصِّراط، والسِّراط، والزِّراط. وهي لغةٌ عربيَّةٌ عرباء ليست من المعرَّب، ولا مأخوذةً من لغة الرُّوم كما زعموا.

ويقال: أصْلُه من قولهم: سرطت الشيء أسْرُطه سرْطًا إذا ابتلعْتُه، واسترطتُه ابتلعْتُه؛ فإن المُبْتَلِع يجري بسرعة في مجرًىٰ محدود.

ومن أمثال العرب: لا تكن حُلْوًا فتُسْتَرَط، ولا مرًّا فتُعْقىٰ، من قولهم: أعْقَيْتَ الشَّيءَ، إذا أزَلْتَه مِن فيك لمرارته. ويقال: فلان يسترط ما يأخذ من الدين[2].

وحكىٰ يعقوب بن السِّكِّيت[3]: الأخذ سُرَّيط، والقضاء ضُرَّيط.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص١٠٥) لابن مجاهد.

(٢) انظر: «إصلاح المنطق» (ص١٩٤)، و«الأمثال» (ص٢٧٨)، للهاشمي، و«مجمع الأمثال» (٢/ ٢٣٢).

(٣) هو يعقوب بن إسحاق، أبو يوسف، اللغوي، صاحب كتاب «إصلاح المنطق». كان من أهل الفضل والدّين، موثوقا بروايته. مات سنة ثلاث وأربعين ومائتين، وقد بلغ ثمانيًا وخمسين سنة. «إنباه الرواه» (٤/ ٥٨). والنصُّ في «إصلاح المنطق» (ص١٥٥).

والسِّرطَاط: الفالوذَج، لأنه يُسْتَرط اسْتِراطًا. وسيف سُرَاطِيٌّ أي: قاطع؛ فإنه ماضٍ سريعُ المَذْهَب في مَضْربه[1].

فالصِّراط هو: الطريق المحدود المعتدل الذي يصل بسالكه إلىٰ مطلبه بسرعة، وقد ذكر الله لفظ الصراط في كتابه في غير موضع، ولم يسمّ الله سبلَ الشيطان سراطًا، بل سمَّاها سبلًا[2]، وخصَّ طريقَه باسم الصراط، كقوله تعالىٰ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وفي السُّنَن[3] عن عبد الله بن مسعود قال: «خَطَّ لنَا رَسُولُ اللهِ ﷺ خطًّا، وخَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِه وَشِمَالِه، ثُمّ قَالَ: هَذَا سَبِيلُ اللهِ، وَهَذِه سُبُل؛ عَلَىٰ كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ مَنْ أَجَابَهُ قَذَفَهُ فِي النَّارِ ثُمّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ﴾» [الأنعام: ١٥٣]. فسمَّىٰ سبحانه طريقَه صراطًا، وسمىٰ تلك سُبُلًا، ولم يُسَمِّها صِراطًا كما سمَّاها سبيلًا[4]، وطريقُه يُسَمِّيه سَبِيلًا كما يُسَمِّيه صراطًا.

وقال تعالىٰ عن موسىٰ وهارون: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُمَا ٱلْكِتَٰبَ ٱلْمُسْتَبِينَ ﴿١١٧﴾ وَهَدَيْنَٰهُمَا ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الصافات: ١١٧-١١٨].

---

(١) انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٣٠)، «لسان العرب» (٧/ ٣١٣).

(٢) (ي): «سبيلًا».

(٣) «مسند أحمد» (٤١٤٢) وابن ماجه (١١) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه. وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٢٩٣٨) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي.

(٤) (و، ي): «سبلًا».

وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا﴾ [الفتح: ١-٣].

وهذه الهداية الخاصَّة التي أعطاه إياها بعد فتح الحديبية أخصُّ ممَّا تقدَّم؛ فإن السالك إلىٰ الله لا يزال يتقرَّب إليه بشيءٍ بعد شيء، ويزيده الله هدًى بعد هدى، وأقومُ الطريق وأكملُها الطريق التي بَعَث الله بها نبيَّه محمَّدًا ﷺ كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩].

فصـل

قـال الحـاكي عـنهم: «فقلـت[1]: إنهـم ينكـرون علينـا في قولنـا: أبٌ وابـنٌ، وروحُ قدس. وأيضًا في قولنا: إنهم ثلاثة أقـانيم[2]. وأيضًـا في قولنـا: إن المسيح ربٌّ وإله وخالق. وأيضًا يطلبون منا إيضـاح تجسّـد تجسـم[3] كلمـة الله الخـالق بإنسانٍ مخلوق.

أجابوا قائلين: لو علموا قولَنا هذا إنما نريد بـه [تصـحيح][4] القـول[5] أن الله شيءٌ حيٌّ ناطقٌ لما أنكروا علينا ذلك؛ لأننا معشر النَّصارىٰ لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئًا غيرَها أحدثها؛ إذ لا يمكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضادد[6] والتقلُّب.

فقلنا: إنه شيءٌ لا كالأشياء المخلوقـة؛ إذ هـو الخـالق لكـلِّ شـيء، وذلـك لننفيَ عنه العدم، ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين: شيءٌ حيّ، وشيءٌ غيرُ حي، فوصفناه بأجلِّهما، فقلنا: هو شيْء حيٌّ لننفيَ الموت عنه، ورأينـا[7] الحـيَّ ينقسم قسمين: حيٌّ ناطق، وحيٌّ غيرُ ناطق. فوصفناه بأفضلهما، فقلنا: هو شيءٌ حيٌّ ناطقٌ لننفيَ الجهلَ عنه.

---

(١) بعدها في (و، ي): «لهم».

(٢) «وأيضًا في قولنا: إنهم ثلاثة أقانيم» ليست في (ي).

(٣) (و): «تجسيم».

(٤) إضافة من الصفحة التالية حيث تكررت العبارة. وهي كذلك مثبتة في «رسالة بولس» (ص٤١٨).

(٥) بعدها في (المطبوعتين): «الذي». وفي (المطبوع) بعد «الذي» زيادة: «يعني» فصارت العبارة: «إنما نريد به القول الذي يعني أن الله شيء...» خلافًا للأصول.

(٦) (ع، ط.النيل): «التضاد».

(٧) (و): «وقلنا».

والثلاثة أسماء وهي: إلهٌ واحد، مسمًّى واحد، وربٌّ واحد، خالقٌ واحد، شيءٌ حيٌّ ناطق، أي: الذّاتُ والنطق والحياة. فالذَّات عندنا: الأب الذي هو ابتداء الاثنين، والنُّطق: الابن الذي هو مولودٌ منه لولادة النُّطق من العقل، والحياة: روح القدس»(١).

والجواب من وجوه:

أحدها: قولهم: «أما قولنا أب، وابن، وروح قدس، فلو علموا قولنا هذا إنما نريد به تصحيح القول بأن الله حيٌّ ناطقٌ لما أنكروا ذلك علينا».

فيقال: ليس الأمر كما ادَّعوه؛ فإنَّ النصارىٰ يقولون: إن هذا القول تلقَّوه عن الإنجيل، وإن في الإنجيل عن المسيح - صلوات الله عليه وسلامه - أنه قال: «عَمِّدوا النَّاسَ باسم الأب، والابن، وروح القدس» فكان أصل قولهم هو ما يذكرونه من أنه متلقًى من الشرع المنَزَّل، لا أنهم أثبتوا الحياة والنُّطقَ بمعقولهم، ثم عبَّروا عنها بهذه العبارات، كما ادَّعوه في مناظرتهم.

ولو كان الأمر كذلك لما احتاجوا إلىٰ هذه العبارة، ولا إلىٰ جَعْلِ الأقانيم ثلاثة، بل معلومٌ عندهم وعند سائر أهل الملل أن الله موجودٌ حيٌّ عليمٌ قديرٌ متكلِّمٌ، لا تختصُّ صفاته بثلاثة، ولا يعبَّر عن ثلاثةٍ منها بعبارةٍ لا تدلُّ علىٰ ذلك، وهو لفظ: «الأب»، و«الابن»، و«روح القدس»؛ فإن هذه الألفاظ لا تدلُّ علىٰ ما فسَّروها به في لغة أحدٍ من الأمم، ولا يوجد في كلام أحدٍ من الأنبياء أنه عبَّر بهذه الألفاظ عمَّا ذكروه من المعاني، بل إثباتُ ما ادَّعوه من التَّثليث والتَّعبير عنه بهذه الألفاظ هو ممَّا ابتدعوه، لم يدلَّ عليه لا شرعٌ ولا عقل.

---

(١) زادت (المطبوعتان) بعدها: «وهذه أسماء لم نسمه نحن بها». ولا وجود لها في النسخ.



وهم يدَّعون أن التَّثليثَ والحلولَ والاتحادَ إنما صاروا إليه من جهة الشَّرع، وهو نصوص الأنبياء[1] والكتب المنزَّلة، لا من جهة العقل، وزعموا أن الكتب الإلهيَّة نطقت بذلك، ثم تكلَّفوا لِمَا ظنُّوه مدلولَ الكتب طريقًا عقليَّةً فسَّروه بها تفسيرًا ظنُّوه جائزًا في العقل.

ولهذا تجد النَّصارىٰ لا يلجؤون في التَّثليث والاتحاد[2] إلّا إلىٰ الشرع والكتب، وهم يجدون نفرةَ عقولهم وقلوبهم عن التَّثليث والاتحاد والحلول؛ فإن فطرة الله التي فَطَر النَّاسَ عليها وما جعله الله في قلوب الناس من المعارف العقليَّةِ التي قد يُسَمُّونها ناموسًا[3]طبيعيًا يدفع ذلك وينفيه وينفِر عنه، لكن يزعمون أن الكتب الإلهيَّة جاءت بذلك، وأن ذلك أمرٌ يفوق العقل، وأنَّ هذا الكلام من طورٍ وراء طور العقل، فينقلونه لظنِّهم أن الكتب الإلهيَّةَ أخبرت به، لا لأنّ العقول دلَّت عليه، مع أنه ليس في الكتب الإلهيَّة ما يدلُّ علىٰ ذلك، بل فيها ما يدلُّ علىٰ نقيضه كما سنذكره إن شاء الله تعالىٰ[4]، ولا يميِّزون بين[5] ما يُحِيله العقلُ ويُبْطِله ويَعْلَم أنه مُمْتنع، وبين ما يَعْجز عنه العقلُ فلا يعرفه ولا يَحْكُم[6] فيه بنفيٍ ولا إثبات، وأن الرُّسل أخبرت بالنَّوع الثَّاني، ولا يجوز أن تخبر بالنوع الأول، فلم يفرِّقوا بين مُحالات العقول ومَحارات العقول، وقد ضاهوا في ذلك مَن قَبلهم من المشركين الذين جعلوا لله ولدًا شريكًا.

قال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ

---

(١) «وهو نصوص الأنبياء» ليست في (و).

(٢) بعدها في (ع): «والحلول».

(٣) زادت (المطبوعتان) بعدها: «عقليًا».

(٤) انظر ما سيأتي: (٣/ ٣٠١) .

(٥) «بين» ساقطة من النسخ، وألحقت في هامش (ي).

(٦) (د، ع، ط.النيل): «يعلم».

ابْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقد ضاهاهم في ذلك أهلُ البدع والضلال المُشْبِهُون لهم من المنتسبين إلىٰ الإسلام الذين يقولون بنحو قولهم من الغُلوِّ في الأنبياء، وأهل البيت[١]، والمشايخ، وغيرهم، ومن يدَّعي الوَحْدةَ أو الحُلولَ، أو الاتِّحادَ الخاصَّ المعيَّنَ كدعوىٰ النصارىٰ، ودعوىٰ الغالية من الشيعة في عليٍّ وطائفة من أهل البيت، كالنُّصيْريَّة ونحوهم ممَّن يدعي إلهيَّة علي، وكدعوىٰ بعض الإسماعيليَّة الإلهيَّة في الحاكم، وغيره من بني عبد الله بن ميمونٍ القدَّاح المنتسبين إلىٰ محمد بن إسماعيل بن جعفر، ودعوىٰ كثيرٍ من النَّاس نحوَ ذلك في بعض الشيوخ، إما المعروفين بالصَّلاح، وإما مَن يُظَنُّ به الصَّلاحُ وليس من أهله، فإن لهم أقوالًا من جنس أقوال النصارىٰ، وبعضُها شرٌّ من أقوال النَّصارىٰ.

وعامَّة هؤلاء إذا خوطبوا ببيان فساد قولهم قالوا من جنس قول النصارىٰ: هذا أمرٌ فوق العقل، ويقول بعضهم ما كان يقوله التِّلمسانيُّ[٢] لشيخ[٣] أهل الوحدة، يقول: ثبت عندنا في الكشف ما يناقض صريح العقل[٤]. ويقولون: لمن أراد أن يسلك سبيلهم: دع العقل والنقل، أو اخرج عن العقل والنقل.

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «الكتب» تصحيف.

(٢) هو سليمان بن علي بن عبد الله بن علي، قال الذهبي: أحد زنادقة الصوفية. وقد قيل له مرة أأنت نصيري فقال: النصيري بعض مني. توفي سنة تسعين وستمائة وله ثمانون سنة. انظر: «تاريخ الإسلام» (٥١/ ٤٠٦)، «العبر» (٣/ ٣٧٢)، «الوافي بالوفيات» (١٥/ ٢٤٩).

(٣) (و، ي): «شيخ».

(٤) (المطبوع): «النقل» خلافًا للأصول.

وينشدون فيهم:

مجـــانينُ إلا أَنَّ ســــرَّ جُنُـــونِهمُ عزيـزٌ علـىٰ أقدامـه[1] يسـجد العَقـلُ

هـمُ معْشـرٌ حَلُّـوا النِّظـامَ وحرَّقُـوا[2] الـــ ـسِّـياجَ فـلا فَـرضٌ لـدَيْهِمْ ولا نَفْـلُ[3]

وهؤلاء مُقلِّدون لمشايخهم، متَّبعون لهم فيما يخرجون به عن شريعة الرسول، وما ابتدعوه مما لم يأذن به الله باتِّخاذ البدع عبادات، واستحلالِ المحرَّمات كتقْلِيد بعض[4] النَّصارىٰ لشيوخهم، وإذا اعتُرض علىٰ أحدٍ منهم يقولون: الشيخ يُسلَّم له حالُه[5]، ولا يُعترض عليه، كما يقوله النَّصارىٰ لشيوخهم.

ومن هؤلاء من يقول: نحن أولاد الله، ويقول: المسيح[6] هو ولد الله، وينطق أيضًا بلفظ الشَّهوة، فيقول: إنهم أولاد شهوته، ويقول: إنه زوج[7] مريم، كما يقول ذلك من يقوله من النَّصارىٰ.

وغاية ما عندهم أنهم يحكون عن شيوخهم نوعًا من خَرْقِ العادات، قد يكون كذبًا وقد يكون صدقًا. وإذا كانت صدقًا فقد يكون من أحوال أولياء الشيطان كالسَّحرة والكهَّان، وقد يكون من أحوال أولياء الرحمن، وإذا كانت

---

(١) (و): «أبوابه».

(٢) (و، ي): «وخرقوا».

(٣) (المطبوع): «نقل». خلافًا للأصول. والبيتان أوردهما الصفدي في الوافي بالوفيات (١٢/ ٩٨) ونسبهما لبدر الدين بن هود، توفي سنة تسع وتسعين وستمائة.

(٤) «بعض» ليست في (و، ي).

(٥) «حاله» من (و) وليست في سائر النسخ.

(٦) (د، ع، ط.النيل): «الشيخ».

(٧) (و): «روح».

من أحوال أولياء الرحمن لم يكن في ذلك ما يوجب تقليد الوليِّ في كل ما يقوله؛ إذ الوليُّ لا يجب أن يكون معصومًا، ولا يجب اتِّباعه في كل ما يقوله، ولا الإيمانُ بكل ما يقوله، وإنما هذا من خصائص الأنبياء الذين يجب الإيمان بكلِّ ما يقولونه، فيجب تصديقُهم في كل ما يخبرون به من الغيب، وطاعتُهم فيما أوجبوه على الأمم، ومن كفر بشيءٍ ممَّا جاءوا به فهو كافر، ومن سبَّ نبيًّا واحدًا منهم[1] وجب قتْلُه، وليس هذا لغير الأنبياء من الصَّالحين.

فهؤلاء المبتدعةُ الغلاةُ المشركون القائلون بنوعٍ من الحلول هم مضاهئون للنَّصارىٰ بقدر ما شابهوهم فيه وخالفوا فيه دين المسلمين، ومنهم من تكون موافقته لدين المسلمين أكثر، وأما الغلاة منهم فموافقتهم للنَّصارىٰ أكثر، ومنهم من هو أكفر من النصارىٰ.

ولما كان مستند النَّصارىٰ هو ما ينقلونه إمَّا عن الأنبياء، وإمَّا عن غيرهم ممن يوجبون اتِّباعه، كانوا إذا أوردوا علىٰ علمائهم ما يقتضي امتناع ذلك، قالوا: هكذا في الكتاب، وبهذا نطق الكتاب، وهذه الكتب جاءت بها الرسل، يعنون المؤيَّدين بالمعجزات، ويعنون بالرُّسل الحواريين، فاعتصامهم بهم إنما هو لما ظنوه مذكورًا في الكتب الإلهيَّة، وإن رأوه مخالفًا لصريح المعقول.

ولهذا ينهون جُمهورَهم عن البحث والمناظرة في ذلك؛ لعلمهم بأن العقل الصَّريح متىٰ تَصَوَّر دينَهم عَلِم أنه باطل.

فدعوىٰ المدَّعين أنَّا إنما قلنا: أبٌ وابنٌ وروح قدس؛ لتصحيح القول: بأن الله حيٌّ ناطق. كذبٌ ظاهر، وهم يعلمون أنه كذب، وتصحيح القول: بأن الله حيٌّ متكلِّم. لا يقف علىٰ هذه العبارة، بل يمكنه تصحيح ذلك بالأدلة

---

(١) «منهم» سقطت من (المطبوع).



الشرعيَّة[1] والسَّمعيَّة والعقليَّة، والتعبير عنه بالعبارات البيِّنة كما يقوله[2] المسلمون وغيرهم بدون قولنا: «أب» و«ابن» و«روح قدس».

ومما يبيِّن ذلك الوجه الثاني: وهو أن النَّصارىٰ المقرِّون[3] بأن هذه العبارة في الإنجيل المأخوذِ عن المسيح مختلفون في تفسير هذا الكلام، فكثيرٌ منهم يقول: الأب هو الوجود، والابن هو الكلمة وروح القدس هو الحياة[4].

ومنهم من يقول: بل الأب هو الوجود، والابن هو الكلمة، وروح القدس هو القدرة.

وبعضهم يقول: إن الأقانيم الثلاثة: جوادٌ حكيمٌ قادر، فيجعل الأب هو الجواد، والابن هو الحكيم، وروح القدس هو القادر، ويزعمون أن جميع الصِّفات تدخل تحت هذه الثلاثة، ويقولون: إنا استدللْنا علىٰ وجوده[5] بإخراجه الأشياء من العدم إلىٰ الوجود، وذلك من جوده. وقد رأيتُ في كتب النصارىٰ هذا وهذا.

ومنهم من يعبِّر عن الكلمة بالعلم، فيقولون: موجودٌ حيٌّ عالم، أو موجودٌ عالمٌ قادر. كما يقول بعضهم: ناطق، ومنهم من يقول: موجودٌ حيٌّ حكيم، ومنهم من يقول: قائمٌ بنفسه حيٌّ حكيم، وهم متَّفقون علىٰ أن المتَّحد بالمسيح

(١) «الشرعية» ليست في (و، ي).

(٢) (و، ي): «يفعله».

(٣) كذا في الأصول بالرفع. والوجه: النصب.

(٤) (و): «القدرة».

(٥) (و): «جوده».

أو[1] الحالّ فيه هو أقنومُ الكلمة، وهو الذي يُسَمُّونه الابن دون الأب. ومن أنكر الحلول والاتحاد منهم كالأَرْيُوسِيَّة يقول[2]: إن المسيح عليه السلام عبدٌ مرسل، كسائر الرسل -صلوات الله عليهم وسلامه-، فوافقهم على لفظ: الأب، والابن، وروح القدس، ولا يفسِّر ذلك بما يقوله منازعوه من الحلول والاتحاد.

كما أن النُّسْطُوريَّة يوافقونهم أيضًا على هذا اللَّفظ، وينازعونهم في الاتحاد الذي يقوله اليَعْقُوبيَّة والمَلكيَّة، فإذا كانوا متَّفقين على اللَّفظ متنازعين في معناه عُلِم أنهم صدقوا أوَّلًا باللَّفظ[3]؛ لأجل اعتقادهم مجيءَ الشَّرع به، ثم تنازعوا بعد ذلك في تفسير الكتاب، كما يختلفون هم وسائرُ أهلِ الملل في تفسير بعض الكلام الذي يعتقدون أنه منقولٌ عن الأنبياء عليهم السلام، وعُلِم بذلك أن أصل قولهم: «الأب، والابن، وروح القدس». لم يكن لأجل تصحيح القول بأن الله موجودٌ حيٌّ ناطقٌ الذي علموه أوَّلًا بالعقل.

يوضّح هذا الوجه الثالث وهو قولهم: «إنا لمَّا رأينا حدوثَ الأشياء عَلِمْنا أن شيئًا غيرها أحدثها».

إن كان المتكلِّم بهذا طائفةً معيَّنةً من النَّصارى، فيقال لهؤلاء: القول بالأب، والابن، وروح القدس، موجودٌ عند النَّصارى قبل وجودكم وقبل نظركم هذا واستدلالكم، فلا يجوز أن يكون نظرُكُم هو الموجِب لقول النَّصارى هذا، وإن كان المراد به أن جميع النَّصارى من حين قالوا هذا الكلام نظروا واستدلُّوا حتَّى قالوا ذلك، فهذا كَذِبٌ بيِّن؛ فإن هذا الكلام يقول

---

(١) (المطبوعتان): «و».

(٢) (و، ي): «ويقولون».

(٣) (و، ي): «باللفظ أولًا».

النصارىٰ إنهم تلقَّوه عن الإنجيل، وإن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «عَمِّدوا الناس باسم الأب، والابن، وروح القدس».

والمسيح والحواريُّون لم يأمروهم بهذا النظر الموجِب لهذا القول، ولا جَعَل المسيحُ هذا القولَ موقوفًا عندهم علىٰ هذا البحث، فعُلِم أن جعْلَهم هذا القولَ ناشئًا عن هذا البحث قولٌ باطلٌ يعلمون هم بطلانه.

الوجه الرابع: أن هذا القول إن كان المسيح لم يقُلْه فلا يجوز أن يقال، ولو عنىٰ به الإنسان معنًى صحيحًا؛ فإن هذه العبارة إنما يُفْهَم منها عند الإطلاق المعاني الباطلة، ولهذا يوجد كثيرٌ من عوامِّ النصارىٰ يعتقدون أن المسيحَ ابنُ الله، البنوَّةُ المعروفةُ في المخلوقات، ويقولون: إن مريم زوجة الله.

وهذا لازمٌ لعامَّة النَّصارىٰ وإن لم يقولوه؛ فإن الذي يلد لابد له من زوجة؛ ولهذا قال تعالىٰ: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠١].

وجَعْلُ الربِّ والدًا لمولود أنكرُ في العقول من إثبات صاحبةٍ له، سواءً فُسِّرت الولادة بالولادة المعروفة، أو بالولادة العقليَّةِ التي يقولها علماء النَّصارىٰ، فإنّ من أثبت صاحبةً له يمكنه تأويل ذلك كما تأوَّلوا هم الولد، ويقولون: إن الأبَ وُلدت منه الكلمة، ومريمَ وُلِد منها النَّاسوت، واتَّحد النَّاسوت باللَّاهوت، فكما أن الأب أبٌ باللَّاهوت لا بالنَّاسوت، ومريمَ أمٌّ للنَّاسوت لا للَّاهوت= فكذلك هي صاحبةٌ للأب بالنَّاسوت، واللَّاهوتُ زوجُ مريمَ بلاهوته، كما أنه أبٌ للمسيح[1] بلاهوته، وإذا اتَّحد اللَّاهوت بناسوت

---

(١) (و، ي): «أبو المسيح».

المسيح مدةً طويلةً فلماذا يمتنع أن يجتمع اللّاهوت بناسوت مريم مدةً قصيرةً؟ وإذا جُعِلَ الناسوتُ الذي ولدته ابنًا للاهوت، فَلِأَيِّ شيء لا تجعل هي صاحبة وزوجة للّاهوت؟ فإن المسيح عندهم اسمٌ لمجموع اللاهوت والناسوت، وهو عندهم إله تام وإنسان تام، فلاهوته من الله، وناسوته من مريم، فهو من أصلين: لاهوت وناسوت، فإذا كان أحدُ الأصلين أباه[1] والآخر أمّه، فلماذا لا تكون أمُّه زوجَةَ أبيه بهذا الاعتبار، مع أن المُصَاحَبَةَ قبل البنوَّة[2]؟ فكيف يَثْبُتُ الفرع الملزوم بدون ثبوت الأصل اللازم؟

وليس في ذلك من المحال علىٰ أصلهم إلا ما هو من جنس إثبات بنوَّة المسيح وأقلُّ امتناعًا.

وإن كان المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ قال هذا الكلام فقد علمنا أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ وغيره من الأنبياء معصومون لا يقولون إلا الحق، وإذا قالوا قولًا فلابد له من معنًى صحيح، ويمتنع أن يريدوا بقولهم ما يعلم[3] بطلانه بسمعٍ أو عقل، فإذا كانت العقول ونصوص الكتب المتقدِّمة مع نصوص القرآن تناقض ما ابتدعته النصارىٰ في المسيح، علم أن المسيح لم يرد معنًى باطلًا يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول.

بل نقول في **الوجه الخامس**: إن صحَّت هذه العبارة عن المسيح المعصوم عَلَيْهِ السَّلَامُ، فإنه أراد بذلك ما يناسب سائر كلامه.

وفي الموجود في كتبهم تسمية الربِّ أبًا، وتسمية عباده أبناء، كما يذكرون

---

(١) (و، ي): «أبوه».

(٢) (و، ي، ط.النيل): «النبوة».

(٣) (د، ع، ط.النيل): «يمتنع».

أنه قال في التوراة ليعقوب[1]: «أنت ابني بكري»، وقال لداود في الزبور: «أنت ابني وحبيبي»، وفي الإنجيل في غير موضعٍ يقول المسيح: «أبي وأبيكم». كقوله: «إني أذهب إلىٰ أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[2]. فيسمِّيه أبًا لهم كما يسميهم أبناءً له.

فإن كان هذا صحيحًا، فالمراد بذلك أنه الربُّ المربِّي الرحيم، فإن الله أرحم بعباده من الوالدة بولدها، والابن هو المربَّىٰ المرحوم، فإن تربية الله لعبده أكملُ من تربية الوالدة لولدها، فيكون المراد بالأب: الرب، والمراد بالابن: عبده[3] المسيح الذي ربَّاه.

وأما «روح القدس»: فهي لفظة موجودةٌ في غير موضعٍ من الكتب التي عندهم، وليس المراد بها حياة الله باتفاقهم، بل روح القدس عندهم تحُلُّ في إبراهيم وموسىٰ وداود وغيرهم من الأنبياء الصالحين.

والقرآن قد شهد أن الله أيَّد المسيح بروح القدس، كما قال تعالىٰ: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَـٰتِ وَأَيَّدْنَـٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة:٨٧، ٢٥٣]. في موضعين من البقرة.

وقال تعالىٰ: ﴿يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

وقد قال النبي ﷺ لحسَّان بن ثابت: «إِنَّ رُوحَ القُدُسِ مَعَكَ مَا دُمْتَ تُنَافِحُ

---

(١) بعدها في (د، ع، ط.النيل): «إسرائيل».
(٢) تقدّم هذا النص (١/ ٣٥٨).
(٣) (المطبوع): «عنده» تصحيف.

عن نَبيِّه». وقال: «اللَّهُمَّ أيِّدْه بِروحِ القُدُس»[1]. كما تقدَّم ذكر هذا كله مبسوطًا[2].

وروح القدس: قد يراد بها المَلَك المقدَّس كجبريل، ويُرَاد بها الوحي والهدىٰ والتَّأييد الذي يُنْزِلُه الله بواسطة المَلَك أو بغير واسطته، وقد يكونان متلازِمَيْن؛ فإن الملك يَنزل بالوحي، والوحي يَنزل به الملك، والله تعالىٰ يُؤيِّد رسله بالملائكة وبالهدىٰ، كما قال تعالىٰ: عن نبيِّه محمد ﷺ: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [التوبة: ٤٠، ٢٦]. في موضعين من سورة براءة.

وقال تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا﴾ [الأحزاب: ٩]. وقال تعالىٰ: ﴿إِذْ يُوحِى رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّى مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [الأنفال: ١٢]. الآية[3]. وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة:٢٢]. وقال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ﴾ [النحل:٢]. وقال تعالىٰ: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر:١٥]. وقال: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾[4] [الشورىٰ: ٥٢]

---

(١) تقدم ذكر هذين الحديثين (١/ ٣٨١).

(٢) انظر ما سبق (١/ ٣٨٠)، وما سيأتي (٢/ ٢٣٩، ٢٥٥).

(٣) «الآية» سقطت من (المطبوع).

(٤) من قوله: «وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا﴾ إلىٰ هنا سقط من (و).

وإذا كان «روح القدس» معروفًا في كلام الأنبياء المتقدِّمين والمتأخرين أنها أمرٌ يُنْزِلُه الله علىٰ أنبيائه وصالحي عباده، سواءً كان ملائكةً تنزل بالوحي والنصر، أو وحيًا وتأييدًا مع الملك وبدون الملك، ليس المراد بروح القدس أنها حياة الله القائمة به كان المعصوم إن كان[1] قال: «عَمِّدوا النَّاس باسم الأب والابن وروح القدس» مراده: مُرُوا النَّاس أن يؤمنوا بالله ونبيِّه الذي أرسله، وبالمَلَك الذي أنزل عليه الوحي[2] الذي جاء به، فيكون ذلك أمرًا لهم بالإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله، وهذا هو الحقُّ الذي يدلُّ عليه صريح المعقول وصحيح المنقول.

فتفسير كلام المعصوم بهذا التَّفسير الذي يوافق سائر ألفاظ الكتب التي عندهم ويوافق القرآن ويوافق العقل أولىٰ من تفسيره بما يخالف صريح المعقول وصحيح المنقول.

وهذا تفسيرٌ ظاهرٌ ليس فيه تكلُّف، ولا هو من التَّأويل الذي هو صَرْف الكلام عن ظاهره إلىٰ ما يخالف ظاهرَه، بل هو تفسيرٌ له بما يدلُّ ظاهرُه عليه باللُّغة المعروفة والعبارةِ المألوفة في خطاب المسيح، وخطابِ سائر الأنبياء.

وأما تفسير النصارىٰ بأن الابن مولودٌ قديمٌ أزليّ، هو العلم أو كلمة الله، فتفسير للَّفظ بما[3] لم يُستعمل هذا اللفظ فيه، لا في كلام أحدٍ من الأنبياء، ولا لغةِ[4] أحدٍ من الأنبياء.

---

(١) «المعصوم إن كان» ساقطة من (ط.النيل).

(٢) (ي): «والوحي».

(٣) (و): «ما».

(٤) (و): «أمة».

وكذلك تفسير «روح القدس» بحياة الله، فالذي فَسَّر النصارىٰ به[1] كلامَ المسيح هو تفسيرٌ لا تدلُّ عليه لغةُ المسيح وعادتُه في كلامه، ولا لغة غيره من الأنبياء والأمم، بل المعروف في لغته وكلامه وكلام سائرِ الأنبياء تفسيرُه بما فسَّرناه، وبذلك فسَّره أكابر علماء النصارىٰ.

وأما ضُلَّال النصارىٰ المحرِّفون لمعاني كتب الله ﷻ ففسَّروه بما يخالف معناه الظاهر، وينكره العقلُ والشَّرع.

وتمام هذا بالوجه السادس وهو: أن النَّصارىٰ لما كان عندهم في الكتب تسمية المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ابنًا، وتسمية غيره من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ ابنًا، كقوله ليعقوب: «أنت ابني بكري». وتسمية الحواريِّين أبناء، قالوا: «هو ابنه بالطَّبع، وغيره هو ابنه بالوضع». فجعلوا لفظ الابن[2] مشتركًا بين معنيين وأثبتوا لله طبعًا، جعلوا المسيح ابنَه باعتبار ذلك الطَّبع. وهذا يُقَرِّر قول من يفهم منهم أنه ابنُه البنوَّةُ المعروفة في المخلوقين، وأن مريم زوجة الله.

وكذلك جعلوا «روح القدس» مشتركة بين حياة الله وبين «روح القدس» التي تنزل علىٰ الأنبياء والصَّالحين، ومعلومٌ أن الاشتراك علىٰ خلاف الأصل، وأن اللفظ إذا اسْتُعْمِل في عدَّة مواضع كان جعلُه حقيقةً متواطئًا في القدر المشترك أولىٰ من جعله مشتركًا اشتراكًا لفظيًّا، بحيث يكون حقيقةً في خصوص هذا وخصوص هذا[3]، أو يكون مجازًا في أحدهما، فإن المجاز والاشتراك علىٰ خلاف الأصل، هذا إن قُدِّر أن لفظ «الابن» و«روح القدس»

---

(١) بعدها في (المطبوعتين): «ظاهر».

(٢) (ط.النيل): «الأب».

(٣) «وخصوص هذا» سقطت من (المطبوع).

اسْتُعْمِل في نطق الله وحياته كما يزعم النصارىٰ، فكيف إذا لم يوجد في كلام الأنبياء أنهم قالوا لفظ «الابن» ولفظ «روح القدس»، وأرادوا به شيئًا من صفات الله، لا كلامِه ولا حياتِه ولا علمِه[1] ولا غير ذلك، بل لم يوجد استعمال لفظ «الابن» في كلام الأنبياء إلا في شيءٍ مخلوق، ولم يوجد استعمال «روح القدس» بما[2] هو من صفات الله القائمة به، ونحن إذا فسَّرنا «الأب» و«روح القدس»[3] ببنوَّة التربية، و«روح القدس» بما يَنْزِل علىٰ الأنبياء كنا قد جعلنا اللَّفظ مفردًا متواطئًا، وهم يحتاجون أن يجعلوا اللفظ مشتركًا أو مجازًا في أحد المعنيين، فكان تفسيرُهم مخالفًا لظاهر اللُّغة التي خوطبوا بها، ولظاهر الكتب التي بأيديهم، وتفسيرُنا موافقًا لظاهر لغتهم وظاهر الكتب التي بأيديهم، وحينئذٍ فقد تبيَّن أنه ليس معهم بالتَّثليث لا حجَّةٌ سمعيَّةٌ ولا عقليَّة، بل هو باطلٌ شرعًا وعقلًا.

يؤيِّد هذا الوجه السابع: وهو أنهم في أمانتهم أثبتوا من المعاني ولفظ الأقانيم وغير ذلك ما لا تدلُّ عليه الكتب التي بأيديهم البتة، بل فهموا منها معنًى باطلًا، وضمُّوا إليه معانيَ باطلةً من عند أنفسهم، فكانوا محرِّفين لكتب الله في ذلك، مفترين علىٰ الله الكذب، وهذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر[4].

الوجه الثامن: أن قولهم بالأقانيم مع بطلانه في العقل والشرع لم ينطق به عندهم[5] كتاب، ولم يوجد هذا اللفظ في شيء من كتب الأنبياء التي بأيديهم

---

(١) «ولا علمه» سقطت من (و، ي).

(٢) (ي): «إلا فيما ليس»، (و): «كما». وأشار إليها في الهامش بحرف (ظ) أي: الظاهر.

(٣) الأظهر أن قوله: «الأب وروح القدس» مقحمة. والأنسب أن يجعل مكانها: «الابن». لاقتضاء السياق له. فتكون العبارة: «ونحن إذا فسّرنا الابن ببنوة التربية».

(٤) انظر: (٢/ ١٨٥، ٢٥٠).

(٥) «عندهم» ليست في (د، ع).

ولا في كلام الحواريِّين، بل هي لفظةٌ ابتدعوها، ويقال: إنها روميَّة. وقد قيل: الأقنوم في لغتهم معناه: «الأصل». ولهذا يضطربون في تفسير الأقانيم، تارةً يقولون: أشخاص، وتارةً خواص، وتارةً صفات، وتارةً جواهر، وتارةً يجعلون الأقنوم اسمًا للذَّات والصِّفة معًا، وهذا تفسير حُذَّاقهم.

الوجه التاسع: قولهم في المسيح عليه السلام: «إنه خالق» قولٌ مع بطلانه في الشَّرع والعقل قولٌ لم ينطق به شيءٌ من النُّبوَّات التي عندهم، ولكن يستدلُّون علىٰ ذلك بما لا يدلُّ عليه ذلك، كما سنبيِّنه إن شاء الله تعالىٰ[1].

الوجه العاشر: قولهم في تجسُّد اللَّاهوت أيضًا، هو قولٌ مع بطلانه في العقل والشَّرع قولٌ لا يدلُّ عليه شيءٌ من كلام المعصوم من النَّبيِّين والمرسلين.

الوجه الحادي عشر: أنّا نقول: لا ريب أن الله حيٌّ عالمٌ قادرٌ متكلِّم، وللمسلمين علىٰ ذلك من الدَّلائل العقليَّة التي دلَّ الرَّسول عليها وأرشد إليها فصارت معروفةً بالعقل مدلولًا عليها بالشَّرع ما هو مبسوطٌ في موضعه[2]، وأنتم مع دعواكم أنكم تثبتون ذلك بالعقل لم تذكروا علىٰ ذلك دليلًا عقليًّا.

فقولكم: «لمَّا رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئًا غيرَها أحدثها؛ إذ لا يمكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضادد[3] والتقلّب» كلامٌ قاصرٌ لوجوه:

أحدها: أنكم لم تروا حدوث جميع المخلوقات، وإنما رأيتم حدوث ما يُشهَد حدوثُه كالسَّحاب والمطر والحيوان والنّبات ونحوِ ذلك، فأين دليلُكم علىٰ حدوث سائر الأشياء؟

---

(١) انظر ما سيأتي (٢/ ٤٧٤).

(٢) وسيأتي قريبًا (٢/ ٢١٠).

(٣) «رسالة بولس» (ص٤١٨): «التضادّ».

الثاني: أنه كان ينبغي أن تقولوا: لمَّا عُلِم[1] حدوثُ المُحْدَثات، أو حدوث المخلوقات، أو حدوث ما سوىٰ الله، ونحو ذلك مما يبيِّن أن المحدَث ما سوىٰ الله، فأمّا إطلاق حدوث جميع الأشياء فباطل، فإنّ الله يسمَّىٰ عندكم وعند جمهور المسلمين شيئًا من الأشياء، وهذا بخلاف قوله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]. فإنّ هذا التركيب يبيِّن أن الخالق غيرُ المخلوق، خلاف قول القائل: حدوث الأشياء.

الثالث: أن العلم بأن المحدَث لابدَّ له من محدِث، علمٌ فطريٌّ ضروريٌّ، ولهذا قال تعالىٰ: في القرآن: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]. قال جُبير بن مُطعِم: «لمَّا سَمِعْتُ النبيَّ ﷺ يَقرأُ بِها في صَلاةِ المَغْربِ أحسَسْتُ بفُؤادي قَد انصَدعَ»[2]. يقول تعالىٰ: أخُلِقوا[3] من غير خالقٍ خلقهم، أم هم الخالقون لأنفسهم؟

ومعلومٌ بالفطرة التي فطرَ اللهُ عليها عباده بصريح العقل أن الحادث لا يحدُث إلا بمحدِثٍ أحدثه، وأنّ حدوث الحادث بلا محدِثٍ أحدثه معلومُ البطلانِ بضرورة العقل، وهذا أمرٌ مركوزٌ في بني آدم حتىٰ الصِّبيان، لو ضُرِب الصبيُّ ضربةً، فقال: مَن ضربني؟ فقيل له: ما ضربك أحد، لم يصدِّق عقلُه أنَّ الضربة حدثت من غير فاعل.

---

(١) (و): «علمتم».

(٢) أخرجه البخاري (٤٨٥٤).

(٣) «أخلقوا» ساقطة من (د، ع).

ولهذا لو جوَّز مجوِّزٌ أن يَحدُث كتابةٌ أو بناءٌ[1] أو غراسٌ ونحوُ ذلك من غير محدث لذلك= لكان عند العقلاء إما مجنونًا وإما مُسَفْسِطًا، كالمنكر للعلوم البديهيَّة والمعارف الضَّروريَّة، وكذلك معلومٌ أنه لم يُحدث نفسه، فإن كان معدومًا قبل حدوثه لم يكن شيئًا، فيمتنع أن يحدِث غيره فضلًا عن أن يحدث نفسه.

فقولكم: «لم يكن حدوثها من ذواتها لما فيها من التضادد والتقلّب». تعليلٌ باطل؛ فإنَّ عِلْمَنا بأن حدوثها لم يكن من ذواتها ليس لأجل ما فيها من التضادد والتقلّب، بل سواء كانت متماثلةً أو مختلفةً أو متضادةً= نحن نعلم بصريح العقل أن المحدَث لا يحدِث نفسَه، وهذا من أظهر المعارف وأبينها للعقل، كما يُعلم أن العدم لا يخلق موجودًا، وأن المحدِث للحوادث الموجودة لا يكون معدومًا.

الوجه الرابع: أنكم ذكرتم حجةً علىٰ أنّها لم تُحدِث نفسها، وهي حجةٌ ضعيفة، ولم تذكروا حجةً علىٰ[2] أنها حدثت بلا محدث، لا أنفسها ولا غيرها، فإن كان امتناع كونها أحدَثَت نفسَها محتاجًا إلىٰ دليلٍ فكذلك امتناع حدوثها بلا محدث، وإن كان معلومًا ببديهة العقل، وهو من العلوم الضَّروريَّة، فكذلك الآخر، فذِكْرُ الدليل علىٰ أحدهما دون الآخر خطأ لو كنتم ذكرتم دليلًا صحيحًا، فكيف إذا كان الدليل باطلًا؟ ومن يكون مبلغهم من العلم بالأدلة العقليَّة التي يُثْبِتون بها العلم بالصَّانع وصفاته هذا المبلغ ثم يريدون مع ذلك أن يثبتوا معانيَ عقليَّةً ويزعمون أنها موافقةٌ لفهمِهِمُ الباطل من الكتب الإلهيَّة، فهم ممن قال الله فيهم: ﴿ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَعۡمَٰلُهُمۡ كَسَرَابِۭ بِقِيعَةٖ يَحۡسَبُهُ ٱلظَّمۡـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «نساجة».

(٢) يقتضي السياق أن تكون العبارة: «علىٰ [امتناع] أنها حدثت» بزيادة ما بين المعكوفتين.

جَآءَهُۥ لَمۡ يَجِدۡهُ شَيۡـًٔا وَوَجَدَ ٱللَّهَ عِندَهُۥ فَوَفَّىٰهُ حِسَابَهُۥۗ وَٱللَّهُ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ ﴿٣٩﴾ أَوۡ كَظُلُمَٰتٖ فِي بَحۡرٖ لُّجِّيّٖ يَغۡشَىٰهُ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ مَوۡجٞ مِّن فَوۡقِهِۦ سَحَابٞۚ ظُلُمَٰتُۢ بَعۡضُهَا فَوۡقَ بَعۡضٍ إِذَآ أَخۡرَجَ يَدَهُۥ لَمۡ يَكَدۡ يَرَىٰهَاۗ وَمَن لَّمۡ يَجۡعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورٗا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٣٩-٤٠].

الوجه الثاني عشر: قولكم: «فقلنا: إنه شيءٌ لا كالأشياء المخلوقة؛ إذ هو الخالق لكل شيء؛ لننفيَ عنه العدم».

فيقال لهم: لا ريب أن الله كما وصف نفسه بقوله تعالىٰ: ﴿لَيۡسَ كَمِثۡلِهِۦ شَيۡءٞۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡبَصِيرُ﴾ [الشورىٰ: ١١]. وقوله: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَٱصۡطَبِرۡ لِعِبَٰدَتِهِۦۚ هَلۡ تَعۡلَمُ لَهُۥ سَمِيّٗا﴾ [مريم: ٦٥] أي مثلًا يستحقُّ أن يسمّىٰ بأسمائه.

وقوله تعالىٰ: ﴿قُلۡ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمۡ يَلِدۡ وَلَمۡ يُولَدۡ ﴿٣﴾ وَلَمۡ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدُۢ﴾ [الإخلاص:١- ٤].

وقد دلَّ علىٰ ذلك العقل؛ فإن المِثْلَين اللَّذين يسدُّ أحدُهما مسدَّ الآخر يجب لأحدهما ما يجب للآخر، ويمتنع عليه ما يمتنع عليه، ويجُوز عليه ما يجوز عليه، فلو كان للخالق مِثْلٌ للزم أن يشتركا فيما يجب ويجوز ويمتنع.

والخالق يجب له الوجود والقدم، ويمتنع عليه العدم، فيلزم أن يكون المخلوق واجب الوجود قديمًا أزليًّا لم يعدم قط، وكونه محدَثًا مخلوقًا يستلزم أن يكون كان معدومًا، فيلزم أن يكون موجودًا معدومًا قديمًا محدثًا[(١)]، وهو جمعٌ بين النَّقيضين يمتنع في بَدَايهِ[(٢)] العقول، وأيضًا فالمخلوق يمتنع عليه القدم، ويجب له سابقة العدم، فلو وجب للخالق القديم ما يجب له لوجب

(١) (ع): «حادثًا».

(٢) (د، ع، ط.النيل): «بداية».



كون الواجب القِدَم واجب الحدوث بعد العدم، وهذا جمعٌ بين النقيضين، فالعقل الصَّريح يجزم بأن الله ليس كمثله شيء. والكلام علىٰ هذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر[1].

لكن أنتم لم تذكروا علىٰ ذلك حجَّة، بل قلتم: «إنه شيءٌ لا كالأشياء المخلوقة، إذ هو الخالق لكل شيء» فلم تذكروا حجةً علىٰ أنه خالق كلِّ شيء؛ إذ كان عمدتكم علىٰ ما شاهدتم حدوثَه، وليس ذلك كلَّ شيء، ولم تذكروا حجةً مع كونه خالقَ كلِّ شيءٍ علىٰ أنه ليس كمثله شيء، بل قلتم: «لأننا معشر النصارىٰ لما رأينا حدوث الأشياء علمنا أن شيئًا غيرها أحدثها لما فيها من التضادد والتقلّب فقلنا: إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة؛ إذ هو الخالق لكلِّ شيء، وذلك لننفيَ العدم عنه» ودليلكم لو دلَّ علىٰ العلم بالصَّانع لم يدلَّ إلّا علىٰ أنّه خالق، فكيف إذا لم يدل؟

ولا ريب أن الخالق سبحانه يجب أن يكون موجودًا لا معدومًا، وهذا معلومٌ بالضَّرورة لا يحتاج إلىٰ دليلٍ عند جمهور العقلاء والنُّظّار، وإن كان بعضهم أثبت وجودَه بالدَّليل النظريّ، لكن ليس في دليلكم ما يدلّ علىٰ أنه ليس كالأشياء المخلوقة.

وقولكم: «إذ هو الخالق لكل شيء» يتضمّن أنه خالقٌ لكلِّ ما سواه، ليس فيه بيانُ نفي المماثلة عنه، ولكن بيَّنتم بهذا الكلام جهلَكم بالدَّلائل العقليَّة، كجهلكم بالكتب المنزَّلة، وكذلك أخبر تعالىٰ عن أهل النَّار أنهم يقولون: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

---

(١) انظر «درء التعارض» (٨/ ١٢٧).



فصـل

وأما قولكم: «ورأينا الأشياء المخلوقة تنقسم قسمين: شيءٌ حيٌّ، وشيءٌ غير حيٍّ، فوصفناه بأجلِّ القسمين فقلنا: إنه حيٌّ لننفيَ الموت عنه».

فيقال: لا ريب أن الله حيٌّ كما نطقت بذلك كتُبُه المنزَّلةُ التي هي آياته القوليَّة، ودلَّت علىٰ ذلك آياته كمخلوقاته التي هي آياته الفعليَّة، قال تعالىٰ: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]. أي: القرآن حقٌّ، وقد تقدَّم ذكر القرآن في قوله: ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ثُمَّ كَفَرْتُم بِهِۦ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِى شِقَاقٍۭ بَعِيدٍ ﴾ [فصلت: ٥٢].

فالله تعالىٰ يري عباده من آياته المشاهَدة المعاينة الفعليَّة ما يُبَيِّن صدقَ آياته المنزَّلة المسموعة القوليَّة.

قال تعالىٰ: ﴿ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴾ [آل عمران: ٢]، وقال تعالىٰ: ﴿ وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ ﴾ [الفرقان:٥٨].

والدَّلائل علىٰ حياته كثيرة: منها: أنه قد ثبت أنه عالم، والعلم لا يقوم إلا بحيٍّ، وثبت أنه قادرٌ مختارٌ يفعل بمشيئته، والقادر المختار لا يكون إلا حيًّا.

ومنها: أنه خالق الأحياء وغيرِهم، والخالق أكمل من المخلوق، فكلّ كمالٍ ثبت للمخلوق فهو من الخالق، فيمتنع أن يكون المخلوق أكملَ من خالقه، وكمالُه أكملَ منه. والمتفلسفة القائلون بالموجب بالذَّات يسلِّمون هذا، ويقولون: كمال المعلول مستفادٌ من علَّته، فإذا كان خالقًا للأحياء كان حيًّا بطريق الأولىٰ والأحرىٰ.

ومنها: أن الحيَّ أكملُ من غير الحيِّ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْأَحْيَآءُ وَلَا ٱلْأَمْوَٰتُ﴾ [فاطر:٢٢]. فلو كان الخالق غير حيٍّ لزم[١] أن يكون الممكن المحدَثُ المخلوق أكملَ من الواجب القديم الخالق، فيكونَ أنقصُ الموجودين أكملَ من أكملِهما، وهذا الوجه يتناول ما ذكروه من الدَّليل، وإن كانوا لم يبيِّنوه بيانًا تامًّا، لكن قولهم: «قلنا: إنه حيٌّ لننفيَ الموت عنه» كلامٌ مستدرك؛ فإنّ الله موصوفٌ بصفات الكمال الثُّبوتيَّة، كالحياة، والعلم، والقدرة، فيلزم من ثبوتها سلبُ صفات النَّقص، وهو سبحانه لا يُمْدَح بالصِّفات السِّلبيَّة إلا لتضمُّنها المعاني الثبوتيَّة، فإن العدم المحض والسَّلب الصِّرف لا مدْح فيه ولا كمال؛ إذ كان المعدوم يوصف بالعدم المحض، والعدم نفيٌ محضٌ لا كمال فيه، وإنما الكمال في الوجود[٢].

ولهذا جاء كتاب الله تعالىٰ علىٰ هذا الوجه، فيصف سبحانه نفسه بالصِّفات الثبوتيَّة صفات الكمال، وبصفات السَّلب المتضمِّنة للثبوت كقوله: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَيُّ ٱلْقَيُّومُ ۚ لَا تَأْخُذُهُۥ سِنَةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٥]، فنفيُ أخذ السِّنَةِ والنوم يتضمن كمالَ حياته وقيُّوميَّته؛ إذ النوم أخو الموت، ولهذا كان أهل الجنّة لا ينامون مع كمال الرَّاحة، كما لا يموتون.

والقيُّوم: القائم المقيم لما سواه، فلو جُعِلَت له سِنَةٌ أو نومٌ لنقصت حياته وقيُّوميَّته، فلم يكن قائمًا ولا قيُّومًا، كما ضرب الله المثل لبني إسرائيل

---

(١) «لزم» ساقطة من (د). (ع): «لوجب».

(٢) (د، ع، ط.النيل): «الموجود».

لما سألوا موسىٰ: هل ينام ربُّك؟ فأَرَّقه ثلاثًا[1]، ثم أعطاه قوارير فأخذه النّوم فتكسّرت[2].

بيَّن بهذا المثل أن خالق العالم لو نام لفسد[3] العالم.

ثم قال تعالىٰ: ﴿لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥٓ إِلَّا بِإِذْنِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٥٥].

فإنكاره ونفْيُه أن يشفع أحدٌ عنده إلا بإذنه يتضمَّن كمال ملكه لما في السَّماوات وما في الأرض، وأنه ليس له شريك، فإن من شفع عنده غيره بغير إذنه وقبل شفاعته كان مشاركًا له؛ إذ صارت شفاعته سببًا لتحريك المشفوع إليه، بخلاف من لا يشفع عنده أحدٌ إلا بإذنه؛ فإنه منفردٌ بالملك ليس له شريكٌ بوجهٍ من الوجوه.

---

(١) «ثلاثًا» ليست في (و).

(٢) أخرجه أبو يعلىٰ في «مسنده» (٦٦٦٩) والطبري في «تفسيره» (٥/ ٣٩٤)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٠/ ٣١٨٦) وفيه أن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي سأل: هل ينام ربك؟ وقد أورده ابن كثير في «تفسيره» (٦/ ٥٥٨) وقال: «والظاهر أن هذا الحديث ليس بمرفوع، بل من الإسرائيليات المنكرة فإن موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ أجل من أن يجوز علىٰ الله سبحانه وتعالىٰ النوم».
قلتُ: وهي غير الرواية التي استشهد بها المصنف التي فيها أن بني إسرائيل هم الذين سألوا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ذلك. وقد جاءت الرواية الأولىٰ من طريق شبل بن أمية وخولف فيها. قال ابن حجر في «لسان الميزان» (١/ ٤٧٦): أمية بن شبل له حديث منكر... وذكر الحديث، ثم قال: رواه عنه هشام بن يوسف وخالفه معمر عن الحكم عن عكرمة، وهو أقرب، ولا يسوغ أن يكون هذا وقع في نفس موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وإنما روي أن بني إسرائيل سألوا موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ عن ذلك.

(٣) في الأصول: «نفذ» وقد ضرب عليها في أصل (ي) وكتب في الهامش: «فسد». وهي الصواب.

ثم قال تعالىٰ: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ ۖ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَ﴾ [البقرة: ٢٥٥]. فنفىٰ أن يعلم أحدٌ شيئًا من علمه إلا بمشيئته ليُبيِّن(١) أنه منفردٌ بالتَّعليم، فهو العالم بالمعلومات، ولا يعلم أحدٌ شيئًا إلا بتعليمه، كما قالت الملائكة: ﴿لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [البقرة: ٣٢].

ثم قال تعالىٰ: ﴿ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ ۖ وَلَا يَـُٔودُهُۥ حِفْظُهُمَا﴾ [البقرة: ٢٥٥]. أي لا يُكْرِثُه ولا يُثْقِل عليه، فبيَّن بذلك كمالَ قدرته، وأنه لا يلحقه أدنىٰ مشقَّةٍ ولا أيْسَرُ كُلْفَةٍ في حفظ المخلوقات، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴾ [ق: ٣٨].

بيّن بذلك كمالَ قدرته، وأنه لا يلحقه اللُّغوب في الأعمال العظيمة، مثل خلقه السماوات والأرض، كما يلحق المخلوقَ اللُّغوبُ إذا عمل عملًا عظيمًا، واللغوب: الانقطاع والإعياء. وهذا بابٌ واسعٌ مبسوطٌ في موضعٍ آخر(٢).

والمقصود هنا: أنه موصوفٌ بصفات الكمال التي يستحقُّها بذاته ويمتنع اتصافه بنقائضها، وإذا وُصف بالسُّلوب فالمقصود هو إثبات الكمال. وهؤلاء قالوا: «قد وصفناه بالحياة لننفيَ عنه الموت»، كما قالوا: «هو شيءٌ لننفيَ العدم عنه» والحياة صفة كمالٍ يستحقُّها بذاته، والموت مناقضٌ لها، فلم يوصف

---

(١) (و، د، ع): «ليس». (المطبوعتان): «ليس إلا». والمثبت من هامش (ي) وكتب فوقها: «بيان». وهو أوضح.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٣٥)، (١٧/ ١٠٨)، «منهاج السنة» (٢/ ١٨٣).

بالحياة لأجل نفي الموت، بل وصْفُه بالحياة يستلزم نفيَ الموت، فَيُنفَىٰ عنه الموت لأنه حيٌّ، لا يُثبت له الحياة لنفي الموت[1]، وكذلك لِتُثْبِتَ له أنه شيءٌ موجود، وذلك يستلزم نفي العدم عنه، لا أنّ إثباتَ وجودِه لأجل نفي العدم[2]، بل نفي العدم عنه لأجل وجوده، كما أن نفيَ الموت عنه لأجل حياته.

وكذلك قولهم: «قلنا: إنه شيء لا كالأشياء المخلوقة، وذلك لننفيَ العدم عنه» لكن كان مرادُهم والله أعلم -وإن كانت عبارتُهم قاصرة- إثباتَ الوجود ونفيَ العدم، وإثباتَ الحياة ونفيَ الموت.

(١) بعدها في (و): «وكذلك تثبت له الحياة لننفي الموت» كذا أقحمت هذه العبارة هنا.

(٢) بعدها في (و): «عنه».

فصل

ثم قالوا: «ورأينا الحيَّ ينقسم قسمين: حيًّا ناطقًا، وحيًّا غير ناطق، فوصفناه بأفضل الوصفين فقلنا: إنه ناطقٌ لننفيَ الجهل عنه».

فيقال لهم: لا ريب أن الربَّ سبحانه موصوفٌ بأنه حيٌّ عليمٌ قديرٌ متكلمٌ مختار، لكن قولهم: «فقلنا: إنه ناطقٌ لننفيَ الجهل عنه» يقتضي أنكم أردتم النطق المناقض للجهل، وهذا هو العلم؛ فإن العلم يناقض الجهل، لم تريدوا بذلك النطق الذي هو العبارة والبيان، ولم تريدوا بذلك ما جعله بعض النُّظَّار كلامًا، وهي معاني قائمةٌ بالنفس ليست من جنس العلوم، ولا من جنس الإرادات، وحينئذٍ فيقال لكم: ليس في الأحياء إلا ما هو شاعر، فكل حيٍّ فله شعورٌ بحسبه.

وكلما قويت الحياة قوي شعورها، وشعورُ الحيوان قد يعبَّر عنه بلفظ العلم، كما يقول الناس: عِلْمُ الفَهْدِ والبازيِّ والكلب، ويقال: كلبٌ مُعَلَّمٌ وغير مُعَلَّم، وبازِيٌّ مُعلَّم.

وقال تعالىٰ: ﴿وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ﴾ [المائدة: ٤]. وقال النبيُّ ﷺ: «**إذا أرسلتَ كلبَكَ المُعَلَّمَ، وذكرتَ اسمَ الله فقتَلَ فكُلْ**»[1].

ولا ريب أن العلم[2] صفةُ كمال، فالعالِم أكمل من الجاهل[3]، والدَّلائل الدَّالة علىٰ علم الله كثيرة، مثل أنه سبحانه خالق كلِّ شيءٍ بإرادته.

---

(١) البخاري (١٧٥) ومسلم (١٩٢٩) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) (د، ع): «المعلم».

(٣) (ي): «فالعلم أكمل من الجهل».

والإرادة تستلزم تصوُّر المراد، فلابد أن يعلم المخلوقات قبل أن يخلقها.

وكلُّ ما وجد في الخارج فهو موجود وجودًا معيّنًا يمتاز به عن غيره، فإذا خلقها كذلك فلابد أن يعلمها علمًا مفصَّلًا[1] يمتاز به كل معلوم عما سواه، ولو قُدِّرَ أنه علمها علىٰ وجه كليٍّ فقط لم يكن علم منها شيئًا؛ لأنَّ الكُلِّيَّ إنما يكون كليًّا في الأذهان، وأما ما هو موجودٌ في الخارج فهو مُعَيَّنٌ مختصٌّ بعينه ليس بكلِّيٍّ.

وكلُّ واحدٍ من الأفلاك معيَّن، فلو لم يعلم إلا الكلِّيَّات لم يكن عالمًا بشيءٍ من الموجودات، وقد بُسِط في غير هذا الموضع تمامُ الكلام علىٰ هذا[2]، وبُيِّنَ فساد شُبَه نفاة ذلك بما ادعوه من لزوم التغيُّر أو التكثُّر، وبُيِّنَ أنه لا يلزم من ثبوت عِلْم الله بالأشياء كلِّها علىٰ وجه التفصيل محذورٌ ينفيه دليلٌ صحيح.

فإن التكثُّر فيما يقوم به من المعاني هو مدلول الأدلَّة العقليَّة والسمعيَّة؛ فإنه عالمٌ قادرٌ حي[3]، وليس العلم هو القدرة، ولا القدرة هي الحياة، ولا الصِّفة هي الموصوف. ومَن جعَل كلَّ صفةٍ هي الأخرىٰ، وجعل الصِّفات هي الموصوف، فهو قولٌ في غاية السَّفْسَطة.

وأيضًا فإنه خالق العالمين من الملائكة والجنِّ والإنس، وجاعلهم[4] علماء، فيمتنع أن يجعل غيره عالمًا مَن ليس هو في نفسه بعالم، فإن العلم صفةُ كمال، ومن يعلمُ أكملُ ممن لا يعلم، وكلُّ كمالٍ للمخلوق فهو من الخالق، فيمتنع أن يكون المخلوق أكمل من الخالق، وأيضًا فإن في الممكنات المحْدَثة

---

(١) (و، ي): «منفصلًا».

(٢) انظر: «درء التعارض» (١٠/ ٢٩، ١٦٦)، «مجموع الفتاوىٰ» (١٢/ ٥٩٥).

(٣) بعدها في (و) «القدرة»، والظاهر أنها مقحمة، وقد كتبت في (ي) ثم ضرب عليها.

(٤) (و، ي): «وأيضًا فإنه جاعلهم».



المخلوقة ما هو عالم، والواجب القديم الخالق أكمل من الممكن المحدَث، فيمتنع أن يتَّصف بالكمال الموجود النَّاقص الخسيس دون الموجود الكامل الشَّريف، وهذا يتناول معنىٰ حجَّتِهم[1].

وأيضًا فإنه حيٌّ، والحياة مستلزمةٌ لجنس العلم، وإذا كانت حياته أكمل من كلِّ حياة فعلمه أكمل من كلِّ علم، لكن يقال لكم: كما أنه حيٌّ عالمٌ فهو أيضًا قادر، كما[2] ذكرتم بأن الموجودات أو الأحياء تنقسم إلىٰ قادرٍ وغير قادر، فيجب أن يوصف بأجلِّ القسمين، وهو القدرة.

لا سيَّما ودلائلُ كونه قادرًا أظهرُ من دلائل كونه عالمًا، فإن نفس كونه خالقًا فاعلًا يستلزم كونَه قادرًا؛ فإنَّ الفعل بدون القدرة ممتنع، حتىٰ إذا قيل: إن الجماد يفعل فإنما يفعل بقوة فيه، كالقوىٰ الطَّبيعيَّة التي في الأجسام الطبيعيَّة، فيمتنع في خالق العالم أن لا يكون له قوة ولا قدرة. قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلْقُوَّةِ ٱلْمَتِينُ﴾ [الذاريات:٥٨]، وقال تعالىٰ: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥].

وفي «صحيح البخاري»[3] حديث الاستخارة: «**اللَّهُمَّ إني أسْتخيرُكَ بعلْمِكَ وأسْتقدِرُكَ بقُدْرَتِكَ، وأسْألُكَ مِنْ فَضْلِكَ العَظِيمِ، فَإِنَّكَ تَقْدِرُ ولا أَقْدِر، وتعْلَمُ ولا أعْلَمُ، وأنتَ علَّامُ الغُيُوبِ**».

وكثيرٌ من نُظَّارِ المسلمين المصنِّفين في أصول الدين الذين يقيمون الدليل علىٰ كونه قادرًا قبل كونه عالمًا وحيًّا، ويقولون: العلم بذلك أسبق في السلوك

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٧٦).

(٢) في الأصول عدا (ي): «فيما». (ي) «بما». وكتب في هامش (و): «لعله كما». وهو الذي أثبتُّه.

(٣) (٦٣٨٢) عن جابر رضي الله عنه.

الاستدلاليِّ النظريِّ؛ لدلالة الإحداث والفعل علىٰ قدرة المحدث الفاعل، فيجب أن يثبتوا له صفة القدرة مع العلم.

وكذلك يقولون: إن الحيَّ لمَّا كان ينقسم إلىٰ سميعٍ وغير سميع، وبصيرٍ وغير بصير، وصفناه بأشرف القسمين، وهو السَّميع والبصير.

وكذلك في النُّطق إذا أريد به البيان والعبارة ولم يرد به مجرَّد العلم، أو معنًى من جنس العلم، فإن الحيَّ ينقسم إلىٰ متكلِّمٍ مُبيِّنٍ معبِّرٍ عمَّا في نفسه، وإلىٰ ما ليس كذلك، فيجب أن تصفوه بأشرف القسمين، وهو الكلام المُبَيِّنُ المعبِّر عمَّا في النَّفس من المعاني.

ومما يُستدلُّ به علىٰ ثبوت جميع صفات الكمال أنه لو لم يوصف بكونه حيًّا عالمًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلِّمًا لوصف بضدِّ ذلك، كالموت والجهل والعجز والصَّمم والبَكَم والخَرَس، ومعلومٌ وجوب تقدُّسه عن هذه النقائص، بل هذا معلومٌ بالضَّرورة العقليَّة، فإنه أكملُ الموجودات وأجلُّها وأعظمُها، وربُّ كلِّ ما سواه وخالقُه ومالكُه، وجاعلُ كلِّ ما سواه[1] حيًّا عالمًا قادرًا سميعًا بصيرًا متكلمًا، فيمتنع أن يكون هو شيئًا عاجزًا جاهلًا أصمَّ أبكمَ أخرسَ، بل من المعلوم بضرورة العقل أن المتصف بهذه النقائص يمتنع أن يكون فاعلًا، فضلًا عن أن يكون خالقًا لكلِّ شيء.

ولبعض الملاحدة من المتفلسفة ومن اتبعهم هنا سؤالٌ مشهور[2] وهو: أنه إنما يلزم إذا لم يتصف بصفات الكمال أن يوصف بأضدادها إذا كان قابلًا لها، فأما إذا لم يكن قابلًا لها لم يلزم.

---

(١) (و، ي): «غيره» بدل: «كل ما سواه».

(٢) انظر: «درء التعارض» (٢/ ٢٢٢)، «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٨٨).

قالوا: وهذه الصِّفات متقابلةٌ تقابُل العدم والمَلَكَة، وهو عدم الشيء عمَّا من شأنه أن يكون قابلًا له كعدم الحياةِ والسَّمعِ والبصرِ والكلامِ عن الحيوان الذي هو القابل له، فإذا لم يكن قابلًا له كالجماد فلا يُسَمَّىٰ مع عدم الحياة والسَّمع والبصر والكلام ميتًا ولا أصمَّ ولا أعمىٰ ولا أخرس.

وجواب ذلك من أوجه:

أحدها: أنه إمَّا أن يكون قابلًا للاتصاف بصفات الكمال، وإما أن لا يكون.

فإن لم يكن قابلًا لزم أن يكون أنقص ممَّن قبلها ولم يتصف بها، فالجماد أنقص من الحيوان الذي لم يتصف بعدُ بصفات كماله.

وإن كان قابلًا لها لزم إذا[1] عَدِمَها أن يتَّصف بأضدادها.

وهؤلاء قد يقولون: في إثباتها تشبيهٌ له بالحيوان. فيقال لهم: وفي نفيها تشبيهٌ له بالجماد الذي هو أنقص من الحيوان، فإذا لم يكن في نفيها تشبيهٌ له بالجماد، فكذلك لا يكون في إثباتها تشبيهٌ له بالحيوان، وإن كان في ذلك تشبيهٌ بالحيوان[2] فهو محذور، فالمحذور في تشبيهه بالجماد أعظم، وإن لم يكن مثل هذا التشبيه محذورًا في ذلك، فأن لا يكون محذورًا في هذا بطريق الأوْلىٰ.

الوجه الثاني: أنَّ جَعْلَهم سلبَ الموتِ والصَّمم والبكم عن الجماد لزعمهم أنه غيرُ قابلٍ له اصطلاحٌ محض؛ فإنه موجودٌ في كلام الله تسمية الجماد ميتًا، كما قال تعالىٰ في الأصنام: ﴿ أَمْوَٰتٌ غَيْرُ أَحْيَآءٍ ﴾ [النحل: ٢١].

---

(١) ضبطت «إذًا» بالتنوين في (و) خطأ.

(٢) «وإن كان في ذلك تشبيه بالحيوان» ساقطة من (و) لانتقال النظر.

الثالث: أنه يكفي عدم هذه الصِّفات، فإنَّ مجرَّدَ عدم الحياة والعلم والقدرة صفة نقص، سواءٌ قُدِّر الموصوف قابلًا لها أو غير قابل، بل إذا قُدِّر أنه غيرُ قابلٍ لها كان ذلك أبلغَ في النقص.

فعُلِم أن نفيَ هذه الصفات عنه ونفيَ قبولها يوجب أن يكون أنقصَ[1] من الحيوان الأعمىٰ الأصمِّ الذي يقبلها وإن لم يتصف بها.

الوجه الرابع: أن الكمال في الوجود، والنَّقصَ في العدم، فنفس ثبوت هذه الصِّفات كمال، ونفس نفيها نقص، وإن لم يتصف بها لزم نقصُه، وأن يكون المفعول أكمل من الفاعل، وأن يكون المحدَث الممكن[2] المخلوق[3] أكمل من القديم الأزليِّ الواجبِ الوجود الخالق، وهذا ممتنعٌ في بدايه العقول، وهذه الأمور مبسوطةٌ في غير هذا الموضع[4]. ولكن نبَّهنا عليها هنا لبيان بعض الطرق التي بها تعرف صفات الرب، وبيانِ أن هؤلاء القوم من أجهل أهل الملل بالرَّبِّ والطرقِ التي يُعرف بها كمالُه في العقليَّة والسَّمعيَّة، وأن القوم عندهم من ألفاظ الأنبياء ما لم يفهموا كثيرًا منه، وما حرَّفوا كثيرًا منه، وعندهم من المعقول[5] في ذلك ما يفضُلُهم اليهود فيه، لكن اليهودَ وإن كانوا أعلم[6] منهم فهم أعظم عنادًا وكِبرًا وجحدًا للحق، والنصارىٰ أجهل وأضلُّ من اليهود، لكن هم أعبد وأزهد وأحسن أخلاقًا، ولهذا كانوا أقربَ مودةً للذين آمنوا من اليهود والمشركين.

---

(١) (و): «النقص».

(٢) (و، ي): «الممكن المحدث».

(٣) «المخلوق» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ٢١)، (٨/ ٢١).

(٥) (و، ي): «المعقولات».

(٦) (د، ع، ط.النيل): «أعظم».

فصـل

قالوا: «والثلاثة أسماء فهي: إلهٌ واحد، وربٌ واحد، وخالقٌ واحد، مسمًّى واحدٌ لم يزل ولا يزول، شيئًا حيًّا ناطقًا، أي: الذات، والنطق، والحياة. فالذَّات عندنا: الأب الذي هو ابتداء الاثنين. والنطق: الابن الذي هو مولودٌ منه كولادة النطق من العقل. والحياة: هي الروح القدس»[1].

والجواب عن هذا من وجوه:

الأول: أن أسماء الله تبارك و تعالىٰ متعدِّدةٌ كثيرةٌ، فإنه: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٢٢﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٢٣﴾ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ يُسَبِّحُ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢-٢٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨٠].

وقال تعالىٰ: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]. وقال تعالىٰ: ﴿طه ﴿١﴾ مَآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لِتَشْقَىٰٓ ﴿٢﴾ إِلَّا تَذْكِرَةً لِّمَن يَخْشَىٰ ﴿٣﴾ تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ ٱلْأَرْضَ وَٱلسَّمَٰوَٰتِ ٱلْعُلَى ﴿٤﴾ ٱلرَّحْمَٰنُ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ ﴿٥﴾ لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ ٱلثَّرَىٰ ﴿٦﴾ وَإِن

---

(١) ورد هذا النص في «رسالة بولس» (ص٤١٨) هكذا: «والثلاثة الأسماء هي: الإله الواحد الذي لم يزل ولا يزال، شيئًا حيًّا ناطقًا، فالذّات عندنا: الأب. والابن: الناطق. الحياة: روح القدس».



تَجۡهَرۡ بِٱلۡقَوۡلِ فَإِنَّهُۥ يَعۡلَمُ ٱلسِّرَّ وَأَخۡفَى ۝٧ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ لَهُ ٱلۡأَسۡمَآءُ ٱلۡحُسۡنَىٰ﴾
[طه: ١-٨].

وفي «الصحيحين»[(١)] عن النبيّ ﷺ أنه قال: «**إنَّ للهِ تِسْعَةً وتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاها دخَلَ الجنَّةَ**». وهذا معناه في أشهر قولي العلماء وأصحِّهما أن من أسمائه تعالىٰ تسعة وتسعين اسمًا[(٢)]، من أحصاها دخل الجنة، وإلا فأسماؤه تبارك و تعالىٰ أكثرَ من ذلك، كما في الحديث الآخر الذي رواه أحمد في «مسنده»، وأبو حاتم في «صحيحه»[(٣)]، عن ابن مسعود، عن النبي ﷺ أنه قال: «**ما أصابَ عبدًا قطُّ همٌّ ولا حزنٌ فقال: اللَّهُمَّ إني عبْدُكَ ابنُ عبدِكَ ابنُ أمَتِكَ، ناصيتِي بيدِكَ، ماضٍ فيَّ حُكْمُكَ، عدلٌ فيَّ قضاؤكَ، أسألُكَ بكُلِّ اسمٍ هو لكَ سمَّيْتَ به نفسَكَ، أو أنزَلْتَه في كتابِكَ، أو علَّمتَه أحدًا من خَلْقِكَ، أو استأْثَرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِندكَ، أن تجْعَلَ القُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، ونُورَ صَدْرِي، وجَلاءَ حُزْنِي، وذَهَابَ هَمِّي وغَمِّي، إلّا أَذْهَبَ اللهُ هَمَّه وغَمَّه، وأَبْدَلَه مَكَانَه فرحًا. قَالُوا: يا رَسُولَ اللهِ، أفلا نَتَعَلَّمُهُنَّ، قال: بلىٰ ينْبغي لِمَنْ سَمِعَهُنَّ أن يَتَعَلَّمَهُنَّ**».

---

(١) البخاري (٢٧٣٦) ومسلم (٢٦٧٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) «اسمًا» ليست في (و، د).
(٣) «مسند أحمد» (٣٧١٢) «صحيح ابن حبان» (٩٧٢). وقد أورد الدارقطنيُّ هذا الحديثَ في «العلل»(٥/ ٢٠٠-٢٠١)، فذكر طريق أبي سلمة الجهني، وطريق عبد الرحمن بن إسحاق، كلاهما عن القاسم، عن أبيه، عن ابن مسعود، وطريق علي بن مسهر، عن عبدالرحمن بن إسحاق، عن القاسم، عن ابن مسعود، مرسلا، ثم قال: وإسناده ليس بالقوي.
وفي إسناده علّتان: أبو سلمة الجهني، والعلّة الأخرىٰ الانقطاع. قال الحاكم بعد تخريجه للحديث: «صحيحٌ علىٰ شرط البخاريّ إن سلم من إرسال عبد الرحمن عن أبيه». قال الذَّهبي معقِّبًا: «وأبو سلمة لا يدرىٰ من هو، ولا رواية له في الكتب الستة».

وإذا كانت أسماء الله كثيرة، كالعزيز والقدير وغيرها، فالاقتصار على ثلاثة أسماء دون غيرها باطل، وأيُّ شيءٍ زعم الزَّاعم في اختصاص هذه الأسماء به دون غيرها[1] فهو باطل، كما قد بُسِط في موضعٍ آخر[2].

الوجه الثاني: قولهم: «الأب: الذي [هو][3] ابتداء الاثنين، والابن: النطق الذي هو مولودٌ منه، كولادة النطق من العقل» كلامٌ باطل؛ فإن صفات الكمال لازمةٌ لذات الربِّ ﷻ أولًا وآخرًا، لم يزل ولا يزال حيًّا عالمًا قادرًا، لم يَصِر حيًّا بعد أن لم يكن حيًّا، ولا عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا.

فإذا قالوا: «إن الأب الذي هو الذَّات هو ابتداء الحياة والنطق» اقتضى ذلك أن يكون الأب قبل الحياة والنطق، وأن يكون فاعلًا للحياة والنطق، فإنَّ ما كان ابتداءً لغيره يكون متقدِّمًا عليه أو فاعلًا له، وهذا في حق الله باطل.

وكذلك قولهم: «إن النطق مولودٌ منه كولادة النطق من العقل»؛ فإن المولود من غيره متولِّد منه، فيحدث بعد أن لم يكن، كما يحدث النطق شيئًا فشيئًا، سواءٌ أريد بالنطق العلمُ أو البيانُ، فكِلاهُما لم يكن لازمًا للنَّفْس الناطقة، بل حدث فيها واتَّصفت به بعد أن لم يكن، وإن كانت قابلةً له ناطقةً[4] بالقوة، فإذا مثَّلوا تولُّد[5] النطقِ من الرَّبِّ كتولُّده عن العقل لزم أن يكون الرَّبُّ كان ناطقًا بالقوة، ثم صار ناطقًا بالفعل، فيلزم أنه صار عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا، وهذا من أعظم الكفر وأشدِّه استحالة؛ فإنه لا شيء غيره يجعله متَّصفًا بصفات

---

(١) «به دون غيرها» ليست في (و). وفي (ي) سقطت «به» فقط.

(٢) انظر ما مضى (٢/ ١٨٦)، وما سيأتي (٢/ ٤٠٧)، «الفتاوى الكبرى» (٦/ ٥٨٨).

(٣) ساقطة من (الأصول)، وقد وردت في (٢/ ٢١٦).

(٤) بعدها في (د، ع، ط.النيل): «له».

(٥) (د، ع، ط.النيل): «قوله».

الكمال بعد أن لم يكن متصفًا بها؛ إذ كل ما سواه فهو مخلوقٌ له وكماله منه، فيمتنع أن يكون هو جاعلُ الرَّبِّ سبحانه و تعالىٰ كاملًا.

وذلك دورٌ ممتنعٌ في صريح العقل؛ إذ كان الشيء لا يَجعل غيرَه متَّصفًا بصفات الكمال حتىٰ يكون هو متصفًا بها، فإذا لم يتصف بها حتىٰ جعله غيره متصفًا بها لزم الدور الممتنع، مِثْلُ كونِ كل من الشَّيئين فاعلًا للآخر وعلةً له أو لبعض صفاته المشروطة في الفعل، فتبيَّن بُطلانُ كونِ نطقه متولِّدًا منه كتولُّدِ النطق من العقل، كما بطل أن يكون لصفاته اللازمة له ما هو مبدأ لها متقدِّمٌ عليها، أو فاعلٌ لها.

الوجه الثالث: أن قولهم في الابن: «إنه مولودٌ من الله» إن أرادوا به أنه صفةٌ لازمةٌ له، فكذلك الحياة صفةٌ لازمةٌ لله، فيكون روحُ القدس أيضًا ابنًا ثانيًا، وإن أرادوا به أنه حصل منه بعد أن لم يكن، لزم أن يكون صار عالمًا بعد أن لم يكن عالمًا، وهذا مع كونه باطلًا وكفرًا فيلزم مثله في الحياة، وهو أنه صار حيًّا بعد أن لم يكن حيًّا.

الوجه الرابع: أن تسمية حياة الله «روح القدس» أمرٌ لم ينطق به شيءٌ من كتب الله المنزَّلة، فإطلاق «روح القدس» علىٰ حياة الله من تبديلهم وتحريفهم.

الوجه الخامس: أنهم يدَّعون أن المتَّحد بالمسيح هو الكلمة الذي هو العلم، وهذا إن أرادوا به نفس الذَّات العالمةِ الناطقةِ، كان المسيح هو الأب، وكان المسيح نفسه هو الأب، وهو الابن، وهو روح القدس، وهذا عندهم وعند جميع الناس باطلٌ وكفر.

وإن قالوا: «المتَّحد به هو العلم» فالعلم صفةٌ لا تفارقُ العالم، ولا تفارقُ الصِّفةَ الأخرىٰ التي هي حياة، فيمتنع أن يتَّحد به العلمُ دون الذَّات، ودون الحياة.

الوجه السَّادس: أن العلم أيضًا صفةٌ، والصِّفة[1] لا تخلق ولا ترزق، والمسيحُ نفسه ليس هو صفةً قائمةً بغيرها باتفاق العقلاء، وأيضًا فهو عندهم خالق السماوات والأرض، فامتنع أن يكون المتَّحد به صفةً، فإن الإله المعبود هو الإله الحيُّ العالم القادر، وليس هو نفسَ الحياة، ولا نفسَ العلم والكلام.

فلو قال قائل: يا حياة الله، أو يا علم الله، أو يا كلام الله، اغفر لي وارحمني واهدني، كان هذا باطلًا في صريح العقل، ولهذا لم يجوِّز أحدٌ من أهل الملل أن يقال للتَّوراة أو الإنجيل وغير ذلك من كلام الله: اغفر لي وارحمني، وإنما يقال للإله المتكلِّم بهذا الكلام: اغفر لي وارحمني.

والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ عندكم هو الإله الخالق الذي يقال له: اغفر لنا وارحمنا، فلو كان هو نفسَ علم الله وكلامه لم يجز أن يكون إلهًا معبودًا، فكيف إذا لم يكن هو نفسَ علم الله وكلامه، بل هو مخلوقٌ بكلامه حيث قال له: كن فيكون؟

يبيِّنُ[2] ذلك أن كلمات الله كثيرةٌ لا نهاية لها، وفي الكتب الإلهيَّة كالتَّوراة أنه خلق الأشياء بكلامه، وكان في أوَّل التَّوراة أنه قال: «ليكن كذا ليكن كذا»[3].

ومعلومٌ أن المسيح ليس هو كلماتٌ كثيرة، بل[4] غايته أن يكون كلمةً واحدة؛ إذ هو مخلوقٌ بكلمةٍ من كلمات الله عَزَّ وَجَلَّ.

---

(١) «والصفة» ليست في (و، ي).

(٢) (و) «فيبين». (د، ع، ط.النيل): «فتبين» وفي هامش (د): نسخة «يبين ذلك» وهو المثبت. وفي (المطبوعتين) زيادة «من» بعدها: «فتبيّن من».

(٣) سفر التكوين. الإصحاح (١)، فقرة (١-٦).

(٤) بعدها في (و): «هو».



الوجه السَّابع: أن أمانتكم التي وضعها أكابرُكم بحضرة قُسْطَنطين، وهي عقيدة إيمانكم التي جعلتموها أصلَ دينكم، تُناقض ما تدَّعونه من أن الإله واحد، وتُبيِّن أنكم تقولون لمن يناظركم خلافَ ما تعتقدونه.

وهذان أمران معروفان في دينكم:[1] تناقضُكم، وإظهارُكم في المناظرة خلاف ما تقولونه من أصل دينكم، فإن الأمانة التي اتَّفق عليها جماهير النَّصارىٰ يقولون فيها:

«أومن بإلهٍ واحد، أبٍ ضابط الكل، خالق السماوات والأرض، كلِّ ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ، وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله، الوحيد، المولود من الأب قبل كلِّ الدّهور، نورٍ من نور، إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مولودٍ غيرِ مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر الذي به كان كلُّ شيء، الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من روح القُدُس، ومن مريم العذراء ، وتأنَّسَ وَصُلِبَ وتألَّمَ وَقُبِرَ، وقام في اليوم الثالث -علىٰ ما في الكتب المقدَّسة- وصعد إلىٰ السماء، وجلس عن يمين الأب. وأيضًا سيأتي بمجده لِيَدِينَ الأحياءَ والأموات، الذي لا فناء لمُلْكِه، وبروح القُدُس الربِّ المحيي المنبثق من الأب الذي هو مع الأب والابن المسجود له، وممجَّدٌ ناطقٌ في الأنبياء، كنيسةٌ واحدةٌ جامعةٌ رسُوليَّة، وأعترف بمعموديَّةٍ واحدةٍ لمغفرة الخطايا، وابنٍ جاء قيامة الموتىٰ، وحياة الدَّهر العتيد[2] كونه، آمين»[3].

---

(١) المثبت من (و، هامش د)، وفي باقي النسخ: «إيمانكم».

(٢) (ط.النيل): «العبيد».

(٣) تقدّمت الإشارة إلىٰ هذه الأمانة غير مرة. انظر: (١/ ١٧٣، ٢٥٣).

ففي هذه الأمانة التي جعلتموها أصل دينكم ذكر الإيمان بثلاثة أشياء:

«بإلهٍ واحد، خالقِ السَّماوات والأرض، خالقِ ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ» فهذا هو ربُّ العالمين الذي لا إله غيره، ولا ربَّ سواه، وهو إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب وسائر الأنبياء والمرسلين، وهو الذي دَعَتْ جميع الرسل إلىٰ عبادته وحده لا شريك له، ونَهوا أن يُعْبَد غيرُه، كما قال تعالىٰ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَسۡـَٔلۡ مَنۡ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رُّسُلِنَآ أَجَعَلۡنَا مِن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ءَالِهَةً يُعۡبَدُونَ﴾ [الزخرف: ٤٥].

ثم قلتم: «وبربٍّ واحدٍ، يسوع المسيح، ابنِ الله الوحيد، المولود من الأب قبل كلِّ الدهور، نورٍ من نور، إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مولودٍ غير مخلوق، مساوٍ الأبَ في الجوهر».

فصرَّحتم بالإيمان مع خالق[1] السماوات والأرض بربٍ واحدٍ مخلوقٍ مساوٍ الأب، ابنِ الله الوحيد، وقلتم: «هو إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ من جوهر أبيه» وهذا تصريحٌ بالإيمان بإلهين، أحدُهما من الآخر.

وعِلْمُ الله القائم به أو كلامه أو حكمته القائمة به الذي سمَّيتموه ابنًا.

ولم يسمِّ أحدٌ من الرُّسل لصفة الله ابنًا ليس هو إله حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، بل إلهٌ واحد، وهذا صفة الإله، وصفة الإله ليست بإله، كما أن قدرته وسمعه وبصره وسائرَ صفاتِه ليست بآلهة، ولأن الإله واحد، وصفاته متعدِّدة، والإله ذاتٌ متَّصفةٌ بالصِّفات قائمةٌ بنفسها، والصفة قائمةٌ بالموصوف، ولأنكم سمَّيتم الإله

---

(١) (و): «خلق».



جوهرًا، وقلتم: هو القائم بنفسه، والصِّفةُ ليست جوهرًا قائمًا بنفسه.

وهم في هذه الأمانة قد جعلوا الله والدًا وهو الأب، ومولودًا وهو الابن، وجعلوه مساويًا له في الجوهر.

وقد نزَّه الله نفسه عن الأنواع الثلاثة. فقالوا: «مولودٌ غير مخلوق، مساوٍ الأبَ في الجوهر» فصرّحوا بأنه مساوٍ له في الجوهر، والمساوي ليس هو المساوىٰ.

ولا يساوي الأب في الجوهر إلا جوهر، فوجب أن يكون الابن[1] جوهرًا ثانيًا، وروح القدس جوهرٌ ثالثٌ كما سيأتي. وهذا تصريح بإثبات ثلاثة جواهر، ثلاثة آلهة.

ويقولون مع ذلك: «إنما نثبت جوهرًا واحدًا وإلهًا واحدًا».

وهذا جمعٌ بين النقيضين وهو حقيقةُ قولهم، يجمعون بين جعْلِ الآلهة واحدًا، وإثبات ثلاثة آلهة، وبين إثبات جوهرٍ واحد، وبين إثبات ثلاثة جواهر، وقد نزَّه الله نفسه عن[2] هذا بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١ ٱللَّهُ ٱلصَّمَدُ ۝٢ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ١-٤]. فنزَّه نفسه أن يلد كما يقولون: هو الأب، وأن يولد كما يقولون: هو الابن، وأن يكون له كفوًا أحد، كما يقولون: إن له من يساويه في الجوهر.

وإذا قلتم: نحن نقول: أحديُّ الذات ثلاثيُّ الصفات.

قيل لكم: قد صرَّحتم بإثبات إلهٍ حقٍّ من إله حق، وبأنه مساوٍ للأب في

---

(١) المثبت من (و) وفي النسخ: «الأب».

(٢) (و، د، ع) بعدها: «ذلك» حشو، وضرب عليها في (ي)، (المطبوعتين): «عن ذلك بقوله».

الجوهر، وهذا تصريحٌ بإثبات جوهرٍ ثاني لا بصفة، فجمعتم بين القولين: بين إثبات ثلاثة جواهر، وبين دعوىٰ إثبات جوهرٍ واحد.

ولا ينجيكم عن هذا اعتذار من اعتذر منكم كيحيىٰ بن عدي[1] ونحوه حيث قالوا: هذا بمنزلة قولك: زيدٌ الطبيب الحاسب الكاتب، ثم تقول: زيدٌ الطبيب وزيدٌ الحاسب وزيدٌ الكاتب[2]، فهو مع كل صفةٍ له حكمٌ خلافُ حكمه مع الصِّفة الأخرىٰ. وقد يفسِّرون الأقنوم بهذا فيقولون: الأقنوم هو الذات مع الصفة، فالذَّات مع كل صفةٍ أقنوم، فصارت الأقانيم ثلاثة.

لأن هذا المثال لا يطابق قولكم، فإن زيدًا هنا هو جوهر واحد له ثلاث صفات: الطبُّ والحساب والكتابة، وليس هنا ثلاثة جواهر، ولكن لكل صفةٍ حكمٌ ليس للأخرىٰ.

ولا يقول عاقل: إن الصِّفة مساويةٌ للموصوف في الجوهر، ولا أَنَّ الذَّات مع هذه الصِّفة تساوي الذَّات مع الصِّفة الأخرىٰ في الجوهر؛ لأنّ الذَّات واحدة، والمساوي ليس هو المساوىٰ، ولأن الذات مع الصِّفة هي الأب، فإن كان هذا هو الذي اتَّحد بالمسيح فالمتَّحد به هو الأب، ولأنكم قلتم عن هذا الذي قلتم: «إنه إله حقٌّ من إلهٍ حق، من جوهر أبيه الذي هو مساوٍ الأبَ في الجوهر: إنه[3] نزل وتجسَّد من روح القدس، ومن مريم العذراء، وتأنَّس وصُلب وتألَّم» فاقتضىٰ ذلك أن يكون الإله الحقُّ المساوي للأب في الجوهر

---

(١) الفيلسوف، نزيل بغداد، نصرانيٌّ يعقوبيٌّ انتهت إليه رئاسة المنطق ومعرفة العلوم الحكمية. وله ولع بالتصانيف. مات سنة أربع وستين وثلاثمائة. انظر: «أخبار العلماء» للقفطي (ص٢٧٠)، «عيون الأنباء في طبقات الأطباء» (ص٣١٧).

(٢) «تقول: زيد الطبيب وزيد الحاسب وزيد الكاتب» ساقطة من (و) لانتقال النظر.

(٣) (د، ع، ط.النيل): «الذي».

صُلِب وتألَّم، فيكون اللَّاهوت مصلوبًا متألِّمًا، وهذا تُقِرُّ به طوائفُ منكم، وطوائفُ تنكره، لكن مقتضىٰ أمانتكم هو الأول.

وأيضًا فإذا كان تجسَّد من روح القدس ومريم، فإن كان روح القدس هو حياة الله كما زعمتم فيكون المسيح كلمة الله وحياته، فيكون لاهوته أقنومين من الأقانيم الثلاثة، وعندهم إنما هو أقنوم الكلمة فقط، وإن كان روح القدس ليس هو حياة الله بطل تفسيركم لروح القدس بأنه[1] حياة الله. وقيل لكم: لا يجب أن يكون روح القدس صفةً الله ولا أقنومًا.

ثم ذكرتم في عقيدة أمانتكم: أنكم تؤمنون بروح القدس الربِّ المحيي. فأثبتُّم[2] ربًّا ثالثًا؛ قلتم: المنبثق من الأب. والانبثاق: الانفجار، كالاندفاق والانصباب، ونحو ذلك، يقال: بَثَقَ السيلُ موضع كذا يبْثُقه بثقًا أي: خرقه وشقَّه، فانبثق أي: انفجر[3]. فاقتضىٰ ذلك أن يكون هذا الربُّ المحيي انفجر من الأب واندفق منه.

ثم قلتم: «هو مع الأب مسجود له ومُمَجَّدٌ ناطق في الأنبياء»[4] فجعلتموه مع الأب مسجودًا له فأثبتُّم إلهًا ثالثًا يُسجد له.

ومعلومٌ أن حياة الله التي هي صفته[5] ليست منبثقةً منه، بل هي قائمةٌ به لا تخرج عنه البتة، وهي صفةٌ لازمةٌ له لا تتعلَّق بغيره، فإن العلم يتعلَّق بالمعلومات، والقدرةَ بالمقدورات، والتكليمَ بالمخاطبين، بخلاف التكلُّم فإنه

(١) المثبت من (ي) وفي النسخ: «فإنه».
(٢) (و): «فأتيتم».
(٣) انظر: «لسان العرب» (١٠/ ١٣)، «تاج العروس» (٢٥/ ٣٢).
(٤) (و): «الأشياء» وكذا كانت في (ي) فأصلحها إلىٰ المثبت.
(٥) (ي): «صفة».

صفةٌ لازمة، يقال: عَلِم الله كذا، وقدر اللهُ علىٰ كلِّ شيءٍ، وكلَّم الله موسىٰ.

وأما الحياة: فاللفظ الدالُّ عليها لازمٌ لا يتعلَّق بغير الحيّ، يقال: حييٰ يحييٰ حياة، ولا يقال: حييٰ كذا ولا بكذا، وإنما يقال: أحيا كذا، والإحياء فِعْلٌ غير كونه حيًّا ، كما أن التَّعليم غيرُ العلم، والإقدارَ غير القدرة، والتَّكليمَ غير التَّكلُّم.

ثم جعلتم «روح القدس» هذا ناطقًا في الأنبياء عَلَيْهِمْ السَّلَامُ ، وحياة الله صفةٌ قائمةٌ به لا تَحُلُّ في غيره.

و«روحُ القدس» الذي يكون في الأنبياء والصَّالحين ليس هو حياة الله القائمة به، ولو كان «روح القدس» الذي في الأنبياء هو أحد الأقانيم الثلاثة لكان كلٌّ من الأنبياء إلهًا معبودًا قد اتَّحد ناسوته باللَّاهوت كالمسيح عندكم، فإن المسيح لمَّا اتحد به أحد الأقانيم صار ناسوتًا ولاهوتًا، فإذا كان «روح القدس» الذي هو أحد الأقانيم الثلاثة ناطقًا في الأنبياء كان كلٌّ منهم فيه لاهوتٌ وناسوت كالمسيح، وأنتم لا تُقِرُّون بالحلول والاتِّحاد إلا للمسيح وحده مع إثباتكم لغيره ما ثبت له.

وهم تارة يشبِّهون الأقنومين: العلم والحياة التي يسمُّونها: «الكلمة» و«روح القدس» بالضِّياء والحرارة التي للشَّمس مع الشَّمس، ويشبِّهون ذلك بالحياة والنطق الذي للنَّفس مع النَّفس، وهذا تشبيهٌ فاسد؛ فإنهم إن أرادوا بالضَّياء والحرارة ما يقوم بذات الشمس فذلك صفةٌ للشمس قائمةٌ بها لم تَحُلَّ بغيرها ولم تتَّحد بغيرها، كما أن صفة النفس كذلك، هذا إن قيل: إن الشَّمس تقوم بها حرارة، وإلا فهذا ممنوع. **والمقصود هنا: بيانُ فسادِ كلامِهم وقياسِهم.**

وإن أرادوا ما هو بائنٌ عن الشمس قائمٌ بغيرها، كالشُّعاع القائم بالهواء والأرض، والحرارة[1] القائمة بذلك، كان هذا دليلًا علىٰ فساد قولهم من وجوه:

منها: أن هذه أعراضٌ منفصلةٌ[2] بائنةٌ عن الشمس قائمةٌ بغيرها لا بها، ونظير هذا ما يقوم بقلوب الأنبياء من العلم والحكمة والوحي الذي أنذروا به، وعلىٰ هذا التقدير فليس في النَّاسوت شيءٌ من اللَّاهوت، وإنما فيه آثار حكمته وقدرته.

ومنها: أن الحرارة والضوء القائمَ بالهواء والجدران أعراضٌ قائمةٌ بغير الشمس، و«الكلمة» و«روح القدس» عندهم هما جوهران.

ومنها: أن هذا ليس هو الشَّمس ولا صفةٌ من صفات الشَّمس، وإنما هو أثرٌ حاصلٌ في غير الشَّمس بسبب الشَّمس، ومثل هذا لا يُنكَرُ قيامُه بالأنبياء والصَّالحين، ولكن ليس للمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بذلك اختصاص، فما حلَّ بالمسيح حلَّ بغيره من المرسلين، وما لم يَحُلَّ بغيره لم يحلَّ به، فلا اختصاص له بأمرٍ يوجب أن يكون إلهًا دون غيره من الرُّسل، ولا هنا اتِّحادٌ بين اللَّاهوت والنَّاسوت، كما لم تتَّحد الشَّمس ولا صفتها القائمة بها بالهواء، والأرض التي حصل بها الشُّعاع والحرارة.

(١) «والحرارة» ساقطة من (و).

(٢) «منفصلة» ضرب عليها في (ي).

فصـــل[1]

قالوا: «وهذه الأسماء لم نُسَمِّه نحن معشر النصارىٰ بها من ذات أنفسنا، بل الله سمَّىٰ لاهوتَه بها، وذلك أنه قال علىٰ لسان موسىٰ النَّبيِّ في التَّوراة مخاطبًا لبني إسرائيل قائلًا: «أليس هذا الأبُ الذي صنَعك وبراك واقتناك»[2]؟ وعلىٰ لسانه أيضًا قائلًا: «وكان روح الله ترِفُّ علىٰ الماء»[3]. وقوله علىٰ لسان داود النَّبيّ: «روحُك القدسُ لا تُنزَع مني»[4]. وأيضًا علىٰ لسانه: «بكلمة الله تَشَدَّدت السماوات والأرض، وبروح فاه جميع فواهن»[5].

وقوله: علىٰ لسان أشعيا: «يَيْبَسُ القتاد، ويَجِفُّ العشب، وكلمة الله باقية إلىٰ الأبد»[6]. وعلىٰ لسان أيوب الصِّدِّيق: «روح الله خلقني وهو يعلمني»[7].

وقال السيد المسيح في الإنجيل المقدس للتَّلاميذ الأطهار: «اذهبوا إلىٰ جميع العالم وعمِّدوهم باسم الأب والابن وروح القدس، إلهٍ واحد،

---

(١) (ع) في الهامش: «فصل في الأب وروح القدس»

(٢) جاء في سفر التثنية تحت عنوان: «نشيد موسىٰ»، الإصحاح (٣٢)، فقرة (٦): «أليس هو أبوك الذي خلقك، الذي صنعك وأقامك».

(٣) جاء في سفر التكوين، الإصحاح (١)، فقرة (٤): «وروح الله يرِفُّ علىٰ وجه المياه».

(٤) سفر المزامير، الإصحاح (٥١)، فقرة (٦).

(٥) كذا في الأصول: «فواهن» وجاء في سفر المزامير، الإصحاح (٣٣)، فقرة (٢): «بكلمة الرب صُنعت السماوات، وبروح فمه صنع كل جيشها». وفي «رسالة بولس» (ص٤١٨): «وبروح فيه كل قوّاتها».

(٦) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (٤٠)، فقرة (٧): «العشب ييبس، وزهره يذوي، وأما كلمة إلهنا فتبقىٰ للأبد».

(٧) جاء في سفر أيوب، الإصحاح (٣٣)، فقرة (٤): «روح الله هو الذي صنعني، ونسمة القدير أحيتني».

وعلموهم أن يحفظوا جميع ما أوصيتكم به»[1].

وقد قال في هذا الكتاب: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١]، وقال أيضًا: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِى عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠]، وقال أيضًا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]

وقال في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢]، وسائر المسلمين يقولون: «إن الكتاب كلامُ الله ولا يكون كلامٌ[2] إلا لحيٍّ ناطق، وهذه صفات جوهريَّةٌ تجري مجرىٰ الأسماء، وكلُّ صفةٍ منها غير الأخرىٰ، والإله واحدٌ لا يتبعَّض ولا يتجزَّأ».

والجواب من وجوه:

أحدها: أن نقول[3]: إن كلام الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم لا يكون إلا حقًّا وصدقًا، ولا يكون فيه شيءٌ يُعلم بطلانه بصريح العقل، وإن كان فيه ما يعجز العقل عن معرفته بدون إخبار الأنبياء، ولا يكون كلامُ النَّبيِّ الذي يخبِرُ به مناقضًا لكلامه في موضعٍ آخر، ولا لكلام سائر الأنبياء، بل كل ما أخبرت به الأنبياء فهو حقٌّ وصدق، يصدِّق بعضه بعضًا.

---

(١) تقدَّم هذا النص عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ مرارًا.

(٢) كذا بالرفع، والكلام من مقول النصارىٰ. وفي (ع): «كلاما».

(٣) بعدها في (ي): «لولا».



وقد أوجب الله علينا أن نؤمن بكلِّ ما أخبروا به، وحكم[1] بكفر من آمن ببعض ذلك وكفر ببعضه، فما عُلم بصريح العقل لا يناقِض ما عُلم بالنَّقل الصحيح عن الأنبياء، وما عُلم بالنَّقل الصَّحيح عن بعضهم لا يناقض ما عُلم بالنَّقل الصَّحيح عن غيره، ولكن قد يختلف بعضُ الشرع والمناهجِ في الأمر والنهي.

فأما ما يخبرون به عن الله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وغير ذلك، فلا يجوز أن يناقض بعضه بعضًا.

وإذا كان كذلك فما ينقلونه عن الأنبياء إنما تتمُّ الحجَّة به إذ عُلِم إسناده ومتنه، فَيُعْلَم أنه منقولٌ عنهم نقلًا صحيحًا، ونعلم أن ترجمته من العِبْريَّة إلىٰ اللَّسان الآخر كالرُّوميَّة والعربيَّة والسُّريانيَّة ترجمةٌ صحيحة، ويُعْلَم بعد ذلك أنهم أرادوا به ذلك المعنىٰ.

وليس مع النَّصارىٰ حجةٌ عن الأنبياء تَثْبُتُ فيها هذه المقدِّمات الثلاث، ونحن في هذا المقام يكفينا المنع، والمطالبة لهم بتصحيح هذه المقدِّمات؛ فإنهم ادَّعوا أن التَّثليث أخذوه عن الأنبياء، فنحن نطالبهم بتصحيح هذه المقدِّمات.

والجواب الثاني: أنَّا نبيِّن تفسير ما ذكروه من الكلمات، أما قوله علىٰ لسان موسىٰ عليه السلام مخاطبًا لبني إسرائيل قائلا: «أليس هذا الأب الذي صنعك وبراك واقتناك»؟ فهذا فيه أنه سمَّاه أبًا لغير المسيح عليه السلام، وهذا نظير قوله لإسرائيل:

---

(١) (د): «وأخبر»، (ع): «وأخبروا».

«أنت ابني بِكْري»، ولداود: «ابني وحَبيبي». وقول المسيح: «أبي وأبيكم» وهم يسلِّمون أن المراد بهذا في حق غير المسيح بمعنىٰ الربِّ لا معنىٰ التولُّد[1] الذي يخصُّون به المسيح.

الثالث: أن هذا حجةٌ عليهم، فإذا كان في الكتب المتقدِّمة تسميته أبًا لغير المسيح وليس المراد بذلك إلا معنىٰ الرب، عُلم أن هذا اللفظ في لغة الكتب يرادُ به الربّ، فيجب حمله في حقِّ المسيح علىٰ هذا المعنىٰ؛ لأن الأصل عدم الاشتراك في الكلام.

الرابع: أن استعماله في المعنىٰ الذي خصُّوا به المسيح إنما يثبت إذا علم أنه أريد المعنىٰ الذي ادّعوه في المسيح، فلو أُثبت ذلك المعنىٰ بمجرد إطلاق لفظ الأب لَزِم الدَّوْر، فإنه لا يعلم أنه أُريد به ذلك المعنىٰ من حيث يُثبَت أنه كان يراد به في حق الله هذا المعنىٰ، ولا يُثبَت ذلك حتىٰ يُعلم أنه أريد به ذلك المعنىٰ في حق المسيح، فإذا توقَّف العلم بكلٍّ منهما علىٰ الآخر لم يُعلم واحدٌ منهما، فتبيَّن أنه لا عِلْم عندهم بأنه أُريد في حقِّ المسيح بلفظ الأب ما خصُّوه به في محلِّ النِّزاع.

الوجه الخامس: أنه لا يوجد[2] في كتب الأنبياء وكلامهم إطلاق اسم «الأب» والمراد به أبُ اللاهوت، ولا إطلاق اسم «الابن» والمراد به شيءٌ من اللَّاهوت، لا كلمتُه ولا حياتُه، بل لا يوجد لفظ «الابن» إلا والمراد به المخلوق، فلا يكون لفظ «الابن» إلا لابنٍ مخلوق.

---

(١) (د): «المتولد».

(٢) (ع): «يؤخذ».

وحينئذٍ فيلزم من ذلك أن يكون مسمَّىٰ «الابن» في حقِّ المسيح هو النَّاسوت، وهذا يُبطل قولهم: إن «الابن» و«روح القدس» أنهما صفتان لله، وأن المسيح اسمٌ للَّاهوت والنَّاسوت.

فتبيَّن أن نصوص كتب الأنبياء تُبطل مذهب النصارىٰ، وتناقض أمانتهم، **فهم بين أمرين**:

بين الإيمان بكلام الأنبياء وبطلان دينهم، وبين تصحيح دينهم وتكذيب الأنبياء[1]. وهذا هو المطلوب.

---

(١) «وبطلان دينهم وبين تصحيح دينهم وتكذيب الأنبياء» ساقطة من (و) لانتقال النظر.

فصل

قالوا: «وعلىٰ لسانه أيضًا قائلًا: «وكان روح الله تَرِفُّ علىٰ الماء».

فيقال: هذا في السِّفر الأول «سفر الخليقة» في أوله، لمَّا ذكر أنه في البدء خلق السماوات والأرض، وأنه كانت الأرض مغمورةً[1] بالماء، وكانت روح الله تَرِفُّ علىٰ الماء= أخبر أنه كان الماء فوق التراب، والهواءُ فوق الماء، وروحُ الله هي الريح التي كانت فوق الماء.

هذا تفسير جميع الأمم من المسلمين واليهود وعقلاء النصارىٰ.

ولفظ الكلمة بالعِبْرِيَّة «رُوّح» بضم الراء وتشديد الواو، وهي الروح.

والريح تسمىٰ روحًا، وجمعها أرواح، ولم يُرِد بذلك أن حياة الله كانت ترفُّ علىٰ الماء؛ فإن هذا لا يقوله عاقل، فإن حياة الله صفةٌ قائمةٌ به لا تفارقه ولا تقوم بغيره، فيمتنع أن تقوم بماءٍ أو غيره فضلًا عن أن ترفَّ علىٰ الماء، والذي يرفُّ علىٰ الماء جسمٌ قائمٌ بنفسه، وهذا إخبارٌ عن الرِّيح التي كانت تتحرَّك فوق الماء.

ومثلُ هذا قولُ النبيِّ ﷺ: **«لا تَسُبُّوا الرِّيحَ فَإنَّها مِن رَوْحِ اللهِ، تَأتِي بِالرَّحْمَةِ وَتَأتِي بِالعَذَابِ، فَلا تَسُبُّوها، ولكِنْ تَعَوَّذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّها وسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا»**[2]. وقوله: **«إنِّي لأجِدُ نَفَسَ الرَّحْمَنِ مِنْ قِبَلِ اليَمَنِ»**[3].

---

(١) (د، ي، ع، ط.النيل): «معمورة».

(٢) أبو داود (٥٠٩٧) وابن ماجه (٣٧٢٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه. وقد ذكر الدارقطني في «علله» (٨/ ٢٧٦) اختلاف الرواة فيه علىٰ الزهري ثم قال: «والصحيح حديث الزهري، عن ثابت بن قيس الزرقي، عن أبي هريرة». وحسنه النووي في خلاصة الأحكام (٢/ ٨٨٦). وثبت التعوذ بالله من شر الريح وسؤاله من خيرها في «صحيح مسلم» (٨٩٩).

(٣) «مسند أحمد» (١٠٩٧٨) قال العراقي في «المغني عن حمل الأسفار» (ص١٢٢): «رجاله ثقات». وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (١٠/ ٥٦): «رجاله رجال الصحيح غير شبيب، وهو ثقة».



فصـل

قالوا: وقوله علىٰ لسان داود النبي ﷺ: «رُوحُكَ القُدُسُ لا تُنْزَع مني».

فيقال: هـذا دليـلٌ علىٰ أن «روح القـدس» كانـت في داود، فعُلـم بـذلك أن «روح القدس» التي كانـت في المسيح مـن هـذا الجنس، فعلـم بـذلك أن «روح القـدس» لا تختصُّ بالمسيح، وهـم يسلِّمون[1] ذلـك، فـإن مـا في الكتـب التـي بأيـديهم في غيـر موضـعٍ أن «روح القـدس» حلَّـت في غيـر المسـيح في داود، وفي الحوارِيِّين، وفي غيرهم.

وحينئذٍ فإن كان «روح القدس» هو حياة الله ومن حلّت فيه يكون لاهوتًـا، لزم أن يكون إلهًا، لزم أن يكون كـلُّ هـؤلاء فـيهم لاهـوتٌ وناسـوتٌ كالمسـيح، وهذا خلاف إجماع المسلمين والنَّصارىٰ واليهود.

ويلزم من ذلـك أيضًـا أن يكـون المسـيح فيـه لاهوتـان: «الكلمـة»، «وروح القـدس» فيكـون المسـيح مـع النَّاسـوت أقنـومين: أقنـوم الكلمـة، وأقنـوم روح القدس.

وأيضًا فإن هذه ليست صفةً لله قائمةً بـه، فـإن صـفة الله القائمـة بـل وصـفةَ كلِّ موصوفٍ لا تفارقه وتقوم بغيره، وليس في هذا أن الله اسمه «روحُ القـدس»، ولا أن حياتـه اسـمها «روح القـدس»، ولا أن «روح القـدس» الـذي تجسَّـد المسيح[2] منه ومن مريم هو حياة الله ﷻ.

---

(١) (د، ع): «يعلمون» وفي هامشهما: نسخة كالمثبت.

(٢) «المسيح» ليس في (د، ع).

وأنتم قلتم: «إنا معاشر النصارىٰ لم نسمّه بهذه الأسماء من ذات أنفسنا، ولكن الله سمَّىٰ لاهوتَه بها».

وليس فيما ذكرتموه عن الأنبياء أن الله سمَّىٰ نفسه ولا شيئًا من صفاته بروح القدس، ولا سمَّىٰ نفسه ولا شيئًا من صفاته ابنًا، فبطل تسميتكم لصفته التي هي الحياة بروح القدس، ولصفته التي هي العلم بالابن.

وأيضًا فأنتم تزعمون أن المسيح مختصٌّ بالكلمة والروح، فإذا كانت «روح القدس» في داود عليه السلام والحواريِّين وغيرهم= بطل ما خصَصْتم به المسيح، وقد عُلم بالاتِّفاق أن داود عَبْدُ الله ﷺ، وإن كانت «روح القدس» فيه، كذلك المسيْحُ عبد الله وإن كانت «روح القدس» فيه، فما ذكرتموه عن الأنبياء حُجَّةٌ عليكم لأهل الإسلام، لا حُجَّةٌ لكم.

فصـل

قالوا: وأيضًا علىٰ لسان داود النبي عليه السلام: «بكلمة الله تشـدَّدت السَّـماوات والأرض، وبروح فاه جميع فواهن»[1].

فيقال: أما قوله: «بكلمة الله تشددت السماوات والأرض» فهو أيضًا حُجَّةٌ عليكم لوجوه:

أحدها: أن الله خلق الأشياء بكلمته التي هي «كن»، كما قال في التوراة: «ليكن كذا، ليكن كذا، ليكن كذا» وكذلك في الزَّبور: «لأنه قال فكانوا، وهو أمر فخُلقوا»[2]. فجعل كونهم عن قوله.

ومثل قوله في الزَّبور[3]: «الكلُّ بحكمةٍ صَنَعْتُ»[4].

وفي القرآن: ﴿إِنَّمَآ أَمۡرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيۡـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]. وليس المسيح هو هذه الكلمات.

الثاني: أن «كلمة الله» اسم جنس، فإن كلمات الله لا نهاية لها. قال تعالىٰ: ﴿قُل لَّوۡ كَانَ ٱلۡبَحۡرُ مِدَادٗا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّي لَنَفِدَ ٱلۡبَحۡرُ قَبۡلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّي وَلَوۡ جِئۡنَا بِمِثۡلِهِۦ مَدَدٗا﴾ [الكهف: ١٠٩].

والتَّوراة تدل علىٰ تعدُّد الكلمات، وإذا كان كذلك فالمسيح ليس هو

---

(١) تقدّم التنبيه علىٰ قوله: «وبروح فاه جميع فواهن» (٢/ ٢٢٨).

(٢) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (١٤٨)، الفقرة (٥): «فلتسبح اسم الرب؛ فإنه هو أمر فخلقت».

(٣) بعدها في (و): «لأنه قال فكانوا» مقحمة.

(٤) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (٤٢)، الفقرة (٢٤): «ما أعظم أعمالَك يارب، لقد صنعت جميعها بالحكمة».

مجموع الكلمات، بل خلق بكلمة منها.

الثالث: أن المسيح عندكم هو الخالق، وأنتم مع قولكم: «إنه الابن والكلمة»، تقولون: «إنه الإله الخالق» وتقولون: «إنه إله حقٌّ من إلهٍ حق» وتقولون: «إله واحد» فتجمعون بين النقيضين.

وإذا كان هو الخالق فهو الذي يشدِّدُ السماوات والأرض، لا يقال: به تشدَّدت السَّماوات والأرض، وإنما يقال «به» فيما كان[1] صفةً للموصوف، فيقال: خلق الله الأشياء بكن، وخلق الأشياء بقدرته. وقوله: «بكلمته تشدَّدت السماوات والأرض» يقتضي أن الكلمة صفةٌ فُعِلَ بها، لا أنها[2] هي الخالقة، والمسيح عندكم هو الخالق ليس هو صفةً خُلق بها.

الرابع: أن «كلمة الله» يراد بها جنس كلماته، كما قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِيَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠]. وكقول النبي ﷺ: «**من قاتَلَ لِتكُونَ كَلِمةُ اللهِ هي العُلْيَا فهُوَ في سَبِيلِ اللهِ**»[3].

وحينئذٍ فالمراد أن الله أقام السَّماوات والأرض بكلمته، كقوله: «كن» وليس في هذا تعرُّضٌ للمسيح عليه السلام.

وأما نقْلُكم أنه قال: «وبروح فاه جميع فواهن» فهذه الكلمة سواء كانت حقًّا أو باطلًا، لا حجَّة لكم فيها؛ لأنه إن أريد بهذه الكلمة «حياة الله» فإثبات

(١) بعدها في (و): «لا».
(٢) (و، ي، ط.النيل): «لأنها» وفيه تحريف للمعنىٰ.
(٣) البخاري (٢٨١٠) مسلم (١٩٠٤) عن أبي موسىٰ الأشعري رضي الله عنه.

حياة الله حق، وهو لم يسمِّ[1] «حياة الله» روح القدس كما زعمتم.

وإن أراد شيئًا غير «حياة الله» لم تنفعكم، فأنتم ادَّعيتم حياة الله روح القدس حتىٰ قلتم مراده في الإنجيل بقوله: «عمِّدوا الناسَ باسم الأب والابن وروح القدس» هو «حياة الله»، وادَّعيتم أن الأنبياء سمَّوه بذلك، ولم تذكروا نقلًا عن الأنبياء أنهم سمَّوا حياته «روح القدس»، بل ذكرتم عنهم ما يوافق ما في القرآن أن «روح القدس» ليس المراد بها «حياة الله»، ولو قُدِّر أن هذا اللفظ استُعمل في هذا وهذا لم يتعيّن أن المسيح أراد بقوله: روح القدس «حياة الله»، فكيف إذا لم يستعمل في كلام الأنبياء -صلوات الله عليهم وسلامه عليهم أجمعين- في حياة الله قط؟!

---

(١) (و، ي): «بعدمهم» كتبت بلا نقط. وقد كانت هكذا في (د) ثم ضرب عليها وأصلحها إلىٰ المثبت.



فصـل

قالوا: «وقوله علىٰ لسان أيوب الصدِّيق: «روح الله خلقني وهو يعلمني»[1].

فيقال: هذا لا حجَّة فيه؛ لأنكم ادَّعيتم أن الأنبياء سمَّت «حياةَ الله» روح القدس، وهذا لم يقل «روح القدس»، بل قال: روح الله.

وروح الله يراد به[2] الملك الذي هو روحٌ اصطفاه الله فأحبَّها[3]، كما قال في القرآن: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧-١٩].

فقد أخبر أنه أرسل إليها روحَه فتمثَّل لها بشرًا سويًّا، وتبيَّن أنه رسوله.

فعُلم أن المراد بالرُّوح: مَلَكٌ، هو روحٌ اصطفاها فأضافها إليه كما يضاف إليه الأعيان التي خصَّها بخصائص يحبُّها، كقوله: ﴿نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣]، وقوله: ﴿وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ﴾ [الحج: ٢٦]. وقوله: ﴿عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ ٱللَّهِ﴾ [الإنسان: ٦].

والمضاف إلىٰ الله: إن كان صفةً لم تقم بمخلوقٍ كالعلم والقدرة والكلام والحياة كان صفةً له، وإن كان عينًا قائمةً بنفسها أو صفةً لغيره كالبيت والناقة والعبد والرُّوح كان مخلوقًا مملوكًا مضافًا إلىٰ خالقه ومالكه، لكنَّ الإضافة تقتضي اختصاص المضاف بصفاتٍ تَمَيَّز بها عن غيره حتىٰ استحقَّ الإضافة، كما اختصَّت الكعبة والنَّاقة والعباد الصالحون بأن يقال فيهم: «بيت الله»

---

(١) تقدمت الإشارة إلىٰ هذا النص (٢/ ٢٢٨).

(٢) (ع): «بها».

(٣) (و): «اصطفاها الله وأحبها».

و«ناقة الله» و«عباد الله» كذلك اختصَّت الروح المصطفاة بأن يقال لها: «روح الله».

بخلاف الأرواح الخبيثة كأرواح الشَّياطين والكفَّار، فإنها مخلوقة لله[1] ولا تضاف إليه إضافة الأرواح المقدَّسة، كما لا تضاف إليه الجمادات كما تضاف[2] الكعبة، ولا نُوْقُ النَّاس كما تضاف ناقة صالح التي كانت آيةً من آياته، كما قال تعالىٰ: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةُ ٱللَّهِ لَكُمْ ءَايَةً﴾ [الأعراف: ٧٣].

وإذا كان كذلك؛ فهذا اللفظ إن كان ثابتًا عن النَّبيِّ وتُرْجِم ترجمةً صحيحة فقد يكون معناه أن المَلَكَ صوَّرني في بطن أمي وهو يعلِّمني، فإنّ النَّبيَّ ﷺ قال: «**إذا مَرَّ بالنُّطْفَةِ ثِنتَانِ وأربعُونَ ليْلةً بَعَث اللهُ إليها مَلَكًا فصوَّرَها وخلَقَ سمْعَها وبصَرَها وجِلْدَها ولحْمَها وعِظَامَها، ثمَّ قال: يا ربِّ أذكرٌ أم أنثىٰ، فيَقْضِي ربُّك ما شَاء، ويَكْتُبُ المَلَكُ، ثمَّ يقُولُ: يا ربِّ أجلُه؟ فيقول رَبُّك ما شاء، ويَكْتُبُ المَلَكُ، ثمَّ يقُولُ: يا ربِّ رِزْقُهُ؟ فيقُولُ ربُّكَ ما شَاء، ويَكْتُبُ المَلَكُ، ثمَّ يَخْرُجُ المَلكُ بالصَّحِيفَةِ في يَدِهِ، فلا يُزادُ علىٰ أمرٍ ولا يُنْقَصُ**» رواه مسلم[3] من حديث حذيفة بن أسيدٍ الغفاري.

وقد يقال: مِن هذا قوله في الزبور[4] في مزمور الخليقة: «تُرسِلُ روحَك فيُخْلَقون»[5]. وفي المزمور أيضًا: «هو قال فكانوا وأمر فخُلِقوا»[6].

---

(١) (و): «به».

(٢) بعدها في (و): «إليه».

(٣) (٢٦٤٥).

(٤) «في الزبور» ليست في (و).

(٥) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (١٠٤)، الفقرة (٣٠): «تُرسِل روحَك فيخلَقون».

(٦) «وفي المزمور أيضًا هو قال فكانوا وأمر فخلقوا» ليست في (و). وقد جاء في سفر المزامير، الإصحاح (١٤٨)، الفقرة (٥): «فإنه هو أمر فخُلِقَت».

فقد يضاف الخلق إلىٰ الملك.

ومن هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

فأخبر أنه يخلق من الطِّين كهيئة الطيْرِ فيكون طيرًا بإذن الله، وكذلك المَلَك يخلق النُّطفةَ في الرَّحِم بإذن الله.

ولا يجوز أن يريد به أن حياة الله خلقَتْني وتعلِّمُني، فإن الصِّفة لا تَخْلق ولا تُعَلِّم، وإنما يَخْلق ويُعَلّم الربُّ الموصوف الذي خلق الإنسان من علق، الذي علَّم بالقلم، علَّم الإنسان ما لم يعلم، ولكن هو سبحانه يخلق بواسطة الملائكة؛ فإن الملائكة رسل الله في الخلق، فجاز أن يُضاف الفعلُ إلىٰ الوسائط تارة، وإلىٰ الربِّ أخرىٰ، وهذا موجودٌ في الكتب الإلهيَّة في غير موضعٍ، كما في القرآن: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]، وفي موضعٍ آخر: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفَرِّطُونَ﴾ [الأنعام: ٦١]. وفي موضعٍ ثالث: ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

والجميع حقٌّ، فإذا وُجِدَ لفظٌ له معنًى في كلام بعض الأنبياء ولم يوجد له معنًى يخالف ذلك من كلامهم= كان حمله علىٰ ذلك المعنىٰ أولىٰ من حمله علىٰ معنًى يخالف كلامهم، ولا يوجد في كلامهم أن حياة الله تسمىٰ «روحًا» ولا أنَّ صفات الله تخلق المخلوقات.

فصـل

قالوا: وقوله: علىٰ لسان أشعيا النبي: «يَيْبس القتاد، ويَجِفُّ العُشْب، وكلمته باقيةٌ إلىٰ الأبد».

فيقال: إما أن يريد بكلمة الله علمَه، أو كلمةً معينة، أو تكون «كلمة الله» اسمَ جنس، وعلىٰ التقديرات الثَّلاثة لا حجَّةَ لكم في ذلك؛ فإنه إن كان «كلمةُ الله» اسمَ جنسٍ لكلِّ ما تكلَّم الله به، كما قال: ﴿وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا﴾ [التوبة: ٤٠] وقال النَّبيُّ ﷺ: «من قاتَلَ لِتكُونَ كلمةُ اللهِ هي العُلْيا فهُوَ في سَبيلِ الله»[١].

ولهذا جمعها في قوله تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]. وفي قوله: ﴿قُل لَّوْ كَانَ ٱلْبَحْرُ مِدَادًا لِّكَلِمَٰتِ رَبِّى لَنَفِدَ ٱلْبَحْرُ قَبْلَ أَن تَنفَدَ كَلِمَٰتُ رَبِّى وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِۦ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩] فالمُرادُ بذلك أن ما قاله الله فهو حقٌّ ثابتٌ لا يبطل.

كما قال تعالىٰ: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾ [الأعراف: ١٣٧].

يعني بتمامها: نفاذ[٢] ما وعدهم به من النَّصر علىٰ فرعون وإهلاكه، وإخراجهم إلىٰ الشام.

---

(١) متفق عليه. وقد تقدّم.

(٢) (و): «فعاد».

وقال تعالىٰ: ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ﴾ [الأنعام: ١١٥]، ومنه قوله: ﴿ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ﴾ [الكهف: ٢٧].

وقوله: ﴿ سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ﴾ [الفتح: ١٥]، ومن هذا الباب قول المسيح: «السماء والأرض يزولان، وكلامي لا يزول»[(١)].

فإن أراد علم الله: فعلم الله باق، سواءٌ أراد به علمَه القائمَ بذاته أو معلومَه الذي أخبر ببقائه، فلا حجَّة لكم فيه.

وكذلك إن أراد كلمةً معيَّنة؛ فإن المسيح عندكم ليس كلمةً معيَّنةً من كلامه، بل هو عندكم هو «الكلمة»، وهو الله الخالق، وليس في هذا اللفظ ما يدلُّ علىٰ أنه أراد بالكلمة المسيح.

والمسيح عندكم أزليٌّ أبديٌّ لا يوصف بالبقاء دون القِدَم[(٢)]، ولو قُدِّرَ أنه أراد بالكلمة المسيح، فنحن لا ننكر أنه يسمَّىٰ بالكلمة، لأنه قال له: «كن» فكان، كما سيأتي بيان ذلك[(٣)].

ويريد بذلك إما بقاؤه إلىٰ أن ينزل إلىٰ الأرض، وإما أن يُرِيدَ بقاءَ ذِكْرِه والثناءِ عليه، ولسانِ صدقٍ له إلىٰ آخر الزمان.

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «هذا لا يتغير» بدل قوله: «لا يزول».
وقد ورد هذا النص في سفر متّىٰ، الإصحاح (٢٤)، الفقرة (٣٥): «السماء والأرض تزولان وكلامي لن يزول».
(٢) (ي): «العدم».
(٣) انظر: (٢/ ٤٨٠).

ومما يوضِّح هذا وأنه ليس المراد به ما يدَّعونه، أنه قال: «وكلمة الله باقية إلىٰ الأبد» فوصفها بالبقاء دون القِدَم[1].

وعندهم أن الكلمة المولودة[2] من الأب قديمةٌ أزليَّةٌ لم تَزَل ولا تزال، ومثل هذا لا يحتاج أن يوصف بالدَّوام والبقاء، بخلاف ما وعد به من النَّعيم والرحمة والثَّواب، فإنه يوصف بالبقاء والدوام كما في القرآن: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥]

وقوله: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُۥ مِن نَّفَادٍ﴾ [ص: ٥٤].

وفي الزبور: «اعترفوا للربِّ؛ فإنه صالح[3]، وإنه إلىٰ الأبد رحمته»[4].

---

(١) (و، ي): «العدم».
(٢) (و، ي): «المذكورة».
(٣) (و): «مليء».
(٤) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (١١٨)، الفقرة (١): «احمدوا الرب، لأنه صالح؛ لأن للأبد رحمته».

فصل[1]

قالوا: «وقال السَّيد المسيح في الإنجيل المقدَّس لتلاميذه الأطهار: «اذهبوا إلىٰ جميع الأمم وعمِّدوهم باسم الأب والابن وروح القدس الإله الواحد، وعلِّموهم أن يحفظوا جميعَ ما أوصيكم به»».

فيقال لهم: هذا عمدتكم علىٰ ما تدَّعونه من الأقانيم الثلاثة، وليس فيه شيءٌ يدل علىٰ ذلك لا نصًّا ولا ظاهرًا، فإن لفظ «الابن» لم يُستعمل قطُّ في الكتب الإلهيَّة في معنىٰ صفةٍ من صفات الله، ولم يُسَمِّ أحدٌ من الأنبياء علمَ الله ابنه، ولا سمَّوا كلامه ابنه، ولكن عندكم أنهم سمَّوا عبده أو عباده ابنه أو بنيه،

وإذا كان كذلك فدعواكم أن المسيح أراد بالعلم ابن الله وكلامه= دعوىٰ في غاية الكذب علىٰ المسيح، وهو حملٌ للفظه علىٰ ما لم يستعمله هو ولا غيره فيه لا حقيقةً ولا مجازًا، فأيُّ كذبٍ وتحريفٍ لكلام الأنبياء أعظمُ من هذا.

ولو كان لفظ «الابن» يُستعمل في صفة الله لسُمِّيت حياتُه ابنًا، وقدرتُه ابنًا، فتخصيص العلم بلفظ «الابن» دون الحياة خطأ ثانٍ لو كان لفظ «الابن» يستعمل في صفة الله، فكيف إذا لم يكن كذلك؟

وكذلك[2] «روح القدس» لم يستعملوها في حياة الله ولا أرادوا بهذا اللفظ حياة الله التي هي صفته، وإنما أرادوا بذلك ما ينزله علىٰ الصدِّيقين والأنبياء ويؤيِّدهم به كما في قول داود: «روحك القدس لا تنزع مني».

وعندهم أن «روح القدس» حلَّتْ في الحواريين، وقد قدَّمنا أن «روح

(١) «فصل» ليس في (و، ي).
(٢) «وكذلك» ساقطة من (و).

القدس» يراد به الملَك، ويراد به ما يجعله في القلوب من الهدىٰ والقوَّة، ومنه قوله في بعض النُّبوَّات: «وفي تلك الأيام أَسْكُب من روحي علىٰ كل قِدِّيس»[1]. وفي زبور داود: «روحُك الصَّالح يَهْدِيني في أرضٍ مُسْتقيمة»[2].

يوضِّح هذا أنهم قالوا في أمانتهم: «الذي من أجلنا نحن البشر ومن أجل خلاصنا نزل من السماء، وتجسَّد من روح القدس، ومن مريم العذراء». وذكروا أن ذلك في الكتب المقدَّسة، والذي في الكتب المقدَّسة لا يكون إلا حقًّا. ولا ريب أن فيها مثلَ ما في القرآن، وفي القرآن أن الله أرسل روحه إلىٰ مريم فنفخ فيها فحملت بالمسيح عليه السلام، قال تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ ۖ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا ۚ وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ ۞ فَحَمَلَتْهُ فَٱنتَبَذَتْ بِهِۦ مَكَانًا قَصِيًّا﴾ [مريم: ١٧-٢٢]. إلىٰ آخر القصة.

وقال تعالىٰ: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:٩١] وقال تعالىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ

---

(١) جاء في سفر أعمال الرسل، الإصحاح الثاني، الفقرة (١٧): «سيكون في الأيام الأخيرة، يقول الله: إني أفيض من روحي علىٰ كل بشر».

(٢) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (١٤٣)، الفقرة (٣): «ليهديني روحكَ الصالح في أرض مستوية».

﴿مِنَ ٱلْقَـٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

وهذا الرُّوح هو الرَّسول كما قال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ[1] لَكِ غُلَـٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٩]. ونفخ فيها من هذا الرُّوح، فكان المسيح مخلوقًا من هذا الرُّوح ومن أمِّه مريم، كما قالوا في الأمانة: «إنه تجسَّد من مريم ومن روح القدس».

لكن اعتقدوا أن «روح القدس» التي خُلق المسيحُ منها ومن مريم هي حياة الله. وهذا ليس في الكتب ما يدلُّ عليه، بل الكتب كلُّها صريحةٌ في نقيض هذا، وهو أيضًا مناقضٌ لقولهم: إن المتَّحد بالمسيح هو أقنوم الكلمة، وهو العلم، فإن كان قد تجسَّد من مريمَ وأقنومِ الكلمة لم يكن متجسدًا من «روح القدس» وإن كان من «روح القدس» لم يكن[2] من الكلمة، وإن كان منهما جميعًا كان المسيح أقنومين: أقنوم الكلمة وأقنوم الروح.

والنصارىٰ بفرقهم الثلاثة كلهم يقولون: «إنما المتحد به أقنوم الكلمة لا أقنوم الحياة» فتبيَّن تناقضُهم في أمانتهم، وتبيَّن خطؤهم فيما فسَّروا به كلام الأنبياء.

وتبيَّن أنّ ما ثبت عن الأنبياء فهو حقٌّ موافقٌ لما أخبر به محمدٌ خاتم النبيِّين لا يناقض شيئًا[3] من كلام الأنبياء، كما أنه لا يناقض شيئًا من كلامهم صريح المعقول.

---

(١) بعدها في (و): أو «لأهب». قرأ بها ابن كثير وابن عامر وعاصم وحمزة والكسائي، وقالون بخلف عنه. انظر: «السبعة» لابن مجاهد (ص٤٠٨).

(٢) بعدها في (ع): «تجسد» وقد وضع خطًا فوق الكلمة.

(٣) (د، ي، ع): «يتناقض شيء».

وتبيَّن أنهم حملوا كلام الأنبياء في لفظ «الابن»، و«روح القدس»، وغيره علىٰ ما لم يوجد استعمال هذا اللفظ فيه، وتركوا حمله علىٰ المعنىٰ الموجود في كلامهم، وهذا من أبلغ ما يكون من تحريف كلامهم عن مواضعِه، وتبديل معاني كلام الله[1]، فكيف يجوز أن يُحمل لفظُ «روحِ القدس» علىٰ معنًى لم يستعمله فيه الأنبياء ولا أرادوه به، ويُترك حملُه علىٰ المعنىٰ المعروف الذي يستعملونه فيه دائمًا؟

وهل هذا إلا من فِعْل مَنْ يُحرِّف كلامَ الأنبياء ويفتري الكذب عليهم؟ بل ظاهر هذا الكلام أن يعمِّدُوهم باسم الأب الذي يريدون به -في لغتهم- الربّ، والابن الذي يريدون به -في لغتهم- المُربَّىٰ، وهو هنا المسيح، و«روح القدس»، وهو «روح القدس» الذي أَيَّدَ الله به المسيح من الملَك والوحي وغير ذلك، وبهذا فَسَّرَ هذا الكلام من فسَّره من أكابر علمائهم.

---

(١) «الابن وروح القدس وغيره...وتبديل معاني كلام الله» وقع بين هاتين العبارتين خلط وحذف في (و)، وقد كان وقع ذلك في (د) فضرب عليه وأصلحه إلىٰ المثبت.

فصـلٌ

فهذا ما ذكروه في كتابهم يحتجُّون بها على ما يعتقدونه من الأقانيم الثلاثة قائلين: «إن تسمية الله أنه أبٌ وابنٌ وروحُ القدس أسماء لم نسمِّه نحن النصارى بها[1] من ذوات أنفسنا، بل الله سمَّى لاهوتَه بها».

وقد تبيَّن أنه ليس فيما ذكروه عن الأنبياء ما يدلُّ لا نصًّا ولا ظاهرًا على أن أحدًا من الأنبياء سمّى اللهَ ولا شيئًا من صفاته ابنًا، ولا روحَ قدس.

وتبيَّن أن تسميتهم لعلم الله وكلامه ابنًا، وتسميتَهم لحياته «روحَ القدس» أسماء ابتدعوها ما أنزل الله بها من سلطان، وأنه ليس معهم على ما ادَّعوه من الأقانيم حجةٌ أصلًا، لا سمعيّةٌ ولا عقليّةٌ، وأنه ليس لقولهم بالتثليث وحصرهم لصفات الله في ثلاثة مستندٌ شرعيٌّ، كما تبيّن أنه ليس له مستندٌ عقليٌّ، وأن القوم ممن قيل فيهم:

﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠]، وممن قيل فيهم: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ ۚ إِنْ هُمْ إِلَّا كَٱلْأَنْعَٰمِ ۖ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٤].

---

(١) «بها» ليست في (و).

فصـــل

ثم أخذوا يزعمون أن فيما أنزل علىٰ محمَّدٍ ﷺ حجةً لهم علىٰ الأقانيم التي ادَّعوها، وهم[1] ابتدعوا القول بالأقانيم والتَّثليث قبل أن يُبعث محمدٌ ﷺ، وذلك معروفٌ عندهم من حين ابتدعوا «الأمانة» التي لهم، التي وضعها الثلاثُمائة وثمانيةَ عشرَ منهم بحضرة قُسْطَنطِين الملك، فإذا لم يكن لهم مستندٌ عقليٌّ ولا سمعيٌّ عن الأنبياء قبل[2] محمَّدٍ ﷺ، فكيف يكون لهم مستندٌ فيما جاء به محمَّدٌ ﷺ بعد ابتداعهم الأمانة؟

لا سيَّما مع العلم الظَّاهر المتواتر أن محمَّدًا ﷺ كفَّرهم في الكتاب الذي أُنْزِل عليه، وضلَّلهم وجاهدهم بنفسه وأمر بجهادهم[3]، كقوله تعالىٰ: ﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ﴾ [المائدة:١٧]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَـٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَـٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَـٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَـٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣]، وقال: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَـٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ﴾ [النساء: ١٧١]. ونحو ذلك من الآيات.

---

(١) بعدها في (و، ي): «ابتدعوها وابتدعوا...».

(٢) بعدها في (ع): «مبعث».

(٣) بعدها (و): «الله الذي أنزل عليه قوله...» (د): «الله أنزل عليه» وقد ضرب عليها.

وقالوا: وقد قال في هذا الكتاب أيضًا: «ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا الصالحين»!

فيقال لهم: حرَّفتم لفظ الآية ومعناها؛ فإن لفظها: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٧١﴾ إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ ﴿١٧٢﴾ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

فالكلمة التي سبقت لعباده المرسلين قوله: ﴿إِنَّهُمْ لَهُمُ ٱلْمَنصُورُونَ﴾ [الصافات: ١٧٢] أخبر أنه سبق منه كلمة لعباده المرسلين لينصرنَّهم، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى﴾ [طه: ١٢٩]

وقوله: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى ٱلْكِتَٰبَ فَٱخْتُلِفَ فِيهِ ۗ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِيَ بَيْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مُرِيبٍ﴾ [هود: ١١٠] وقوله: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦].

وقوله: ﴿وَمَا تَفَرَّقُوٓا۟ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى لَّقُضِيَ بَيْنَهُمْ﴾ [الشورىٰ: ١٤]. وقوله: ﴿وَلَوْ شِئْنَا لَءَاتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَىٰهَا وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

والكلمة في لغة العرب: هي الجملة المفيدة؛ سواءٌ كانت جملةً اسميَّةً أو فعليَّة، وهي القول التام، وكذلك الكلام عندهم هو الجملة التامَّة.

قال سيبويه: واعلم أنهم يحكون بالقول ما كان كلامًا ولا يحكون به ما كان قولًا[1].

---

(١) انظر: «الكتاب» لسيبويه (١/ ١٢٢).

ولكنَّ النَّحاة اصطلحوا علىٰ أن يُسَمُّوا ما تسمِّيه العربُ حرفًا يسمُّونه كلمة، مثل زيد وعمرو، ومثل: قعد وذهب، وكلّ حرفٍ جاءَ لمعنىٰ ليس باسمٍ ولا فعل، مثل: إن، وثم، وهل، ولعل.

قال تعالىٰ: ﴿وَيُنذِرَ ٱلَّذِينَ قَالُواْ ٱتَّخَذَ ٱللَّهُ وَلَدًا ۝٤ مَّا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَآئِهِمْۚ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [الكهف: ٤، ٥]. فسمَّىٰ هذه الجملة كلمة.

وقال تعالىٰ: ﴿مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ﴾ [إبراهيم: ٢٤]، وهو قول: «لا إله إلا الله». وقال: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ ٱلْكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ وَٱلْعَمَلُ ٱلصَّٰلِحُ يَرْفَعُهُۥ﴾ [فاطر: ١٠]. وقال تعالىٰ ﴿يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٦٤]

وقوله تعالىٰ: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓاْ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا﴾ [الفتح: ٢٦]. وقال النبي ﷺ: «**كَلِمتَانِ حَبِيبتَانِ إلىٰ الرَّحْمنِ خَفِيفَتَانِ علىٰ اللِّسَانِ، ثَقِيلتَانِ في الميزانِ: سُبْحانَ اللهِ وبحمْدِه، سُبْحَانَ اللهِ العَظِيمِ**»[١]، وقال ﷺ: «**أَصْدَقُ كَلِمةٍ قَالَها شَاعِرٌ، كَلِمةُ لَبِيدٍ**[٢]:

---

(١) البخاري (٦٤٠٦) ومسلم (٢٦٩٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) هو لبيد بن ربيعة بن عامر الكلابي الجعفري، أبو عقيل الشاعر المشهور، كان فارسًا شجاعًا شاعرًا سخيًّا، قال الشِّعر في الجاهليَّة دهرًا، ثم أسلم ولم يقل في الإسلام شعرًا وقال: أبدلني الله بذلك القرآن. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» (٦/ ١٠٧)، «الإصابة» (٥/ ٥٠٠).

ألا كُلُّ شَيءٍ ما خَلا اللهَ بَاطِلُ»[1]. وقال النبيُّ ﷺ: «**اتَّقُوا النَّارَ ولو بِشِقِّ تَمْرَةٍ، فمَنْ لم يَجِدْ فبِكَلِمةٍ طَيِّبَة**»[2].

ولما شاع عند المشتغلين بالنَّحو استعمالُ لفظِ «الكلمة» في الاسم أو الفعل وحرف المعنىٰ، صاروا يظنُّون أنّ هذا هو كلام العرب، ثم لمَّا وجد بعضهم ما سمعه من كلام العرب أنه يراد بالكلمة الجملةُ التامَّة صار يقول:

وكِلْمة بها كلامٌ قد يُؤم[3]

فيجعل ذلك من القليل، ومنهم من يجعل ذلك مجازًا، وليس الأمر كذلك، بل هذا اصطلاح هؤلاء النحاة، فإن العرب لم يُعرف عنهم أنهم استعملوا لفظ الكلمة والكلام إلا في الجملة التَّامَّة، وهكذا نقل عنهم أئِمَّة النحو كسيبويه وغيره. فكيف يقال: إن هذا هو[4] المجاز، وإن هذا قليل[5].

وهذا كما أن لفظ «القديم» في لغة العرب هو المتقدِّم علىٰ غيره، كما قال تعالىٰ: ﴿حَتَّىٰ عَادَ كَٱلْعُرْجُونِ ٱلْقَدِيمِ﴾ [يس:٣٩]. وقوله تعالىٰ: ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾ [الأحقاف: ١١]. وقوله تعالىٰ: ﴿قَالَ أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ

---

(١) البخاري (٣٨٤١)، ومسلم (٢٢٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) البخاري (١٤١٧)، ومسلم (١٠١٦) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٣) هذا عجز بيت من «ألفية ابن مالك»، وصدره:

واحدُه كلمةٌ والقولُ عَم

(٤) «هو» ليست في (و).

(٥) بعدها في (المطبوع): «وكثير» حشو. والمؤلف في سياق الإنكار علىٰ من يقول: إن إطلاق لفظ الكلمة علىٰ الجملة التامة قليل.

﴿تَعۡبُدُونَ ٧٥ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلۡأَقۡدَمُونَ﴾ [الشعراء: ٧٥ - ٧٦].

ثم إن من أهل الكلام من خَصَّ لفظ القديم بما لم يسبقه عدمٌ، أو ما لم يسبقه غيره، وصار هذا عندهم هو حقيقة اللَّفظ، حتىٰ صار كثيرٌ منهم يظنُّ أن استعمال القديم في المتقدِّم علىٰ غيره مطلقًا مجاز.

فتبيَّن أن مراده تعالىٰ بقوله: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ﴾ [الصافات: ١٧١] من جنس قوله: ﴿وَلَوۡلَا كَلِمَةٞ سَبَقَتۡ مِن رَّبِّكَ لَكَانَ لِزَامٗا﴾ [طه: ١٢٩]. فسبق منه كلمته بما سيكون من نصر المرسلين، وملء جهنَّم من الجنة والناس أجمعين، ونحو ذلك.

فحرّف هؤلاء الضُّلَّال لفظ الآية فقالوا: لعبادنا الصالحين، وجعلوا «الكلمة» هي المسيح، وليس في اللَّفظ ما يدلُّ علىٰ ذلك بوجهٍ من الوجوه، ولا في كون المسيح سَبَقَ لعبادنا المرسلين معنًى صحيح، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَقَدۡ سَبَقَتۡ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا ٱلۡمُرۡسَلِينَ ١٧١ إِنَّهُمۡ لَهُمُ ٱلۡمَنصُورُونَ ١٧٢ وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ ٱلۡغَٰلِبُونَ﴾ [الصافات: ١٧١-١٧٣].

فَصْــلٌ

قالوا: وقال أيضًا: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [المائدة: ١١٠].

فيقال: هذا ممَّا لا ريب فيه، ولا حُجَّة لكم فيه، بل هو حجَّةٌ عليكم؛ فإن الله أيَّد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بروح القدس كما ذكر ذلك في هذه الآية، وقال تعالىٰ: في البقرة: ﴿وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]. وقال تعالىٰ: ﴿۞ تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَٰتٍ وَءَاتَيْنَا عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وهذا ليس مختصًّا بالمسيح، بل قد أيَّد غيره بذلك، وقد ذكروا هم أنه قال لداود: «روحك القدس لا تنزع مني». وقد قال نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لحسان بن ثابت: **«اللَّهم أيِّدْه بِرُوحِ القُدُس»**، وفي لفظ: **«رُوْحُ القُدُسِ معَكَ ما دُمْتَ تُنافِحُ عن نبيِّه»** وكلا اللفظين في الصَّحيح[1].

وعند النَّصارىٰ أنَّ الحواريِّين حلَّتْ فيهم «روح القدس»، وكذلك عندهم «روح القدس» حلَّتْ في جميع الأنبياء.

وقد قال تعالىٰ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُۥ لَيْسَ لَهُۥ سُلْطَٰنٌ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَٰنُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُۥ وَٱلَّذِينَ هُم بِهِۦ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾ وَإِذَا بَدَّلْنَآ ءَايَةً مَّكَانَ ءَايَةٍ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوٓا۟ إِنَّمَآ أَنتَ مُفْتَرٍۭ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٠١﴾ قُلْ نَزَّلَهُۥ

(١) تقدّمت الإشارة إلىٰ تخريجهما مرارًا.



﴿رُوحُ ٱلْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِٱلْحَقِّ لِيُثَبِّتَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٩٨-١٠٢].

وقد قال تعالىٰ في موضعٍ آخر: ﴿نَزَلَ بِهِ ٱلرُّوحُ ٱلْأَمِينُ ﴿١٩٣﴾ عَلَىٰ قَلْبِكَ﴾ [الشعراء: ١٩٣ - ١٩٤]. وقال: ﴿مَن كَانَ عَدُوًّا لِّجِبْرِيلَ فَإِنَّهُۥ نَزَّلَهُۥ عَلَىٰ قَلْبِكَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٩٧]. فقد تبيَّن أن «روح القدس» هنا: جبريل.

وقال تعالىٰ: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

وقال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ أَنْ أَنذِرُوٓا۟ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱتَّقُونِ﴾ [النحل: ٢]. وقال: ﴿يُلْقِى ٱلرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِۦ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ لِيُنذِرَ يَوْمَ ٱلتَّلَاقِ﴾ [غافر: ١٥].

فهذه الرُّوح التي أوحاها والتي تنزل بها الملائكة علىٰ من يشاء من عباده غيرُ الرُّوحِ الأمين التي تنزل بالكتاب، وكلاهما يُسَمَّىٰ روحًا، وهما متلازمان؛ فالرُّوح التي ينزل بها الملك مع الرُّوح الأمين التي ينزل بها «روحُ القدس» يراد بها هذا وهذا.

وبكلا القولين فسَّر المفسِّرون قوله في المسيح: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾، ولم يقل أحدٌ: إن المراد بذلك حياة الله، ولا اللفظ يدل علىٰ ذلك ولا استعمل فيه.

وهم إما أن يسلِّموا أن «روح القدس» في حقِّ غيره[1] ليس المراد بها حياة الله، فإذا ثبت أن لها معنًى غيرَ الحياة، فلو استُعملت في حياة الله أيضًا لم يتعيَّن أن يراد بها ذلك في حق المسيح[2]، فكيف ولم يستعمل في حياة الله في حق المسيح[3]؟

وإما أن يدَّعوا أن المراد بها حياة الله في حق الأنبياء والحواريِّين، فإن قالوا ذلك لزمهم أن يكون اللَّاهوت حالًّا في جميع الأنبياء والحواريِّين، وحينئذٍ فلا فرق بين هؤلاء وبين المسيح.

ويلزمهم أيضًا أن يكون في المسيح لاهوتان: لاهوت الكلمة، ولاهوت الرُّوح[4]، فيكون قد اتَّحد به أقنومان.

ثم في قوله تعالىٰ: ﴿وَأَيَّدْنَٰهُ بِرُوحِ ٱلْقُدُسِ﴾ [البقرة: ٨٧]، يمتنع أن يراد بها حياة الله، فإن حياة الله صفةٌ قائمةٌ بذاته لا تقوم بغيره، ولا تختصُّ ببعض الموجودات غيره، وأما عندهم فالمسيح هو الله الخالق؛ فكيف يؤيَّد بغيره؟

وأيضًا فالمتَّحد بالمسيح هو «الكلمة» دون الحياة، فلا يصحُّ تأييده بها.

فتبيَّن أنهم يريدون أن يحرِّفوا القرآن كما حرَّفوا غيره من الكتب المتقدِّمة، وأن كلامهم في تفسير[5] المتشابه من الكتب الإلهيَّة من جنسٍ واحد.

---

(١) يعني غير المسيح.
(٢) بعدها في (و): «في حق المسيح ذلك» تقديم وتأخير.
(٣) عبارة: «في حق المسيح» مكررة؛ لأن الكلام تم بدونها.
(٤) (و): «المزاج» كذا.
(٥) (و): «تدبر».

فصـل

قالوا: «وقال أيضًا: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكۡلِيمًا﴾» [النساء: ١٦٤].

فيقال لهم: وأي حُجَّةٍ لكم في هذا؟ وإنما هو حجَّةٌ عليكم، فإنه قد ثبت أن الله كلَّم موسىٰ تكليمًا، وكلام الله الذي سمعه منه موسىٰ عليه السلام ليس هو المسيح، فعُلِم أن المسيح ليس هو كلام الله، وعندهم هو كلمة الله، وهو عِلْم الله، وهو الله.

ومعلومٌ أن كلام الله كثير، كالتوراة، والإنجيل، والقرآن، وغير ذلك من كلامه، وليس المسيح شيئًا من ذلك، والمسيح عندهم خالق، ولو كان المسيح نفسَ كلام الله لم يكن خالقًا ولا معبودًا، فإن كلام الله لم يخلق السماوات والأرض، ولا كلام الله هو الإله المعبود، بل كلامه كسائر صفاته مثل حياته[(١)] وقدرته، ولا يقول أحد: يا عِلْمَ الله اغفر لي، ولا يا كلام الله اغفر لي. وإنَّما يُعبد ويُدعىٰ الإله الموصوف بالعلم والقدرة والكلام الذي كلم[(٢)] موسىٰ تكليمًا.

---

(١) بعدها في (و): «وعلمه».

(٢) بعدها في (ع، ي، ط.النيل): «الله». وفي (ع) وضع خطًا فوق الكلمة.

فصـل

قالوا: وقال أيضًا في سورة التحريم: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ﴾ [التحريم: ١٢].

فيقال: أمَّا قوله تعالىٰ: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢]، وقوله: في سورة الأنبياء: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١].

فهذا قد فسَّره قوله تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧- ١٩].

وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾(١).

فأخبر أنه رسوله وروحه، وأنه تمثَّل لها بشرًا، وأنه ذكر أنه رسول الله إليها، فعُلم أن روحه مخلوقٌ مملوكٌ له، ليس المراد حياته التي هي صفته سبحانه وتعالى.

وكذلك قوله: ﴿فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ [الأنبياء: ٩١]. وهو مثل قوله في آدم عليه السلام: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: ٢٩].

وقد شُبِّه المسيح بآدم في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ

(١) «وفي القراءة الأخرىٰ: ﴿لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ ساقطة من (و). وقد تقدّم التنبيه علىٰ اختلاف هذه القراءة (٢/ ٢٤٧).

﴿مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

والشبهة في هذا نشأت[١] عند بعض الجهَّال من أن[٢] الإنسان إذا قال: «روحي» فروحه هي الرُّوح التي في البدن[٣]، وهي عينٌ قائمةٌ بنفسها، وإن كان من الناس من يعني بها الحياة.

والإنسان مؤلَّفٌ من بدن وروح، وهي عينٌ قائمةٌ بنفسها عند سلف المسلمين وأئمتهم وجماهيرِ الأمم.

والربُّ تعالىٰ منزَّهٌ عن هذا، وأنه ليس مركَّبًا من بدنٍ وروح، ولا يجوز أن يراد بروحه ما يريد الإنسان بقوله: «روحي» بل[٤] تضاف إليه ملائكته وما يُنَزِّله علىٰ أنبيائه من الوحي والهدىٰ والتأييد ونحو ذلك[٥].

---

(١) في هامش (د، ع): نسخة «في هذا الباب» بدل قوله: «في هذا نشأت».

(٢) (و): «لأن» بدل «من أن».

(٣) كذا العبارة في (و): «إذا قال روحي فهي روحه من الروح التي في البدن».

(٤) (و): «بأن».

(٥) بعدها في (و، ي): «وقد يراد بروحه» والظاهر أنها حشو، وقد ضرب عليها في (د).

فصـل

قالوا: «وسائر المسلمين يقولون: إن الكتابَ كلامُ الله، ولا يكون كلامٌ إلا لحيٍّ ناطق، وهذه صفاتٌ جوهرية تجري مجرىٰ الأسماء، وكلُّ صفةٍ منها غير الأخرىٰ، فالإله واحد، خالقٌ واحد، وربٌّ واحد، لا يتجزّأ».

فيقال لهم: أما قول المسلمين: إن الكتاب -أي القرآن- كلام الله، فهذا حقٌّ، والكلام لا يكون إلا لمتكلَّم.

والمسلمون يقولون: إن الله حيٌّ متكلم، وإنه تكلَّم بالتَّوراة والإنجيل والقرآن وغير ذلك من كلامه، والقرآن قد أخبر بكلام الله في مواضعَ كثيرة.

وهل يسمَّىٰ الربُّ ناطقًا وكلامه نطقًا؟ فيه نزاع، فبعض المسلمين يجيزه، وبعضهم يمنع منه لكونه[1] لم يَرِدْ به الشَّرع، وليس في التوراة والإنجيل والزَّبور تسميةُ الله ناطقًا، بخلاف لفظ القول[2] والكلام.

وقد تنازع المسلمون بعد ظهور البدع فيهم كما تنازع أهل الكتاب في كلام الله، هل هو قائمٌ به؟ أو مخلوقٌ منفصل عنه؟

والذي عليه سلف الأمة وأئمتُها وجمهورُها أن كلام الله قائمٌ به، وكذلك سائر ما يوصف به: من الحياة والقدرة وغير ذلك.

وأحدث قومٌ منهم بعد انقراض الصَّحابة وأكابرِ التابعين بعد أكثرَ من مائة[3] سنةٍ من موت النبي ﷺ أنه مخلوقٌ خلقه في غيره، وشاركهم في هذه البدعة كثيرٌ من اليهود والنصارىٰ.

---

(١) (و): «لكنه».

(٢) (و): «القرآن».

(٣) (و): «ثلاثمائة».

وظهرت هذه المقالة بعد المائة الثانية، وانتصر لها قومٌ من الولاة وغيرهم، ثم أطفأها الله بمن أقامه من أئمَّة الإسلام والسُّنة الذين بيَّنوا فسادها، وبيَّنوا ما اتَّفق عليه السَّلف من أن كلام الله منزَّلٌ منه غير مخلوق، بل منه بدأ، لم يبتدئ من شيء من المخلوقات، ومع هذا فلم يقل أحدٌ من المسلمين: إن كلام الله يكون إلهًا ولا ربًّا.

وكذلك حياته: لم يقل أحدٌ منهم: إن حياته تكون إلهًا ولا ربًّا، ولا إنَّه مساوٍ للربِّ تعالىٰ في الجوهر.

فصــل

وأما قـولهم: «هـذه صـفاتٌ جوهريَّـةٌ تجـري مجرىٰ الأسـماء» فـإن أرادوا بقولهم: «جوهرية» أن كلَّ صـفةٍ جـوهر، فهـذا كـلامٌ ظـاهرُ الفسـاد؛ فـإنّ الصِّـفة القائمةَ بغيرها لا تكون جوهرًا قائمًا بنفسه، ومن ظنَّ أن حرارة النَّـار القائمـةَ بهـا جوهرٌ قائمٌ بنفسه كالنَّار، فهو إما مصابٌ في عقله، وإما مُسَفْسِطٌ معاند.

والأول: يستحقُّ علاج المجانين.

والثاني: يستحقُّ العقوبة التي تردعه عن العناد.

ثم إن جاز أن تكون الصفة جوهرًا كانت القدرة أيضًا جوهرًا.

وإن أرادوا بقولهم: «جوهريَّـة» أنهـا صـفاتٌ ذاتيَّـة، وغيرُهـا صـفاتٌ فعليَّـةٌ كالخالق والرازق، فمعلومٌ أن صفاته الذاتيَّة منها: القدرة وغيرها، لـم تنحصـر في هذه. وأيضًا فالكلام وإن كـان قائمًـا بذاتـه، فقيـل: هـو متعلِّـقٌ بمشـيئته وقدرتـه، وهو قول السَّلف والأكثرين، وقيل: ليس كذلك.

والمتكلِّم قيل: هو من فعَل الكلام ولو كـان منفصـلًا عنـه، وقيـل: هـو مـن قام به الكلام وإن لـم يكن بمشـيئته وقدرتـه، وقيـل: المـتكلِّم مـن قـام بـه الكـلام بمشيئته وقدرته، وهذا قول السَّلف والأكثرين، فبطل قولُهم علىٰ كل تقدير.

وإن أرادوا بالجوهريَّة أنها ذاتيَّةٌ مقوِّمة، وباقي الصِّفات عرضيَّـةٌ علىٰ رأي أهـل المنطـق اليونـان الـذين يفرِّقـون في الصِّـفات اللازمـةِ للموصـوف بـين هـذا وهذا، كان هذا فاسدًا من وجوه:

منها: أن تفريق هؤلاء في الصِّفات اللازمة للموصوف بين صفةٍ وصفة، وجعْل بعضِها ذاتيًّا مقوِّمًا داخلًا في الماهيَّة، وبعضها عرضيًّا لاحقًا خارجًا عن الماهيَّة= كلامٌ باطلٌ عند جماهير نُظَّار الأمم من أهل الملل وغيرهم، كما قد بُسِط الكلام عليه[1] في الردِّ علىٰ هؤلاء المتفلسفة، وبُيِّنَ أن ما يدَّعونه من تركيب الأنواع من الأجناس والفصول إنما هو تركيبٌ في الأذهان لا حقيقة له في الأعيان، وأن ما يقوم بالأذهان يختلف باختلاف تصوُّر الأذهان. فتارة يَتَصَوَّرُ الشيءَ مجملًا، وتارة يَتَصَوَّرُه مفصَّلًا، وما سمَّوه «تمام الماهيَّة» و«الداخل في الماهيَّة» و«الخارج عنها اللازم لها» يعود عند التَّحقيق إلىٰ ما يدلُّ عليه اللَّفظ بالمطابقة والتضمُّن والالتزام.

ومدلولُ اللَّفظ هو بحسَب ما يعنيه المتكلِّمُ ويقصِدُه ويتصَوَّرُه، وهذا يختلف باختلاف إرادات الناس، لا يرجع ذلك إلىٰ حقيقةٍ عقليَّةٍ ولا صفةٍ ذاتيَّةٍ للموجودات.

ولهذا لمَّا كان كلامُهم باطلًا لم يُمْكِنْهم ذِكْرُ فَرْقٍ صحيح بين الذَّاتيِّ والعَرَضي اللازم؛ إذ كان كلاهما لازمًا للموصوف، بل ذكروا ثلاثة فروق، والثلاثة باطلة، واعترف حُذَّاقُهم ببطلانها، كقولهم: إن الذاتيَّ يَثْبُتُ للموصوف بلا وسط، والعرضيَّ اللازم إنما يثبت بوسط.

ثم حذَّاقُهم يفسِّرون الوسط بالدليل، كما فسَّره ابن سينا، ومنهم من يفسر الوسط بصفةٍ قائمةٍ بالموصوف، كما يفسره الرَّازي[2] وغيرُه، وهؤلاء

---

(١) انظر: «الرد المنطقيين»، «الفتاوىٰ الكبرىٰ»: (٦/ ٣٨٠، ٤٩١)، «درء التعارض» (٢/ ٣٠٤).

(٢) هو محمد بن عمر بن حسين القرشي الطبرستاني الأصل المتكلم. توفي سنة ست وستمائة. انظر: «العبر» (٣/ ١٤٢)، «البداية والنهاية» (١٧/ ١١).

لـم يفهمـوا مـراد أولئـك فـزاد غلطهـم، وأولئـك أرادوا بالوسـط الـدليل، كمـا يريدون بالحدِّ الأوسط ما يُقْرَن[1] باللام في قولك: «لأنه» فصار العرضيُّ اللازم عندهم ما يُعلَم ثبوته للموصوف بدليل، وهذا لا يرجع إلىٰ حقيقةٍ ثابتةٍ في نفس الأمر، بل هذا أمرٌ يتعلَّق بالعالم بالصفات.

فمنهم مـن يكـون تـامَّ التَّصـوُّر فـيعلم لـزوم الصِّـفة للموصـوف بـلا دليـل، ومنهم من لا يكون تامَّ التَّصور فلا يعلم ذلك إلا بدليل.

ثم كلُّ ما كان مستلزمًا لشيءٍ فإنه يمكن الاستدلال به عليه؛ إذ كان الدَّليل هـو الـذي يلـزم مـن تحققـه تَحَقُّـق المـدلول[2]، فيكـون الوسـط كـلَّ مـا كـان[3] مستلزمًا للعرض، فيكون العرض[4] لازم اللَّازم.

وهـم معترفـون بـأن مـن العَرَضيَّات مـا يلـزم بـلا وسـط، وقـد مثَّلـوا ذلـك بالزوجيَّة والفرديَّة في العدد، فإن العلم بـأن الأربعـة زوجٌ والثَّلاثـةَ فـرد وإن كـان ظاهرًا لكنَّ العلمَ بأن خَمْسَمائةٍ وثلاثة وأربعينَ نصفُ ألـفٍ وسـتَّةٍ وثمـانين قـد يفتقر إلىٰ دليلٍ قد يفتقر إلىٰ تأمُّلٍ وفكر.

وهم يقولـون مـا يقـول ابـن سينا أفضـلُ متـأخِّريهم وغيـرُه مـن أن العـرض المنقسم إلىٰ الكيف والكَمِّ وغير ذلك هو ذاتيٌّ لموصوفاته.

---

(١) (د، ي، ع): «يعرف».

(٢) (و): «الدليل».

(٣) بعدها في (و، ي): «ملزومًا»، وضرب عليها في (د).

(٤) (و): «مستلزمًا للعرضي فيكون العرضي».

واللـون المنقسـم إلـىٰ السَّـواد والبيـاض هـو ذاتيٌّ للمتلـوِّن، والسَّـواديَّة والبياضيَّة[1] صفتان ذاتيَّة، بخلاف الزوجيَّة والفرديَّة.

قـالوا: لأن كـون هـذا أسـودَ وأبـيضَ وعرضًـا قائمًـا بغيـره لا يفتقـر إلـىٰ استدلالٍ ونظرٍ، بخلاف كون هذا العدد زوجًا أو فردًا، فإن هـذا قـد يفتقـر إلـىٰ نظرٍ واستدلال، فإنه ينقسم إلىٰ[2] قسمين متساويين أو لا ينقسم.

ومعلومٌ أن هذا فَرْقٌ يعود إلىٰ عِلْم العالم بهذه الصِّفات، هـل هـو جليٌّ أو خفي؟ وهل يفتقر إلىٰ نظرٍ واستدلالٍ أو لا يفتقر؟ ليس هو فرقًا يعود إلىٰ الصِّفة في نفسها ولا إلىٰ موصوفها، فعلم أنه ليس بين مـا جعلـوه ذاتيًّـا مقوِّمًـا داخـلًا في الماهيَّة وما جعلوه عرضيًّا لازمًا خارجًا عن الماهيَّة فَرْقٌ يعود إلىٰ نفس الماهيَّة التي هي الـذَّات الموصـوفةُ الموجـودة في الخـارج ولا إلـىٰ صـفاتها، بـل جميـع صفاتها اللازمة لها سواءٌ في ذلك، ليست الماهيَّةُ مركَّبـةً مـن هـذا دون هـذا، ولا فيها شيءٌ يتقدَّم علىٰ الماهيَّة في الوجود الخارجيّ، كما يقولون: إن الذاتيَّ يتقدَّم علىٰ الماهيَّة في الوجود والذهن.

ولا هـي الصِّـفاتُ جـواهرُ موجـودةٌ في الخـارج أجزاؤهـا[3] الأجسـام المركَّبـة، وإنمـا هـي صـفاتٌ قائمـةٌ بالموصـوف يمتنـع تقـدُّم شـيءٍ منهـا علـىٰ الموصوف.

---

(١) (و): «والسواد والبياض».

(٢) «إلىٰ» ليست في (و).

(٣) (و، د): «أجزاء لها» ولم تحرَّر في (ي).

ولكن إذا قيل في الإنسان: هو جسم حسَّاسٌ تامٌّ متحركٌ بالإرادة ناطق. فهنا قد يتَصَوَّر الذهن في هذه الأمور[1] ويُعبِّرُ عنها، فكلٌّ واحد منهما جزءٌ من الجملة التي في ذهنه ولسانه.

والجملة التي في ذهنه ولسانه مركَّبةٌ من هذه الأجزاء، لا[2] أن الإنسان الموجود في الخارج مركَّبٌ من هذه الأجزاء وأنها متقدِّمةٌ عليه أو أنها جواهر، فإن هذا كلَّه مما يُعلَم بصريح العقل أنه باطل، لكنَّ[3] هؤلاء المتفلسفةَ اليونانَ ومن اتَّبعهم كثيرًا ما يشتبه عليهم ما يتصوَّرونه في الأذهان بما يوجد في الأعيان، كما أثبت من أثبت من قدمائهم مثل فيثاغورس[4] وأتباعِه أعدادًا مجرَّدةً موجودةً في الخارج.

وقد ردّ ذلك عليهم سائرُ العقلاء، كما ردَّه مَنْ بعده منهم.

وقالوا: إن العدد المجرَّد والمقدار المجرَّد إنما يوجد في الذهن لا في الخارج، وإنما يوجد في الخارج المعدوداتُ والمُقَدَّراتُ، مثلُ الأجسامِ المتفرِّقَةِ التي تعدُّ كالكواكب، أو المتَّصلة التي تُقَدَّر[5] كالأفلاك، وذلك هو المتَّصف بالكمِّ المتصل والكمِّ المنفصل الموجودِ في الخارج.

---

(١) (ع): «هذه» بدل: «في هذه الأمور».

(٢) (ع): «إلا».

(٣) (ي): «لأن».

(٤) الفيلسوف المشهور، من فلاسفة اليونان، أدخل علم الهندسة والطبيعة إلىٰ بلاد اليونان ولم يكونوا يعلمونها قبل ذلك. له تصانيف في النوم واليقظة، والنفس والجسد، وغير ذلك إلىٰ مائتين وثمانين كتابًا، غير الكتب المكذوبة عليه. ترجمته في: «إخبار العلماء بأخيار الحكماء» (ص١٩٦)، «عيون الأنباء» (ص٦١)، «سلم الوصول إلىٰ طبقات الفحول» (٣/ ١٥).

(٥) (و): «تعد».

وأثبت أصحابُ أفلاطن[1] الكلِّيات العقليَّة في الخارج التي يُسَمُّونها المُثُلَ الأفْلاطونيَّة، وزعموا أنها قديمةٌ أزليةٌ وأثبتوا بُعْدًا موجودًا مجرَّدًا جوهرًا هو الخلاء، وجوهرًا[2] قائمًا بنفسه هو الدَّهر، وجوهرًا مجرَّدًا قائمًا بنفسه هو المادّة والهَيُولىٰ الأزليَّة.

وهذه كلُّها إنما تُتَصَوَّرُ في الأذهان لا في الأعيان، بل وما أثبتوه من العقول المجرَّدة العشرة هي أيضًا عند التَّحقيق ترجع إلىٰ ما يجرِّده الذهن ويقدِّره فيه، لا إلىٰ موجودٍ في الخارج.

وأصل قولهم: المجرَّداتُ والمفارقاتُ هو مأخوذٌ من مفارقة النَّفس الناطقة[3] للبدن بالموت، وهذا حقٌّ؛ فإن الذي عليه الأنبياء وأتباعهم وجمهور العقلاء: أن الرُّوح تفارق البدن، وتبقىٰ بعد فراق البدن، ومن قال من متكلِّمة أهل الملل: إنه لا يبقىٰ بعد البدن روحٌ تفارقه، وإن الرُّوح جزءٌ من البدن أو عرضٌ من أعراض البدن، فقوله -مع أنه خطأ في العقل الصريح- هو أيضًا مخالفٌ لكتب الله المنزَّلة ولرسله ولمن اتَّبعهم من جميع أهل الملل، وهذه الأمور مبسوطةٌ في غير هذا الموضع[4].

---

(١) يقال: فلاطن وأفلاطن وأفلاطون. من أهل مدينة «أثينا»، رومي يوناني. فيلسوف، طبي، عالم بالهندسة وطبائع الأعداد. له تأليف في الطب والفلسفة. أخذ عن «سقراط» ولازمه خمس سنين، وأخذ عن أصحاب «فيثاغورس». بلغ من العمر إحدىٰ وثمانين سنة. ترجمته في: «إخبار العلماء بأخيار الحكماء» (ص٢١)، «عيون الأنباء» (ص٨٠).

(٢) بعدها في (و): «مجردًا».

(٣) «الناطقة» ليست في (د، ي، ع).

(٤) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٩/ ٩٨) «درء التعارض» (٢/ ٣٧٤).

والمقصود هنا: التنبيه علىٰ أن تفريق هؤلاء اليونانيِّين في الصِّفات اللَّازمة للموصوف بين الصِّفات الذاتيَّة والعرضيَّة اللَّازمة، وجعْلَهُم اللَّازمةَ منها: ما هو لازمٌ للماهيَّةِ، ومنها: ما هو لازمٌ لوجودها= هو مبنيٌّ علىٰ أصلين فاسدين لهم، خالفهم فيها جمهور عقلاء الأمم من نُظَّارِ أهل الملل وغيرهم:

أحدُ الأصلين: هو ما تقدَّم من جَعْلِهم الصِّفات اللَّازمة للموصوف هي في الخارج منقسمةٌ إلىٰ ذاتيٍّ، جزءٌ من الماهيَّة داخلٌ فيها، وإلىٰ عَرَضِيٍّ خارجٍ عنها لازمٍ لها.

والثاني: زَعْمُهم أن كلَّ موجودٍ ممكنٌ، وله في الخارج ماهيَّةٌ هي ذاته، وحقيقته غير الموجود المعلوم المعيَّن الثابت في الخارج، وهذا أيضًا مما اشتبه عليهم فيه ما في الذهن بما في الخارج.

فإنه إذا أُريد بالماهيَّة ما يُتصَوَّر في الذهن، وهو المقول في جواب ما هو، وبالوجود[1] ما هو ثابت متحقِّقٌ في الخارج، فمعلومٌ أن هذا غيرُ هذا، كما يقولون: إنا نتصوَّر المثلَّث قبل أن نعلم وجوده في الخارج، فعُلم أن ماهيَّة المثلَّث غيرُ المثلَّث الموجودِ في الخارج.

فإنه يقال لهم: إن أردتم أن ما يُتَصَوَّر في الذِّهن من المثلَّث غير الموجود في الخارج وهذا حقٌّ، لكن ليس في هذا ما يدلُّ علىٰ أنه في الخارج عن الذهن شيئين:

أحدهما: ماهيَّةُ المثلَّث التي هي حقيقته وذاته.

والثاني: المثلث الموجود الذي هو زاوية الحائط.

---

(١) (و): «وبالموجود»، (ع): «وبالوجوب».



وإن أردتم أن في الخارج شيئين، فهذا غلط، وهذا الموضع مما اشتبه علىٰ كثيرٍ من النُّظَّار حتىٰ صار بعض أكابرهم حائرًا متوقِّفًا.

وبعضهم يختلف قوله ويتناقض، وسبب ذلك عدم تمييزهم بين ما يُتَصَوَّرُ في الأذهان وبين ما يوجد في الأعيان، ثم هذا الموضع نقلوه إلىٰ الكلام في صفات الله اللَّازمة له، كحياته وعلمه وقدرته، هل هي ذاتيَّةٌ أو عرضيَّة؟

فإن قيل: ذاتيَّةٌ لزم أن تكون له أجزاءٌ متقدِّمةٌ عليه تَرَكَّب منها، وإن كانت عرضيَّةً لازمةً لزم أن يكون قابلًا[1] وفاعلا، فإن كونه فاعلًا غير كونه قابلًا[2]، فلزم أن يكون فيه جهتان، وهذا من التَّركيب الذي زعموه منتفيًا؛ وذلك يستلزم التركيب، وهو التركيب من الذاتيَّات، وقد بُيِّن فسادُ هذا من وجوهٍ متعددة:

منها: أن التركيب المعقول هو تركيب الحيوان والنبات والمعادن من أبعاضه وأخلاطه[3]، وتركيبُ المبنيَّات والملبوسات والأطعمة والأشربة من أبعاضها وأخلاطها.

وأما تركُّب الأجسام من الجواهر المنفردة أو من المادَّة والصُّورة فهذا مما تنازع فيه جمهور العقلاء، وكذلك تركُّب الشيء من الموجود[4] والماهيَّة سواءٌ كان واجبًا أو ممكنًا هو مما نفاه[5] جمهور العقلاء، وكذلك تركُّبه من الصِّفات الذاتيَّةِ المشتركة والمميِّزة التي يُسَمُّونها: الجنس، والفصل.

---

(١) (و، ع): «قائلًا».

(٢) كالتي قبلها.

(٣) (ي): «واختلاطه».

(٤) (و، ي): «الوجود».

(٥) (و): «نقله»، (المطبوعتان): « مما تنازع فيه جمهور...» بدل قوله: «مما نفاه جمهور...».

وأما اتِّصاف الذَّات بصفاتٍ تقوم بها، فهذا هو الذي يعرفه عامَّة العقلاء، ولكن لا يُسَمُّون هذا تركيبًا، فمن سمَّاه تركيبًا لم يكن نزاعه اللَّفظيُّ قادحًا فيما عُلم بالأدلَّة السمعيَّة والعقليَّة.

ثم هم يقولون: المركَّب يفتقر إلىٰ أجزائه، وأجزاؤه غيرُه، وواجب الوجود لا يفتقر إلىٰ غيره. وهذه كلها ألفاظٌ مجملة؛ فإن لفظ «الافتقار» هنا لم يَعْنُوا به افتقار المفعول إلىٰ فاعله، ولا المعلولِ إلىٰ علَّته الفاعليَّة، فإن جزءَ الشيء لا يكون فاعلَه ولا علّتَه الموجِبةَ له، بل يريدون به التلازمَ والاشتراط، فإن وجود المجموع مستلزمٌ لوجود أجزائه، وهو مشروطٌ بذلك.

ومنها: لفظ «الجزء» فليس مرادهم جزءًا مباينًا للجملة، فإن جزء الجملة ليس مباينًا لها.

ومنها: لفظ «الغير» فإنه يراد بالغَيْرَينِ ما يجوز مباينة أحدهما لصاحبه، أو مفارقتُه له بزمانٍ أو مكانٍ أو وجود، ويراد بهما ما يجوز العلم بأحدهما دون الآخر، وبعض المجموع وصفة الموصوف لا يجب أن تفارقه وتباينه، بل قد يجوز أن تباينَه، ويجوز أن لا تباينه.

فصفات الرَّبِّ ﷻ اللازمةُ له لا يجوز أن تفارقه وتباينه، وحينئذٍ فمن الناس من لا يسمِّيها غيرًا له، ومن سمَّاها غيرًا له فذاته مستلزمةٌ لها، ليست الصفاتُ فاعلةً للذات، ولا علَّةً موجبة لها.

ولفظ «واجب الوجود» يراد به الموجود بنفسه الذي لا فاعل له، ولا علة فاعلةً له، وذاتُ الربِّ ﷻ وصفاتُه واجبة الوجود بهذا الاعتبار، ويراد به مع

ذلك المستغني عن محلٍّ يقوم به، والذَّاتُ بهذا المعنىٰ[1] واجبةٌ دون الصِّفات.

ويراد به ما لا تعلق له بغيره، وهذا لا حقيقة له؛ فإن الرَّبَّ تعالىٰ له تعلُّقٌ بمخلوقاته، لا سيَّما عند هؤلاء الفلاسفة الدَّهريَّة الذين يقولون: إنه موجِبٌ بذاته للأفلاك مستلزمٌ لها، فيجعلونه ملزومًا لمفعولاته، فكيف ينكرون أن تكون ذاته ملزومةً لصفاته؟

وهؤلاء المتفلسفة اليونانيُّون الذين يُسَمَّون «المشَّائين» أتباع أرسطو صاحب التعاليم المنطق والطبيعيّ، والرياضيّ، والإلهيّ، يقولون: إن موضوع العلم الطبيعيِّ متعلقٌ بالمادَّة في الذِّهن والخارج، وهو الجسم وأحكامه.

والثاني: الرياضيُّ وهو متعلِّقٌ بالمادة في الخارج لا في الذهن، فإنه لا يوجد عددٌ ولا مقدارٌ في جسمٍ في الخارج أو عرضٍ معدود[2]، أو مقدرٍ متَّصل، بخلاف الذهن، فإنه يجرِّد أعدادًا ومقادير[3] مجردةً عن المعدودات والمقدَّرات.

والثالث: الذي يُسَمُّونه علم ما بعد الطبيعة باعتبار السُّلوك العلمي، وهو علم ما قبلها باعتبار الوجود العينيّ، ويُسَمُّونه أيضًا العلمَ الإلهي، وموضوعه عندهم: المجرَّد عن المادة في الذهن والخارج، وهو الموجود من حيث هو موجود، وانقسامه إلىٰ جوهرٍ وعرض، وانقسام الجوهر إلىٰ جسمٍ وغير جسم،

(١) (و): «العين».
(٢) (و): «ولا مقدار في الخارج إلا في جسم أو عرض معدود»، (المطبوعتان): «ولا مقدار في الخارج إلا في جسم في الخارج أو عرض معدود».
(٣) بعدها في (و): «متصلة».



وانقسام غير[1] الجسم إلىٰ المادة والصورة والعقول والنفوس.

والعلة الأولىٰ يسمِّيها أرسطو وأتباعه «جوهرًا»، ولا يسمِّيها «واجبَ الوجود»، وأما متأخِّروهم كابن سينا وأتباعه يُسمُّونها «واجب الوجود»، ولا يُسمُّونها «جوهرًا»، والكلام علىٰ هؤلاء مبسوطٌ في موضع آخر[2]، إذ **المقصود هنا** أن هذه الأمور التي يقولون هي موضوع العلم الإلهي وهي المجرَّدة عندهم عن المادة في الذهن والخارج= هي عند التحقيق وجودها في الأذهان لا في الأعيان.

فإن الوجود العامَّ الكليَّ لا يوجد عامًّا كلِّيًّا إلا في الأذهان لا في الأعيان، كما أن الإنسان العامَّ الكليَّ، والحيوان العامَّ الكلِّيَّ لا يوجد عامًّا كلِّيًّا إلا في الأذهان لا في الأعيان.

وقد بُسط الكلام علىٰ هؤلاء في غير هذا الموضع[3]، وبُيِّن أن اليهود والنصارىٰ بعد النسخ والتبديل أقربُ إلىٰ الحق في الأمور الإلهية منهم.

وهذه الأمور مبسوطة في موضع آخر، ولكن نبهنا عليها لتعلُّقها هنا بقول هؤلاء النصارىٰ: إن صفات الرب الثلاث هي جوهرية دون غيرها، وأنهم إن عنَوْا بذلك ما يعنيه هؤلاء بالذاتيَّة فقولهم باطلٌ مبنيٌّ علىٰ أصلٍ باطل.

فإن تفريق هؤلاء اليونان في الصفات اللازمة بين الذاتيِّ والعرضيِّ اللازم للموجود، والعرضيِّ اللازم للماهيَّة، والعرضيِّ اللازم للموصوف فرقٌ باطل، **وقد ذكروا ثلاثَ فروقٍ كلُّها باطلة، كما تقدم:**

---

(١) «غير» ساقطة من (المطبوع).

(٢) انظر: «الرد علىٰ المنطقيين» (١٤٤)، «درء التعارض» (٣/ ٦٥).

(٣) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١١/ ٢٢٨).

الأول: الوسط. **والفرق الثاني**: تقَدُّمُ الذَّاتِيِّ ذهنًا ووجودًا، بخلاف[1] اللازم العرضيِّ.

والثالث: توقُّف الحقيقة علىٰ الذَّاتيِّ.

وقد تبيَّن بطلان هذا في غير هذا الموضع[2].

والنصارىٰ ليس مرادُهم بالجوهريَّةِ ما يريده هؤلاء بالذاتيَّة، فلهذا لم نبسط الكلام عليه، بل يقولون: إن الثلاثةَ جواهرٌ، وهؤلاء المنطقيون يفرِّقون بين اللَّازم للماهيَّة واللازم لوجودها، بناءً علىٰ أن في الخارج شيئين: الوجود، وماهيَّةٌ أخرىٰ غير الوجود.

والكلام علىٰ هذا كلِّه مبسوطٌ في موضعٍ آخر[3].

ومنها[4]: أنه لو قُدِّر أن صفات الموصوفات اللَّازمة لها تنقسم إلىٰ ذاتيٍّ مقوِّمٍ، وعرضَيٍّ لازم، وأن صفاتِ الربِّ سبحانه كذلك، لم يكن تخصيص العلم بأنه ذاتيٌّ[5] أولىٰ من القدرة، فليس ذِكْرُ القائم بنفسه الحيِّ العالِمِ بأولىٰ من ذكر القائم بنفسه الحيِّ القادر.

والنصارىٰ لما كانت الأقانيم عندهم ثلاثة، وزعموا أن الشَّرع المنزَّل دلَّ علىٰ ذلك، وكانوا في ذلك مخالفين للشرع المنزَّل إليهم، -كما قد بسط في

---

(١) بعدها في (و): «العرضي».

(٢) انظر: «الرد علىٰ المنطقيين» (ص٤١٨).

(٣) انظر ما تقدّم قريبًا من إحالات علىٰ المباحث السالفة.

(٤) عاد المصنف هنا إلىٰ سياق الكلام الذي بدأه عن وجوه فساد قول النصارىٰ بالصفات الجوهرية علىٰ تقدير أنهم أرادوا: «ذاتية» علىٰ مصطلح المناطقة.

(٥) بعدها في (و): «بذلك».

موضعه[1]- صار طائفةٌ منهم يقولون: موجودٌ حيٌّ عالم، وطائفةٌ يقولون: موجودٌ عالمٌ قادر، فيجعلون القادر مكان الحيّ، ويجعلون «روح القدس» هو القدرة.

وهذا القول وإن كان أحسنَ في المعنىٰ، لكنَّ تفسير «روح القدس» بالقدرة في غاية البعد الذي يظهر فساده لكل أحد.

ولا بد لهم من إثبات أقنوم الكلمة الذي يقولون تارة: هي العلم، وتارة: هي الحكمة، ويسمُّونها تارة: النطق، كما سمَّوْها في كتابهم هذا؛ لأن الذي اتَّحد بالمسيح عندهم هو أقنوم الكلمة، فصاروا تارةً يضمُّون إليها الحياة، وتارة يضمُّون إليها القدرة.

و«الأب» تارةً يقولون: هو الوجود، وتارةً يقولون: القائم بنفسه، وتارةً يقولون: الذَّات، وتُسَمَّىٰ القائِمُ بنفسه بالسُّريانيَّة: الكيان، وتارةً يقولون: الجود. وكلُّ هذا من الحيرة والضَّلال؛ لأنهم لا يجدون ثلاث معانٍ هي المستحَقَّة لأنْ تكون جوهريَّةً دون غيرها من الصِّفات، سواءٌ فُسِّرت الجوهريَّة بأنها جواهر، أو بأنها ذاتيَّةٌ مقوِّمة، أو بغير ذلك.

ومنها قولهم: «تجري مجرىٰ أسماء» فإن أرادوا بذلك أسماءَ أعلامٍ أو جامدةً، وسائرها صفات، فاسم الحيِّ[2] والعالم اسمٌ مشتَقٌّ يدلُّ علىٰ معنىٰ العلم والحياة، كما يدل القدير علىٰ القدرة، وإن أرادوا أنه يُسمَّىٰ بها، فلله تعالىٰ أسماءٌ كثيرة، فإنه سبحانه له الأسماء الحسنىٰ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٢٧٣).

(٢) (و): «الحق».

ومن أسمائه: «القدير»، والقدرة تستلزم من قدرته على المخلوقات ما لا يدلُّ عليه العلم، وخَلْقُه للمخلوقات دلَّ على قدرته أبلغ من دلالته على علمه، واختصاصُه بالقدرة أظهرُ من اختصاصه بالعلم، حتى إن طائفةً من النُّظَّار كأبي الحسن الأشعريِّ وغيره يقول: أخصُّ وصْفِه: «القدرة على الاختراع»، فلا يوصف بذلك غيره، والجهم بن صفوان قبله يقول: «ليس في الوجود قادرٌ غيره، ولا لغيره قدرة».

والأشعريُّ وإن أثبت للمخلوق قدرة، لكن يثبت قدرةً لا تؤثر في المقدور، ولم يقل أحدٌ من العقلاء: إن أخصَّ وصفه الحياةُ والعلم، ولا إن غيرَه ليس بحيٍّ ولا عالم، فكان جَعْلُ القديرِ اسمًا وغيرِه صفةً -إن كان الفرق حقًّا- أولى من العكس، فكيف إذا كان الفرق باطلًا؟! فإن أسماءه تعالى التي يعرفها الناس هي أسماء، وهي صفاتٌ في اصطلاح أهل العربيَّة تدلُّ على معانٍ هي صفاتُه القائمةُ به؛ «فالحيُّ» يدلُّ على الحياة، «والعليم» يدل على العلم، «والقدير» يدلُّ على القدرة، هذا مذهب سلف الأمة وجماهيرها وجماهير الأمم.

ومن الناس فرقةٌ شاذَّةٌ تزعم أن هذه الأسماء لا تدلُّ على معان، كأسماء الأعلام.

وقد تنازع الناس فيما يُسَمَّى[1] به سبحانه، ويُسَمَّى به غيره، كالحيِّ والعليم والقدير.

---

(١) (و) «تسمى الله».



فالجمهور علىٰ أنه حقيقة فيهما.

وقالت طائفةٌ كأبي العباس الناشي[1]: «إنها حقيقةٌ في الرب ﷻ مجازٌ في المخلوق».

وقالت طائفةٌ عكسَ هؤلاء من الجهميَّة والملاحدة والمتفلسفة: «إنها مجازٌ في الربِّ ﷻ حقيقةٌ في المخلوق».

والأولون هي عندهم متواطئة، وقد يسمُّونها مشكِّكة؛ لما فيها من التفاضل، وبعضهم يقول: هي مشتركَةٌ اشتراكًا لفظيًّا.

(١) هو عبد الله بن محمد الناشي الأنباري المعروف بابن شرشير، كان من الشعراء المجيدين، وهو في طبقة ابن الرومي والبحتري، كان متبحرًا في عَدة علوم، من جملتها: علم المنطق، وكان من أوائل من نقد المنطق اليوناني رغم اعتزاله. كانت وفاته في مصر سنة ثلاثٍ وتسعين ومائتين. انظر: «وفيات الأعيان» (٣/ ٩١)، «شذرات الذهب» (٣/ ٣٩٣)



فصـل

وأما قولهم: «كل صفة منها غير الأخرىٰ».

فهذا إن أرادوا به أن صفات الربِّ ﷻ قد تباينه وتنفصل عنه، وهو حقيقة قولهم، ويقولون مع ذلك: إنها[1] متَّصِلةٌ به= فهو جمْعٌ بين النقيضين، وتمثيلُهم بشعاع الشمس تمثيلٌ باطل، وهو حجَّةٌ عليهم لا لهم.

فإن الشَّعاع القائم بالهواء والأرض والجبال والشجر والحيطان ليس هو قائمًا بذات الشمس، والقائم بذات الشمس ليس هو قائمًا بالهواء والأرض.

فإن قالوا: بل ما يقوم به من العلم يَفِيضُ منه علىٰ قلوب الأنبياء علومٌ كما يَفيض الشعاعُ من الشمس.

قيل لهم: لا اختصاص للمسيح بهذا، بل هذا قدرٌ مشتركٌ بينه وبين غيره من الأنبياء، وليس في هذا حلولُ ذات الربِّ ولا صفتِه القائمة به بشيءٍ من مخلوقاته، ولا أن العبد بما حلَّ فيه من العلم والإيمان يصير إلهًا معبودًا.

وإن أرادوا أنها قائمةٌ به، وتُسمَّىٰ كلُّ واحدةٍ غير الأخرىٰ، فهنا نزاعٌ لفظيّ، هل تُسمىٰ غيرًا أو لا تسمىٰ غيرًا؟

فإن من الناس من يقول: كلُّ صفةٍ للربِّ ﷻ فهي غيرُ الأخرىٰ، ويقول: الغيرانِ ما جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر، أو ما جاز[2] العلم بأحدهما مع الجهل بالآخر.

ومنهم من يقول: ليست هي الأخرىٰ، ولا هي هي؛ لأن «الغيرين»: ما

---

(١) (و): «إنها مع ذلك»، (د، ي): «مع ذلك إنها مع ذلك».

(٢) «ما جاز» ليست في (ي)

جاز وجود أحدهما مع عدم الآخر، أو ما جاز مفارقةُ أحدهما الآخر بزمانٍ أو مكانٍ أو وجود.

والذي عليه سلف الأمَّة وأئمتُها إذا قيل لهم: علم الله وكلام الله، هل هو غير الله أم لا؟ لم يُطلقوا النفي ولا الإثبات؛ فإنه إذا قال: «غيره»[1] أَوْهَمَ أنه مباينٌ له.

وإذا قال: ليس غيره؛ أَوْهَمَ أنه هو، بل يَستفصِل السائل، فإن أراد بقوله: «غيره» أنه مباينٌ له منفصلٌ عنه فصفات الموصوف لا تكون مباينةً له منفصلةً عنه، وإن كان مخلوقًا، فكيف بصفات الخالق؟

وإن أراد «بالغير» أنها ليست هي هو، فليست الصِّفة هي الموصوف، فهي غيره بهذا الاعتبار، واسم الربِّ تعالىٰ إذا أُطلِق يتناول الذَّات المقدَّسة بما يستحقُّه من صفات الكمال، فيمتنع وجود الذَّات عريَّةً عن صفات الكمال.

فاسم الله يتناول الذَّات الموصوفةَ بصفات الكمال، وهذه الصفات ليست زائدةً علىٰ هذا المسمَّىٰ، بل هي داخلةٌ في المسمَّىٰ، ولكنها زائدةٌ علىٰ الذَّات المجرَّدة التي تثبتها نفاةُ الصفات، فأولئك لمَّا زعموا أنه ذاتٌ مجرَّدةٌ قال هؤلاء: بل الصِّفات زائدة علىٰ ما أثبتموه من الذات.

وأما في نفس الأمر فليس هناك ذاتٌ مجرَّدةٌ تكون الصِّفات زائدةً عليها، بل الرَّبُّ تعالىٰ هو الذَّات المقدَّسة الموصوفة بصفات الكمال، وصفاتُه داخلةٌ في مسمَّىٰ أسمائه سبحانه وتعالى.

---

(١) «قال غيره» مثبتة من (ي) وفي باقي النسخ: «قيل لهم غيره».



فصل

وقولهم: «فالإله واحد، خالقٌ واحد، ربٌّ واحد» هو حقٌّ في نفسه، لكن قد نقضوه بقولهم في عقيدة إيمانهم: «نؤمن بربٍّ واحد، إيسوع المسيح[1] ابن الله الوحيد، إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حق، من جوهر أبيه، مساوٍ الأبَ في الجوهر» فأثبتوا هنا إلهين، ثم أثبتوا روح القدس إلهًا ثالثًا، وقالوا: إنه مسجودٌ له، فصاروا يثبتون ثلاثةَ آلهةٍ، ويقولون: إنما نثبت إلهًا واحدًا. وهو تناقضٌ ظاهر، وجمعٌ بين النَّقيضين، بين الإثبات والنفي.

ولهذا قال طائفةٌ من العقلاء: إن عامَّة مقالات الناس يمكن تصوُّرها إلا مقالة النصارىٰ، وذلك أن الذين وضعوها لم يتصوَّروا ما قالوا، بل تكلَّموا بجهل، وجمعوا في كلامهم بين النَّقيضين، ولهذا قال بعضهم: لو اجتمع عشْرَةُ نصارىٰ لتفرَّقوا عن أحدَ عشرَ قولًا.

وقال آخر: لو سألت بعض النَّصارىٰ، وامرأته، وابنه، عن توحيدهم، لقال الرجل قولًا، وامرأته قولًا آخر، وابنه قولًا ثالثًا.

---

(١) «المسيح» ليست في (د، ي، ع).



فصـل

وقـولهم: «لا يتـبعَّض ولا يتجـزَّأ» منـاقضٌ لمـا ذكـروه في أمـانتهم، ولمـا يمثِّلونه به؛ فإنهم يمثِّلونه بشعاع الشمس، والشعاعُ يتبعَّض ويتجزَّأ، فإن ما يقـوم منه بهذا الموضع بعضٌ وجزءٌ منه، ويمكن زوال بعضه مـع بقـاء بعـض، فإنـه إذا وُضِعَ علىٰ مَطْرَحِ الشعاع شيءٌ فُصِل ما بين جانبيه، وصـار الشُّعاع الـذي كـان بينهما علىٰ ذلك الفوقانيِّ فاصلًا بين الشُّعاعين السَّافلين.

يبيِّن ذلك أن الشُّعاع قائمٌ بالأرض والهواء، وكلٌّ منهما متجزِّئ متبعِّض، وما قام بالمتبعِّض فهو متبعِّض، فإن الحالَّ يتبع المحل، وذلك يستلزم التبعيض والتجزيء فيما قام به.

ويقولون أيضًا: «إنه اتحد بالمسيح، وإنـه صَعِد إلىٰ السـماء وجلس عـن يمين الأب» وعندهم أن اللَّاهوت منذ اتحد بالنَّاسوت لم يفارقْه، بل لمَّـا صَعِد إلىٰ السماء وجلس عن يمين الأب كان الصَّاعد عنـدهم هـو المسـيح الـذي هـو ناسوتٌ ولاهوتٌ[1] إلهٌ تام وإنسانٌ تام، فهم لا يقولـون: إن الجـالس عـن يمـين الأب هـو الناسـوت فقـط، بـل اللَّاهـوت المتَّحـد بالناسـوت جلـس عـن يمـين اللَّاهوت، فأيُّ تبعيضٍ وتجزئةٍ أبلغُ من هذا؟

وليس هذا من كلام الأنبياء حتىٰ يقال: إن له معنًى لا نفهمـه، بـل هـو مـن كلام أكابرهم الذي وضعوه وجعلوه عقيـدةَ إيمـانهم، فـإن كـانوا تكلَّمـوا بمـا لا يعقلونه، فهم جهالٌ لا يجوز أن يُتَّبعوا، وإن كانوا يعقلون[2] ما قـالوه فـلا يَعْقِـل أحدٌ من كون اللَّاهوت المتَّحِدِ بالنَّاسـوت جلـس عـن يمـين اللَّاهـوت المجـرَّد

---

(١) (و): «اللاهوت وناسوت» بدل «ناسوت ولاهوت».

(٢) (ط.النيل): «لا يعقلون».



عن الاتِّحاد، إلا أن هذا اللَّاهوت المجرَّد منفصلٌ مباينٌ للَّاهوت المتَّحد، وليس هو متصلًا به، بل غايته أن يكون مماسًّا له، بل يجب أن يكون الذي يُماسُّ اللَّاهوت المجرَّدَ هو النَّاسوت مع اللَّاهوت المتَّحد به، فهذا حقيقة التبعيض والتجزئة مع انفصال أحد البعضين عن الآخر.

وأيضًا فيقال لهم: المتَّحد بالمسيح أَهُوَ ذات ربِّ العالمين أم صفةٌ من صفاته؟

فإن كان هو الذَّات، فهو الأب نفسه، ويكون المسيح هو الأب نفسه، وهذا مما اتَّفق النصارىٰ علىٰ بطلانه؛ فإنهم يقولون: هو الله، وهو ابن الله، كما حكىٰ الله عنهم، ولا يقولون هو الأب[1]، والأب عندهم هو الله، وهذا من تناقضهم.

وإن قالوا: المتحد بالمسيح صفة الرب فصفة الربِّ لا تفارقه، ولا يمكن اتحادها ولا حلولها في شيءٍ دون الذات.

وأيضًا فالصِّفة نفسُها ليست هي الإله الخالق ربُّ العالمين، بل هي صفته، ولا يقول عاقل: إن كلامَ الله أو علمَ الله أو حياة الله هي ربُّ العالمين الذي خلق السماوات والأرض، فلو قُدِّر أن المسيح هو صفةُ الله نفسُها لم يكن هو الله، ولم يكن هو ربُّ العالمين، ولا خالق السماوات والأرض.

والنصارىٰ يقولون: إن المسيح ربُّ العالمين خالقُ كلِّ شيء، وهو خالق آدم ومريم، وإن كان ابن آدم ومريم، فإنه خالق ذلك بلاهوته، وهو ابن آدم ومريم[2] بناسوته.

---

(١) بعدها في (المطبوعتين): «والابن».

(٢) «وإن كان ابن آدم ومريم...وهو ابن آدم ومريم» ساقط من (و) لانتقال النظر.

فلو قُدِّرَ أن المسيح هو صفةُ الرَّبِّ لم تكن الصفةُ هي الخالق، فكيف والمسيح ليس هو[1] صفةَ الله نفسَها، بل هو مخلوقٌ بكلمة الله، وسُمِّي كلمة الله؛ لأن الله كوَّنه (بكن)؟[2] وسمَّاه روحَه؛ لأنه خلقه من نفخ روح القدس في أمِّه، لم يخلقْه كما خلق غيرَه من أبٍ آدميّ.

قال الله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ ۖ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾[3] [آل عمران: ٤٥-٤٧]

وإن قالوا: المتَّحد به بعض ذلك دون بعض، فقد قالوا بالتبعيض والتجزئة، فهم بين أمرين: إما بطلانُ مذهبهم، وإما اعترافُهم بالتبعيض والتجزئة مع بطلانه.

وأيضًا فقولهم: «إلهٌ حق من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مولودٌ غيرُ مخلوق، مساوٍ للأب في الجوهر، ابنُ الله الوحيد، المولودُ قبل كلِّ الدُّهور».

يقال لهم: هذا الابن المولود المساوي للأب في الجوهر الذي هو إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حق، هو صفةٌ قائمةٌ بغيرها؟ أو عينٌ قائمةٌ بنفسها؟

فإن كان الأول فالصَّفة ليست إلهًا ولا هي خالقة، ولا يقال لها: مولودة

---

(١) «هو» ليست في (ي).

(٢) قدّم هنا في «المطبوع» قوله: وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ...﴾ وذكر الآيتين بتمامها.

(٣) بعدها في (و): وقال تعالىٰ: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤-٣٥].



من الله، ولا إنها مساويةٌ لله في الجوهر، ولم يُسَمِّ قطُّ أحدٌ من الأنبياء ولا أتباعِ الأنبياء صفاتِ الله لا ابنًا له ولا ولدًا، ولا قال: إن صفة الله تولَّدت منه، ولا قال عاقل: إن الصِّفة القديمة تولَّدت من الذَّات القديمة.

وهم يقولون: إن المسيح إلهٌ خلق السماوات والأرض لاتِّحاد ناسوته[1] بهذا الابن المولود قبل كلِّ الدُّهور، المساوي الأبَ في الجوهر.

وهذا كلُّه نعتُ[2] عينٍ قائمةٍ بنفسها، كالجواهر القائمة بنفسها، لا نعتُ صفاتٍ قائمةٍ بغيرها، وإذا كان كذلك كان التبعيض والتجزئة لازمةً لقولهم؛ فإنَّ القول بالولادة الطبيعيَّة مستلزمٌ لأن يكون خرج منه جزء، قال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا لَهُۥ مِنْ عِبَادِهِۦ جُزْءًا ۚ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَكَفُورٌ مُّبِينٌ ﴿١٥﴾ أَمِ ٱتَّخَذَ مِمَّا يَخْلُقُ بَنَاتٍ وَأَصْفَىٰكُم بِٱلْبَنِينَ ﴿١٦﴾ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحْمَٰنِ مَثَلًا ظَلَّ وَجْهُهُۥ مُسْوَدًّا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴿١٧﴾ أَوَمَن يُنَشَّؤُا۟ فِى ٱلْحِلْيَةِ وَهُوَ فِى ٱلْخِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ ﴿١٨﴾ وَجَعَلُوا ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ٱلَّذِينَ هُمْ عِبَٰدُ ٱلرَّحْمَٰنِ إِنَٰثًا ۚ أَشَهِدُوا خَلْقَهُمْ ۚ سَتُكْتَبُ شَهَٰدَتُهُمْ وَيُسْـَٔلُونَ﴾[3] [الزخرف: ١٥- ١٩].

وأما هذا المعنىٰ الذي يُثْبِتُه مَنْ يثبته[4] من علماء النصارىٰ ويُسَمُّونه ولادةً وبُنُوَّةً فيُسَمُّون الصِّفة القديمة الأزليَّةَ القائمة بالموصوف ابنًا، ويسمُّونها تارةً النطقَ، وتارةً الكلمةَ، وتارةً العلمَ، وتارةً الحكمةَ، ويقولون: هذا مولود من

---

(١) (و): «ما يثبتونه».
(٢) «نعت» ليست في (ي).
(٣) بعدها في (و): «ولم يقولوا ما تعقله العقلاء، فضلُّوا فيما نقلوه عن الأنبياء» وهذه العبارة سيأتي موضعها قريبًا وقد سقطت من (و) هناك.
(٤) (و): «سنّه من سنّه» بدل: «يثبته من يثبته».

الله، وابن الله= فهذا لم يقلْه أحدٌ من الأنبياء وأتباعهم، ولا من سائر العقلاء غيرُ هؤلاء المبتدعة من النصارىٰ، ولا يفهم أحدٌ من العقلاء من اسم الولادة والبُنُوَّة هذا المعنىٰ.

والأنبياء لم يطلقوا لفظ «الابن» إلا علىٰ مخلوق، وهم يقولون: هو أبٌ للمسيح بالطَّبع، ولغيره بالوضع، فلا يعقل جمهور العقلاء[1] وغيرُهم من هذا المعنىٰ[2] إلا البنوَّة المعقولة بانفصال جزءٍ من الوالد، وهذا ينكره من ينكره من علمائهم.

لكنهم لم يتَّبعوا الأنبياء، ولم يقولوا ما تعقله العقلاء، فضلُّوا فيما نقلوه عن الأنبياء[3]، وأضلُّوا أتباعهم فيما قالوه وعوامَّهم، وإن كانوا لا يقولون: إن ولادة الله مثل[4] ولادة الحيوان بانفصال شيءٍ يوجد، فيقولون: ولادةٌ لاهوتيَّةٌ بانفصال جزءٍ من اللَّاهوت حلَّ في النَّاسوت، لا يُعْقَل من الولادة غير هذا.

وأيضًا فقولهم: «ونؤمن بروح القدس الربِّ المحيي المنبثق من الأب، الذي هو مع الأب مسجودٌ له، وممجَّدٌ ناطقٌ في الأنبياء».

فقولهم: «المنبثق من الأب الذي هو مع الأب مسجود له وممجَّد»= يَمتنع أن يقال هذا في حياة الربِّ القائمةِ به؛ فإنها ليست منبثقةً منه كسائر الصِّفات؛ إذ لو كان القائم بنفسه منبثقًا لكان علمه وقدرته وسائر صفاته منبثقةً[5] منه، بل الانبثاق في الكلام أظهرُ منه في الحياة؛ فإن الكلام يخرج من

(١) (ي): «النصارىٰ».

(٢) «المعنىٰ» ليست في (د، ي، ع).

(٣) «ولم يقولوا ما تعقله العقلاء، فضلُّوا فيما نقلوه عن الأنبياء» ساقطة من (و) لانتقال النظر.

(٤) (و): «وإن كانوا لا يقولون الولادة عن الله مثل هؤلاء ولادة...».

(٥) (د): «مشتقة».

المتكلم، وأما الحياة فلا تخرج من الحيّ، فلو كان في الصِّفات ما هو منبثقٌ لكان الصِّفةُ التي يُسَمُّونها «الابن»، ويقولون: هي العلم والكلام، أو النُّطق أو الحكمة، أولىٰ بأن تكون منبثقةً من الحياة التي هي أبعد عن ذلك من الكلام.

وقد قالوا أيضًا: «إنه مع الأب مسجودٌ له وممجَّد» والصِّفة القائمةُ بالربِّ ليست معه مسجودٌ لها.

وقالوا: «هو ناطقٌ في الأنبياء» وصفة الربِّ القائمةُ به لا تُنطق في الأنبياء، بل هذا كُلُّهُ صفةُ «روحِ القدس» الذي يجعله الله في قلوب الأنبياء، أو صفةُ ملكٍ من الملائكة كجبريل، فإذا كان هذا منبثقًا من الأب، والانبثاق الخروج، فأيُّ تبعيضٍ وتجزئةٍ أبلغُ من هذا.

وإذا شبَّهوه بانبثاق الشُّعاع من الشّمس كان هذا باطلًا من وجوه:

- **منها**: أن الشُّعاع عرضٌ قائمٌ بالهواء والأرض، وليس جوهرًا قائمًا بنفسه، وهذا عندهم حيٌّ مسجودٌ له، وهو جوهر.
- **ومنها**: أن ذلك الشُّعاعَ القائمَ بالهواء والأرض ليس صفةً للشَّمس، ولا قائمًا بها، وحياةُ الربِّ صفةٌ قائمةٌ به.
- **ومنها**: أن الانبثاق خصُّوا به «روح القدس»، ولم يقولوا في «الكلمة»: إنها منبثقة.

والانبثاق لو كان حقًّا لكان بالكلام أشبهَ منه بالحياة.

وكلَّما تدبَّر العاقل كلامهم في «الأمانة» وغيرِها وجد فيه من التَّناقض والفساد ما لا يخفىٰ إلا علىٰ أجهل العباد، ووجد فيه من مناقضة التَّوراة والإنجيل وسائرِ كتب الله ما لا يخفىٰ علىٰ من تدبَّر هذا وهذا.



ووجد فيه من مناقضة صريح المعقول[1] ما لا يخفىٰ إلا علىٰ معانِدٍ أو جهول، فقولهم متناقضٌ في نفسه، مخالفٌ لصريح المعقول وصحيحِ المنقول عن جميع الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين.

(١) (و، ي): «العقول».

فصـــل

قالوا: «وأما تَجَسُّمُ كلمة الله الخالقة[1] بإنسانٍ مخلوقٍ وولادَتُهُما معًا، أي: الكلمة مع الناسوت، فإنه لم يخاطِب الباري أحدًا من الأنبياء إلا وحيًا أو من وراء حجاب، حسَب ما جاء في هذا الكتاب بقوله: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ ﴾ [الشورىٰ: ٥١].

وإذا كانت اللَّطائف لا تظهر إلا في الكثائف[2]، روح القدس[3] وغيرها، فكلمة الله التي بها خلقت اللَّطائف والكثائف، تظهر في غير كثيفٍ كُلًّا.

ولذلك ظهر في عيسىٰ ابن مريم، إذ الإنسان أجلُّ ما خلقه الله، ولهذا خاطب الخلق، وشاهدوا منه ما شاهدوا».

والجوابُ من طرق:

أحدها: أنه يقال: هذا الذي ذكروه وادَّعوا أنه تجسُّم كلمة الله الخالقة بإنسانٍ مخلوقٍ وولادتُهما معًا، أي: الكلمة مع النَّاسوت، وهو الذي يُعَبَّر عنه باتِّحاد اللَّاهوت بالنَّاسوت= هو أمرٌ ممتنعٌ في صريح العقل، وما علم أنه ممتنعٌ في صريح[4] العقل لم يجز أن يخبِر به رسول؛ فإن الرسل إنما تخبر بما لا يُعلم بالعقل أنه ممتنع، فأما ما يعلم بصريح العقل أنه ممتنعٌ فالرسل منزَّهون عن الإخبار عنه.

---

(١) (و): «الخالق».

(٢) (و): «الكتائف» (د، ي) بلا نقط. والمثبت من (ع، ط.النيل). وفي (د) بعدها: «مثل».

(٣) (و): «الروح» بدل: «روح القدس».

(٤) «صريح» ليست في (ع).

الطريق الثاني: أن الأخبار الإلهيَّة صريحةٌ بأنَّ المسيح عبدُ الله، ليس بخالق العالم، والنصارىٰ يقولون: هو إلهٌ تامٌّ وإنسانٌ تام.

الطريق الثالث: الكلام فيما ذكروه.

فأما الطَّريق الأول فمن وجوه:

أحدها: أن يقال: المتَّحد بالمسيح إما أن يكون هو الذَّات المتَّصفة بالكلام أو الكلام فقط، وإن شئتَ قلت: المتَّحد به إما الكلام مع الذَّات، وإما الكلام بدون الذَّات. فإن كان المتَّحد به الكلام مع الذَّات[1] كان المسيح هو الأب وهو الابن وهو روح القدس، وكان المسيح هو الأقانيم الثلاثة.

وهذا باطلٌ باتِّفاق النَّصارىٰ، وسائرِ أهل الملل، وباتِّفاق الكتب الإلهيَّة، وباطلٌ بصريح العقل، كما سنذكره إن شاء الله[2].

وإن كان المتَّحد به هو الكلمة فقط، فالكلمة صفة، والصِّفة لا تقوم بغير موصوفها، والصِّفة ليست إلهًا خالقًا، والمسيح عندهم إلهٌ خالق، فبطل قولهم علىٰ التقديرين.

وإن قالوا: المتَّحد الموصوف بالصِّفة، فالموصوف هو الأب، والمسيح عندهم ليس هو الأب.

وإن قالوا: الصِّفة فقط، فالصِّفة لا تفارق الموصوف ولا تقوم بغير الموصوف، والصِّفة لا تخلق ولا ترزق، وليست الإله، والصفة لا تقعد عن يمين الموصوف، والمسيح عندهم صعد إلىٰ السماء وجلس عن يمين أبيه.

---

(١) «وإما الكلام بدون الذات، فإن كان المتحد به الكلام مع الذات» ساقط من (ي).

(٢) انظر: (٢/ ٣٠٢).

وأما كونه هو الأب فقط، وهو الذَّات المجرَّدة عن الصِّفات، فهذا أشدُّ استحالة، وليس فيهم من يقول بهذا.

الوجه الثاني: أن الذَّات المتحدة بناسوت المسيح مع ناسوت المسيح إن كانتا بعد الاتحاد ذاتين، وهما جوهران كما كانا قبل الاتحاد، فليس ذلك باتحاد.

وإن قيل: صارا جوهرًا واحدًا كما يقول من يقول منهم: إنهما صارا كالنار مع الحديدة، أو اللبن مع الماء= فهذا يستلزم استحالةَ كلٍّ منهما وانقلابَ صفة كلٍّ منهما، بل حقيقته: كما استحال الماء واللبن إذا اختلطا، والنارُ مع الحديدة، وحينئذٍ فيلزم أن يكون اللاهوت استحال وتبدَّلت صفته وحقيقته، والاستحالة لا تكون إلا بعدم شيءٍ ووجود آخر، فيلزم عدم[1] شيء من القديم الواجب الوجود بنفسه.

وما وجب قِدَمه استحال عدمه، وما وجب وجوده امتنع عدمه؛ فإن القديم لا يكون قديمًا إلا لوجوبه بنفسه، أو لكونه لازمًا للواجب بنفسه؛ إذ لو لم يكن لازمًا له بل كان غير لازمٍ له لم يكن قديمًا بقِدَمه، والواجب بنفسه يمتنع عدمه، ولازمه لا يعدم إلَّا بعدمه، فإنه يلزم من انتفاء اللازم انتفاء الملزوم.

الوجه الثالث أن يقال: الناس لهم في كلام الله ﷻ عدَّة أقوال، وقول النصارىٰ باطلٌ علىٰ جميع الأقوال التي قالها الناس في كلام الله، فثَبَت بطلانُه علىٰ كلِّ تقدير.

وذلك أن كلام الله سبحانه إما أن يكون صفةً له قائمًا به، وإما أن يكون

---

(١) «عدم» ليست في (و).

مخلوقًا له بائنًا عنه، وإما أن لا يكون لا هذا ولا هذا بل هو ما يوجد في النفوس.

وهذا الثالث هو أبعد الأقوال عن أقوال الأنبياء، وهو قول من يقول من الفلاسفة والصابئة: إن الربَّ لا تقوم به الصفات وليس هو خالقًا باختياره. ويقولون مع ذلك: إنه ليس عالمًا بالجزئيَّات ولا قادرًا علىٰ تغيير الأفلاك، بل كلامه عندهم ما يفيض علىٰ النُّفوس، وربما سمَّوه «كلامًا» بلسان الحال.

وهؤلاء ينفون الكلام عن الله، ويقولون: ليس بمتكلِّم، وقد يقولون: متكلمٌ مجازًا، لكن لما نطقت به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أطلقه من دخل في الملل منهم ثم فسَّره بمثل هذا، وهذا أحد قولَي الجهمية.

والقول الثاني: أنه متكلِّمٌ حقيقة، لكن كلامه مخلوق، خلقه[1] في غيره، وهو قول المعتزلة وغيرِهم، والقول الآخر للجهمية.

وعلىٰ هذين القولين، فليس لله كلامٌ قائمٌ به حتىٰ يتَّحد بالمسيح أو يحُلَّ به، والمخلوق عرَضٌ من الأعراض ليس بإلهٍ خالق، وكثيرٌ من أهل الكتاب اليهود والنصارىٰ من يقول بهذا وهذا.

وأما القول الأول، وهو قول سلف الأمَّة وأئمتِها وجمهورِها، وقولُ كثيرٍ من[2] سلف أهل الكتاب، وجمهورهم.

فإما أن يقال: الكلام قديمُ النَّوع، بمعنىٰ: أنه لم يزل يتكلم بمشيئته[3]، أو قديمُ العين، وإما أن يقال: ليس بقديم، بل هو حادث. **والأول هو القول المعروفُ عن أئِمَّة السُّنَّة والحديث.**

---

(١) «خلقه» ليست في (و).

(٢) «كثير من» ليست في (و).

(٣) (ع): «متكلمًا بمشيئته»، (ط.النيل): «متكلمًا بمشيئة».

وأما القائلون بقِدَم العين، فهم يقولون: الكلام لا يتعلَّق بمشيئته وقدرته، لاعتقادهم أنه لا تَحلُّه الحوادث، وما كان بمشيئته وقدرته لا يكون إلا حادثًا، ولهم قولان: **منهم من قال**: القديم معنًى واحد، أو خمسةُ معانٍ، وذلك المعنىٰ يكون أمرًا ونهيًا وخبرًا، وهذه صفاتٌ له لا أقسامٌ له، وإن عبَّر عنه بالعربيَّة كان قرآنًا، وإن عبَّر عنه بالعبريَّة كان توراة[1].

ومنهم من قال: هو حروف، أو حروفٌ وأصواتٌ قديمةُ الأعيان.

والقول الثالث: إنه متكلِّمٌ بمشيئته وقدرته كلامًا قائمًا بذاته، قالوا: وهو حادث، ويمتنع أن يكون قديمًا؛ لامتناع كون المقدور المراد قديمًا.

وهذه الطوائف بنوا أقوالهم علىٰ أن ما لم يخل عن الحوادث فهو حادثٌ؛ لامتناع وجود ما لا نهاية له عندهم، وإذا امتنع ذلك تعيّن أن يكون لنوع الحوادث ابتداءٌ، كما للحادث المعيَّن ابتداءٌ، وما لم يَسْبق الحوادث كان معه أو بعده فيكون حادثًا، فلهذا منع هؤلاء أن تكون كلماتُ الله لا نهاية لها في الأزل، وإن كان من هؤلاء من يقولُ بدوام وجودها في الأبد.

وأما القول بأن كلماتِ الله لا نهاية لها مع أنها قائمةٌ بذاته، فهو القول المأثور عن أئمَّة السلف، وهو قول أكثر أهل الحديث، وكثيرٍ من أهل الكلام ومن الفلاسفة، وهذه الأقوال قد بُسِط الكلام عليها في غير موضع[2].

والمقصود هنا: أن قول النصارىٰ باطلٌ علىٰ كل قولٍ من هذه الأقوال الأربعة، كما تقدَّم بيان بطلانه علىٰ ذَيْنِكَ القولين؛ فإنه علىٰ قول الجمهور الذين يجعلون لله كلماتٍ كثيرة: إما كلماتٌ لا نهاية لها ولم تزل، وإما كلماتٌ

---

(١) بعدها في (و): «وإنجيلًا».

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ»: (١٢/ ٣٧، ٣٥٠).

لها ابتداء، وإذا كان له كلماتٌ كثيرةٌ فالمسيح ليس هو الكلمات الذي لا نهاية لها، وليس هو كلماتٌ كثيرة[1]، بل إنما خُلِقَ بكلمةٍ من كلمات الله، كما في الكتب الإلهيَّة القرآنِ والتوراةِ: أنه يخلق الأشياء بكلماته.

قال تعالىٰ في قصَّة بشارة مريم بالمسيح:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٧].

وقال أيضًا: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩].

وقال: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ (٣٤) مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ سُبْحَانَهُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤ - ٣٥]،

وقد أخبر الله في القرآن بخلقه للأشياء بكلماته في غير موضعٍ بقوله: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَن يَقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٨٢)﴾ [يس: ٨٢].

وفي التوراة: «ليكن يوم الأحد، ليكن كذا، ليكن كذا».

وأيضًا فعلىٰ قول هؤلاء، وعلىٰ قول من يجعل كلامَه إما معنًى واحدًا، وإما خمسة معان، وإما حروفٌ وأصواتٌ هي شيءٌ واحد= فكلُّهم يقولون: إن الكلام صفةٌ قائمةٌ بالموصوف لا يُتصَوَّر أن يكون جوهرًا قائمًا بنفسه، ولا يُتصَوَّر أن يكون خالقًا، ولا للكلام مشيئة، ولا هو جوهرٌ آخرُ غيرُ جوهرِ المتكلِّم، ولا يتَّحد بغير المتكلِّم، بل جمهورهم يقولون: إنه لا يَحُلُّ أيضًا بغير المتكلِّم.

---

(١) «وليس هو كلمات كثيرة» ليست في (و).



ومن قال بالحلول منهم فلا يقول: إن الحالَّ جوهر، ولا إلهٌ خالق. فتبيَّن أن ما قاله النصارىٰ باطلٌ علىٰ جميع الأقوال التي قالها الناس في كلام الله، مع أن أكثر هذه الأقوال خطأ، ولمَّا كان قول النَّصارىٰ فساده أظهر للعقلاء، كان الخطأ الذي في أكثر هذه الأقوال قد خفي علىٰ العقلاء الذين قالوها، ولم يَخْفَ عليهم فسادُ قول النصارىٰ.

وأيضًا فالذين قالوا بالحلول من الغلاة الذين يكفِّرهم المسلمون، كالذين يقولون بحلوله في بعض أهل البيت أو بعض المشايخ، هم وإن كانوا كفارًا شاركوا النَّصارىٰ في الحلول، ولكن لم يقولوا: إن الكلمة التي حلَّت هي الإله الخالق فيتناقضون تناقضًا ظاهرًا، بل ما في قول النصارىٰ من التَّناقض البيِّن ما ليس في قول هؤلاء، وإن كانوا في بعض الوجوه قولُهم شرٌّ من قول النصارىٰ.

الوجه الرابع: أن يقال: لو كان المسيح نفسَ(١) كلمةِ الله، فكلمةُ الله ليست هي الإله الخالق للسماوات والأرض، ولا هي تَغْفِر الذُّنوب، وتَجْزِي الناسَ بأعمالهم، سواءٌ كانت كلمتُه صفةً له أو مخلوقةً له كسائر صفاته ومخلوقاته.

فإن علمَ الله وقدرتَه وحياته لم تَخْلُق العالم، ولا يقول أحد: يا علم الله اغفر لي، و يا قدرة الله تُوْبي علي، و يا كلام الله ارحمني، ولا يقول: يا توراة الله، أو يا إنجيله، أو يا قرآنه، اغفر لي وارحمني، وإنما يُدْعىٰ الله سبحانه، وهو سبحانه متَّصِفٌ بصفات الكمال، فكيف والمسيح ليس هو نفسَ الكلام؟!

فإن المسيح جوهرٌ قائمٌ بنفسه، والكلام صفةٌ قائمةٌ بالمتكلم، وليس هو نفسَ الرَّبِّ المتكلِّم، فإن الربَّ المتكلِّم هو الذي يُسَمُّونه الأب، والمسيح ليس هو الأب عندهم، بل الابن، فضلّوا في قولهم من جهات:

---

(١) بعدها في (و): «الكلمة».



منها: جَعْلُ الأقانيم ثلاثة، وصفات الله لا تختصُّ بثلاثة.

ومنها: جعل الصِّفة خالقة، والصفةُ لا تخلق.

ومنها: جعلُهم المسيحَ نفسَ الكلمةِ، والمسيحُ خُلِقَ بالكلمة، فقيل له: «كن» فكان. كما سيأتي إن شاء الله تعالىٰ تفسير ذلك.

وإنما خُصَّ المسيحُ بتسميته كلمةَ الله دون سائر البشر؛ لأن سائر البشر خُلِقوا علىٰ الوجه المعتاد في المخلوقات، يُخلق الواحد من ذرية آدم من نطفة، ثم علقة، ثم مضغة، ثم يُنفخ فيه الروح، وخُلِقوا من ماء الأبوين: الأب والأم.

والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ لم يُخْلَق من ماء رجل، بل لما نَفَخَ روح القدس في أمِّه حَبِلَتْ به، وقال الله له: «كن» فكان.

ولهذا شبَّهه الله بآدمَ في قوله: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فإن آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ خُلِقَ من ترابٍ وماء، فصار طينًا، ثم أيْبَس الطِّين، ثم قال له: «كن» فكان. وهو حين نَفَخَ الروحَ فيه صار بشرًا تامًّا، لم يَحْتَجْ بعد ذلك إلىٰ ما احتاج إليه أولادُه بعد نفخ الرُّوح.

فإن الجنين بعد نفخ الرُّوح يَكْمُلُ خَلْقُ[1] جسدِه في بطن أمه، فيبقىٰ في بطنها نحوَ خمسةِ أشهر، ثم يخرج طفلًا يَرتضِعُ، ثم يكبر شيئًا بعد شيء.

وآدمُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حين خُلِقَ جسده قيل له: «كن» فكان بشرًا تامًّا بنفخ الروح فيه، ولكن لم يُسَمَّ كلمة الله؛ لأن جسده خُلِق من التُّراب والماء، وبقي مدةً طويلة يقال: أربعين سنة، فلم يكن خَلْقُ جسده إبداعيًا في وقتٍ واحد، بل خُلق شيئًا فشيئًا، وخَلْقُ الحيوان من الطِّين معتادًا[2] في الجملة.

---

(١) «خلق» ليست في (و).

(٢) كذا في الأصول «معتادًا» بالنصب.

وأما المسيح عليه السلام فخُلق جسدُه خلقًا إبداعيًا بنفس نفخ روح القدس في أمِّه، قيل له: «كن» فكان. فكان له من الاختصاص بكونه خُلِق بكلمة الله ما لم يكن لغيره من البشر.

ومن الأمر المعتاد في لغة العرب وغيرهم أن الاسم العامَّ إذا كان له نوعان خَصَّت أحدَ النوعين باسم، وأبقت الاسم العامَّ مختصًّا بالنَّوع، كلفظ الدابَّة والحيوان، فإنه عامٌّ في كلِّ ما يدبُّ، وكلِّ حيوان، ثم لمَّا كان للآدميِّ اسمٌ يخصُّه بقي لفظ[1] الحيوان يختصُّ به البهيم، ولفظ الدابَّة يختصُّ به الخيل، أو هي والبغال والحمير ونحو ذلك، وكذلك لفظ الجائز، والممكن، وذوي الأرحام، وأمثال ذلك، فلمَّا كان لغير المسيح ما يختصُّ به أُبقي اسمُ الكلمة العامَّة مختصًّا بالمسيح.

الطريق الثاني: أن ما ذكروه حجةٌ عليهم، فإن الله إذا لم يكلِّم أحدًا من الأنبياء إلا وحيًا أو من وراء حجاب= فالمسيح عيسىٰ ابنُ مريمَ يجب أن لا يكلِّمه إلا وحيًا، أو من وراء حجاب، أو يرسل إليه رسولًا.

وقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحۡيًا أَوۡ مِن وَرَآيِٕ حِجَابٍ ﴾ [الشورىٰ: ٥١]. يعمُّ كلَّ بشر: المسيحَ وغيرَه.

وإذا امتنع أن يكلِّمه إلا وحيًا أو من وراء حجاب، فامتناع أن يتَّحد به، أو يَحُلَّ فيه أَوْلَىٰ وأحرىٰ؛ فإن ما اتَّحد به وحلَّ فيه كلَّمه الله من غير حجابٍ بين اللَّاهوت والنَّاسوت، وهم قد سلَّموا أن الله لا يكلِّم بشرًا إلا من وراء حجاب.

---

(١) (د، ي، ع): «كلفظ».



الوجه الثالث: أن قوله. ﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُكَلِّمَهُ ٱللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِن وَرَآيِ حِجَابٍ﴾ [الشورى: ٥١].

يقتضي أن يكون الحجاب حجابًا يحجُب البشر كما حجب موسىٰ، فيقتضي ذلك أنهم لا يرونه في الدنيا وإن كلَّمهم، كما أنه كلَّم موسىٰ ولم يره موسىٰ، بل سأل الرؤية فقال: ﴿رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ۚ قَالَ لَن تَرَىٰنِى وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِى ۚ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ۚ فَلَمَّآ أَفَاقَ قَالَ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

قيل: أنا أول من آمن أنه لا يراك أحدٌ في الدنيا.

وعندهم في التوراة: «إن الإنسان لا يمكنه أن يرىٰ الله في الدنيا فيعيش»[١]، وكذلك قال عيسىٰ لما سألوه عن رؤية الله فقال: «إن الله لم يره أحد قط»[٢]. وهذا معروفٌ عندهم.

وإذا كان كذلك فلا بد أن يكون الحجابُ الحاجبُ للبشر ليس هو من البشر، وهذا يُبطِلُ قول النصارىٰ؛ فإنهم يقولون: إن الربَّ احتجب بحجابٍ بشريٍّ، وهو الجسد الذي ولدته مريم فاتخذه حجابًا، وكلم الناس من ورائه، والقرآن يدلُّ علىٰ أن الحجاب ليس من البشر.

---

(١) «التوراة إن الإنسان لا يمكنه أن يرىٰ الله في الدنيا فيعيش» ساقطة من (ي). وكذا سيقت العبارة في (و): «لن تراني إن الإنسان لا يمكنه رؤيتي في الدنيا فيعيش».
وقد جاء في سفر الخروج: الإصحاح (٣٣)، الفقرة (٢٠): «**أما وجهي فلا تستطيع أن تراه؛ لأنه لا يراني الإنسانُ ويحيا**».

(٢) جاء في سفر يوحنا، الإصحاح (الأول)، الفقرة (١٨): «**إن الله ما رآه أحد قط**».

يبيِّن هذا الوجهُ الرَّابع: وهو أن ذلك الجسد الذي ولدتْه مريم هو من جنس أجسام بني آدم، فإن جاز أن يتَّحد به ويَحُلَّ فيه ويُطِيقَ الجسد البشريَّ ذلك في الدنيا بما يجعله الله فيه من القوَّة= جاز أن يتَّحد بغيره من الأجسام بما يجعله فيه من القوة، وإذا جاز أن يتَّحد به جاز أن يكلِّمها بغير حجابٍ بينه وبينها بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، وهذا خلاف ما ذكروه وخلافُ القرآن.

فتبيَّن أن نفي الأنبياء لِأَن يراه المرء في الدُّنيا هو نفيٌّ لمماسَّته ببشرٍ بطريق الأولىٰ والأحرىٰ، والنَّاسوت المسيحيُّ[1] هو بشر، فإذا لم يمكنه أن يرىٰ الله؛ فكيف يمكنه أن يتَّحد به ويُمَاسَّه ويصيرَ هو وإياه كاللَّبن والماء، والنَّار والحديد، أو كالرُّوح والبدن؟

الوجه الخامس: أنه من المعلوم أن رؤية الآدمي له أيسرُ من اتحاده به، وحلولِه فيه، وأولىٰ بالإمكان، فإذا كانت الرؤية في الدنيا قد نفاها الله، ومنعها علىٰ ألسن رسله: موسىٰ وعيسىٰ ومحمدٍ صلوات الله عليهم وسلامه، فكيف يجوز اتصالُه بالبشر واتِّحادُه به؟

الوجه السادس: أنه لو كان حلولُه في البشر ممَّا هو ممكنٌ وواقع، لم يكن لاختصاص واحدٍ من البشر بذلك دون مَنْ قبلَه وبعده معنىٰ[2]، فإن القدرة شاملة، والمقتضي وهو وجود الله وحاجة الخلق موجود[3]، ولهذا لمَّا كانت الرسالة ممكنةً أرسل من البشر غيرَ واحد، ولمَّا كان سماع كلامه للبشر ممكنًا سمع كلامَه غيرُ واحد، ورؤيته في الدنيا بالأبصار لم تقع لأحدٍ باتفاق علماء

---

(١) «المسيحي» ساقطة من (د، ي، ع).

(٢) «معنىٰ» ساقطة من النسخ عدا (و).

(٣) كذا العبارة في (ي، ع): «والمقتضىٰ وهو جود الله موجود».

المسلمين، لكن لهم في النَّبيِّ ﷺ قولان، والذي عليه أكابر العلماء وجمهورهم أنه لم يره بعيْنه، كما دلَّ علىٰ ذلك الكتاب والسنة[1].

والخُلَّةُ لمَّا كانت ممكنةً اتخذ إبراهيم خليلًا، واتخذ محمدًا أيضًا خليلًا كما في «الصَّحيحين»[2] من غير وجهٍ عن النبي ﷺ أنه قال: «**إنَّ الله اتَّخذَني خَليلًا كما اتَّخذَ إبراهِيمَ خَلِيلًا**» وقال ﷺ: «**لو كُنتُ متَّخِذًا مِنْ أَهْلِ**[3] **الأرْضِ خَلِيلًا لاتَّخَذْتُ أبا بَكْرٍ خَلِيلًا، ولكنْ صَاحِبُكُم خَلِيلُ اللهِ**»[4]. يعني نفْسَه.

الوجه السابع: قولهم: «وإذا كانت اللَّطائف لا تظهر إلا في الكثائِف[5] مِثْل الرُّوحِ وغيرِها، فكلمة الله التي بها خلقت الكثائِفُ تظهر في غير كثيفٍ كُلًّا».

فيقال لهم: ظهور اللَّطائف في الكثائف كلامٌ مجمل، فإن أردتم أن روح الإنسان تظهر في جسده، أو الجنيَّ يتكلَّم علىٰ لسان المصروع ونحو ذلك، فليس هذا ممَّا نحن فيه، وإن أردتم أن الله تعالىٰ نفسَه يَحُلُّ في البشر، فهذا محلُّ

---

(١) من ذلك ما أخرجه البخاري (٣٢٣٤)، ومسلم (١١٧) عن عائشة رضي الله عنها قالت: «من زعم أن محمدًا رأىٰ ربه فقد أعظم...» الحديث. ومن قال: إن رسول الله ﷺ رآه، استدل بما أخرجه مسلم في صحيحه (١٧٦) عن ابن عباس، قال: ﴿مَا كَذَبَ ٱلْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ﴾ [النجم: ١١] ﴿وَلَقَدْ رَءَاهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ﴾ [النجم: ١٣]، قال: «رآه بفؤاده مرتين». قال المرّوذي: قلت لأبي عبدالله: إنهم يقولون إن عائشة قالت: «من زعم أن محمدًا...» فبأي شيء يدفع قولها؟ قال: بقول النبي ﷺ: رأيت ربي. وقولُه أكبر من قولها. انظر: «بيان تلبيس الجهمية» (٧/ ١٧٩)، «مجموع الفتاوىٰ» (٦/ ٥٠٧).

(٢) البخاري (٦٥٦٥)، ومسلم (٥٣٢) عن جندب رضي الله عنه.

(٣) «أهل» ليست في (ي) وهي ثابتة في بعض ألفاظ الصحيح.

(٤) «صحيح مسلم» (٢٣٨٣) عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

(٥) (و): «الكتائف» ومثلها في المواضع الآتية كلها بالتاء.

النزاع؛ فأين الدليل عليه وأنتم لم تذكروا إلا ما يدل علىٰ نقيض ذلك؟

الوجه الثامن: أن هذا أمرٌ لم يَدُلَّ عليه عقلٌ ولا نقل، ولا نطق نبيٌّ من الأنبياء بأن الله يَحُلُّ في بشر، ولا ادَّعىٰ صادقٌ قطُّ حلولَ الرب فيه، وإنما يدَّعِي ذلك الكذَّابون، كالمسيح الدَّجال الذي يظهر في آخر الزمان ويدَّعي الإلهيَّة، فيُنزِلُ الله ﷻ عيسىٰ ابن مريم مسيحَ الهدىٰ، فَيَقْتُلُ مسيحُ الهدىٰ الذي ادُّعيت فيه الإلهيَّةُ بالباطل المسيحَ الدَّجال الذي ادَّعىٰ الإلهيَّةَ بالباطل، ويُبيِّنُ أن البشر لا يَحُلُّ فيه ربُّ العالمين.

ولهذا لمَّا أنذر النَّبيُّ ﷺ بالمسيح الدَّجَّال، وقال: **«ما مِن نَبيٍّ إلّا وَقدْ أنْذَر أُمَّتَه المَسِيحَ الدَّجَّالَ، حتىٰ نوحٌ أنْذَرَ قوْمَه به»**. وذكر النَّبيُّ ﷺ له ثلاثَ دلائلَ ظاهرةً تظهر لكلِّ مسلم، تُبيِّن كَذِبَه:

أحدها: قوله: **«مَكْتُوبٌ بيْنَ عينَيْهِ كَافِرٌ، «ك ف ر» يَقْرَؤه كلُّ مُؤمِنٍ: قارئٍ وغيرُ قارئ»**.

الثاني: قوله: **«واعْلَمُوا أن أحدًا منكُم لن يَرَىٰ ربَّه حتَّىٰ يمُوتَ»**.

فبيّن أن الله لا يراه أحدٌ في الدُّنيا بِعيْنَيْهِ، وكلُّ بشرٍ فإنه يُرىٰ في الدُّنيا بالعين، فعُلِم أن الله لا يتَّحِد[1] ببشر.

الثالث: قوله: **«إنه أعْوَرُ، وإنَّ ربَّكُم ليْسَ بأعور»**[2]. ودلائل نفي الربوبيَّة عنه كثيرة.

---

(١) المثبت من (و)، وفي سائر النسخ: «يتجسد».

(٢) الجُمل المذكورة هي مجموع حديث واحد، مضىٰ تخريجه (١/ ٤٨٨).

لكن لمَّا كان حلولُ اللَّاهوت في البشر واتحادُه[1] به مذهبًا ضلَّ به طوائفُ كثيرون من بني آدم: النصارىٰ وغيرهم، وكان المسيح الدَّجال يأتي بخوارقَ عظيمةٍ، والنصارىٰ احتجُّوا علىٰ إلهيَّةِ المسيح بمثل ذلك= ذكر النبي ﷺ من علامات كَذِبه أمورًا ظاهرةً لا يُحتاج فيها إلىٰ بيان مواردِ النِّزاع التي ضلَّ فيها خلقٌ كثيرٌ من الآدميين، فإن كثيرًا من الناس بل أكثرهم، تُدْهِشُهم الخوارقُ حتىٰ يصدِّقوا صاحبَها[2] قبل النَّظر في إمكان دعواه، وإذا صدَّقوه صدَّقوا النصارىٰ في دعوىٰ إلهيَّة المسيح، وصدّقوا أيضًا من ادَّعىٰ الحلول والاتحاد في بعض المشايخ، أو بعضِ أهل البيت، أو غيرِهم من أهل الإفك والفجور.

وبهذا يظهر الجواب عمَّا يورده بعضُ أهلِ الكلام كالرَّازي[3] علىٰ هذا الحديث، حيث قالوا: دلائل كون الدَّجال ليس هو الله ظاهرة، فكيف يَحتجُّ النَّبيُّ ﷺ علىٰ ذلك بقوله: «**إنه أعور، وإن ربكم ليس بأعور**»؟

وهذا السُّؤال يدلُّ علىٰ جهل قائله بما يقع فيه بنو آدم من الضَّلال، وبالأدلة البَيِّنة التي تُبيِّن فساد الأقوال الباطلة، وإلا فإذا كان بنو إسرائيل في عهد موسىٰ ظنُّوا أن العجل هو إله موسىٰ، فقالوا: هذا إلهكم وإله موسىٰ، وظنُّوا أن موسىٰ نسيه.

والنَّصارىٰ مع كثرتهم يقولون: إنّ المسيح هو الله، وفي المنتسبين إلىٰ القبلة خلقٌ كثيرٌ يقولون ذلك في كثير من المشايخ وأهل البيت، حتىٰ إن كثيرًا

---

(١) (المطبوع): «واتخاذه» مخالف للأصول.

(٢) (و): «ما فيها».

(٣) «كالماردني» كتبت مهملة في (ي).

من أكابر شيوخ المعرفة والتصوُّف يجعلون هذا نهاية التَّحقيق والتَّوحيد، وهو أن يكون الموحِّد هو الموحَّد، وينشدون:

مَا وحَّدَ الواحِدَ مِنْ واحِدٍ إذ كلُّ مَنْ وَحَّدَه جَاحِدُ
تَوْحِيدُ مَنْ يُخبِرُ عن نَعْتهِ عارِيَّةٌ أَبْطلَها الواحِدُ
توحِيدُه إيَّاه توحِيدُه ونَعْتُ من يَنْعَتُه لاحِدُ[1]

فكيف يُستبعد مع إظهار الدَّجال هذه الخوارقَ العظيمةَ أن يُعتقد فيه أنه الله، وهو يقول: أنا الله، وقد اعتُقِدَ ذلك فيمن لم يَظهر فيه مثلُ خوارقه من الكذَّابين، وفيمن لم يقل: أنا الله، كالمسيح، وسائر الأنبياء والصالحين.

الوجه العاشر[2]: قولهم: «فكلمة الله التي بها خلقت اللَّطائف تظهر في غير كثيفٍ كُلًّا».

فيقال لهم: كلمة الله التي يدَّعون ظهورها في المسيح، أهي كلام الله الذي هو صفته، أو ذاتُ الله المتكلِّمةُ أو مجموعُها؟ فإن قلتم: الظَّاهر فيه نفس الكلام. **فهذا يراد به شيئان:**

إن أُرِيدَ به أن الله أنزل كلامَه علىٰ المسيح كما أنزله علىٰ غيره من الرُّسل، فهذا حقٌّ اتَّفق عليه أهل الإيمان، ونطق به القرآن.

وإن أُرِيدَ به أن كلام الله فارق ذاته وحلَّ في المسيح أو غيره، فهو باطل، مع أن هذا لا ينفع النصارىٰ؛ فإن المسيح عندهم إلهٌ خلق السماوات والأرض،

---

(١) هذه الأبيات منسوبة للهروي صاحب «منازل السائرين». قال المصنِّف في معرض كلامه عن مذهب الحلَّاج، كما في «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٣١٧): «وكلام صاحب منازل السائرين وأمثاله يشير إلىٰ هذا وتوحيده الذي قال فيه...» ثم أورد الأبيات المذكورة.

(٢) كذا جاء العدُّ بـ«العاشر» بتجاوز «التاسع» وعليه جرىٰ التسلسل بعد ذلك.



وهو عندهم ابن آدم وخالق آدم، وابنُ مريم وخالقُ مريم: ابنها بناسوته وخالقها بلاهوته.

وإن أرادوا بظهور الكلمة ظهورَ ذات الله أو ظهورَ ذاته وكلامه في الكثيف الذي هو الإنسان، فهذا أيضًا يراد به ظهورُ نوره في قلوب المؤمنين، كما قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥] إلىٰ قوله[(١)]: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾ [النور: ٣٥] الآيات. وكما ظهر الله من طور سيناء، وأشرق من سَاعِير، واستَعْلَن من جبال فَارَان، وكما تجلَّىٰ لإبراهيم، كما ذكره في التَّوراة[(٢)]، فهذا لا يختصُّ بالمسيح، بل هو لغيره كما هو له.

وإن أرادوا أن ذات الرَّب حلَّتْ في المسيح، أو في غيره، فهذا مَحَلُّ النِّزاع، فأين دليلهم علىٰ إمكان ذلك، ثم وقوعه؟ مع أن جماهير العقلاء من أهل الملل وغيرهم يقولون: هذا غير واقع، بل هو ممتنع.

الوجه الحادي عشر: قولهم: «فكلمة الله التي بها خُلِقت اللَّطائف تظهر في غير كثيفٍ كُلًّا» كلامٌ باطل.

فإن ظهور ما يظهر من الأمور الإلهيَّة إذا أمكن ظهوره فظهوره[(٣)] في اللَّطيف أولىٰ من ظهوره في الكثيف؛ فإن الملائكة تَنْزل بالوحي علىٰ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، وتَتَلَقَّىٰ كلام الله من الله[(٤)]، وتنزل به علىٰ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ، فيكون وصول كلام الله إلىٰ الملائكة قبل وصوله إلىٰ البشر وهم الوسائط كما قال تعالىٰ: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِۦ مَا يَشَآءُ﴾ [الشورىٰ: ٥١].

---

(١) في (و): أكمل الآية بنصِّها إلىٰ قوله: ﴿كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ﴾.

(٢) (و): «ذكر في النور» خطأ.

(٣) (د، ع): «بظهوره».

(٤) (و): «منه» بدل: «من الله».

والله تعالىٰ أيَّد رسله من البشر حتىٰ أطاقوا التلقِّي عن الملائكة، وكانت الملائكة تأتيهم أحيانًا في غير الصُّورة البشريَّة، وأحيانًا في الصُّورة البشريَّة، فكان ظهور الأمور الإلهيَّة باللَّطائف ووصولُها إليهم أولىٰ منه بالكثائف، ولو جاز أن يتَّحد الرَّبُّ سبحانه بحيٍّ من الأحياء ويَحُلَّ فيه لكان حلوله في مَلَكٍ من الملائكة واتحاده به أولىٰ من حلوله واتحاده بواحدٍ من البشر.

الوجه الثاني عشر: أن النَّاسوت المسيحيَّ عندهم الذي اتحد به هو البدن والروح معًا؛ فإن المسيح كان له بدنٌ وروحٌ كما لسائر البشر، واتَّحَد به عندهم اللَّاهوت، فهو عندهم اسمٌ يقع علىٰ بدنٍ وروحٍ آدميَّيْنِ وعلىٰ اللَّاهوت، وحينئذٍ فاللَّاهوت علىٰ رأيهم إنما اتَّحد في لطيفٍ وهو الرُّوح، وكثيفٍ وهو البدن، لم يظهر في كثيفٍ فقط، ولولا اللَّطيف الذي كان مع الكثيف، وهو الرُّوح لم يكن للكثيف فضيلةٌ ولا شرف.

الوجه الثالثَ عشر: أنهم يشبّهون اتِّحاد اللَّاهوت بالنَّاسوت باتِّحاد الرُّوح بالبدن، كما شبَّهوا هنا ظهورَه فيه بظهور الرُّوح في البدن، وحينئذٍ فمن المعلوم أن ما يصيبُ البدن من الآلام تتألم به الرُّوح، وما تتألم به الرُّوح يتألم به البدن، فيلزم[1] أن يكون النَّاسوت لما صُلِبَ وتألَّم وتوجَّع الوجع الشَّديد كان اللَّاهوت أيضًا متألِّمًا متوجِّعًا.

وقد خاطبتُ بهذا بعضَ النصارىٰ فقال لي: الروح بسيطة؛ أي: لا يلحقها ألم.

فقلت له: فما تقول في أرواح الكفار بعد الموت، أمنعَّمةٌ أو معذَّبة؟

---

(١) (و، ط.النيل): «فيلزمهم».

فقال: هي في العذاب.

فقلت: فَعُلِم أن الرُّوحَ المُفَارِقَةَ تُنعَّم وتُعذَّب، فإذا شبَّهتم اللَّاهوت في النَّاسوت بالرُّوح في البدن لزم أن تتألَّم إذا تألَّم[1] النَّاسوت كما تتألَّم الرُّوح إذا تألَّم البدن، فاعترف هو وغيره بلزوم ذلك.

الوجه الرابعَ عشر: أن قولهم: «وإذا كانت اللَّطائف لا تظهر إلا في الكثائف، فكلمة الله لا تظهر إلا في كثيفٍ كُلًّا» تركيبٌ فاسدٌ لا دلالة فيه، وإنما يدلُّ إذا بيَّنوا أنّ كلَّ لطيفٍ بأنه يظهر في كثيف، ولا يظهر في غيره، حتىٰ يقال: فلهذا ظهر الله في كثيفٍ ولم يظهر في لطيف.

وإلا فإذا قيل: إنه لا يَحُلُّ لا في لطيفٍ ولاكثيف، أو قيل: «إنه يَحُلُّ فيهما» بطل قولهم بوجوب حلوله في المسيح الكثيف دون اللطيف، وهم لم يؤلِّفوا الحُجَّة تأليفًا منتِجًا، ولا دلُّوا علىٰ مقدِّماتها بدليل، فلا أَتَوْا بصورة الدَّليل، ولا مادَّتِه، بل مغاليطَ لا تروج إلا علىٰ جاهلٍ يقلِّدُهم.

ولا يلزم من حلول الرُّوح في البدن أن يَحُلَّ كلُّ شيءٍ في البدن، بل هذه دعوىٰ مجرَّدة، وأرواح بني آدم تظهر في أبدانهم، ولا تظهر في أبدان البهائم، بل ولا في الجن، والملائكة تتصوَّرُ في صورة الآدميِّين وكذلك الجن، والإنسان لا يظهر في غير صورة الإنسان، فأيُّ دليلٍ من كلامهم علىٰ أن الربَّ يَحُلُّ في الإنسان الكثيف، ولا يَحُلُّ في اللَّطيف؟

والقوم شرعوا يحتجُّون علىٰ تجسُّم كلمة الله الخالقة فقالوا: «وأما تجسم كلمة الله الخالقة بإنسان مخلوق وولادتهما معًا، أي الكلمة مع الناسوت، فإن الله

---

(١) (و): «كما يتألم».



لم يكلِّم[1] أحدًا من الأنبياء إلا وحيًا أو من وراء حجاب» وليس فيما ذكروه قطُّ دلالةٌ لا قطعيَّةٌ ولا ظنيَّةٌ علىٰ تجسيم كلمة الله الخالقة وولادتها[2] مع الناسوت.

الوجه الخامسَ عشرَ: أنهم قالوا: «وأما تجسُّم كلمة الله الخالقة» ثم قالوا: «فكلمة الله التي بها خُلِقَت اللطائف» فتارةً يجعلونها خالقة، وتارةً يجعلونها مخلوقًا بها[3]، ومعلومٌ أن الخالق ليس هو المخلوق به، والمخلوقَ به ليس هو الخالق، فإن كانت الكلمة خالقة، فهي خَلقتِ الأشياء، لم تُخلَق الأشياءُ بها، وإن كانت الأشياءُ خُلقت بها، فلم تَخْلُقِ الأشياءَ، بل خُلقت الأشياءُ بها.

ولو قالوا: إن الأشياء خُلقت بها؛ بمعنىٰ أنَّ الله إذا أراد أمرًا فإنما يقول له: كن فيكون، لكان هذا حقًّا، لكنهم يجعلونها خالقة، مع قولهم بما يناقِض ذلك.

الوجه السَّادسَ عشر: أن يقال لهم: إذا كان الله لم يخاطِب بشرًا إلا وحيًا أو من وراء حجاب، أو يرسل رسولًا فيوحيَ بإذنه ما يشاء، فتكليمه للبشر بالوحي ومن وراء حجاب، كما كلَّم موسىٰ، وبإرسال ملَكٍ كما أرسل الملائكة، إما أن يكون كافيًا في حصول مراد الربِّ من الرِّسالة إلىٰ عباده أو ليس كافيًا، بل لا بدَّ من حلوله نفسِه في بشر.

فإن كان ذلك كافيًا أمكن أن يكون المسيحُ مثلَ غيره، فيوحيَ الله إليه أو يرسلَ إليه ملكًا فيوحيَ بإذن الله ما يشاء، أو يكلِّمه من وراء حجابٍ كما كلَّم موسىٰ، وحينئذٍ فلا حاجة به إلىٰ اتِّحاده ببشرٍ مخلوق.

---

(١) (و): «يخاطب».
(٢) (ي): «ولا أنها».
(٣) (ي): «مخلوقاتها».

وإن كان المتكلم ليس كافيًا وجب أن يتَّحد بسائر الأنبياء، كما اتَّحد بالمسيح، فيتحد بنوح وإبراهيم وموسىٰ[1] وداود وغيرهم، يبين هذا:

الوجه السَّابعَ عشر: وهو أنه من المعلوم أنَّ الأنبياء الذين كانوا قبل المسيح أفضلُ من عوامِّ النصارىٰ الذين كانوا بعد المسيح، وأفضلُ من اليهود الذين كذَّبوا المسيح.

فإذا كان الربُّ قد يُفَضَّل باتِّحاده في المسيح حتىٰ كلَّم عباده بنفسه، فيتحد[2] بالمسيح محتجبًا ببدنه الكثيف، وكلَّم بنفسه اليهود المكذِّبين للمسيح وعوامَّ النَّصارىٰ وسائرَ من كلَّمه المسيح= فكان أن يكلم من هم أفضلُ من هؤلاء من الأنبياء والصَّالحين بنفسه أوْلىٰ وأحرىٰ، مثلَ أن يتَّحِد بإبراهيمَ الخليل فيكلِّم إسحاق ويعقوب ولوطًا محتجبًا ببدن الخليل، أو يتَّحِد بيعقوبَ فيكلِّم أولادَه أو غيرَهم محتجبًا ببدن يعقوب، أو يتَّحِد بموسىٰ بنِ عمرانَ فيكلِّم هارون ويوشعَ بنَ نون وغيْرَهما محتجبًا ببدن موسىٰ، فإذا كان هو سبحانه لم يفعل ذلك، إما لامتناع ذلك، وإما لأن عزَّته وحكمته أعلىٰ من ذلك مع عدم الحاجة إلىٰ ذلك= عُلم أنه لا يفعل ذلك في المسيح بطريق الأولىٰ والأحرىٰ.

الوجه الثامن عشر: أنه إذا أمكنه أن يتَّحد ببشرٍ فاتِّحاده بملكٍ من الملائكة أولىٰ وأحرىٰ، وحينئذٍ فقد كان اتحادُه بجبريلَ الذي أرسله إلىٰ الأنبياء أولىٰ من اتِّحاده ببشرٍ يخاطب اليهود وعوامَّ النصارىٰ.

---

(١) «وموسىٰ» ليست في (ي).

(٢) (و): «متحدًا».

فصـــل

قالوا: «ولـذلك ظهـر في عيسىٰ ابـن مـريم؛ إذ الإنسـان أجـلُّ مـا خلقـه الله، ولهذا خاطب الخلق، وشاهدوا منه ما شاهدوا».

فيقال: إن ادَّعيتم ظهوره في عيسىٰ كمـا ظهـر في إبـراهيم وموسـىٰ ومحمـدٍ صلوات الله عليهم وسـلامه، وكمـا يظهـر في بيوتـه التـي أَذِن الله أن تُرْفَـع ويُـذكر فيها اسمُه، وذلك بظهور نوره ومعرفته، وذِكْرِ أسمائه وعبادته ونحـو ذلـك، مـن غير حلولِ ذاتِه في البشر ولا اتِّحاده بـه= فهـذا أمـرٌ مشـتركٌ بـين المسـيح وغيـره، فلا اختصاص للمسيح بهذا، وهذا أيضًا قد يُسمَّىٰ حلولًا، وعندهم أن الله يحُـلُّ في الصَّالحين، وهذا مـذكورٌ عنـدهم في بعـض الكتـب الإلهيَّـة، كمـا في كُتُبِهِـمْ في المزمـور الرابـع مـن الزبـور، يقـول داود عَلَيْهِ السَّلَامُ في مناجاتـه لربـه: «ولْيفـرحِ المتوكِّلون عليك إلىٰ الأبد، ويبْتَهِجُون، وتحُلُّ فيهم ويفتخرون»[1].

فأخبر أنه يحُلُّ في الصَّالحين المذكورين، فعلم أن هذا لا اختصاص للمسيح به، وليس المراد بهذا -باتفاقهم واتفاق المسلمين- أن ذات الله نفسِه تتَّحد بالبشر، ويصير اللَّاهوت والناسوت كالنَّار والحديد، والماء واللبن، ونحو ذلك مما يمثِّلون به الاتحاد، بل هذا يراد به حلولُ الإيمان به ومعرفتُه ومحبَّته وذكرُه وعبادته ونوره وهداه.

وقد يعبَّر عن ذلك بحلول المثال العلمي، كما قال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾[2] [الزخرف: ٨٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ

---

(١) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (٥)، الفقرة (١٢) «وليفرح جميع المعتصمين بك وليهللوا للأبد، أنت تظللهم فيبتهج بك من يحبون اسمك».

(٢) أثبتُ هذه الآية من (و) وليست في سائر النسخ.



﴿ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣]،[1] ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]. فهو سبحانه له المثل الأعلىٰ في قلوب أهل السماوات وأهل الأرض.

ومن هذا الباب ما يرويه النبيُّ ﷺ عن ربِّه[2] قال: «**يقُولُ اللهُ: أنا مَعَ عَبْدِي مَا ذكَرَني، وتحرَّكَتْ بِي شَفَتَاهُ**»[3]، فأخبر أن شفتيه تتحرَّك به، أي: باسمه.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح[4]: «**عَبْدِي مَرِضْتُ فلم تعُدْني، فيقُولُ العَبْدُ: ربِّ كيْفَ أعودُكَ وأنتَ ربُّ العَالمِينَ؟، فيقُولُ: أما عَلِمْتَ أن عَبْدِي فَلانًا مَرِضَ، فَلَوْ عُدْتَهُ لوجَدْتَنِي عِنْدَهُ**».

فقال: لوجدتني عنده، ولم يقل: لوجدتني إياه، «وهو عنده» أي: في قلبه، والذي في قلبه: المثال العلمي.

وقال تعالىٰ: «**عبدي جُعْتُ فلم تُطْعِمْني، فيقُولُ: كَيْفَ أطْعِمُكَ وأنت ربُّ العالمين؟ فيقول: أما عَلِمْتَ أنّ عَبْدِي فلانًا جَاعَ، فَلَوْ أطْعَمْتَهُ لوَجَدْتَ ذلِكَ عِنْدِي**» ولم يقل لوجدتني قد أكلتُه.

---

(١) (و): «وقال تعالىٰ».

(٢) بعدها في (و): «في الحديث الصحيح».

(٣) أورده البخاري في صحيحه (٩/ ١٥٣) معلّقًا، وأخرجه ابن ماجه (٣٧٩٢) والحاكم في المستدرك (١٨٢٤) وقال: هذا حديث صحيح الإسناد، ولم يخرجاه. وقد صوّب الدارقطني كما في العلل (٩/ ٥٠) طريق محمد بن مهاجر، وعبد الرحمن بن يزيد بن جابر، عن إسماعيل بن عبيد الله، عن كريمة بنت الحسحاس، عن أبي هريرة رضي الله عنه.
وينظر: «تغليق التعليق» (٥/ ٣٦٢).

(٤) مسلم (٢٥٦٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

وكذلك قوله في الحديث الصحيح الذي رواه البخاري[1] عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: يقول الله تعالىٰ: « **مَنْ عَادَىٰ لِي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْتُهُ بِالحَرْبِ، وَمَا تَقَرَّبَ إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ مَا افْتَرَضْتُ عَلَيْهِ، وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ، فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا**».

وفي رواية: «**فَبِي يَسْمَعُ، وَبِي يُبْصِرُ، وَبِي يَبْطِشُ، وَبِي يَمْشِي، ولَئِنْ سَأَلَنِي لَأُعْطِيَنَّهُ، وَلَئِنِ اسْتَعَاذَنِي لَأُعِيذَنَّهُ، وَمَا تَرَدَّدْتُ عَنْ شَيْءٍ أَنَا فَاعِلُهُ تَرَدُّدِي عَنْ قَبْضِ نَفْسِ عَبْدِي المُؤْمِنِ، يَكْرَهُ المَوْتَ وَأَكْرَهُ مَسَاءَتَهُ**».

وهذا الحديث قد يحتجُّ به القائلون بالحُلولِ العام، أو الاتِّحاد العام، أو وحدة الوجود، وقد يَحْتجُّ به من يقول بالخاصِّ من ذلك، كأشباه النصارىٰ.

والحديثُ حجةٌ علىٰ الفريقين؛ فإنه قال: «**مَنْ عَادَىٰ لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْته بِالحَرْبِ**» فأثبت ثلاثة: وليًّا له، وعدوًّا يعادي وليه، وميَّز بين نفسه وبين وليِّه، وعدوِّ وليِّه، فقال: «**مَنْ عَادَىٰ لي وَلِيًّا فَقَدْ آذَنْته بِالحَرْبِ**»، ولكن دلَّ ذلك علىٰ أن وليَّه الذي والاه فصار يحبُّ ما يحبُّ، ويبغض ما يبغض، ويوالي من يوالي، ويعادي من يعادي، فيكون الرَّبُّ مُؤْذِنًا بالحرب لمن عاداه، بأنه معادٍ لله.

ثم قال تعالىٰ: «**وَمَا تقرَّب إِلَيَّ عَبْدِي بِمِثْلِ أَدَاءِ ما افتَرَضْتُ عَلَيْهِ**»، ففرَّقَ بين العبد المتقرِّب، والربِّ المتقرَّبِ إليه، ثم قال: « **وَلَا يَزَالُ عَبْدِي يَتَقَرَّبُ إِلَيَّ بِالنَّوَافِلِ حَتَّىٰ أُحِبَّهُ** »، فبيَّن أنه يحبُّه بعد تقرُّبه بالنَّوافل والفرائض.

---

(١) (٦٥٠٢).



ثم قال: «فَإِذَا أَحْبَبْتُهُ: كُنْتُ سَمْعَهُ الَّذِي يَسْمَعُ بِهِ، وَبَصَرَهُ الَّذِي يُبْصِرُ بِهِ، وَيَدَهُ الَّتِي يَبْطِشُ بِهَا، وَرِجْلَهُ الَّتِي يَمْشِي بِهَا».

وعند أهل الحلول والاتحاد العام أو الوحدة: هو صدره وظهره ورأسه وشعره، وهو كلُّ شيء، أو في كلِّ شيءٍ قبل التقرُّب وبعده، وعند أهل الحلول[1] الخاصِّ صار هو وهو كالنَّار والحديد، والماءِ واللبن، لا يختصُّ بذلك آلَةَ الإدراك والفعل.

ثم قال تعالىٰ: «فَبِي يسْمَعُ، وبِي يُبْصِرُ، وبِي يَبْطِشُ، وبِي يَمْشِي»، وعلىٰ قول هؤلاء: الربُّ هو الذي يسمع ويبصر ويبطش ويمشي. والرسول إنما قال: «فَبِي».

ثم قال: «ولئِنْ سَأَلَنِي لأعْطِينَّه، ولئِنِ اسْتَعاذَنِي لأُعيذَنَّهُ». فجعل العبد سائلًا مستعيذًا، والربَّ مسئولًا مستعاذًا به، وهذا يناقض الاتحاد.

وقوله: «فبِي يسْمعُ» مثل قوله: «مَا تحَرَّكتْ بِي شَفَتاه»، يريد به المثال العلمي.

فوليُّ الله يكون الله[2] في قلبه. أي: معرفته ومحبته وهداه وموالاته، وهو المثال العلمي، فبذاك الذي في قلبه يسمع ويبصر ويبطش ويمشي.

والمخلوق إذا أحبَّ المخلوق أو عظَّمه أو أطاعه يعبِّر عنه بمثل هذا، فيقول: أنت في قلبي وفي فؤادي، وما زلتَ بين عيني، ومنه قول القائل[3]:

---

(١) «أهل الحلول» مثبتة من (و) وليست في سائر النسخ.

(٢) (د، ع، المطبوعتان): «وقول الله فيكون الله».

(٣) (و): «الشاعر».



مثالُـك في عَيْنِـيْ وذِكْـرُكَ في فَمِـي ... ومَثْـوَاكَ في قَلْبِـي فَـأيْنَ تغيـبُ[1]

وقول الآخر:

ومـن عَجَبِـي أَنّـي أحـنُّ إِلـيْهمُ ... وأَسأَلُ عَنْهمْ من لقِيتُ وهم معي

وتَطْلُـبُهم عَيْنِـيْ وهـم في سَـوَادِها ... ويَشْتَاقُهُمْ قَلبي وَهُـم بَـيْنَ أَضْـلُعِيْ[2]

ومثل هذا كثير، مع علم العقلاء أن نفس المحبوب المعظَّم هو في نفسه، ليست ذاته في عين مُحِبِّه ولا في قلبه، ولكن قد يشتبه هذا بهذا حتىٰ يظن الغالطون أن نفس المحبوب المعبود في ذات المحب العابد.

ولذلك غلط بعضُ الفلاسفة حتىٰ ظنُّوا أن ذاتَ المعلومِ المعقول يتَّحد بالعالِم العاقل، فجعلوا المعقول والعقل والعاقل[3] شيئًا واحدًا، ولم يميِّزوا بين حلول مثال المعلوم[4] وبين حلول ذاته، وهذا يكون لضعْفِ العقل وقوة سلطان المحبة والمعرفة، فيغيب الإنسان بمعبوده عن عبادته، وبمحبوبه عن محبَّته، وبمشهوده عن شهادته، وبمعروفه عن معرفته، فيفنىٰ من لم يكن عن

---

(١) ذكر البيت ياقوت الحموي في «معجم الأدباء» (٣/ ١١٩٤)، منسوبًا لأبي الحكم الإشبيلي وفيه: (خيالك في وهمي) بدل: (مثالك في عيني).

(٢) ذكرهما السِّلفي في «أخبار وتراجم أندلسية» (ص١٢٤) عن غانم بن الوليد المخزومي الأشوني أنه أنشده:

ومـن عجـبٍ أني أحـنُّ إلـيهمُ ... وأسألُ عنْهم كلَّ ركْبٍ وهمْ معي

فيبكي دمًا طَرْفي وهُمْ فِي سَوادِه ... ويشكو جَوىٰ قلبي وهُم بَيْنَ أَضْلُعِي

وذكر ياقوت في «معجم البلدان» (١/ ٢٠٢) عند «أُشُونَة»: «غانما» المذكور آنفًا، قال: «وهو الذي يقول فيما ذكر السِّلَفي...» وذكر الأبيات.

(٣) «والعاقل» ليست في (ع).

(٤) (د، ي): «المعلول»، (ع): «المعقول».

شهود العبد، لا أَنَّه نفْسَه يَعْدَمُ ويفنىٰ[1] في[2] من لم يزلْ في شهوده.

ومِنْ هذا المقام إذا غلط قد يقول مثل ما يحكىٰ عن أبي يزيد البَسطامي[3]: «سبحاني» أو «ما في الجُبَّة إلا الله».

وفي هذا[4] تُذكر حكايةٌ، وهو أن شخصًا كان يحبُّ آخر: فألقىٰ المحبوبُ نفسه في ماء، فألقىٰ المحبُّ نفسه خلفه، فقال: أنا وقعت، فَلِمَ وقعْتَ أنت؟ فقال: غِبْتُ بك عني، فظننتُ أنك أنِّي.

فهذا العبد المحبُّ لمَّا استولىٰ علىٰ قلبه سلطانُ المحبَّة صار قلبه مستغرقًا في محبوبه، لا يشهد قلبُه غيرَ[5] ما في قلبه، وغاب عن شهود نفسه وأفعاله، فظنَّ أنه هو نفسُ المحبوب، وهذا أهون من أن يظن أن ذاتَ المحبوبِ نفسه.

فهذا الظنُّ لاتحاد الذَّات أو لحلولها ظنٌّ غالِطٌ وقع فيه كثيرٌ من الناس، فالذين قالوا: إن المسيح أو غيرَه من البشر هو الله، أو إن الله حالٌّ فيه، قد يكون غلطهم من هذا الجنس، لما سمعوا كلامًا يقتضي أن الله في ذات الشخص، وجعلوا فعل هذا فعل هذا، ظنُّوا ذاك اتحاد الذات وحلولها.

وإنما المراد أن معرفة الله فيه، واتحاد المأمور به والمنهيِّ عنه والموالي والمعادي، كقوله تعالىٰ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]،

---

(١) المثبت من (ط.النيل)، (و): «ويبقىٰ»، (ع): «ينفىٰ» وفي (د، ي) مهملة.
(٢) «في» ليست في (و، ي، ط.النيل).
(٣) «البسطامي» ليست في (د، ي، ع). والبَسطامي هو: طيفور بن عيسىٰ بن آدم بن عيسىٰ. توفي سنة إحدىٰ وستين ومائتين. انظر: «وفيات الأعيان» (٢/ ٥٣١) «العبر» (١/ ٣٧٥).
(٤) بعدها في (و): «قد».
(٥) «غير» ليست في (و).

وقوله: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

وليس ذلك لأن الرَّسول هو الله، ولا لأن الله نفسَه حالٌّ في الرسول، بل لأن الرَّسولَ يأمر بما يأمر اللهُ به، وينهىٰ عما ينهىٰ الله عنه، ويحبُّ ما يحبُّه الله، ويُبغض ما يبغضُه الله، ويوالي أولياء الله، ويعادي أعداءَ الله، فمن بايعه علىٰ السَّمع والطاعة فإنما بايع الله علىٰ السَّمع والطاعة، ومن أطاعه فإنما أطاع الله.

وكذلك المسيح وسائرُ الرُّسل؛ إنما يأمرون بما يأمر الله به، وينهون عما ينهىٰ الله عنه، ويوالون أولياء الله ويعادون أعداء الله، فمن أطاعهم فقد أطاع الله، ومن صدَّقهم فَقَبِلَ منهم ما أخبروا به، فقد قَبِلَ عن الله، ومن والاهم فقد والىٰ الله، ومن عاداهم وحاربهم فقد عادىٰ الله وحارب الله.

ومن تصوَّر هذه الأمور تبيَّن له أن لفظ «الحلول» قد يُعبَّر به عن معنًى صحيح، وقد يعبَّر به عن معنًى فاسد.

وكذلك حلول كلامه في القلوب؛ ولذلك كره الإمام أحمد بن حنبل الكلامَ في لفظ حلول القرآن في القلوب، كما قد ذُكر في غير هذا الموضع(١).

ومما يوضِّح هذا أن الشيء له وجودٌ في نفسه هو هو، وله وجودٌ في المعلوم(٢) والأذهان، ووجودٌ في اللفظ واللسان، ووجودُ في الخطِّ والبنان(٣)، وجود عينيٌّ شخصيّ، وعلميّ، ولفظيّ، ورسميّ، وذلك كالشَّمس مثلًا، فلها تحقُّقٌ في نفسها، وهي الشَّمسُ التي في السماء، ثم يتصوَّر بالقلب الشمس، ثم يَنْطِقُ اللسان بلفظ الشَّمس، ويكتب بالقلم: الشَّمس.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٨/ ٤١٦).

(٢) (و): «العلوم».

(٣) المثبت من (و)، وفي باقي النسخ: «والبيان».

والمقصود بالكتابة: مطابقة اللفظ. وباللفظ: مطابقة العلم. وبالعلم: مطابقة المعلوم.

فإذا رأىٰ الإنسان في كتابٍ خطَّ الشمس، أو سمع قائلًا يذكر الشَّمس قال: هذه الشَّمس قد جعلها الله سراجًا وهَّاجًا، وهذه الشمس تطلع من المشرق وتغرب في المغرب، فهو يشير إلىٰ ما سمعه من اللَّفظ ورآه من الخط، وليس مرادُه نفس اللَّفظ والخطّ؛ فإن ذلك ليس هو الشمس التي تطلع وتغرب، وإنما مرادُه ما يُقصَد بالخطِّ واللفظ ويرادُ بهما، وهو المدلول المطابق لهما.

وكذلك قد يُرىٰ اسمُ الله مكتوبًا في كتابٍ ومعه اسمُ صنم، فيقول: آمنت بهذا، وكفرت بهذا، ومراده أنه مؤمنٌ بالله كافرٌ بالصَّنم، فيشير إلىٰ اسمه المكتوب، ومراده: المُسَمَّىٰ[1].

وكذلك إذا سمع من يذكر أسماء الله الحسنىٰ قال: هذا ربُّ العالمين، ومراده: المسمَّىٰ بتلك الأسماء.

ومن هذا قول أنس بن مالك: «كان نقش خاتم النبيِّ ﷺ ثلاثة أسطر: محمدٌ رسول الله، محمدٌ سطر، ورسولٌ سطر، والله سطر»[2] ومراده بهذه الأسماء: الخطُّ لهذا وهذا وهذا، لا اللَّفظ ولا المسمَّىٰ.

ومما يشْبِهُ هذا: ما يُرىٰ في المرآة أو الماء، مثلُ أن يرىٰ الشمس أو غيرها في ماء أو مرآة، فيشار إلىٰ المرئيِّ فيقال: هذا الشمس، وهذا وجهي أو وجه فلان، وليس مرادُه أن نفس الشَّمس أو وجهَه أو وجهَ فلانٍ حلَّ في الماء

---

(١) بعدها في (المطبوعتين): «بهذا الاسم» خلاف الأصول.

(٢) البخاري (٣١٠٦).

أو المرآة، ولكن لما كان المقصود بتلك الرؤية هو الشمس وهو الوجه= ذَكَرَه.

ثم قد يقال: رآه رؤيةً مقيّدةً في الماء أو المرآة، وقد يقال: رآه بواسطة الماء والمرآة، وقد يقال: رأىٰ مثالَه وخيالَه المُحَاكي له، ولكنَّ المقصود بالرؤية هو نفسُه. ومثل هذا كثير.

ومعلومٌ أن ما في القلوب من المثال العلميِّ المطابق للمعلوم أقربُ إليه من اللَّفظ، واللَّفظ أقربُ من الخط، فإذا كان قد يشار إلىٰ اللَّفظ والخطِّ والمراد هو نفسُه، وإن لم يكن الخطُّ واللَّفظ هو ذاتَه، بل به ظَهر وعُرف، فَلأَن يشارَ إلىٰ ما في القلب ويرادَ به المعروفُ الذي ظهر للقلب، وتجلَّىٰ للقلب، وصار نوره في القلب بطريق الأولىٰ.

والعقلاء إنما[1] تتوجَّه قلوبهم إلىٰ المقصود المراد دون الوسائل، ويعبِّرون بعباراتٍ تدلُّ علىٰ ذلك لظهور مرادهم بها، كما يقولون لمن يعرف علم غيره، أو لمن يأمر بأمره، ويُخبِر بخبره، هذا فلان، فإذا كان مطلوبهم عِلْمَ عالمٍ، أو طاعةَ أمير، فجاء نائبه القائمُ مقامَه في ذلك، قالوا: هذا فلان، أي المطلوبُ منه هو مع هذا، فَلِاتِّحاد المقصود بهما يعبِّرون عن أحدهما بلفظ الآخر، كما يقال: عكرمة هو ابن عباس، وأبو يوسف هو أبو حنيفة.

ومن هذا الباب ما يذكر عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه قال: «أنا وأبي واحد، من رآني فقد رأىٰ أبي»[2] وقوله تعالىٰ فيما حكاه عنه رسوله: «**عَبْدِي مَرِضْتُ فَلَمْ تعُدْني، عَبْدِي جُعْتُ فلَمْ تُطْعِمْني**»، ويشبهه قوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، فينبغي أن يُعرف هذا النوع من الكلام، فإنه تنحلُّ به

---

(١) (و): «دائمًا».

(٢) إنجيل يوحنا: (١٤)، (٩): «من رآني رأىٰ الأب، ألا تؤمن بأني في الأب وأن الأب فيّ».

إشكالاتٌ كثيرة، فإن هذا موجودٌ في كلام الله ورسله وكلام المخلوقين في عامَّة الطوائف، مع ظهور المعنىٰ ومعرفة المتكلِّم والمخاطَب أنه ليس المراد أن ذاتَ أحدهما اتَّحدت بذاتِ الآخر.

بل أبلغ من ذلك يطلق لفظ «الحلول» و«الاتحاد» ويراد به معنًى صحيح، كما يقال: فلان وفلان بينهما اتِّحاد، إذا كانا متَّفِقَيْن فيما يُحبَّان ويبغضان، ويواليان ويعاديان، فلما اتَّحد مرادهما ومقصودهما صار يقال: هما متَّحدان، وبينهما اتِّحاد، ولا يعني بذلك أن ذات هذا اتَّحدت بذات الآخر، كاتِّحاد النار والحديد، والماء واللبن، أو النَّفْس والبدن، وكذلك[1] لفظ الحلول، والسكنىٰ، والتخلُّل، وغير[2] ذلك، كما قيل:

قَد تخلَّلْتَ مَسْلَكَ الرُّوح مِنّي ... وبِذَا سُمّيَ الخَليْلُ خَليلًا[3]

والمتخلِّل مسلكَ الروح منه هو محبته له، وشعوره به، ونحو ذلك، لا نفسُ ذاتِه، وكذلك قول الآخر:

ساكِنٌ في القَلبِ يَعْمُرُهُ ... لستُ أَنْسَاه فأذكرُهُ[4]

والسَّاكن في القلب هو مثاله العلميُّ ومحبَّته ومعرفته[5]، فَتَسْكُنُ في القلب معرفته ومحبَّته لا عينُ ذاته، وكذلك قول الآخر:

إذا سَكَنَ الغَدِيْرُ عَلَىٰ صَفاءٍ ... وجُنِّبَ أَنْ يُحركَه النَّسيمُ

(١) (و): «ونحو».

(٢) (و): كالذي قبله.

(٣) ذكره أبو منصور الثعالبي في «المنتحل» (ص٢٢٢) بلا نسبة.

(٤) ذكره المستعصمي في «الدر الفريد» (٦/ ٣٩٤) بلا نسبة.

(٥) «ومحبته ومعرفته» ليست في (و).



بَـدَتْ فيـه السَّـماءُ بِـلا امْتِـراءٍ كَـذَاكَ الشَّـمْسُ تَبْـدُو وَالنّجُـومُ
كَـذَاكَ قُلـوْبُ أَرْبَـابِ التَّجَلِّـي يُـرىٰ في صَـفْوِهَا اللهُ العَظِـيمُ[1]

وقد يقال: فلانٌ ما في قلبه إلا الله، وما عنده إلا الله، يراد بذلك: إلا ذكره ومعرفته ومحبته وخشيته وطاعته وما يشبه ذلك، أي: ليس في قلبه ما في قلب غيره من المخلوقين، بل ما في قلبه إلا الله وحده، ويقال: فلان ما عنده إلا فلان، إذا كان يَلْهَجُ بِذكرِه ويُفَضِّله علىٰ غيره.

وهذا بابٌ واسع، مع عِلْم المتكلم والمستمع أن ذات فلان لم تَحُلَّ في هذا، فضلًا عن أن تتَّحد به، وهو كما يقال عن المرآة إذا لم تقابل إلا الشمس: ما فيها إلا الشمس، أي: لم يظهر فيها غيرُ الشمس.

وأيضًا فلفظ «الحلول» يراد به: حلول ذات الشيء تارةً، وحلول معرفته ومحبته ومثاله العلمي تارةً كما تقدم ذكره.

وعندهم في النُّبوَّات أن الله حلَّ في غير المسيح من الصَّالحين، وليس المراد به أن ذات الربِّ حلَّت فيه، بل كما[2] يقال: فلان ساكِنٌ في قلبي وحالٌّ في قلبي وهو في سري وسُوَيْدَاء قلبي، ونحو ذلك، وإنما حلّ فيه مثاله[3] العلمي، وإذا كان كذلك فمعلومٌ أن المكان إذا خلا ممَّن يعرف الله ويعبدُه لم يكن هناك ذكر الله ولا حلَّت فيه عبادته ومعرفته، فإذا صار في المكان من يَعْرِف الله ويَعْبُدُه ويذكره ظَهَرَ فيه ذكره، والإيمان به، وحلَّ فيه الإيمانُ بالله، وعبادتُه، وذكره، وهو بيت الله ﷻ، فيقال: إن الله فيه، وهو حالٌّ فيه.

---

(١) لم أقف علىٰ نسبة لهذه الأبيات، وقد أوردها ابن القيم في «مدارج السالكين» (٣/ ٣١٨).
(٢) «كما» مثبتة من (و)، وليست في سائر النسخ.
(٣) (د، ي): «مثله».

كما يقال: إن الله في قلوب العارفين، وحالٌّ فيهم، والمراد به حلولُ معرفته والإيمانِ به ومحبته، ونحوُ ذلك، وقد تقدَّم شواهد ذلك.

فإذا كان الربُّ في قلوب عباده المؤمنين، أي: نورُه ومعرفتُه، وعبَّر عن هذا بأنه حالٌّ فيهم وهم حالُّون في المسجد، قيل[1]: إن الله في المسجد وحالٌّ فيه بهذا المعنىٰ، كما يقال: الله في قلب فلان، وفلانٌ ما عنده إلا الله، كما قال النبي ﷺ في الحديث الصحيح: **«أما عَلِمْتَ أن عبْدِي فلانًا مَرِضَ، فلو عُدْتَه لوَجَدْتَني عِنْدَه»**.

وممَّا يزيد ذلك إيضاحًا: ما يراه النائم من بعض الأشخاص في منامه، فيخاطبه ويأمره وينهاه ويخبره بأمورٍ كثيرة، وهو يقول: رأيتُ فلانًا في منامي فقال لي: كذا، وقلت له: كذا، وفعل كذا، وفعلت كذا، ويذكر أنواعًا من الأقوال والأفعال، وقد يكون فيها علومٌ وحكمٌ وآدابٌ يُنتفع بها غايةَ المنفعة، وقد يكون ذلك الشخص الذي رأىٰ في المنام حيًّا، وهو لا يشعر بأن ذاك رآه في منامه فضلًا عن أن يكون شاعرًا بأنه قال أو فعل، وقد يقصُّ الرائي عليه رؤياه، ويقول له الرائي: يا سيِّدي رأيتُك في المنام فقلتَ لي: كذا، وأمرتني بكذا، ونهيتَني عن كذا، والمرئيُّ لا يعرف ذلك، ولا يشعر به؛ لأن المرئي الذي حلَّ في قلب الرائي هو المثال العلميُّ المطابقُ للعيني[2].

كما يرىٰ الرائي في المرآة أو الماء الشخصَ الموجودَ في الخارج، فهو المقصود، وبعضُ المرْئيِّين في المنام قد يدري بأنه رئي في المنام ويكاشِفُ

---

(١) (و): «مثل».

(٢) (و): «للمعنىٰ».

بذلك الرَّائي كما قد يكاشفه بأمورٍ أخرىٰ، لا لأنه نفسَه حلَّ فيه.

والرؤيا إذا كانت صادقةً كان ذلك القول والعمل مناسبًا لحال المرئيِّ ممَّا هو عادته يقوله ويفعله بنفسه، فمثَّل للرائي مثالَه قائلًا له وفاعلًا؛ ليعلم أنه نفسَه يقولُه ويفعلُه فينتفع بذلك الرَّائي، كما يُحكىٰ للإنسان قولُ غيره وعملُه ليَعرف بذلك نفس القول والعمل المحكيّ، فإن كثيرًا من الأشياء لا يعرفه النَّاس أو أكثرهم إلا بالمثل المضروب له، إما في اليقظة وإما في المنام، مع العلم بأن عين هذا ليس عينَ هذا.

ومن توهَّم أنه إذا رأىٰ شخصًا في منامه بأن ذاتَه نفسَها حلَّت فيه دلَّ علىٰ جهله؛ فإن المرئيَّ[1] كثيرًا ما يكون حيًّا وهو لا يشعر بما[2] رآه ذلك، لا روحُه تشعر ولا جسمُه، فلا يَتوهَّم أن ذات روحِه تمثَّلت في صورته الجسميَّة للنَّائم، بل الممثَّل في نفس الرائي مثالٌ مطابقٌ له، وجسمُه وروحُه حيث هما.

ثم الرؤيا قد تكون من الله، فتكون حقًّا، وقد تكون من الشيطان، كما ثبت تقسيمها إلىٰ هذين في الأحاديث الصحيحة.

والشَّيْطان كما قد يتمثَّل في المنام بصورة شخصٍ فقد يتمثل أيضًا في اليقظة بصورة شخصٍ يراه كثيرٌ من الناس، يُضِلُّ بذلك من لم يكن من أهل العلم والإيمان، كما يجري لكثيرٍ من المشركين[3] الهندِ وغيرهم، إذا مات ميِّتُهم يرونه قد جاء بعد ذلك، وقضىٰ ديونًا، وردَّ ودائع، وأخبرهم بأمورٍ عن موتاهم، وإنما هو شيطانٌ تصوَّر في صورته، وقد يأتيهم في صورة من يُعظِّمونه من الصَّالحين، ويقول: أنا فلان، وإنما هو شيطان.

---

(١) (و): «الرائي».

(٢) (المطبوعتان): «بمن».

(٣) (المطبوعتان): «مشركي».

وقد يقوم شيخٌ من الشُّيوخ، ويُخلف موضعَه شخصًا في صورته يُسَمُّونه روحانية الشيخ ورقيقته[1]، وهو جنِّيٌّ تصوَّر في صورته، وهذا يقع لكثيرٍ من الرُّهبان وغير الرهبان من المنتسبين إلىٰ الإسلام، وقد يرىٰ أحدُهم في اليقظة من يقول له: أنا الخليل، أو أنا موسىٰ، أو أنا المسيح، أو محمد، أو أنا فلان لبعض الصحابة، أو الحواريِّين، ويراه طائرًا في الهواء، وإنما يكون ذلك من الشياطين، ولا تكون تلك الصُّورةُ مثلَ صورة ذلك الشخص.

وقد قال النبي ﷺ: «**مَن رَآنِي في المَنامِ فَقَدْ رآنِي حقًّا؛ فإنَّ الشَّيْطانَ لا يتمثَّلُ في صُورَتِي**»[2]، فرؤيته في المنام حق، وأما في اليقظة فلا يُرىٰ بالعين هو ولا أحدٌ من الموتىٰ، مع أن كثيرًا من الناس قد يَرىٰ في اليقظة من يظنُّه نبيًّا من الأنبياء، إما عند قبره، وإما عند غير قبره، وقد يَرىٰ القبر انشقَّ وخرج منه صورةُ إنسان، فيظنُّ أن الميتَ نفسَه خرج من قبره، أو أن روحه تجسَّدت وخرجت من القبر، وإنما ذلك جنِّيٌّ تَصوَّر في صورته ليُضِلَّ ذلك الرائي؛ فإن الرُّوح ليست ممَّا تكون تحت التراب وينشقُّ عنها التراب؛ فإنها وإن كانت قد تتَّصل بالبدن، فلا يحتاج في ذلك إلىٰ شقِّ التراب، والبدنُ لم ينشقَّ عنه التراب، وإنما ذلك تخْييلٌ من الشيطان، وقد جرىٰ مثل هذا لكثيرٍ من المنتسبين إلىٰ المسلمين، وأهل الكتاب، والمشركين.

ويظن كثير من الناس أن هذا من كرامات عباد الله الصالحين، ويكون من إضلال الشياطين، كما قد بسط الكلام في هذا الباب في غير هذا الكتاب، مثل «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» وغير ذلك[3].

---

(١) (و، ع): «ورفيقته»، ومهملة في (ي)، (المطبوعتان): «ورفيقه».

(٢) البخاري (١١٠)، مسلم (٢٢٦٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) انظر: «الفرقان» (ص١٧٢)، و«مجموع الفتاوىٰ» (١/ ١٧٧)، (١٠/ ٤٠٦).

فصـل

وإن أردتـم بقـولكم: «ظهـر في عيسىٰ» حلـولَ ذاتـه واتحادَه بالمسيـح أو غيرِه= فهذه دعوىٰ مجرَّدةٌ من غير دليلٍ متقدِّمٍ ولا متأخِّر، وكون الإنسان أجلَّ ما خلقه الله -لو كان مناسبًا لحلوله فيه- أمرٌ لا يختصُّ به المسيح، بل قد قام الدليل علىٰ أن غير عيسىٰ عليه السلام أفضلُ منه، مثل إبراهيمَ ومحمدٍ صلىٰ الله عليهما وسلم، وهذان اتخذهما الله خليلين، وليس فوق الخُلَّة مرتبة، فلو كان يَحُلُّ في أجلِّ ما خلقه الله من الإنسان لكونه أجلَّ مخلوقاته لحلَّ في أجلِّ هذا النوع، وهو الخليل ومحمدٌ صلىٰ الله عليهما وسلم، وليس معهم قطُّ حجةٌ علىٰ أن الجسد المأخوذ من مريم إذا لم يتَّحد باللَّاهوت علىٰ أصلهم أنه أفضل من الخليل وموسىٰ.

وإذا قالوا: إنه لم يعمل خطيئة، فيحيىٰ بن زكريا لم يعمل خطيئة[1]، ومن عمل خطيئةً وتاب منها فقد يصير بالتوبة أفضلَ مما كان قبل الخطيئة، وأفضلَ ممن لم يعمل تلك الخطيئة، والخليلُ وموسىٰ أفضلُ من يحيىٰ الذي يُسَمُّونه «يوحنَّا المُعْمِدَاني».

وأما قولهم: «ولهذا خاطب الخلق» فالذي خاطب الخلقَ هو عيسىٰ ابن مريم، وإنما سمع الناسُ صوته، لم يسمعوا غيرَ صوته، والجنِّيُّ إذا حلَّ في الإنسان وتكلم علىٰ لسانه يَظهر للسامعين أن هذا الصوت ليس هو صوت الآدمي، ويتكلم بكلامٍ يعلم الحاضرون أنه ليس كلام الآدمي.

والمسيح عليه السلام لم يكن يُسمَعُ منه إلا ما يُسمع مِنْ مِثْلِهِ من الرُّسل، ولو

---

(١) بعدها في (ي، ع): «وأفضل ممن لم يعمل تلك الخطيئة» كذا.



كان المتكلِّم علىٰ لسان النَّاسوت هو جنيًّا، أو ملكًا لظهر ذلك، وعرف أنه ليس هو البشر؛ فكيف إذا كان المتكلِّم هو ربُّ العالمين؟ فإن هذا لو كان حقًّا لظهر ظهورًا أعظمَ من ظهور كلام الملَك والجنيِّ علىٰ لسان البشر بكثيرٍ كثير.

وأما ما شاهدوه من معجزات المسيح ﷺ، فقد شاهدوا من غيره ما هو مثلَها وأعظمَ منها، وقد أحيا غيرُه الميِّتَ وأخبر بالغيوب أكثر منه، ومعجزاتُ موسىٰ أعظم من معجزاته وأكثر، وظهور المعجزات علىٰ يديه يدلُّ علىٰ نبوَّته ورسالته، كما دلَّت المعجزات علىٰ نبوَّة غيره ورسالتهم، لا تدلُّ علىٰ الإلهيَّة.

والدَّجال لما ادَّعىٰ الإلهيَّة لم يكن ما يظهر علىٰ يديه من الخوارق دليلًا عليها؛ لأن دعوىٰ الإلهيَّة ممتنعةٌ، فلا يكون في ظهور العجائب ما يدل علىٰ الأمر الممتنع.

فصـــل

قالوا: «وقد قال الله علىٰ أفواه الأنبياء والمرسلين، الذين تنبَّؤا علىٰ ولادته من العذراء الطاهرة مريم[1]، وعلىٰ جميع أفعاله التي فعلها في الأرض، وصعوده إلىٰ السماء. وهذه النُّبوات جميعُها عند اليهود مُقِرِّين ومعترفين بها، ويقرؤنها في كنائسهم، ولم ينكروا منها كلمةً واحدة».

فيقال: هذا كلُّه مما لا ينازع المسلمون فيه، فإنه لا ريب أنه وُلِد من مريم العذراء البتول التي لم يمسَّها بشرٌ قطّ، وأن الله أظهر علىٰ يديه الآيات، وأنه صَعِد إلىٰ السَّماء، كما أخبر الله بذلك في كتابه، كما تقدَّم ذكره[2].

فإذا كان هذا مما أخبرت به الأنبياء في النُّبوَّات التي عند اليهود لم ينكر ذلك، وإن كان اليهود يتأوَّلون ذلك علىٰ غير المسيح، كما[3] في النُّبوَّات من البشارة بمحمَّدٍ ﷺ، فهو حقٌّ، وإن كان الكافرون به من أهل الكتاب يتأوَّلون ذلك علىٰ غيره.

(١) «مريم» ليست في (ع).
(٢) انظر: (١/ ٣٤٢).
(٣) بعدها في (و): «أن ما».



فصـــل

قالوا: «وسبيلنا[1] أن نذكر من بعض قول الأنبياء الـذين تنبَّؤا علىٰ السَّـيد المسيح، ونزوله إلىٰ الأرض.

قال عِزْرا الكاهن حيث سباهم بُخْتُنَصَّر الفريدي[2] إلىٰ أرض بابل[3] إلىٰ أربعِمِائةٍ واثنتينِ وثمانينَ سنة: «يأتي المسيح ويخلّص الشعوب والأمم»[4].

وفي كمال هذه المدة أتىٰ[5] السَّيد المسيح.

وقال أرمِيَا النبي عن ولادته في ذلك الزمـان: «يقـوم لـداود ابـنٌ؛ هـو ضـوءُ النور، يملك الملك، ويُعَلِّم، وَيُفَهِّمُ، ويقيم الحق والعدل في الأرض، ويخلِّص من آمن به مـن اليهـود ومـن بني إسـرائيل وغيـرهم، ويبقـىٰ بيتُ المقـدس بغير مقاتل، ويسمىٰ الإله»[6].

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «وسئلنا».

(٢) (و): لم تحرّر. وتقدّم ذكر «بختنصر» (١/ ٥٦).

(٣) مدينة عريقة، مشهورة بحدائقها المعلقة، وكانت إحدىٰ عجائب الدنيا السبع. وقد اندثرت بابل، ولكن آثارها لا زالت باقية، تقع بين النهرين، وهـي إلـىٰ الفـرات أقـرب، في الجنـوب من بغداد، وإلىٰ الشرق من كربلاء. انظـر: «معجـم البلـدان» (١/ ٣٠٩)، «معجـم المعالـم الجغرافية» (ص ٣٩).

(٤) في سفر عزرا، الإصحاح (٢)، الفقرة (١): «وهؤلاء بنو الإقليم الذين صعدوا مـن الجـلاء، ممن جلاهم نبوكدنصر، ملك بابل، إلىٰ بابل، ورجعوا إلىٰ أورشليم ويهوذا».

(٥) (ي): «أنا».

(٦) في سفر أرميا، الإصحاح (٢٣)، الفقرة (٥): «ها إنها ستأتي أيام يقول الرب أُقِيمُ فيهـا لـداود نبتًا بارًّا ويَمْلِكُ مَلِكٌ يتصرف بفطنة، ويُجري الحكـم والبِرَّ في الأرض، في أيامـه يخلّـص يهوذا، ويسكن إسرائيل في أمان. والاسم الذي سيدعىٰ به هو الرب برّنا».



وأما قوله: «ابنٌ لداود»؛ لأن مريم كانت من نسل داود، ولأجل ذلك قال النبي: «يقوم لداود ابنٌ».

فيقال: أما قول عِزْرا الكاهن فليس فيه إلا إخبارُه بأنه يأتي المسيحُ ويخلِّص الشعوبَ والأممَ، وهذا مما لا ينازِع فيه المسلمون، فإنهم يُقِرُّون بما أخبر الله به في كتابه من إتيان المسيح عليه السلام، وتخليصِ اللهِ به كلَّ من آمن به من الشُّعوب والأمم إلىٰ أن بُعِثَ محمدٌ صلى الله عليه وسلم.

فكلُّ من كان مؤمنًا بالمسيح، متَّبعًا لما أنزل عليه من غير تحريفٍ ولا تبديل، فإن الله خلَّصه بالمسيح من شرِّ الدنيا والآخرة، كما خلَّص الله تعالىٰ بموسىٰ من اتَّبعه من بني إسرائيل.

ومن حرَّف وبدَّل فلم يتَّبِعِ المسيح، ومن كذَّب محمَّدًا صلى الله عليه وسلم فهو كمن كذَّب المسيح بعد أن كان مُقِرًّا بموسىٰ عليه السلام.

ولكنَّ هذا النصَّ وأمثالَه حجةٌ علىٰ اليهود الذين يتأوَّلون ذلك علىٰ أن هذا ليس هو المسيح ابن مريم، وإنما هو مسيحٌ يُنتظر، وإنما ينتظرون المسيح الدَّجال مسيحَ الضلالة، فإن اليهود يتَّبعونه، ويقتلهم المسلمون معه «**حتَّىٰ يقولَ الشَّجَرُ والحَجَرُ: يا مُسلمُ هذا يَهُودِيٌّ ورائي تَعَالَ فاقْتُلْهُ**»[1]. وهكذا قال في النُّبوَّة الثانية التي ذكروها عن أرْمِيا النَّبيِّ عليه السلام.

---

(١) تقدّم تخريجه (١/ ٢٦٤).

فصل[1]

قالوا: «وقال أرْمِيا النَّبيِّ عن ولادته في ذلك الزمان: «يقوم لداود ابنٌ، وهو ضوء النور، يَملِكُ المُلْكَ، ويُعلِّمُ، ويُفَهِّمُ، ويقيمُ[2] الحقَّ والعدل في الأرض، ويخلِّص من آمنَ به من اليهود، ومن بني إسرائيل، وغيرهم، ويبقىٰ بيتُ المقدس بغير مقاتل، ويُسَمَّىٰ الإله».

وأما قوله: «ابنٌ لداود» لأن مريم كانت من نسل داود؛ ولأجل ذلك قال: «ويقوم لداود ابن».

والجواب أن يقال: قد قال فيه: «ويُخلِّصُ من آمن به من اليهود، ومن بني إسرائيل»[3] وهو كما فسَّرنا به التَّخليص الذي نقلوه عن عِزْرا الكاهن.

وأما قوله: «واسمه الإله» فهذا يدل علىٰ أنه ليس هو الله ربُّ العالمين، وإنما لفظ «الإله» اسمٌ سُمِّي به كما سُمِّي موسىٰ إلهًا لفرعونَ عندهم في التوراة[4]؛ إذ لو كان هو الله ربُّ العالمين لكان أجلَّ من أن يقال: «ويُسَمَّىٰ الإله»، فإن الله ﷻ لا يعرف بمثل هذا، ولا يقال فيه: إن الله يُسَمّىٰ الإله، ولقال: يأتي الله بنفسه فيظهر. ويقال: يملك[5] الملك، وربُّ العالمين ما زال ولا يزال مالكًا للملك سبحانه.

---

(١) «فصل» ليس في (و).

(٢) (ي): «ويعمّ».

(٣) بعدها (و): «وغيرهم».

(٤) في سفر الخروج، الإصحاح (٧)، الفقرة (١): «فقال الرب لموسىٰ: انظر قد جعلتك إلهًا لفرعون».

(٥) (د، ي، ع): «ملك».

وأيضًا فإنه قال: «يقوم لداودَ ابنٌ هو ضوءُ النُّور» ومعلومٌ أن الابن الذي من نسل[1] داود الذي اسمُ أمِّه مريم هو الناسوت فقط؛ فإن اللَّاهوت ليس هو من نسل بشر، وقد تبين أن هذا الناسوت الذي هو ابن داود يُسَمَّىٰ الإله، فَعُلِمَ أن هذا اسمٌ للنَّاسوت المخلوق، لا للإله الخالق.

وأيضًا فإنه قال: «وهو ضوء النور» لم يجعله النُّورَ نفسه، بل جعله ضوءَ النُّور، والله تعالىٰ منوِّرُ كلِّ نور، فكيف يكون هو ضوءَ النور، والله تعالىٰ قد سمَّىٰ محمدًا ﷺ سراجًا منيرًا، ولم يكن بذلك خالقًا، فكيف إذا سُمِّي ضوء النور؟

وأيضًا فإنه لم يجعل القائمَ إلا ابنَ داود، وابنُ داود مخلوق، وأضاف الفعل إلىٰ هذا المخلوق، ولو كان هذا هو الله ربُّ العالمين قد اتَّحد بالنَّاسوت البشري لبيَّن أرْمِيا وغيرُه من الأنبياء ذلك بيانًا قاطعًا للعذر، ولم يكتفوا بمثل هذه الألفاظ التي هي إما صريحة أو ظاهرة في نقيض ذلك، أو مجملةٌ لا تدلُّ علىٰ ذلك، فإنه من المعلوم أن إخبارهم بإتيان نبيٍّ من الأنبياء أمرٌ معتادٌ ممكن، ومع هذا يذكرون فيه من البشارات والدَّلائل الواضحة ما يزيل الشُّبهة.

وأما الإخبار بمجيء الربِّ نفسه وحلوله، أو اتِّحاده بناسوتٍ بشريٍّ فهو: إما ممتنعٌ غيرُ ممكنٍ كما يقوله أكثر العقلاء من بني آدم، ويقولون: يُعلم بصريح العقل أن هذا ممتنع، وإما ممكنٌ كما يقوله بعض الناس، وحينئذٍ فإمكانه خفيٌّ علىٰ أكثر العقلاء، وهو أمرٌ غيرُ معتاد.

---

(١) (و): «قبيل».

وإتيان الربِّ بنفسه[1] أعظم من إتيان كل رسولٍ ونبي، لا سيَّما إذا كان إتيانه باتِّحاده ببشرٍ لم يَظهر علىٰ يديه من الآيات ما يختصُّ بالإلهيَّة، بل لم يَظهر علىٰ يديه إلا ما ظهر علىٰ يد غيره من الأنبياء ما هو مثلُه أو أعظمُ منه.

والله تعالىٰ لما كان يكلِّم موسىٰ ولم يكن موسىٰ يراه ولا يتَّحد لا بموسىٰ ولا بغيره، ومع هذا فقد أظهر من الآيات علىٰ ذلك وعلىٰ نبوَّة موسىٰ ما لم يَظهر مثلُه ولا قريبٌ منه علىٰ يد المسيح.

فلو كان هو بذاته متَّحدًا بناسوتٍ بشريٍّ لكان الأنبياء يخبرون بذلك إخبارًا صريحًا بيِّنًا لا يحتمل التأويلات، ولكان الربُّ يُظهر علىٰ ذلك من الآيات ما لم يُظهر علىٰ يد رسولٍ ولا نبي، فكيف والأنبياء لم ينطقوا في ذلك بلفظٍ صريح؟ بل النُّصوص الصَّريحة تدلُّ علىٰ أن المسيح مخلوق، ولم تأت آيةٌ علىٰ خلاف ذلك، بل إنما تدلُّ الآيات علىٰ نبوَّة المسيح.

---

(١) (و): «نفسه».

فصـل

قالوا: وقـال أشْعِيا النبيُّ: «قـل لصِـهيون هنـا تفـرح وتتهلَّـل، فـإن الله يـأتي ويُخلِّـصُ الشعـوب، ويُخَلِّـصُ مَـن آمـن بـه ولشـعبه[1]، ويخلِّـص مدينـة بيـت المقدس، ويُظْهِرُ الله ذراعه الطَّاهرَ فيها لجميع الأمـم المبدَّدين، ويجعلهـم أمـة واحـدة، ويُبصِـرون[2] جميـعَ أهـل الأرض مـن خـلاص الله، لأنـه يمشـي معهـم وبين يديهم، ويجمعهم إلهُ إسرائيل»[3].

فيقال: هذا مُحتاجٌ[4] أولًا أن يُعلم مِن هذه النُّبـوَّة أن هـذا الكـلامَ نُقـل بـلا تحريفٍ[5] للفظه، ولا غلطٍ في الترجمة. ولـم يثبـت ذلك، وإذا ثبت ذلك فحينئذٍ هو نظير ما في التَّوراة من قوله: «جاء الله من طور سيناء، وأشرق[6] مـن سـاعير، واستعلن من جبال فاران».

ومعلومٌ أنه ليس في هذا ما يدلُّ علىٰ أن الله حالٌّ في موسىٰ بـنِ عمـران، ومتَّحِـدٌ به، ولا أنه حالٌّ في جبل فاران، ولا أنه متَّحدٌ بشيءٍ من طور سينا ولا ساعير.

---

(١) (المطبوعتان): «وبشعبه».

(٢) (ع): «وينصرون»، (د، ي): بلا نقط.

(٣) جـاء في سـفر أشـعيا، الإصـحاح (٤٠)، الفقـرة (٩): «اصـعدي إلـىٰ جبـل عـالٍ مبشِّـرةً يـا صهيون، ارفعي صوتك بقوة يا مبشِّرة أورشليم، ارفعيه ولا تخافي، قولي لمدن يهـوذا: هـو ذا «إلهكـم» هـو ذا «السيد الـرب» يـأتي بقـوة وذراعـه تمـدّه بالسـلطان، هـو ذا أجـزاؤه معـه وأجرته قدامه، يرعىٰ قطيعه كالراعي يجمع الحملان بذراعه».
وفي الإصحاح (٥٢)، الفقرة (١): «استيقظي، استيقظي، البسي عِـزَّكِ يـا صـهيون، البسـي ثياب فخرك يا أورشليم، يا مدينة القدس، فإنه لا يعود يدخلك أقلف ولا نجس».

(٤) (ي، ع، ط.النيل): «يحتاج».

(٥) (د، ي، ع): «أن يعلم أن في هذه النبوة هـذا الكـلام بـلا تحريـف» بـدل قولـه: «أن يعلـم مـن هذه النبوة أن هذا الكلام نقل بلا تحريف».

(٦) (المطبوعتان): «وأشرف».

وكذلك هذا اللَّفظ لا يدلُّ علىٰ أنه حالٌّ في المسيح ومتَّحِدٌ به؛ إذ كلاهما سواء.

وإذا قيل: المراد بذلك قربُه ودنوُّه، كتكليم موسىٰ، وظهورِ نورِه وهداه وكتابِه ودينه، ونحو ذلك من الأمور التي وقعت، قيل[1]: وهكذا في المسيح عليه السلام.

وقوله: «ويُظْهِرُ اللهُ ذراعَه الطَّاهر لجميع الأمم المبدَّدِين» قد قال في التَّوراة مثل هذا في غير موضع، ولم يدلَّ ذلك علىٰ اتِّحادِه بموسىٰ عليه السلام. [2]وأما قوله عن الأمم المبدَّدِين: «فيجعلهم أمة واحدة». فهم الذين اتَّبعوا المسيح، فإنهم كانوا متفرِّقين مبدَّدِينَ فجعلهم أمةً واحدة.

وأما قوله: «ويُبصِرون[3] جميعَ أهل الأرض خلاص الله؛ لأنه يمشي معهم وبين يديهم، ويجمعهم إله إسرائيل» فمثل هذا في التَّوراة في غير موضع، ولم يدلَّ ذلك علىٰ اتِّحاده بموسىٰ، ولا حلوله فيه، كقوله في «السِّفْر الخامس من التوراة»: «يقول موسىٰ لبني إسرائيل: لا تهابوهم ولا تخافوهم؛ لأن الله ربَّكم السائرَ بين أيديكم هو يحارب عنكم»[4].

وفي موضعٍ قال موسىٰ: «إن الشَّعب هو شعبك. فقال: أنا أمضي أمامك فارتحل. فقال: إن لم تمض أنت أمامنا وإلا فلا تُصْعِدْنا من هاهنا، وكيف أعلم

---

(١) (و، ع): «قبل».

(٢) (جميع النسخ وط.النيل): قبلها «كقوله» والظاهر أنها حشو، ففي هامش (ع) أشار إلىٰ نسخة: «وأما قوله» بلا قوله: «كقوله».

(٣) (ع): «وينصرون».

(٤) جاء في سفر التثنية، الإصحاح (١) الفقرة (٢٩-٣٠): «فقلت لكم: لا ترتعدوا ولا تخافوا منهم؛ فإن الربَّ إلهكم السائرَ أمامكم هو يقاتل عنكم».



أنا وهذا الشعب أني وجدت أمامك نعمة كذا[١] إلا بسيرك معنا»[٢].

وفي السِّفر الرَّابع من الفصل الثَّالثَ عشر: «إن أصْعدتَّ[٣] هؤلاء من بينهم بقدرتك، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم، يرونه عينًا بعين، وغمامك يقيم[٤] عليهم، وبعمودِ غمامٍ يسير بين أيديهم نهارًا، وبعمودِ نارٍ ليلًا»[٥].

وفي التوراة أيضًا: «يقول الله لموسىٰ: إني آت إليكٍ في غِلَظ الغمام لكي يسمع القوم مخاطبتي لك»[٦].

ثم قوله: «اجمع سبعين رجلًا من شيوخ بني إسرائيل، وخذهم إلىٰ خباء العرب يقفون معك حتىٰ أخاطبهم»[٧].

---

(١) بعدها في (د، ط.النيل): «بعلمك».

(٢) جاء في سفر الخروج، الإصحاح (٣٣) الفقرة (١٥-١٦): «إن لم يسر وجهك فلا تصعدنا من هـهنا، فإنه بماذا يعرف أني نلت حظوة في عينيك أنا وشعبك؟ أليس بسيرك معنا؟».

(٣) (و): «إني أسعدت»، (ط.النيل): «ربي اصعدن».

(٤) (و): «يعم».

(٥) جاء في سفر العدد، الإصحاح (١٤) الفقرة (١٣): «فقال موسىٰ للرب: لقد سمع المصريون أنك أصعدتَّ هذا الشعبَ من بينهم بقوَّتك، فأخبروا بذلك أهل هذه الأرض، وسمعوا أيضًا أنك يا رب في وسط هذا الشعب الذي تراءيت له يارب وجهًا لوجه، وأن غمامك مقيمٌ فوقهم، وأنك سائرٌ أمامهم بعمودِ غمامٍ نهارًا، وبعمودِ نارٍ ليلًا».

(٦) جاء في سفر الخروج، الإصحاح (١٩) الفقرة (٩): «وَقال الربُّ لموسىٰ: ها أنا آتٍ إليك في كثافة الغَمام، لكي يسمع الشعب مخاطبتي لك ويؤمن بك للأبد».

(٧) جاء في سفر العدد، الإصحاح (١١) الفقرة (١٦-١٧): «فقال الرب لموسىٰ: اجمع لي سبعين رجلًا من شيوخ إسرائيل الذين تعلم أنهم شيوخ الشعب وكتبتهم، وخذهم إلىٰ خيمة الموعد فيقفوا هناك معك، فأنزِلُ وأتكلم معك هناك، وآخذ من الرُّوح الذي عليك وأحلّه عليهم».



فصـل

قالوا: وقال زكريا النَّبيُّ: «افرحي يا بيت صِهيون، لأني آتيكِ وأحُلُّ فيك وَأَتَرَايَا، قال الله: ويؤمن بالله في ذلك اليوم الأمم الكثيرة، ويكونون له شعبًا واحدًا، ويَحُلُّ هو وهم فيك، وتعرفين أني أنا الله القويُّ الساكنُ فيك، ويأخذ الله في ذلك اليوم الملك من يهوذا، ويملك[1] عليهم إلىٰ الأبد»[2].

فيقال: مثل هذا قد ذُكِر عندهم عن إبراهيم وغيرِه من الأنبياء أن الله تجلَّىٰ له، واسْتَعْلَن له، وترايا له[3]، ونحوَ هذه العبارات، ولم يدلَّ ذلك علىٰ حلوله فيه واتحاده به.

وكذلك إتيانه، وهو لم يقل: إني أَحُلُّ في المسيح وأتَّحد به[4]، وإنما قال عن بيت صِهيون: «آتيكِ وأحُلُّ فيكِ» كما قال مثل ذلك عندهم في غير هذا ولم يدلَّ علىٰ حلوله في بشر، وكذلك قوله: «وتعرفين أني أنا الله القوي الساكن فيك» لم يُرِدْ بهذا اللفظ حلولَه في المسيح، فإن المسيح لم يسكن بيت المقدس وهو قويٌّ، بل كان يدخلها وهو مغلوبٌ مقهورٌ حتىٰ أُخذ وصُلب، أو شبهه، والله سبحانه إذا حصلت معرفته والإيمان به في القلوب اطمأنَّت وسكنت.

---

(١) (و): «ويملكه».

(٢) جاء في سفر زكريا، الإصحاح الثاني، الفقرة (١٤-١٦): «اهتفي وافرحي يا بنت صهيون، فهآنذا آتي وأسكن في وسطك، يقول الرب: فتنضم أمم كثيرة إلىٰ الرب في ذلك اليوم وتكون لي شعبًا فأسكن في وسطك، فتعلمين أن رب القوات أرسلني إليك، ويرث الرب يهوذا نصيبه في الأرض المقدسة».

(٣) «له» ليست في (و، ع).

(٤) (ي): «وكذلك إتيانه وهو لم يقل إني أحل فيه واتحاده به وكذلك إتيانه إلىٰ في المسيح واتحد به» كذا العبارة ، وهي بدل قوله: «وكذلك إتيانه، وهو لم يقل: إني أحل في المسيح وأتحد به».



وكان بيت المقدس لما ظهر فيه دين المسيح عليه السلام بعد رفعه حصل فيه من الإيمان بالله ومعرفته ما لم يكن قبل ذلك.

وجماع هذا أن النُّبوَّاتِ المتقدِّمة، والكتبَ الإلهيَّة: كالتَّوراة، والإنجيل، والزبور، وسائر نبوَّات الأنبياء، لم تَخُصَّ المسيحَ بشيءٍ يقتضي اختصاصَه باتحاد اللَّاهوت به وحلوله فيه كما يقوله النصارىٰ، بل لم تَخُصَّه إلا بما خصَّه به محمدٌ ﷺ في قوله[1] [تعالىٰ]: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

فكُتُب الأنبياءِ المتقدِّمةُ وسائرُ النُّبوَّات موافقةٌ لما أخبر به محمدٌ ﷺ، يُصدِّقُ بعضُها بعضًا، وسائر ما تستدلُّ به النصارىٰ علىٰ إلهيَّتِه من كلام الأنبياء قد يوجد مثل تلك الكلمات في حقِّ غير المسيح، فتخصيص المسيح بالإلهيَّة دون غيره باطل، وذلك مثلُ اسمِ الابن والمسيح، ومثلُ حلولِ روح القدس فيه، ومثلُ تسميتِه إلهًا، ومثلُ ظهورِ الربِّ، أو حلولِه فيه، أو سكونِه فيه، أو في مكانه.

فهذه الكلمات وما أشبهها موجودةٌ في حقِّ غير المسيح عندهم، ولم يكونوا بذلك آلهة.

ولكن القائلون بالحلول والاتحاد في حقِّ جميع الأنبياء والصَّالحين قد يحتجُّون بهذه الكلمات.

وهذا المذهب باطلٌ باتفاق المسلمين واليهود والنَّصارىٰ، وهو باطلٌ في

---

(١) (المطبوع): «بل لم تخصه إلا بما خصه الله به علىٰ لسان محمد في قول الله تعالىٰ...» بدل قوله «بل لم تخصه إلا بما خصه به محمد ﷺ في قوله...». كذا زاد المحقق في العبارة معلّلًا بأن عبارة الأصل تحيل المعنىٰ وتجعل الآية منسوبة للنبي ﷺ.

نفسه عقلًا ونقلًا، وإن كان طوائفُ من أهل الإلحاد والبدع المنتسبين إلىٰ المسلمين، واليهود، والنصارىٰ تقول به، فهؤلاء اشتبه عليهم ما يحُلُّ في قلوب العارفين به من[1] الإيمان به ومعرفته ونوره وهداه والروح منه، وما يُعَبَّرُ عنه بالمثل الأعلىٰ والمثال العلمي.

وظنوا أن ذلك ذاتُ الربّ، كمن يظن أن نفسَ اللَّفظ بالاسم هو المعنىٰ الذي في القلب، أو نفسَ الخطِّ هو نفس اللَّفظ، ومن يظنُّ أن ذات المحبوب حلَّت في ذات المحبِّ واتَّحدت به، أو نفسَ المعروف المعلوم حلَّ في ذات العالم العارف به واتَّحد به، مع العلم اليقينيِّ أن نفسَ المحبوب المعلوم باين عن ذات المحبِّ، روحِه وبدنِه، لم يَحُلَّ واحدٌ منهما في ذات المحب. وقد قال الله تعالىٰ:

﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الروم: ٢٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى فِى ٱلسَّمَآءِ إِلَٰهٌ وَفِى ٱلْأَرْضِ إِلَٰهٌ﴾ [الزخرف: ٨٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ﴾ [الأنعام: ٣].

فالمؤمنون يعرفون الله، ويحبُّونه، ويعبدونه، ويذكرونه، ويقال: هو في قلوبهم[2]، والمراد: معرفته ومحبَّته وعبادته، وهو المَثَل العلميّ، ليس المرادُ نفسَ ذاتِه، كما يقول الإنسان لغيره: أنت في قلبي، وما زلت في قلبي وبين عيني، ويقال:

سَاكنٌ في القلْبِ يعْمُرُهُ ... لسْتُ أنسَاه فأَذْكُرُهُ[3]

---

(١) (المطبوعتان): «أهل».

(٢) بعدها في (و): «وهو ساكن في قلوبهم وحالٌّ في قلوبهم».

(٣) تقدّم (٢/ ٣١٧).

ويقال:

إنَّ بيتًا أنتَ ساكنَه غيرُ محتاجٍ إلىٰ السُرُجِ[1]

ومن قول القائل:

ومِنْ عجبي أنِّي أحِنُّ إليْهِمُ وأسألُ عَنْهُمْ من لقِيتُ وَهُمْ مَعِي
وتَطْلُبُهم عَيْنِيْ وهم في سَوَادِها ويَشْتَاقُهُمْ قَلبي وَهُم بَيْنَ أَضْلُعِيْ[2]

وقال:

مثالُك في عَيْنِيْ وذِكْرُكَ في فَمِي ومَثْواك في قلبي فأين تغيبُ؟

والمساجد هي بيوت الله التي فيها يظهر ذلك، ولهذا قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ﴾ [النور: ٣٥]. قال أبيُّ بن كعب: «مثل نوره في قلوب المؤمنين»[3].

ثم قال: ﴿نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ﴾ [النور: ٣٥] ثم قال: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ﴾ [النور: ٣٦].

فذكر سبحانه نورَه في قلوب المؤمنين، ثم ذكر ذلك في بيوته، كذلك ما ذكر في الكتب الأولىٰ.

وأما الإتيان، والمجيء، والتجلِّي، فعندهم في «التوراة» يقولُ الله لموسىٰ:

---

(١) نسب البيت ياقوت الحموي في «معجم البلدان» (٣/ ٣٢٢) إلىٰ الشبلي، وقال: اختلف في اسمه فقيل دلف وقيل جعفر.

(٢) سبقت الإشارة إلىٰ هذين البيتين (٢/ ٣١٢).

(٣) تقدّم (٢/ ١٥٩).

«إني آتي إليك في غلظ الغمام لكي يسمع القوم مخاطبتي لك».

ثم قوله: «اجمع سبعين رجلًا من شيوخ بني إسرائيل، وخذهم إلىٰ خِباء العرب يقفون معك حتىٰ أخاطبَهم»[1].

وفي السِّفر الرابع لما تكلَّم مريم وهارون في موسىٰ: «حينئذٍ تجلىٰ الله بعمود الغمام قائمًا علىٰ باب الخِباء، ونادىٰ: يا هارون ويا مريم، فخرجا كلاهما فقال: اسمعا كلامي، إني أنا الله فيما بينكم»[2].

وفي الفصل الثالث عشر: «إن أصْعَدْتَ هؤلاء مِنْ بينِهم بقدرتك، فيقولون لأهل هذه الأرض الذين سمعوا أنك الله فيما بين هؤلاء القوم يرونه عينًا بعين، وغمامُك يقيم عليهم، وبعمود غمامٍ يسير بين أيديهم نهارًا وبعمود نار ليلًا»[3].

وفي السِّفْر الخامس قول موسىٰ لبني إسرائيل: «لا تهابوهم ولا تخافوهم؛ لأن الله ربّكم السائرَ بين أيديكم، وهو يحارب عنكم».

وفي موضعٍ آخرَ قال موسىٰ[4]: «إن الشَّعب هو شعبُك، فقال: أنا أمضي أمامك فارتحل، فقال: إن لم تمض أنت معنا وإلا فلا تُصْعِدْنا من هاهنا، وكيف أعلم أنا وهذا الشعب أني وجدت أمامك نعمة كذا[5] بعلمك إلا بسيرك معنا؟»[6].

---

(١) سبقت الإشارة إلىٰ النصين المتقدّمين عن موسىٰ عليه السلام (٢/ ٣٣٢).

(٢) جاء في سفر العدد، الإصحاح (١٢) الفقرة (٥-٦): «فنزل الرب في عمود غمامٍ، ووقف علىٰ باب الخيمة ونادىٰ هارون ومريم؛ فخرجا كلاهما فقال: اسمعا كلامي».

(٣) تقدّم (٢/ ٣٣٢).

(٤) (و): «يا موسىٰ».

(٥) «نعمة كذا» ليست في (و).

(٦) تقدّم (٢/ ٣٣١).



وفي المزمور الرابع من الزبور عندهم يقول: «ولْيفرحِ المتَّكلون[1] عليك إلىٰ الأبد، ويَبْتَهِجُون، ويَحُلُّ فيهم ويفتخرون»[2].

فأخبر أنه يَحُلُّ في جميع الصِّدِّيقين، أي: معرفته ومحبته؛ فإنهم متَّفقون علىٰ أن ذاتَ الله لم تحلَّ في الصِّدِّيقين.

وكذلك في رسائل يوحنَّا الإنجيلي: «إذا أحفىٰ[3] بعْضُنا بعضًا نعلم[4] أن الله يلبث فينا»[5]. أي: محبته. ونظائره كثيرة.

---

(١) (هامش د، ي): «المتكلمون».

(٢) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (٥) الفقرة (١٢): «وليفرح جميع المعتصمين بك وليهلِّلوا للأبد، أنت تظلِّلُهم فيبتهج بك من يحبون اسمك».

(٣) (ي، ط. النيل): «أخفىٰ».

(٤) (و): «فعلم».

(٥) جاء في رسائل يوحنا، الرسالة الأولىٰ، الإصحاح (٤) الفقرة (١٢): «فإذا أحب بعضنا بعضًا فالله فينا مقيم، ومحبته فينا مكتملة».



فصل

قالوا: «وقال عاموص النَّبيّ: «ستُشْرِقُ الشمس علىٰ الأرض، ويهتدي بها الضالُّون ويَضِلُّ عنها بنو إسرائيل»[1].

قالوا: فالشَّمس هو السَّيِّد المسيح، والضالُّون الذين اهتدوا به هم النَّصارىٰ المختلفةُ ألسنتهم، الذين كانوا مِنْ قَبْلِه عابدين الأصنام، وضالِّين عن معرفة الله، فلمَّا أتوهم التلاميذ وأنذروهم بما أوصاهم السَّيد المسيح، فتركوا عبادة الأصنام، واهتدوا باتِّباعهم السَّيد المسيح».

فيقال: هذا مما لا ينازع فيه المسلمون، وإنما ينازع في مثل هذا وأمثاله اليهود المكذِّبون للمسيح عليه السلام، كما ينازع كفَّارُ أهلِ الكتاب في محمدٍ ﷺ.

وأما المسلمون فيؤمنون بجميع كتب الله ورسله، وأنَّ المسيح عليه الصلاة والسلام أشرق نورُه علىٰ الأرض كما أشرق قبله نور موسىٰ عليه الصلاة والسلام، وأشرق بعده نور محمدٍ ﷺ.

وقد قال الله تعالىٰ لمحمدٍ ﷺ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَٰكَ شَٰهِدٗا وَمُبَشِّرٗا وَنَذِيرٗا ۝٤٥ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذۡنِهِۦ وَسِرَاجٗا مُّنِيرٗا﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦]. فسمَّاه الله سراجًا منيرًا، وسمَّىٰ الشمس سراجًا وهاجًا، والسِّراج المنير أكمل من السِّراج الوهَّاج؛ فإن الوهَّاج له حرارةٌ تؤذي، والمنير يُهْتَدىٰ بنوره من غير أذىٰ بوهجه.

---

(١) في سفر عاموص، الإصحاح (٨)، الفقرة (٩): «يقول السيِّدُ الرب: إني أُغَيِّبُ الشمسَ عند الظهيرة، وأعتِّم الأرض في رائعة النهار، وأحوّل أعيادكم نَوْحًا».



وقال تعالىٰ لمحمدٍ ﷺ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ١٥٧﴾ [الأعراف: ١٥٧].

وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ رُوحٗا مِّنۡ أَمۡرِنَاۚ مَا كُنتَ تَدۡرِي مَا ٱلۡكِتَٰبُ وَلَا ٱلۡإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلۡنَٰهُ نُورٗا نَّهۡدِي بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنۡ عِبَادِنَاۚ وَإِنَّكَ لَتَهۡدِيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٢ صِرَٰطِ ٱللَّهِ ٱلَّذِي لَهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ أَلَآ إِلَى ٱللَّهِ تَصِيرُ ٱلۡأُمُورُ﴾ [الشورىٰ: ٥٢-٥٣]

والمسلمون مُقِرُّون بأنّ كلَّ من كان متَّبِعًا لدين المسيح عليه السلام الذي لم يُغيَّر ولم يبدَّل فإنه اهتدىٰ بالمسيح من الضَّلالة، ومن كفر به من بني إسرائيل فإنه ضالٌّ، بل كافر، كما قال تعالىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٥- ٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُوٓاْ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

وقوله: «ستشرق الشَّمس علىٰ الأرض، ويهتدي بها الضالون، ويَضِلُّ عنها بنو إسرائيل»= يناسبُ قولَه في التَّوراة: «جاء الله من طور سينا، وأشرق من

ساعير، واستَعْلَن من جبال فاران» فإن إشراقه من ساعير هو ظهور نوره بالمسيح، كما أن مجيئه من طور سينا هو ظهور نوره بموسىٰ، واستعلانه من جبال فاران هو ظهور نوره بمحمدٍ ﷺ.

وبهذه الأماكن الثلاثة أقسم الله في القرآن بقوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ ۝١ وَطُورِ سِينِينَ ۝٢ وَهَٰذَا ٱلْبَلَدِ ٱلْأَمِينِ﴾ [التين: ١-٣].

فَبَلَدُ التِّينِ والزيتونِ هي: الأرض المقدسة التي بعث منها المسيح، وكان بها أنبياء بني إسرائيل، وأُسْري بمحمدٍ ﷺ إليها، وظهر بها نبوَّتَه.

وطورُ سِينِينَ: المكان الذي كلَّم الله فيه موسىٰ بنَ عمران.

وهذا البلدُ الأمينُ هو: بلد مكة التي بعث الله منه محمَّدًا ﷺ، وأنزل عليه القرآن.

فصـل

قالوا: وقال في السِّفر الثالث من أسفار الملوك: «والآن يا ربّ إله إسرائيل لِتُحقِّقْ كلامك لداود؛ لأنه حقٌّ أن يكون، إنه سَيَسْكُنُ اللهُ مع الناس على الأرض، اسمعوا أيتها الشعوب كلُّكم، ولْتُنصتِ الأرضُ وكلُّ من فيها، فيكون الربُّ عليها شاهدًا من بيته القدوس، ويخْرُج من موضعه، ويَنْزِلُ ويطأ على مشاريق الأرض في شأن خطيئة بني يعقوب هذا كلِّه»(١).

فيقال: هذا السِّفر يحتاج إلى أن يَثْبُتَ أن الذي تكلَّم به نبيٌّ، وأن ألفاظه ضُبطت وتُرجمت إلى العربيَّة ترجمةً مطابقة، ثم بعد ذلك يقال فيه ما يقال في أمثاله من الألفاظ الموجودة عندهم.

وليس فيها ما يدلُّ على اتحاده بالمسيح؛ فإن قوله: «إن الله سيسكن مع الناس في الأرض» لا يدلُّ على المسيح؛ إذ كان(٢) المسيح لم يسكن مع الناس في الأرض، بل لمَّا أظهر الدَّعوة لم يَبْقَ في الأرض إلا مدةً قليلة، ولم يكن ساكنًا في موضعٍ معيَّن، وقبل ذلك لم يظْهَر عنه شيءٌ من دعوى النُّبوَّة، فضلًا عن الإلهيَّة، ثم إنه بعد ذلك رفع إلى السماء فلم يسكن مع الناس في الأرض.

وأيضًا فإذا قالوا: سكونه هو ظهوره في المسيح عليه السلام.

قيل لهم: أمَّا الظهور الممكن المعقول كظهور معرفته، ومحبَّته، ونوره، وذكره، وعبادته، فهذا لا فرق فيه بين المسيح وغيره.

---

(١) في سفر الملوك الأول، الإصحاح (٨)، الفقرة (٢٦): «والآن يا إله إسرائيل ليتحقق قولك الذي كلمت به عبدك داود أبي، فإنه هل يسكن الله حقا على الأرض».

(٢) «كان» ليست في (و).



وحينئذٍ فليس في هذا اللَّفظ ما يدلُّ علىٰ أن هذا السُّكون كان بالمسيح دون غيره، وإن كان بالمسيح فليس هذا من خصائصه عَلَيْهِ السَّلَامُ، وليس في ظهوره فيه، أو حلول معرفته ومحبته ومثاله العلمي ما يوجب اتحاده[1] به.

وأما قوله: «فيكون الرب عليها شاهدًا».

فيقال أولًا: شهود الله علىٰ عباده لا يستلزم حلولَه، أو اتحاده ببعض مخلوقاته، بل هو شهيدٌ علىٰ العباد بأعمالهم كما قال: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ شَهِيدٌ عَلَىٰ مَا يَفۡعَلُونَ﴾ [يونس: ٤٦]، ولفظ النصِّ: «ولتنصت الأرض، وكل من فيها فيكون الربُّ عليها شاهدًا» وهذا كما في التَّوراة: أن موسىٰ لما خاطب بني إسرائيل أشهد عليهم، وكذلك محمَّدٌ ﷺ كان يقول لأمَّته لمَّا بلَّغ الناس يقول: «**ألا هَلْ بلَّغْتَ؟ فيقُولُونَ: نَعَمْ، فَيَقُولُ: اللَّهُمَّ اشْهَدْ**»[2].

وحينئذٍ فليس في هذا تعرُّضٌ لكون المسيح هو الله، وقد يقال أيضًا: ليس فيه أن المراد بلفظ «الرَّبِّ» هنا هو الله، ولفظ «الرَّبِّ» يراد به السيِّد المطاع. وقد غاير بين اللفظين، فقال هناك: «إنه سيسكن الله مع الناس» فقال: «فيكون الربُّ عليها شاهدًا» والأنبياء يشهدون علىٰ أمُمِهم، كما قال المسيح: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾[3] [المائدة: ١١٧]، وقال تعالىٰ: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡكُمۡ رَسُولٗا شَٰهِدًا عَلَيۡكُمۡ كَمَآ أَرۡسَلۡنَآ إِلَىٰ فِرۡعَوۡنَ رَسُولٗا﴾ [المزمل: ١٥].

---

(١) (و، ط.النيل): «اتحاد ذاته».

(٢) البخاري (١٠٥) ومسلم (١٦٧٩) عن أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٣) في (ع) أكمل الآية: ﴿وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ شَهِيدٌ﴾.

وقال تعالىٰ: ﴿ فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ شَهِيدًا ﴾ [النساء: ٤١].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ﴾ [النحل: ٨٩].

وحينئذٍ فيكون الربُّ الشهيد هو المسيح الذي هو النَّاسوت، وهو الذي جاء من بيت المقدس وخرج من موضعه، ونزل ووطئ علىٰ الأرض من أجل خطيئة بني يعقوب؛ فإنهم لما أخطأوا وبدَّلوا أرسل الله إليهم المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ يدعوهم إلىٰ عبادة الله وحده وطاعتِه، فمن آمن به كان سعيدًا مستحقًّا للثَّواب، ومن كفر به كان شقيًّا مستحقًّا للعذاب.

فصـل

قالوا: وقال ميخا النَّبِيُّ: «وأنت يا بيت لحم قرية يهودا بيت أقرانا[١]، يخرج[٢] لي رئيس الذي يرعىٰ شعبي إسرائيل، وهو من قبل أن تكون الدنيا، لكنه لا يظهر إلا في الأيام التي تلده فيها الوالدة، وسلطانُه من أقاصي الأرض إلىٰ أقاصيها»[٣].

والجواب: أن عامَّة ما يذكرونه عن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام حجةٌ عليهم لا لهم، كما ذكروه عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ في أمر التثليث، فإنه حجةٌ عليهم لا لهم، وهكذا تأَمَّلنا عامَّة ما يحتَجُّ به أهل البدع والضلالة من كلام الأنبياء، فإنه إذا تُدُبِّرَ حقَّ التدبُّر وَجِدَ حجَّةً عليهم لا لهم، فإن كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام هدًى وبيان، وهم معصومون لا يتكلَّمون بباطل.

فمن احتجَّ بكلامهم علىٰ باطل فلا بدَّ أن يكون في كلامهم ما يبين به أنهم أرادوا الحقَّ لا الباطل، وهذا مثلُ قولِه في هذه النُّبوَّة: «منك يخرج لي رئيس» فهذا صريح في أن هذا الذي يخرج هو رئيسٌ لله[٤] ليس هو الله، بل هو رئيسٌ له كسائر الرؤساء الذين لله، وهم الرُّسل والأنبياء المطاعون مثل: داود وموسىٰ، وغيرهما.

ولهذا قال: «الذي يرعىٰ شعبي إسرائيل»، ولو كان هو لكان هو راعي

---

(١) (و، ي) «أقرانا» بلانقط. وفي «الكتاب المقدس»: «أفراتة»

(٢) « (ع، ط.النيل): «منك يخرج».

(٣) جاء في سفر ميخا، الإصحاح (٥)، الفقرة (١): «وأنت يا بيت لحم أفراتة، إنك أصغر عشائر يهوذا، ولكن منك يخرج لي من يكون متسلّطًا علىٰ بني إسرائيل وأصوله منذ القديم... لأنه حينئذ يتعاظم إلىٰ أقاصي الأرض».

(٤) (و): «الله».

شعب نفسه.

وأمَّا قوله: «وهو من قبل أن تكون الدنيا» فهذا مِثْلُ قولِ النَّبيِّ ﷺ في حديثِ مَيْسرةَ الفجْر[1]، وقد قيل له: يا رسُولَ الله متىٰ كنتَ نبيًّا؟ قال: «وآدَمُ بيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ» وفي لفظ: متىٰ كُتبت نبيًّا؟ قال: «وآدَمُ بيْنَ الرُّوحِ والجَسَدِ»[2].

وفي مسند الإمام أحمد[3]، عن العِرباض بن سارية، عن النَّبيِّ ﷺ أنه قال: «إنِّي عِنْدَ اللهِ لَمَكْتُوبٌ خَاتَمَ النَّبِيِّن، وإنّ آدم لَمُنْجَدِلٌ في طِينَتِه، وسَأُنَبِّئُكُم

---

(١) ميسرة الفجر وهو أبو بديل بن ميسرة العقيلي الذي روىٰ عن عبد الله بن شقيق...» كذا ذكره ابن سعد ثم ساق الرواية التي أوردها المصنف، وذكره البخاريّ والبغويّ وابن السّكن وغيرهم في الصّحابة. انظر: «الطبقات الكبرىٰ» (٧/ ٤٢)، «الاستيعاب» (٤/ ١٤٨٨)، «الإصابة» (٦/ ١٨٩).

(٢) «مسند أحمد» (٢٠٥٩٦) وقد ذكر الدارقطني الاختلاف في هذا الحديث وصوّب إرساله. «العلل» (١٤/ ٧٤) وأخرجه الترمذي من حديث أبي هريرة (٣٦٠٩) وفيه: قالوا يا رسول الله: متىٰ وجبت لك النبوة؟ قال: «وآدم بين الروح والجسد» وقال: هذا حديث حسن غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وقال في «العلل الكبير» (٣٦٨): سألت محمدًا عن هذا الحديث فلم يعرفه. قال أبو عيسىٰ: وهو حديث غريب من حديث الوليد بن مسلم رواه رجل واحد من أصحاب الوليد. وفي «المنتخب من العلل» للخلال (١٧٣): قال المروذي: قلت لأبي عبد الله: أتعرف: عن الوليد، عن الأوزاعي، عن يحيىٰ، عن أبي سلمة، عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ: متىٰ كنت نبيًا؟ قال: هذا منكر، هذا من خطأ الأوزاعي، يخطىٰء كثيرًا علىٰ يحيىٰ ابن أبي كثير. وأخرجه الحاكم في «المستدرك» (٤٢٠٩) من طريق آخر عن إبراهيم بن طهمان عن بديل بن ميسرة، وصحّحه.

(٣) (١٧١٥٠) وحسّن المصنف رواية المسند كما في «مجموع الفتاوىٰ» (١٠/ ٧٢٨)، ورواه البزار في «مسنده» (١٠/ ١٣٥) عن الحسين بن مهدي عن عبد القدوس بن الحجاج، عن أبي بكر ابن أبي مريم، عن سعيد بن سويد عن العرباض بن سارية. وقال: هذا الحديث لا نعلمه يروىٰ عن رسول الله ﷺ بإسناد متصل عنه بأحسن من هذا الإسناد.

بِأَوَّلِ أمْرِي[1]، دَعْوَةُ أَبِي إبْراهِيم، وبُشْرىٰ عيسىٰ، ورُؤْيا أُمِّي، رأَتْ حِينَ ولَدَتْني أَنَّه خَرَجَ مِنْهَا نُورٌ أَضَاءَ له قُصُورُ الشَّامِ» فقد أخبر ﷺ أنه كان نبيًّا، وكتب نبيًّا وآدمُ بين الرُّوح والجسد، وأنه مكتوبٌ عند الله خاتم النبيِّين، وآدم مُنْجَدِلٌ في طينته.

ومراده ﷺ أن الله كتب نبوَّته وأظهرها، وذكر اسمه، ولهذا جعل ذلك في ذلك الوقت بعد خلْقِ جسد آدم وقبل نفْخ الرُّوح فيه، كما يُكْتَب رزقُ المولود، وأجلُه، وعمله، وشقيٌّ هو أو سعيد، بعد خلق جسده، وقبل نفخ الرُّوح فيه.

وكذلك قول القائل في المسيح عليه السلام: «وهو مِنْ قَبْلِ أن تكون الدُّنيا» فإنه مكتوبٌ مذكورٌ من قبل أن تكون الدنيا.

فإنه قد ثبت في الصحيح[2] عن عبد الله بن عمرو، عن النبي ﷺ أنه قال: **«قَدَّرَ اللهُ مقَادِيرَ الخَلائِقِ قبْل أن يَخْلُقَ السَّمَاواتِ والأرْضَ بِخَمْسِينَ أَلْفَ سَنَة، وكانَ عَرْشُه علىٰ المَاءِ»**.

وفي «صحيح البخاري»[3]، عن عمران بن حصين، عن النبي ﷺ أنه قال: **«كَانَ اللهُ ولَمْ يكُن شيْءٌ قبْلَه، وكَانَ عرْشُه علىٰ المَاءِ، وكَتَب فِي الذِّكْرِ كلَّ شيْء، ثُمَّ خَلَقَ السَّمَاواتِ والأرْض»**.

وهو قد قال: «قبل أن تكون الدنيا» ولم يقل: إنه كان قديمًا أزليًّا مع الله لم يزل، كما يقول النصارىٰ: إنه صفةُ الله الأزليَّة، بل وقَّت ذلك بقوله: «قبل أن

---

(١) بعدها في (و): «أنا».
(٢) مسلم (٢٦٥٣).
(٣) (٣١٩١).



تكون الدنيا» ولا يَحْسُن أن يقال في رب العالمين: «كان قبل أن تكون الدنيا»؛ فإنه سبحانه قديمٌ أزَليٌّ، ولا ابتداءَ لوجوده، فلا يوقَّتُ بهذا المبدأ؛ لا سيَّما إن أريد بكون الدُّنيا عِمَارتُها بآدمَ وذريتِه؛ فإن الدُّنيا قد لا تدخل فيها السماوات والأرض، بل يُجعل من الآخرة، وأرواحُ المؤمنين في الجنّة في السماوات، ويراد بالدُّنيا: الحياة الدُّنيا، أو الدَّار الدُّنيا.

ولهذا قال: «لكنَّه لا يظهر إلا في الأيام التي تلده[1] فيها الوالدة كما يظهر غيرُه من الأنبياء بعد أن تلده أمُّه» والوالدة إنما وَلَدَت النَّاسوت، وأما اللَّاهوت فهو عندهم مولودٌ من الله القديم الأزليّ، وإذا قالوا: فهي ولدت اللَّاهوتَ مع النَّاسوت، كان هذا معلومَ الفساد من وجوهٍ كثيرة.

وإذا قيل: لم خُصَّ عيسىٰ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالذِّكر؟ قيل: كما خُصَّ محمدٌ ﷺ بالذِّكر؛ لأن أمر المسيح كان أظهرَ وأعظمَ مِمَّن قبله من الأنبياء بعد موسىٰ.

وكذلك أمر محمدٍ ﷺ كان أظهرَ وأعظمَ من أمر جميع الأنبياء قبله، وإذا عَظُمَ الشيءُ كان ظهورُه في الكتاب أعظم.

وظَنُّ بعضِ[2] النصارىٰ أن المراد بذلك وجودُ ذات المسيح يضاهي ظَنَّ طائفةٍ من غلاة المنتسبين إلىٰ الإسلام وغيرهم الذين يقولون: إن ذات النَّبيِّ ﷺ كانت موجودةً قبل خلق آدم، ويقولون: إنه خُلِقَ من نور ربِّ العالمين، ووجِدَ قبل خلق آدم، وأن الأشياءَ خُلِقت منه حتىٰ قد يقولون في

---

(١) (و): «تلد».

(٢) «بعض» ليست في (و).



محمدٍ ﷺ من جنس قول النّصارىٰ في المسيح، حتىٰ قد يجعلون مَدَدَ العالم منه[1]، ويرْوُون في ذلك أحاديث، وكلُّها كذب، مع أنَّ هؤلاء لا يقولون إن المتقدِّم هو اللَّاهوت، بل يدَّعون تقدُّم حقيقتِه وذاته، ويشيرون إلىٰ شيءٍ لا حقيقة له، كما تشير النَّصارىٰ إلىٰ تقدُّم لاهوتٍ اتَّحد به لا حقيقة له.

ومن هؤلاء الغلاة من يروي عن النبي ﷺ أنه قال: «من قال: إني كلِّي[2] بشر فقد كفر، ومن قال لست ببشرٍ فقد كفر» ويحتجُّون بقوله تعالىٰ: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

فيجعلون فيه شيئًا من اللَّاهوت مضاهاةً للنصارىٰ.

وهذا الحديث كذبٌ باتفاق أهل العلم بالحديث، وقد ثبت عنه ﷺ في الحديث الذي في «الصَّحيحين»، أنه قال: **«لا تُطْرُونِي كمَا أطْرتِ النَّصارىٰ عِيسَىٰ ابنَ مَرْيم؛ فإنَّما أنا عبْدٌ، فقولوا: عَبْدُ اللهِ ورَسُولِه»**[3].

وقد قال تعالىٰ[4]: ﴿قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا﴾ [الإسراء: ٩٣]. وهذا من جنس الغلاة الذين يقولون: إن الرَّبَّ يَحُلُّ في الصَّالحين، ويتكلَّم علىٰ ألسنتهم، وإن النَّاطق في أحدهم هو الله لا نفسه، وقول هؤلاء من جنس قول النَّصارىٰ في المسيح. ويقول أحدهم: إن الموحِّد هو الموحَّد، وينشدون:

---

(١) قوله: «حتىٰ يجعلوا مدد العالم منه» أخرت في (و) بعد قوله: «ويروون في ذلك أحاديث وكلها كذب».

(٢) بياض في (و).

(٣) تقدم تخريجه (١/ ٣٥١).

(٤) بعدها في (ي): «عنه».

مــا وحَّــد الواحِــدَ مِــنْ واحــدٍ	إذ كــلُّ مــن وَحَّــدَه جَاحِــدُ
توحيــدُ مَــن يُخبــرُ عــن نَعْتــه	عارِيّــةٌ أَبْطلهــا الواحِــدُ
توحِيــدُه إيَّــاه توحِيــدُه	ونَعْــتُ مــن يَنْعَتُــه لاحِــدُ[1]

وهو من جنس قول الذين يجعلون روحَ الإنسان قديمةً أزليَّة، ويقولون: هي صفةٌ الله، فيجعلون نصف الإنسان لاهوتًا، ونصفه ناسوتًا، لكنَّ اللَّاهوت عندهم هو روحُه، لا لاهوتٌ واحد كما يقوله النصارىٰ، وعلىٰ قول هؤلاء مع قول النَّصارىٰ يكون في المسيح وأمثاله ممن ادُّعيَ فيه اتحادُ اللَّاهوت به لاهوتان: روحُه لاهوتٌ، والكلمة لاهوتٌ ثانٍ، ومن جنس هؤلاء من ينشد ما يُحكىٰ عن الحلّاج أنه أنشد:

سُــبْحَانَ مَــنْ أَظْهَــرَ نَاسُــوتهُ	سِــرَّ سَــنَا لَاهُوتِــهِ الثَّاقِــبِ
ثُــمَّ بَــدَا فِــي خَلْقِــهِ ظَــاهِرًا	فِــي صُــورَةِ الْآكِــلِ وَالشَّــارِبِ
حَتَّــىٰ لَقَــدْ عَايَنَــهُ خَلْقُــهُ	كَلَحْظَــةِ الْحَاجِــبِ لِلْحَاجِــبِ[2]

ولو قُدِّر أن نفسَه هي التي كانت قبل أن تكون الدنيا، فهذا لا يدلُّ علىٰ أنه الله، أو صفةُ الله، بل إذا قال من يدَّعي أن روحَه كانت[3] موجودةً حينئذ، المراد روحه، كان هذا أقربَ من قول النَّصارىٰ.

وفي الجملة: ما يُخبَر عن المسيح أنه كان قبل أن تكون الدنيا بمنزلة ما عند أهل الكتاب عن سليمان أنه قال: «كنت قبل أن تكون الدنيا».

---

(١) تقدمت هذه الأبيات (٢/ ٣٠٢).

(٢) أورد الأبيات ابن الجوزي في: «المنتظم» (١٣/ ٢٠٤)، و«تلبيس إبليس» (ص١٥٤).

(٣) بعدها في (و): «مخلوقة».

ثم قد ثبت باتفاق الخلائق أنَّ سليمان لم يكن اللَّاهوتُ متَّحِدًا به، فعُلم أن مثل هذا الكلام لا يوجب اتحاد اللَّاهوت به، بل المسلمون يَعْدِلون في القول، ويفسِّرون كلام الله في كتبه بعضَه ببعض، ويجعلون كلامَه يُصدِّق بعضُه بعضًا، لا يناقض بعضُه بعضًا.

وأما أهل الضَّلال من النصارىٰ وغيرهم، فيفضِّلون المفضول علىٰ من هو أفضلُ منه، ويبخسون الفاضل حقَّه، ويغْلُون في المفضول ويبخسُون الأنبياء حقوقَهم، مثلَ تنقُّصِهم لسليمان، فإن كثيرًا من اليهود والنصارىٰ يطعنون فيه.

منهم من يقول: كان ساحرًا، وأنه سخَّر[1] الجن بسحره.

ومنهم من يقول: سقط عن درجة النبوة، فيجعلونه حكيمًا لا نبيًّا، ولهذا ذكر الله في القرآن تبرئة سليمان عن ذلك، وذلك أن سليمان سأل الله مُلْكًا لا ينبغي لأحدٍ من بعده، فسخَّر لسليمان الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب، والشياطينَ كلَّ بنَّاء وغوَّاص، وآخرين مقرَّنين في الأصفاد، فسخَّر له الرِّيح غُدُوُّها شهرٌ ورواحها شهر، ولما طلب من الملأ أن يأتوه بعرش «بلقيس» ملكة اليمن، وكان هو بالشَّام:

﴿قَالَ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣٨﴾ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ ۖ وَإِنِّى عَلَيْهِ لَقَوِىٌّ أَمِينٌ ﴿٣٩﴾ قَالَ ٱلَّذِى عِندَهُۥ عِلْمٌ مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ ۚ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ قَالَ هَـٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ﴾ [النمل: ٣٨-٤٠].

---

(١) (و، ي، ط.النيل) «سحر».

فلما مات سليمان[1] عَمَدَتِ الشَّياطين إلىٰ أنواعٍ من الشِّرك، فكتبوها، ووضعوها تحت كرسيِّه، وقالوا: كان سليمان يسخِّر[2] الجنَّ بهذا، فصار هذا فتنةً لمن صدَّق بذلك وصاروا طائفتين، طائفةً علمت أن هذا من الشِّرك والسِّحر، وأنه لا يجوز، فطَعَنَتْ في سليمان، كما فعل ذلك كثيرٌ من أهل الكتاب: اليهودِ والنصارىٰ.

وطائفةٌ قالت: سليمان نبيّ، وإذا كان قد سخَّر الجنَّ بهذا دلَّ علىٰ أن هذا جائز، فصاروا يقولون ويكتبون من الأقوال التي فيها الشِّركُ والتعزيم والإقسام بالشِّرك والشِّياطين ما[3] تُحِبُّه الشياطين وتختاره، ويساعدونهم لأجل ذلك علىٰ بعض مطالب الإنس، إما إخبارٌ بأمورٍ غائبةٍ يخلطون فيها كذبًا كثيرًا، وإما تصرُّفٌ في بعض الناس، كما يُقتَل الرجل، أو يَمرض بالسحر، أو تَسْرِقُ الشياطين له بعضَ الأموال، ونحوُ ذلك ممَّا فيه إعانةُ الشَّياطين للإنس علىٰ أمورٍ تريدها الإنس؛ لأجل مطاوعة الإنس وموافقتهم للشَّياطين علىٰ ما تريده الشَّياطينُ من الكفر والفسوق والعصيان.

وكثيرٌ منهم يضيف ذلك إلىٰ سليمان وإلىٰ آصف بن بَرْخيا[4] ويصوِّرون خاتم سليمان، وقد يأخذون الرَّجل الذي صار من إخوانهم إلىٰ مواضع فَيُرُونَه

---

(١) «سليمان» ليست في (ي، د، ع، ط.النيل).

(٢) (و، ي): «يسحر».

(٣) (و): «مما».

(٤) وهو آصف بن برخيا بن سمعيا من سبط لاوي بن يعقوب، وهو ابن خالة سليمان عليه السلام وكان صدِّيقا يعرف اسم الله الأَعْظَم الَّذِي إِذا دُعي به أجاب وإذا سئل به أعطىٰ. انظر: «البداية والنهاية» (٢/ ٢٨)، «الأنس الجليل» (١/ ١٣٦).

شخصًا، ويقولون: هذا سليمانُ بن داود، كما قد جرىٰ مثل ذلك لمن نعرفه من المشايخ الذين كانت تقترنُ بهم الشَّياطين، وكان لهم خوارقُ شيطانيَّةٌ من جنس خوارق السَّحرة والكهَّان.

فنزَّه الله تعالىٰ سليمان من كَذِب هؤلاء وهؤلاء الذين جعلوه يسخِّرُ الشَّياطين بنوعٍ من الشِّرك والسِّحر، هؤلاء جرَّحُوه، وهؤلاء زعموا أنهم يتَّبعونَه، فقال تعالىٰ: ﴿وَٱتَّبَعُواْ مَا تَتْلُواْ ٱلشَّيَٰطِينُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَٰنَ ۖ وَمَا كَفَرَ سُلَيْمَٰنُ وَلَٰكِنَّ ٱلشَّيَٰطِينَ كَفَرُواْ يُعَلِّمُونَ ٱلنَّاسَ ٱلسِّحْرَ وَمَآ أُنزِلَ عَلَى ٱلْمَلَكَيْنِ بِبَابِلَ هَٰرُوتَ وَمَٰرُوتَ ۚ وَمَا يُعَلِّمَانِ مِنْ أَحَدٍ حَتَّىٰ يَقُولَآ إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ ۖ فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِۦ بَيْنَ ٱلْمَرْءِ وَزَوْجِهِۦ ۚ وَمَا هُم بِضَآرِّينَ بِهِۦ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ ۚ وَلَقَدْ عَلِمُواْ لَمَنِ ٱشْتَرَىٰهُ مَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنْ خَلَٰقٍ ۚ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْاْ بِهِۦٓ أَنفُسَهُمْ ۚ لَوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ خَيْرٌ ۖ لَّوْ كَانُواْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢-١٠٣]

ومثل هذا كثيرٌ يُحكىٰ عن بعض الأنبياء، أو بعض أهل العلم والدِّين، من أمورٍ ليست من شرع الله، فيصُدِّق بها بعضُ الناس، وتصير فتنةً لطائفتين مصدِّقتينِ بها.

طائفةٍ تقدح في ذلك النَّبيِّ، أو الرَّجل الصَّالح بما هو منه بريء، وطائفةٍ تقول: إنها تَتْبعُه فيم يقول.

وهذا موجودٌ في كثيرٍ مما يحكيه أهل الكتاب عن الأنبياء، فإن اليهود تَذْكُر عنهم ما يقدح في نبوَّتِهم.



والنَّصارىٰ تجعل ذلك قدوةً لهم فيما يبتدعونه، وهذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر[1].

فالمقصود هنا: أنَّ الكلام الذي وُصِف به المسيح إما وَصَفه به الأنبياء قبله، أو أخبر به عن نفسه موجودٌ مثلُه في حقِّ غيره، ولم يكن أحدهم بذلك لاهوتًا وناسوتا، ولا اتَّحد اللَّاهوت بالنَّاسوت، ولا استحقَّ أحدُهم بذلك أن يُعْبَد، ويُصَلَّىٰ له، ويُسْجَد[2] ويُدعىٰ كما يُدعىٰ الله، ويضافَ إليه ما يضافُ إلىٰ الله: من الخلق، والبعث، والثواب، والعقاب.

وليس للمسيح صلوات الله عليه آيةٌ خارقةٌ إلا ولغيره مثلُها وأعظمُ منها، ولا قيل فيه كلمةٌ إلا قيل في غيره مثلُها وأعظمُ منها، إلا ما خصَّه به القرآن[3].

---

(١) انظر ما مضىٰ (١/ ٤٩٥) و«الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» (ص١٨٧)، و«النبوات» (٢/ ١٠٣٤).

(٢) بعدها في (و): «له».

(٣) «إلا ما خصه به القرآن» ليست في (د، ي، ط.النيل).

فصل

قالوا: وقال: حَبَقُّوقُ النَّبِيُّ: «إن الله في الأرض يترايا، ويختلط مع الناس، ويمشي معهم».

وقال أرْمِيَا النَّبِيُّ: «الله بعد هذا في الأرض يظهر، ويتقلَّب[1] مع البشر، فيقول: أنا الله ربُّ الأرباب»[2].

والجواب: أن هذا يحتاج إلىٰ تثبيت نبوَّة هذين، وإلىٰ ثبوت النَّقل عنهما، وثبوتِ الترجمة الصَّحيحة المطابقة، وبعد هذا يكون حكمُ هذا الكلام حكمَ نظائره، ففي التَّوراة ما هو من هذا الجنس، ولم يدلَّ ذلك باتفاق المسلمين واليهود والنصارىٰ علىٰ أن الله حلَّ في موسىٰ، ولا في غيره من أنبياء بني إسرائيل.

بل قوله: «يترايا» هو بمنزلة يتجلَّىٰ ويظهر، وقد ذكر في التَّوراة أنه تجلىٰ، وترايا لإبراهيم وغيرِه من الأنبياء عليهم السلام من غير أن تكون ذاته حلَّتْ بأحدٍ منهم، وما في القلوب من المثال العلميِّ، ومعرفته، ومحبّته، وذكره، يطلق عليه ما يطلق علىٰ المعروف بنفسه؛ لعِلْم الناس أنَّ المراد به المثالُ العلميّ.

وما في القلوب من معرفته المعروف ومحبته ليس المراد به نفسَ المعروف المحبوب، فإذا قال القائل: أنت والله في قلبي، أو في سويداء قلبي، أو قال له: والله ما زلتَ في قلبي، وما زلت في عيني، ونحو ذلك، عَلِم جميع الناس أنه لم يُرد ذاته، فإذا رأوا من يذكر عالمًا مشهورًا أو شيخًا مشهورًا، فيذكر علمه وعمله، ويحيي ذلك بين الناس قالوا: قد صار فلان -يعني المعروف

---

(١) (د، ي، ط.النيل): «ينقلب».

(٢) لم أجد هذين النصّين.



المذكور- عندنا وبين أظهرنا؛ لِعِلْم المخاطبين بالمراد.

ويقول أحدهم لمن مات والده: أنا والدك؛ أي: قائمٌ مقامه، ويقولون للولد القائم مقام أبيه: من خَلَّف مثلك ما مات، وإذا رأوا عكرمة مولىٰ ابنِ عبَّاسٍ الذي معه علمُه يقولون: جاء ابن عبَّاس، وابنُ عبَّاس بين الناس؛ لأن مولاه نائبٌ عنه، وقائمٌ[1] مقامه، وإذا بعث الملك نائبًا قائمًا مقامه يقولون: جاء الملك الفلانيّ، لأن هذا النَّائب قائمٌ مقامه مظهرٌ لأمره ونهيه، وأحواله.

وفي الحديث الصَّحيح، عن النبي ﷺ يقول الله: «**عَبْدي مَرِضْتُ فلم تعُدْني، فيقُولُ العَبْدُ: يا ربِّ كيْفَ أعُودُكَ وأنتَ ربُّ العَالمِينَ؟، فيقُولُ: أما عَلِمْتَ أن عَبْدِي فَلانًا مَرِضَ فلَمْ تعدْه، أما لَوْ عُدْتَهُ لوجَدْتَني عِنْدَهُ، عَبْدِي جُعْتُ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، فَيَقُولُ: يَا رَبِّ كَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا جَاعَ، فَلَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، عَبْدِي، عَطِشْتُ فَلَمْ تَسْقِنِي، فَيَقُولُ: رَبِّ كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فَيَقُولُ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي اسْتَسْقَاكَ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا لَوْ سَقَيْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي**»[2].

فجعل جوعَ عبده جوعَه، ومرضَه مرضَه؛ لأن العبد موافقٌ لله فيما يحبُّه ويرضاه، ويأمر به وينهىٰ عنه، وقد عُرِفَ أن الربَّ نفسه لا يجوع، ولا يمرض.

ومعلومٌ أن وصفه بالجوع والمرض أبعدُ من وصفه بالمشي بين الناس والاختلاط بهم، ولهذا نظائرُ كثيرةٌ موجودةٌ في كلام الأنبياء، وغير الأنبياء من الخاصَّة والعامَّة، ولا يفهم عاقلٌ من ذلك أن ذات المذكور اتَّحدت بالآخر،

---

(١) المثبت من (و)، وفي سائر النسخ: «وقام».

(٢) تقدّم تخريجه (٢/ ٣٠٩).

أو حلّت فيه، إلا مَنْ هو جاهلٌ كالنَّصارىٰ.

والنَّاسُ يرون الشَّمس والقمر والكواكب وغير ذلك في الماء الصَّافي، وفي المرآة المَجْلوَّة، ونحو ذلك.

ويقول أحدهم: رأيت وجه فلانٍ في هذه المرآة، ورأيت الشَّمس والقمر في المرآة أو في الماء، مع علم كلِّ عاقلٍ أن نفس الشَّمسِ والقمرِ وغيرِهما لم تَحُلَّا لا في المرآة ولا في الماء، ولكن هذه رؤيةٌ مقيَّدةٌ رآها بواسطة المثال الذي تمثَّل في المرآة أو الماء، سواءٌ كان ذلك شعاعًا منعكسًا أو غيرَ ذلك، ومن هذا الباب قول القائل:

إذا ظَهَـرَ الغَـدِيْرُ عَلَـىٰ صَـفاءٍ ... وجُنِّـبَ أَنْ يُحرِّكَـه النَّسـيمُ

تُـرىٰ فيـه السَّـمَاءُ بِـلا امْتِـراءٍ ... كَـذَاكَ الشَّـمْسُ تَبْـدُو وَالنّجُـومُ

كَـذَاكَ قُلـوْبُ أَرْبَـابِ التَّجَلِّـي ... يُـرىٰ في صَـفْوِهَا اللهُ العَظِـيمُ[1]

فقد أخبر أن الله يُرىٰ في قلوب العارفين، كما تُرىٰ الشَّمسُ[2] والنجومُ في الماء الصَّافي، بل يتصوَّر لأحدهم صورة من يعرفه بحمرةٍ أو خضرةٍ[3] أو سواد، فيقول: والله هذا هو فلانٌ بعينه، مع علمه وعلم كلِّ من سمعه أنه مثاله المطابق لصورته لا عينه، وذلك لمماثلة تلك الصُّورة لصورته، يريد أن هذا تمثيلٌ مطابقٌ له لا مخالف.

ومن هذا قول النبي ﷺ: «**مَنْ رَآنِي في المنَامِ فقَدْ رَآنِي حقًّا، فإنَّ الشَّيْطانَ**

(١) تقدمت هذه الأبيات (٢/ ٣١٧-٣١٨).
(٢) بعدها في (و): «القمر».
(٣) (و): «صفرة».

لا يَتَمَثَّلُ في صُوْرَتِي»[1] لم يُرِد أنه رأىٰ جسدي الذي في القبر، وروحي التي في الجنة حالّةً في ذاته، فإن هذا ممتنعٌ لوجوهٍ كثيرة، فلهذا قال: «**فإن الشَّيطان لا يَتَمَثَّل في صُورَتِي**».

ولما دخل جماعةٌ من الصَّحابة علىٰ المقوقس[2] ملكِ النصارىٰ بمصر، واستخبرهم عن دينهم، فأخبروه بذلك، فإذا عنده شِبْهُ الرَّبْعة[3] العظيمة مذهَّبة، وإذا فيها أبوابٌ صِغارٌ، ففتح منها بابًا، فاسْتَخْرَجَ منه خِرْقةَ حريرٍ سوداء، فيها صورةٌ بيضاء، فإذا رجلٌ طُوالٌ أكثرُ الناس شعرًا، فقال: أتعرفون هذا؟ قالوا: قلنا لا، فقال: هذا آدم.

ثم أعاد وفتح بابًا آخر، فاسْتخرَج حريرةً سوداء، فيها صورةٌ بيضاء، فإذا رجلٌ ضخمُ الرأس، عظيم، له شعرٌ كشعر النِّبط[4]، أحمرُ العين، فقال: أتعرفون هذا؟ فقلنا: لا، فقال: هذا نوح.

ثم أعاد وفتح بابًا آخر فاسْتخرَج حريرةً سوداء، فيها صورةٌ بيضاء، فإذا رجلٌ أبيضُ الرَّأس واللِّحية كأنه يبتسم، فقال أتعرفون هذا؟ فقلنا: لا. فقال: هذا إبراهيم.

ثم أعاده وفتح بابًا آخر، فاسْتخرَج حريرةً سوداء[5]، فيها صورةٌ بيضاء،

---

(١) تقدّم (٢/ ٣٢١).

(٢) واسمه: جريج بن ميناء وهو الذي أهدىٰ لرسول الله ﷺ مارية بنت شمعون. انظر: الروض الأنف (١/ ٤٨).

(٣) (و): «الرقعة»، وفي (ي) كُتبت «الرونة» بلا نقط. والرَّبعة: إناءٌ مُربَّع كجُوْنة العطّار. ينظر: «لسان العرب» (٨/ ١٠٧)، «تاج العروس» (٢١/ ٤٣).

(٤) (د، ع، ط.النيل): «القبط».

(٥) بعدها في (و): «فإذا».



قال: أتعرفون هذا[1]؟ قلنا: النبيُّ محمدٌ ﷺ. قال: هذا والله محمدٌ رسول الله.

قال: والله يعلم أنه قام ثم قعد، ثم قال: اللهَ بدينكم، إنه نبيُّكم؟ قلنا: اللهَ بديننا، إنه نبيُّنا كأنما ننظر إليه، ثم قال: أما إنه كان آخرَ الأبواب، ولكني عجَّلتُه لكم لأنظر ما عندكم. ثم أعاد، وفتح بابًا بابًا، وهو يقول: هذا موسىٰ، هذا هارون، هذا داود، هذا سليمان، هذا عيسىٰ[2].

وهذا كلُّه لظهور المراد به، ومعرفة الناس بمقصود المتكلم، كما يقال لمن كتب اسمه في كتاب: هذا فلان.

ومعلوم أن الموجود في الكتاب اسمُه المكتوبُ، لا ذاتُه الموجودةُ في الخارج، ومِنْ هذا الباب قوله تعالىٰ: ﴿وَكُلُّ شَىْءٍ فَعَلُوهُ فِى ٱلزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢]. وإنما في الزبر ذِكْر أعمالهم وكتابة ذلك، ويقال في كتابة الوثائق: هذا ما أصدق فلان، وهذا ما يقاضي عليه فلانٌ وفلان، ويقال: هذا ذكر ما أصدق فلانٌ، أو يقاضي عليه فلانٌ وفلان، فيُشار إلىٰ الموجود تارةً وإلىٰ ذكره تارة.

ومعلوم أن الموجود في الكتاب ذكره لا عينه، بل ذلك وجود الخط[3] المطابِقِ لِذِكْره باللَّفظ.

---

(١) «أتعرفون هذا» ليست في (و).

(٢) أخرج هذا الخبر أبو نعيم في «الدلائل» (١٣)، والبيهقي في «الدلائل» (١/ ٣٨٥)، وقوام السنة في «الدلائل» (٨٨) عن هشام بن العاص الأموي. وقال: حديث الصُّوَر معروفٌ قد ذكره أهل النظر في دلائل النبوة، وقد روي بغير هذا الإسناد. وذكره ابن كثير في «تفسيره» (٣/ ٤٨٦) وقال: «هكذا أورده الحافظ الكبير أبو بكر البيهقي في كتاب «دلائل النبوة» عن الحاكم إجازةً، فذكره. وإسناده لا بأس به».

(٣) بعدها في (المطبوع) زيادة: «في الأذهان» وليست في الأصول.

والشيء له وجودٌ في الأعيان، ووجودٌ في الأذهان، ووجودٌ في اللِّسان، ووجودٌ في البنان، ووجودٌ عينيّ، وعلميّ، ورسميّ، ولفظيّ، وفي كلٍّ من الأربعة يُذكر ويُشار إليه مع القرائن والضَّمائر التي تُبيِّن تارةً أن المشار إليه هو الخطُّ المطابق للفظ، وتارةً تكون الإشارة إلىٰ اللَّفظ المطابقِ للمعنىٰ.

ومعلومٌ أن المعنىٰ الذي في القلب أقربُ إلىٰ الموجود في الخارج من اللَّفظ والخط، فإذا أشير إلىٰ ما في قلب العارف بعين[1] المحبِّ له، الذاكرِ له بأنه[2] المعروف المحبوب كان أقرب، لا سيَّما وقد يغلب الذِّكْرُ والمعرفة والمحبّةُ علىٰ القلب حتىٰ يغيب بموجوده عن وجوده، وبمعروفه عن معرفته[3]، وبمذكوره عن ذكره حتىٰ يقولَ أحدُهم في هذه الحال: «سبحاني»، أو «ما في هذه الجُبَّة إلا الله».

ومعلومٌ أن ذاتَ الله ﷻ ليست الذي في قلبه، بل في قلبه مثالُه العلميُّ، ومعرفته، ومحبته، فغاب بذلك عن نفسه، هذا وإن كان يقوله الغالط، فيقول من ليس بغالط: الله في قلب فلان، وفلانٌ ما عنده إلا الله، ومن أراد الله فليذهب إلىٰ فلان، وليس مرادُهم أن ذات الله في قلبه، بل مثالَه العلميّ، ومعرفته، وذكره، ومحبَّته، وأنه لا يُعبَد إلا الله، ولا يرجو إلا إياه، ولا يَخاف إلا إيَّاه، ولا يَعمل إلا لله[4]، ولا يأمر إلا بطاعته، فيفنىٰ بعبادته عن عبادة ما سواه، وبطاعته عن طاعة ما سواه، وبمحبَّته عن محبَّة ما سواه.

---

(١) (و، ي): «بغيره».

(٢) المثبت من (و) وفي سائر النسخ: «فإنه».

(٣) المثبت من (و) وفي سائر النسخ: «معروفه».

(٤) «ولا يرجو إلا إياه، ولا يخاف إلا إيَّاه، ولا يعمل إلا لله» ليست في (و).

فما قيل في المسيح عليه السلام وأمثاله من هذا فهو حقّ، لكن لا اختصاص للمسيح بهذا.

وإذا كان مثلُ هذا الكلام كثيرًا موجودًا في[1] كلام الأنبياء وغيرهم، بل هو المعروف في كلامهم، ولا يوجَد قطُّ عن أحدٍ من الأنبياء أنه جعل ذات الله في قلب أحدٍ من البشر= عُلم أن النَّصارىٰ تركوا المحكم من كلام الأنبياء عليهم السلام وتمسَّكوا بالمتشابه، كأمثالهم من الضُّلَّال، فاشتبه عليهم المعلومُ بالقلوب المذكورُ بالألسن بالموجود في نفسه، فظنُّوا أن نفس المثالِ العلميِّ هو الموجود العينيّ، كما يظن ذلك كثيرٌ من الغالطين، وهؤلاء يقولون بالحلول تارة، وبالاتِّحاد أخرىٰ، ولا يفرِّقون بين حلول الإيمان والمعرفة والمحبة والمثال العلميِّ في القلب، وبين حلول الذَّات المعلومة المحبوبة.

ولهذا يعتقد كثيرٌ من هؤلاء أنهم يكلِّمون الله ويكلِّمهم، ويقول أحدهم: أوقَفَنِي، وقال لي، وقلتُ له، وتكون مخاطبته ومناجاته مع هذا المثال العلميِّ بحسب ما عندهم من الاعتقاد في الله تعالىٰ، وكثيرٌ منهم يتمثَّل له الشَّيطان ويقول: أنا ربُّك، فيخاطبه بظنِّه ربُّه، وإنما هو الشَّيطان.

ومنهم: من يرىٰ عرشًا عليه نور، أو يرىٰ ما يظنُّه الملائكة وهم شياطين، وذلك شيطان.

وكثيرٌ من هؤلاء يظنُّ أنه أفضل من الأنبياء، وأنه يدخل إلىٰ الله بلا إذن، خلافَ الأنبياء، ويكون ذلك الإله الذي يعتقدُه هو الشَّيطان، والذين لا يتمثَّل لهم الشَّيطان يخاطب أحدُهم مَنْ في قلبه، فتخاطبه تلك الصورة العلميَّة، ويقدِّرُ أنها تخاطبه، ويظنُّ ذلك مخاطبةَ الحقِّ له.

---

(١) العبارة في (و): «وإذا كان مثل هذا كثيرٌ موجودٌ في...».

وهذا كالرَّجل يَذكُر بعضَ أصحابه، فيُمثِّله في قلبه ويخاطبه مخاطبةَ من يعاتبه[1]، أو يعتذر إليه، ويُقدِّر خطابَ تلك الصُّورة، ويقول: قلتُ لك كذا، وقلتَ لي كذا.

ونفْسُ الشَّخص لا يكلِّمه ولا يسمع كلامَه، وإنما هو المثال، كما قد يصوِّر صورةَ الإنسان ويخاطبها الإنسان، ويقدِّر ذلك مخاطبةً لصاحب الصُّورة.

والنَّصارىٰ أَدْخَلُ في هذا من غيرهم؛ فإنهم يخاطبون الصُّور الممثَّلة في الكنائس كصورة مريم، والمسيحِ والقدِّيسين، ويقولون: إنما نَقْصِد خطاب أصحابِ تلك الصُّور نستشفع بهم.

وهذا مما حرَّمه الله علىٰ ألسن جميع النبيِّين، ولم يشرع لأحدٍ أن يدعوَ الملائكة، ولا الأنبياء، ولا الصَّالحين الأموات، فكيف بالصُّور الممثَّلة لهم، كما قد بُسِط في موضعٍ آخر[2].

والمقصود هنا: أنه كثيرًا ما يوجد في كلام الناس الأنبياءِ وغيرِهم من ذكر ظهور الله ﷻ، والمرادُ به ظهوره في قلوب عباده بالمعرفة والمحبة والذِّكْر؛ ولهذا لمَّا كان يُقصد بذِكْر اسمِه ذكر المُسَمَّىٰ صار يقول من يقول: إن الاسم هو المسمىٰ، أي[3]: إن المراد المقصودَ من[4] الاسم هو المسمىٰ، لا أنَّ نفس اللَّفظ هو المسمَّىٰ، فإن هذا لا يقوله عاقل، وتنزيه الاسم وتسبيحه تنزيهٌ

---

(١) (و): «يعاينه».

(٢) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (١٧/ ٤٥٦).

(٣) «أي» ليست في (و، ي).

(٤) «من» ليست في الأصول. وأثبتها من (ط.النيل).

للمسمَّىٰ وتسبيحٌ له. كما قال تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى﴾ [الأعلىٰ: ١]، وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤]. وقال: ﴿تَبَٰرَكَ ٱسْمُ رَبِّكَ ذِى ٱلْجَلَٰلِ وَٱلْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨].

وجاء في حديث: «**لا تقُومُ القِيَامةُ حتَّىٰ لا يُعْبَدَ لله اسمٌ**[1]»[2]، أي لا يعبدَ اللهُ باسمٍ من أسمائه، فإنه إذا قيل: دعوت الله وعبدته، فإنما في اللفظ الاسم، والمقصود هو المسمىٰ.

وهذا الذي ذكرناه من تفسير ظهور اللَّاهوت في المسيح وغيره بأن المراد ظهورُ ما في القلوب من توحيد الله، ومعرفته، ومحبَّته، وذكره، ونوره، وهداه، وروحه، هو مما يفسِّر به ذلك كثيرٌ من علماء النَّصارىٰ؛ فإنهم يفسِّرون اتِّحاد اللَّاهوت بالنَّاسوت بظهور اللَّاهوت فيه، كظهور نقش الخاتم في الشَّمع والطِّين.

ومعلومٌ أن الحالَّ في الشَّمع والطِّين هو مثالُ نقش الخاتم، لا أنَّ في الشَّمع والطِّين شيئًا من الخاتم، بل ظهر فيه نقش الخاتم.

وكذلك يظهر نورُ الله وروحُه في الأنبياء والصَّالحين، وهذا المعنىٰ لا يختصُّ به المسيح عليه السلام، بل يشترك فيه هو وسائر الرُّسل، بل وكلُّ مؤمنٍ له من هذا نصيبٌ بحسب إيمانه.

---

(١) (و): «حتىٰ لا يعبد الله» بدل: «حتىٰ لا يُعبد لله اسم».

(٢) أخرج أحمد في «مسنده» (١١٨٢١)، عن أبي سعيد رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «لتضربَنَّ مضرُ عبادَ الله حتىٰ لا يُعبد لله اسم». وجاء نحوه عند مسلم (١٤٨) عن أنس رضي الله عنه ولفظه: «لا تقوم الساعة حتىٰ لا يقال في الأرض: الله، الله».



فصــل

قالوا: وقال أشْعِيا النَّبيُّ: «ها هي العذراء تَحْبَل، وتلد[1] ابنًا، ويُدْعىٰ اسمه عِمَّانويل»[2].

و«عِمَّانويل»: كلمةٌ عِبْرانيَّةٌ تفسيرها بالعربي: «إلهنا معنا» فقد شهد النَّبيُّ أنَّ مريم ولَدَتِ اللاهوتَ المتَّحد بالنَّاسوت كلاهما».

فيقال: ليس في هذا الكلام أن مريم ولدت اللَّاهوتَ المتَّحد بالنَّاسوت، وأنها ولدت خالق السماوات والأرض، بل هذا الكلام يدلُّ علىٰ أن المولود ليس هو خالق السماوات والأرض؛ فإنه قال: «تلد ابنًا».

وهذا نكرة في الإثبات، كما يقال في سائر النساء: إن فلانة ولدت ابنًا، وهذا دليلٌ علىٰ أنه ابنٌ من البنين، ليس هو خالقَ السماوات والأرضين، ثم قال: ويدعىٰ اسمُه «عِمَّانويل» فدلَّ بذلك[3] أن هذا اسمٌ يوضع له، ويسمَّىٰ به كما يسمِّي الناسُ أبناءَهم بأسماء الأعلام، أو الصِّفات التي يُسَمُّونهم بها. ومن تلك الأسماء ما يكون مُرْتَجلًا ارتجلوه.

ومنها ما يكون جملةً يحكونها، ولهذا كثيرٌ من أهل الكتاب يسمي ابنَه عِمَّانويل، ثم منهم من يقول: العذراءُ المراد بها غيرُ مريم، ويذكرون في ذلك قصةً جرت.

---

(١) «وتلد» ليست في (ي).

(٢) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (٧) الفقرة (١٤): «ها إن الصَّبيَّة تحمل فتلد ابنًا وتدعو اسمَه عِمَّانوئيل».

(٣) بعدها في (المطبوعتين): «علىٰ».



ومنهم من يقول: بل المراد بها مريم، وعلىٰ هذا التقدير فيكون **المراد أحدَ معنيين:**

إمَّا أنه يريد أن إلهنا معنا بالنَّصر والإعانة، فإنَّ بني إسرائيل كانوا قد خُذلوا بسبب تبديلهم، فلما بُعِثَ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ بالحقِّ كان الله مع من اتَّبع المسيح، والمسيح نفسُه لم يبق معهم، بل رُفِع إلىٰ السماء، ولكنَّ الله كان مع من اتَّبعه بالنَّصر والإعانة، كما قال تعالىٰ: ﴿فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤]. وقال تعالىٰ: ﴿وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥]. وهذا أظهر.

وإما أن يكون يُسَمَّىٰ المسيح إلهًا، كما يقولون: إنه يُسَمَّىٰ موسىٰ: «إله فرعون» أي: هو الآمر النَّاهي له، المسلَّط عليه.

وقد حرَّف بعضهم معنىٰ هذه الكلمة فقال: معناها: الله معنا. فقال من ردّ عليهم من علمائهم: يقال لهم: أهذا هو القائل: أنا الربُّ ولا إله غيري، أنا أُميتُ وأنا أحيي، أم هو القائل لله: إنك أنت الإلهُ الحقُّ وحدك، والذي أرسلت يسوع المسيح؟ وإذا كان الأول باطلًا والثاني هو الذي شهد به الإنجيل= وجب تصديق الإنجيل، وتكذيبُ من كَتَب في الإنجيل أن «عِمَّانويل» تأويله: «الله معنا»، بل تأويل عِمَّانويل[1]: «معنا إله»، وليس المسيح مخصوصًا بهذا الاسم، بل عِمَّانويل اسمٌ يُسَمّىٰ به النصارىٰ، واليهودُ من قبل النصارىٰ.

---

(١) «وتأويله الله معنا، بل تأويل عمانويل» ساقطة من (ي) لانتقال النظر.

وهذا موجودٌ في عصرنا هذا، في أهل الكتاب من سمَّاه أبوه «عِمَّانويل» يعني: شريف القدر، قال: وكذلك السُّريانُ أكثرهم يُسَمُّون أولادهم «عِمَّانويل».

قلت: ومعلومٌ أنَّ الله مع المتقين، والمحسنين، والمقسطين بالهداية والنصر والإعانة، ويقال للرَّجُل في الدعاء: الله معك. فإذا سُمِّي الرَّجل بقول[1]: «الله معك»= كان هذا تبركًا[2] بمعنىٰ هذا الاسم، وإذا قيل: إن المسيح سُمّي «الله معنا» أو «إلهنا معنا» ونحو ذلك كان ذلك دليلًا علىٰ أنَّ الله مع من اتَّبع المسيح وآمن به، فيكون الله هاديه، وناصره، ومعينه.

(١) (و): «يقول»، (ي): «فقوله».

(٢) (و): «شركًا».



فصــل

قالوا: وقال أشْعِيا أيضًا: «إن غلامًا وُلد لنا، وابنًا أعطيناه، الذي رياستُه علىٰ عاتقه وبين[1] منكِبيه، ويُدعىٰ اسمُه ملكًا، عظيم المشية[2] مسيّرًا عجيبًا، إلهًا[3] قويًّا مسلَّطًا، رئيس السلامة أبٌ[4] كلَّ الدهور، وسلطانه كاملٌ ليس له فناء»[5].

فيقال: ليس في هذه البشارة دلالةٌ بيِّنةٌ أن المراد به المسيحُ عَلَيْهِ السَّلَامُ، ولو كان المراد به المسيحَ لم يدلَّ علىٰ مطلوبهم، بل قد يقال: المرادُ بها محمَّدٌ ﷺ؛ فإنه الذي رياسته علىٰ عاتقيه، وبين منكبيه، من جهتين:

من جهة أن خاتم النُّبوَّة علىٰ نُغْضِ[6] كتفيه، وهو من أعلام النُّبوَّة الذي أخبرت به الأنبياء، وعلامة ختمهم.

ومن جهة أنه بُعث بالسَّيف الذي يتقلَّد به علىٰ عاتقه، ويرفعه إذا ضرب به علىٰ عاتقه، ويدلُّ علىٰ ذلك قوله: «مسلطٌ[7] قويٌّ رئيس السلامة».

---

(١) «عاتقه وبين» ليست في (د، ي، ع) «وبين» فقط ليست في (و).

(٢) لم تحرّر في النسخ. والمثبت من «ط.النيل».

(٣) (و): «ملاك عجيبًا لأمر» بدل: «عجيبًا إلها».

(٤) المثبت من (و) وسائر الأصول: «في»، وسيأتي في (و، ي) نصُّ المصنّف يوافق ما أثبت.

(٥) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (٩) الفقرة (٥-٦): «لأنه قد ولد لنا ولدٌ، وأعطي لنا ابنٌ، فصارت الرئاسة علىٰ كتفه، ودعي اسمه عجيبا، مشيرًا إلها جبَّارًا، أبا الأبد، رئيس السلام لنمو الرئاسة ولسلام لا انقضاءَ له».

(٦) النُّغْضُ: أعلىٰ الكتفِ. انظر: «غريب الحديث» لابن قتيبة (٢/ ١٩٦)، «النهاية» لابن الأثير (٥/ ٨٧). وحرّفت الكلمة في (المطبوع) إلىٰ «بعض».

(٧) «مسلط» ليست في (و).

وهذه صفة محمَّدٍ ﷺ المؤيَّد المنصور المسلَّط رئيسُ السَّلامة؛ فإن دينه الإسلام، ومن اتَّبعه سَلِم من خزي الدنيا وعذاب الآخرة، ومن استيلاء عدوه عليه.

والمسيح عليه السلام لم يسلَّط علىٰ أعدائه، كما سُلِّط محمدٌ ﷺ، بل كانوا أعداؤه بحيث يقدرون علىٰ صلبه، وعند النصارىٰ قد صلبوه، وعند المسلمين ألقىٰ الله شبهه علىٰ غيره، فصلب ذلك المُشَبَّه، فبهذه الطريق دفع الله الصَّلب عنه، لا بقهر أعدائه وإهلاكهم وذُلِّهم له، كما نصر الله محمَّدًا ﷺ علىٰ أعدائه.

وقال: «أبٌ[1] كلَّ الدهور، وسلطانه كاملٌ ليس له فناء» وهذا صفة خاتم الرُّسل الذي لا يأتي بعده نبيٌّ ينسخ شرعَه، وسلطانُه بالحُجَّة واليد، كاملٌ لا يحتاج فيه إلىٰ الاستعانة بشرعٍ آخر، وشرعه ثابتٌ باقٍ إلىٰ آخر الدهر.

---

(١) (د، ع): «إن»، (ط.النيل): «في».



فصـل

قالوا: وقال أشعيا أيضًا: «يخرج عصاه من بيت «يَسَّىٰ»[1]، ويَنْبُثُّ[2] نـورٌ منهـا، ويَحُـلُّ فيـه روح القـدس، روح الله، روح الحكمـة[3] والفهـم، روح الحَيْل[4] والقوَّة، روح العلم وخوف الله، وفي تلك الأيام يكون أصل «يَسَّىٰ» آيةً للأمم، وبه يؤمنون وعليه يتوكلون، ويكـون لهـم التَّاج[5] والكرامة إلىٰ دهر الداهرين»[6].

والجواب: أن هـذا الكـلامَ بعـد المطالبـة بصحّة نَقْله عـن النَّبِيِّ، وصحَّةِ التَّرجمة له باللِّسان العربي هو حجَّةٌ علىٰ النصارىٰ لا لهم؛ فإنه لا يـدلُّ علىٰ أنَّ المسيح هو خالق السماوات والأرض، بل يدلُّ علىٰ مثل ما دلَّ عليه القرآن من أنَّ المسيح عليه السلام أُيِّد بروح القدس، فإنه قال: «يحُلُّ فيه روح القدس، روح الله، روح الحكمة والفهـم، روح الحَيْلِ والقـوَّة، روح العلـم وخـوف الله» ولـم يقـل تَحُلُّ فيه حياة الله فضلًا عن أن يقولَ: حلَّ فيه الله، أو اتّحد به، ولكن جعل روح

---

(١) يسّىٰ بن عوبيد، وهو والد نبي الله داود عليه السلام. ذَكَرَه في «العهد القديم»، سفر راعوت، الإصحاح (٤)، الفقرة (١٨-٢٢).

(٢) (د): «وينبت»، وجاءت في النسخ الخطية مهملة. والمثبت من (ط.النيل).

(٣) (ي): «الكلمة».

(٤) «الحيل» بالياء: القوة، ومنه حديث: «يا ذا الحيل الشديد»، والمحدِّثون يروونه بالباء الموحدة، قال الأزهري: والصواب: الياء، أي: المثناة، وكذا ذكر ابن الأثير نحوه. ينظر: «تهذيب اللغة» (٥/ ١٨٥)، «النهاية» (١/ ٣٣٢، ٤٧٠)، «لسان العرب» (١١/ ١٩٦).

(٥) (ع، ط.النيل): «النتاج» وهي كذا في (و، ي) لكنها بلا نقط.

(٦) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (١١) الفقرة (١-٢، ١٠): «ويخرج غصن من جذع يسَّىٰ، وينمىٰ فرعٌ من أصوله، ويحُلُّ عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة وروح المعرفة وتقوىٰ الرب... وفي ذلك اليوم أصل يَسَّىٰ القائم راية للشعوب، إياه تلتمس الأمم، ويكون راحته مجدًا».



القدس هي روح الله، وهي[1] روح الحكمة والفهم والعلم، وهي روح الحَيْل والقوة[2]، كما عندهم في التوراة: «أنَّ الذين كانوا يعملون في قبَّة الزَّمان حلَّت فيهم روح الحكمة روح الفهم، روح العلم»[3].

فهي ما يحصل به الهدىٰ والنصر، كما قال تعالىٰ: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ﴾ [ص: ٤٥]، فقال: هي روح الله، وهذا كقوله تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقوله تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢].

وقال تعالىٰ: ﴿يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ بِٱلرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِۦ﴾ [النحل: ٢].

فما أنزله يُسَمَّىٰ هدىٰ الله، وروحَ الله، ووحيَ الله، ونورَ الله، ونحوَ ذلك[4].

وقال تعالىٰ لما ذكر أنبياءه من ذريَّةِ إبراهيم فقال: ﴿وَمِن ذُرِّيَّتِهِۦ دَاوُۥدَ وَسُلَيْمَٰنَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ۚ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٨٤﴾ وَزَكَرِيَّآءَ

---

(١) «وهي» ليست في (د، ع).

(٢) (ي): «هي روح الكلمة والفهم والعلم وهي روح الحبل والقوة...» بدل قوله: «هي روح الله، وهي روح الحكمة والفهم والعلم، وهي روح الحيل والقوة...».

(٣) تقدّم النقل قريبا عن سفر أشعيا، وفيه: «ويحل عليه روح الرب، روح الحكمة والفهم، روح المشورة والقوة، وروح المعرفة وتقوىٰ الرب».

(٤) « وقال تعالىٰ: ﴿ يُنَزِّلُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ ﴾ ...ونحو ذلك» ليست في (ي).

﴿وَيَحْيَىٰ وَعِيسَىٰ وَإِلْيَاسَ ۖ كُلٌّ مِّنَ الصَّالِحِينَ ﴿٨٥﴾ وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطًا ۚ وَكُلًّا فَضَّلْنَا عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٨٦﴾ وَمِنْ آبَائِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَإِخْوَانِهِمْ ۖ وَاجْتَبَيْنَاهُمْ وَهَدَيْنَاهُمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٨٧﴾ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ٨٤-٨٨].

وقال تعالىٰ: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه: ١٢٣].

وسمَّاه نورَ الله كقوله تعالىٰ: ﴿ ۞ اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

فهذا هدىٰ الله، ونور الله هو روح الله، كما قال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ وَلَٰكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا(١)﴾ [الشورىٰ: ٥٢]، وقال تعالىٰ: ﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢].

---

(١) أكمل الآية في (و): ﴿وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾.

فصـل

قالوا: وقال أشعيا أيضًا: «من أعجب الأعاجيب أن ربَّ الملائكة سيولد من البشر»[1].

فيقال: مثلُ هذا الكلام لا بدَّ أن يكون قبله كلامٌ وبعده كلام، وهو منقولٌ من لغةٍ إلىٰ لغة، ونحن نعلم قطعًا أنه لم يُرِد أن ربَّ العالمين يولد من البشر، ولو أراد ذلك لم يقل «ربَّ الملائكة» فقط. فإن الله ربُّ كلِّ شيء، لكن قد يريد[2] أنه يولد من البشر من يكون سيِّدَ الملائكة تخدمُه وتكرمُه، كما سجدت الملائكة لأبي البشر آدم.

والنصارىٰ يسلِّمون أن اللَّاهوت ما هو متولِّدٌ من البشر، وإنما المتولِّد من البشر هو الناسوت، وليس هو ربَّ العالمين بالاتِّفاق، فعُلم أنه لا حجَّة لهم في ظاهر اللَّفظ إن قُدِّرَ سلامته من التَّغيير.

ونظير هذا ما عندهم في إنجيل متَّىٰ: «أن ابن الإنسان يرسل ملائكته، ويَجْمَعون كلَّ الملوك ربًّا علىٰ الأمم، فيُلْقُونهم في أَتُون النَّار»[3].

قال بعض علماء أهل الكتاب: لم يُرِدْ بذلك أنَّ المسيح هو ربُّ الأرباب[4]، ولا أنه خالق الملائكة، بل ربُّ الملائكة أوصىٰ الملائكةَ بحفظ

---

(١) لم أجد هذا النصّ.

(٢) (و): «يراد به»، (ع): «يراد».

(٣) ورد في إنجيل «متّىٰ»، الإصحاح (١٣)، الفقرة (٤١): «يرسل ابن الإنسان ملائكته فيجمعون مسببي العثرات والأئمة كافة فيخرجونهم من ملكوته، ويقذفون بهم في أتون النار».

(٤) (و): «الإنسان».

المسيح بشهادة النَّبيِّ القائل: «إن الله يوصي[1] ملائكته بك ليحفظوك»[2].

ثم شهادة «لوقا»: أن الله أرسل له ملكًا من السَّماء ليُقَوِّيَه[3].

قال: «وإذا شهد الإنجيل باتِّفاق الأنبياء والرُّسل بأن الله يوصي ملائكته بالمسيح فيحفظونه، عُلم أن الملائكة مطيعةٌ[4] للمسيح بالأمر، وهو والملائكة في خدمة ربِّ العالمين».

وقال المسيح لتلاميذه: «مَنْ قَبِلَكم فقد قَبِلَني، ومن قَبِلَني فقد قبل من أرسلني»[5]. وقال المسيح: «من أنكرني قُدَّام الناس أنكرته قُدَّام ملائكة الله»[6].

وقال للذي ضرب عبد رئيس الكهنة: «اغمد سيفك، ولا تظن أن لا أستطيع أن أدعو الله الأب فيُقِم لي أكثر من اثني عشر جَوْقًا[7] من الملائكة»[8].

---

(١) (ع): «أوصىٰ».

(٢) ورد في سفر المزامير، المزمور (٩١)، الفقرة (١١): «لأنه أوصىٰ ملائكته بك ليحفظوك في جميع طرقك».

(٣) ورد في إنجيل «لوقا»، الإصحاح (٧)، الفقرة (٢٧): «ها أنا ذا أرسل رسولي قدامك ليعِدَّ الطريق أمامك».

(٤) (د، ي، ع، ط): «تطيعه».

(٥) ورد في إنجيل «يوحنَّا»، الإصحاح (١٣)، الفقرة (٢٠): «الحقّ الحقّ أقول لكم: من قبل الذي أرسله قبلني أنا، ومن قبلني قبل الذي أرسلني».

(٦) ورد في إنجيل «متّىٰ»، الإصحاح (١٠)، الفقرة (٣٣): «ومن أنكرني أمام الناس أُنكِره أمام أبي الذي في السماوات».

(٧) (و): «جوقًا». والجَوقُ: كل قطيع من الرعاة أمرهم واحد. «العين» (٥/ ١٨٣).

(٨) ورد في إنجيل «متّىٰ»، الإصحاح (٢٦)، الفقرة (٥٢-٥٣): «اغمد سيفك، فكل من يأخذ بالسيف يهلك، أوَ تظنّ أنه لا يمكنني أن أسأل أبي فيمدني الساعة بأكثر من اثني عشر فيلقًا من الملائكة؟».



فصل

قالوا: «ومثلُ هذا القول في كتب الله المنزَّلة على أفواه الأنبياء والرُّسل شيئًا كثيرًا عند النصارى جميعِهم، المختلفةِ ألسنتُهم، المفرَّقين في سبعة أقاليم العالم، المتمسِّكين بدين النصرانيَّة، قولٌ واحدٌ، ونصٌّ واحد، على ما تَسَلَّمُوه من الحواريِّين حين أنذروهم، وردُّوهم عن عبادة الأصنام إلى معرفة الله تعالى، سلَّمَوها إليهم، كلُّ أمةٍ بلسانها، وهي على هيئتها إلى يومنا هذا».

والجواب عن هذا من وجوه:

أحدها: أن القول في سائر ما يذكرونه من النُّصوص كما تقدَّم، وقد تكلَّم على هذا من تكلَّم عليه من علماء النصارى الذين هداهم الله، وبيَّنوا ما وقع في ذلك من تحريفهم لمعاني الكتب التي عندهم، وذكروا ممَّا عندهم من النصوص الصَّريحة بأن المسيح عبدُ الله، ليس هو الله؛ ما يتبيَّن به بطلانُ قولهم، وأنهم ممن تركوا المحكم من الآيات واتَّبعوا المتشابه؛ ولهذا أنزل الله فيهم: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [آل عمران: ٧].

وهذا كقول المسيح عليه السلام لما سُئِل عن علم الساعة فقال: «لا يعلمها إنسان، ولا الملائكة الذين في السماء، ولا الابن، إلا الأبُ فقط»[(١)].

فنفى عن نفسه علم الساعة، وهذا يدلُّ على شيئين: على أن اسم الابن

(١) ورد في إنجيل «متّى»، الإصحاح (٢٤)، الفقرة (٣٦): «فأما ذلك اليوم وتلك الساعة فما من أحد يعلمها لا ملائكة السماوات ولا الابن إلا الأب وحده».

إنما يقع على النَّاسوت دون اللَّاهوت، فإن اللَّاهوت لا يجوز أن ينفى عنه علمُ الساعة، ويدلُّ على أنَّ الابن لم يكن يعلمْ ما يعلمه الله، وهذا يُبطل قولهم بالاتِّحاد، فإنه لو كان الاتِّحاد حقًّا كما يزعمون لكان الابن يعلمُ ما يعلمُه الله، ويقدِرُ على ما يقدِر عليه، فإنه هو الله عندهم، والنَّاسوت لا يتميَّزُ عندهم عن اللَّاهوت فيما يوصف به المسيح من كونه عالمًا قادرًا يحيي ويميت.

وقال المسيح لتلاميذه: «آمنوا بالله وآمنوا بي». وقال أيضًا: «من يؤمنْ بي فليس يؤمنُ بي فقط، بل وبالذي أرسلني»[1].

وهم يذكرون أن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ استصْرخ لله قائلًا: «إلهي إلهي انظر، لماذا تركتني وتباعدت عن خلاصي؟»[2].

الوجه الثاني[3]: قولهم: إن هذه الكتب التي بأيديهم من التوراة والإنجيل وسائرِ النُّبوَّات تسلَّموها من الحواريِّين كلُّ أمة بلسانها، وهي على هيئتها= قول لم يقيموا على صحَّته دليلًا، بل ادَّعوْا ذلك دعوى مجردة.

ومثلُ هذا النَّقلِ إن لم يَثْبُتْ بالتَّواتر لم يُحتَجَّ به في المسائلِ العلميَّة، لا سيَّما إذا قيل في **الوجه الثالث**: إن هذا كذبٌ ظاهر؛ فإن كثيرًا من الألسنة ليس عند أهله إنجيلٌ قديم، ومن ذلك لسان العرب، فإن العرب النَّصارى كثيرون قبل الإسلام، ولا تُعرف توراةٌ وإنجيلٌ ونبواتٌ عربيَّة إلا ما عُرِّبَ من النُّسخ العبريَّة

---

(١) ورد في إنجيل «يوحنَّا»، الإصحاح (١٢)، الفقرة (٤٤): «من آمن بي لم يؤمن بي أنا بل بالذي أرسلني».

(٢) ورد في إنجيل «متَّى»، الإصحاح (٢٧)، الفقرة (٤٦): «ونحو الساعة الثالثة صرخ يسوع صرخة شديدة قال: «إيلي إيلي لمــَّا شبقتاني؟»، أي إلهي إلهي لماذا تركتني؟».

(٣) بعدها في (و): «أن».

والرُّومية والسُّريانيَّة، ونحن نطالبهم بهذه الكتب التي هي بالعربيَّة[1] التي في زمن الحواريِّين أين[2] هي؟ ومن رآها؟ ولو قُدِّر أنها كانت بالعربيَّة، فهذه النسخُ اليوم العربيَّةُ الموجودة بأيدي النَّاس هي مما عُرِّب ممَّا بأيديهم، وحينئذٍ فلا تُعْرف صحَّتُها إن لم تُعْرف صحَّةُ التَّرجمة، ويثبُت نقْلُ تلك عن المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهكذا القول في سائر الألسُن.

الوجه الرابع: أن التَّوراة والنُّبوَّات التي[3] نُقِلَتْ من نُسَخ اليهود والأناجيل هي أربعةٌ كتبت بعد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، اثنان ممَّن كتبها لم يريا المسيح وهما: لوقا ومرقس، واثنان رأياه وهما: يوحنَّا ومتَّىٰ.

والنُّسَخ إنما كثُرت عن الأربعة، وما ينقله الأربعة لا يجب أن يكون متواترًا معلومًا، وإذا كثُرت الألسن بها فَمِنْ بعدِ الأربعة، لا أَنَّ الذين سمعوها من المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ تكلَّموا باثنين وسبعين لسانًا، فإن هذا لم يقُله أحد، ولا يقوله عاقل؛ إذ الحواريون كانوا اثني عشر، لم يكونوا اثنين وسبعين، فإذا قيل: إنه نقلها اثنان وسبعون، فهم نقلوها عمَّن نقلها إليهم من الحواريِّين، وهم إنما يُسْنِدُونَ نَقْلها إلىٰ الأربعة.

الوجه الخامس: أنّ الحواريِّين ليسوا معصومين، بل يجوز علىٰ أحدهم الغلط في بعض ما ينقله، وما يُنقل من خوارقهم للعادات، فمِنَ النَّاس من يُكذِّبه، ومنهم من يُصدِّقه، ولا دلالة فيه علىٰ عصمتهم، إلا أن يَثبُت أنهم ادَّعوا

---

(١) (و): «بالعبرية» خطأ.

(٢) (د، ي، ع) الأقرب: «أتثبت».

(٣) «التي» ليست في الأصول، وقد أثبتت في (المطبوع) من طبعة المدني. والسياق يقتضيها.

النبوة وأقاموا المعجزات الدَّالة علىٰ نبوَّتهم، و[1]لم يكن الأمر كذلك، وإلا فالصَّالحون إذا كانت لهم كراماتٌ لم تدلَّ كراماتهُم علىٰ أنهم معصومون كالأنبياء، بل يجوز عليهم الغلط مع ثبوت كراماتهم، والحواريُّون عندهم ليسوا بأنبياء، وإن سَمَّوْهم رسلًا، فهم رسل المسيح، لا رسل الله ﷻ.

الوجه السادس: أنّ في هذه الكتب التي بأيديهم ما يناقض قولَهم من الأقوال الصَّريحة الكثيرة ممَّا هو أكثرُ وأصرحُ مما احتجُّوا به علىٰ قولهم، والواجب حينئذٍ التمسُّك بالصَّريح المحكم، وردُّ المتشابه إليه، لا يجوز التمسُّك بالمتشابه، وردُّ المحكَم إليه.

الوجه السَّابع: أنه بتقدير أن يكون في الأرض هذه الكتب باثنين وسبعين لسانًا، سواءٌ كانت كلُّها[2] منقولةً عن الحواريِّين نقلًا صحيحًا، أو كان[3] أكثرُها، أو كثيرٌ منها مترجمةً من لغةٍ إلىٰ لغة؛ فمعلومٌ أنه بكلِّ لسانٍ عدَّةُ نسخ، ولو لم يكن بها إلا لسانٌ واحدٌ مع كثرة النُّسخ بها في مشارق الأرض ومغاربها لم يمكن أحدًا أن يقطع بأن جميع النُّسخ علىٰ لفظٍ واحدٍ ونصٍّ واحد، كما ادَّعاه هؤلاء في الاثنين وسبعين لسانًا، حيث قالوا: «ومثل هذا القول في كتب الله المنزَّلة علىٰ أفواه الأنبياء والرُّسل كثيرٌ[4] عند النصارىٰ جميعِهم، المختلفةِ ألسنتُهم، المتفرِّقين في سبعة أقاليم العالم، المتمسِّكين بدين النَّصْرانيَّة، قولٌ واحدٌ، ونصٌّ واحد، علىٰ ما تسلَّموه من الحواريين، وردوهم عن عبادة الأصنام فسلموها إليهم كل أمة بلسانها، وهي علىٰ هيئتها إلىٰ يومنا هذا».

---

(١) بعدها في (ي): «إن».

(٢) «كلها» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٣) بعدها في (المطبوعتين): «نقل».

(٤) «كثير» ساقطة من (و).

فإنّ هذا الكلام يتضمَّن عدَّة دعاوىٰ ليس فيها ما يُمكِّنُ قائِلَه أن يكون عالمًا به، فعُلم أن هؤلاء تكلَّموا بهذا الكلام بلا علم، بل بالجهل والضَّلال كما هو عادتهم.

فإنه يقال لهم: مَن الذي جمع كلَّ نسخةٍ في العالم بجميع[1] التَّوراة والإنجيل والزَّبور وسائر النُّبوات الأربعة والعشرين بلسانٍ واحدٍ كالعربيِّ مثلًا، وهل مَيَّز[2] جميعَ النسخ فلم يجد نسخةً تزيد علىٰ نسخة ولا تَنْقُصُ عنها؟

ومعلومٌ إن كان هذا ممكنًا أمْكَن أن يقال: جمعَها جامعٌ، وغيَّر بعض ألفاظها، فلا يمكنُهُم دعوىٰ بقائِها بلا تغيُّر، وإن لم يمكن ذلك لم يمكن أحدًا أن يقول: أنا أعلم موافقة كلِّ نسخةٍ من نسخ هذه الكتب لكل نسخةٍ توجد في سبعة أقاليم العالم بذلك اللسان، فضلًا عن اثنين وسبعين لسانًا، فضلًا عن أن يقال: أنا أعلم أن هذه الألسن كلَّها تكلمت بها الحواريُّون، وهي باقيةٌ علىٰ لفظهم إلىٰ اليوم.

ومعلومٌ أنّ الإنسان إذا أمكنه جمع نسخِ كتابٍ واحدٍ من جميع الفنون من[3] كتب الطبّ، والحساب، والهندسة، والنحو، والفقه، والحديث، كان إمكانُ تغيير بعضِ أَلفاظ النُّسخ أيسرَ عليهم من مقابلة ألفاظ كل نسخةٍ بألفاظِ تلك النسخ مثلَها.

فإنَّ هذا لا يُقْدَرُ عليه في العادة، بل هو متعذرٌ أو متعسِّر، لا سيَّما والمقابلةُ إن كانت بين اثنين، فكلٌّ منهما يَنْقُل للآخر لفظ نسخته، فيكون مدارُ المقابلة علىٰ

---

(١) (المطبوعتان): «من جميع».

(٢) (و): «وبين» بدل: «وهل ميّز».

(٣) (و): «مثل».

خبرٍ واحد، لم يقترن بخبره ما يُعْلَمُ به صدقُه، فقد يغلطان أو يكذبان جميعًا.

وإن كانت بين عددٍ يحصل بهم العلم احتاجت كلُّ نسخةٍ بكلِّ لسانٍ[1] أن يَشهد بلفظها جمْعٌ يحصُل بهم العلم، وأولئك بأعيانهم يشهدون بلفظ كلِّ نسخةٍ بكلِّ لسان، وشهدوا بلفظ كل نسخة، ويشهدون لهم من هو مثلُهم[2] بلفظ النسخة الأخرىٰ وموافقتها لها، وهؤلاء، أو مثلهم بموافقة النُّسخة الثانية[3].

ومعلومٌ أن هذا لم يفعله أحد، ولا يَقدر عليه أحد، بل لو اجتمع جميع ملوكِ النَّصارىٰ علىٰ ذلك وعلماءُ بلادهم علىٰ ذلك[4] لم يقدروا عليه؛ فإنّه من النسخ ما هو عند المسلمين، ومنها ما هو في بلادٍ لا حُكْم لهم عليها، وأيضًا فقد يكون في بلادهم من النُّسخ ما لم يُظْهِرها أصحابُها.

فكلُّ مَنْ شهد من النصارىٰ وغيرِهم بأنّ كلَّ نسخةٍ في العالم بهذه الكتب توافق جميع النسخ فهو شاهدُ زورٍ شهد بما لا يعلم، بل شهد بما يعلم أنه كاذبٌ فيه.

وكذلك لو شهد بمثل هذا لِنُسَخ أيِّ كتابٍ كان، فإن العادة المعروفة أنَّ نسخ الكُتُب تختلف، ويزيد بعضُها وينقصُ بعضها. والقرآن المنقول بالتَّواتر لم يكن الاعتماد في نقله علىٰ نسخ المصاحف، بل الاعتماد علىٰ حفْظ أهل التَّواتر له في صدورهم؛ ولهذا إذا وُجد مصحفٌ يخالف حِفْظَ النَّاس أصلحوه، وقد يكون في بعض نسخ المصاحف غلطٌ فلا يلتفت إليه، مع أن المصاحف

(١) بعدها في (و): «إلىٰ».
(٢) (و) «ويشهدون هم أو مثلهم».
(٣) «وموافقتها لها، وهؤلاء أو مثلهم بموافقة النسخة الثانية» ليست في (د، ي، ع).
(٤) «وعلماء بلادهم علىٰ ذلك» ليست في (د، ي، ع).

التي كتبها الصَّحابة قد قيَّد الناس صورة الخطِّ ورسمَه، وصار ذلك أيضًا منقولًا بالتَّواتر، فنقلوا بالتَّواتر لفظ القرآن حفظًا، ونقلوا رسم المصاحف بالتَّواتر أيضًا.

ونحن لا ندَّعي اتفاق جميعِ نسخ المصاحف، كما لا نَدَّعي أنَّ كلَّ من يحفظ القرآن لا يغلط، بل ألفاظُه منقولةٌ بالتَّواتر حفظًا ورسمًا، فمن خرج عن ذلك علم الناس أنه غالطٌ؛ لمخالفته النقل المتواتر، بخلاف هذه الكتب، فإن النَّصارىٰ لم يحفظوها كلَّها في قلوبهم تلقِّيًا لها عن الحواريِّين حفظًا منقولًا بالتَّواتر، بل لم يكن أحد منهم يحفظها كلَّها، فضلًا عن أن يحفظها كلَّها أهلُ التَّواتر، فضلًا عن أن يحفظ كلَّ لسانٍ منها من تواتر بهم ذلك اللسان.

وهذا أمر معلومٌ لجميع النَّصارىٰ وغيرهم أنه لم يحفظها كلَّها بكل لسان من زمن الحواريِّين عددُ التَّواتر، بل ولا في زمنٍ من الأزمان، بل بعد انتشار النصارىٰ وكثرتهم وتفرُّقهم في الأقاليم السَّبعة لا يكاد يوجد فيهم من يحفظُها كلَّها عن قلبه، كما يحفظ صبيان المكاتب المسلمون القرآن، فكيف يحفظها في كلِّ زمانٍ أهلُ التَّواتُر؟ فكيف يحفظ كلَّ لسانٍ من الاثنين وسبعين أهلُ التواتر؟

وإذا كان اعتمادُهم إنّما هو علىٰ الكتب، وهم لا يمكنهم معرفةُ اتفاقِ جميع النسخ بلسانٍ واحد، فضلًا عن جميع الألسنة، عُلِمَ أن دعواهم أنها لم تزل متَّفِقةً علىٰ نصٍّ واحدٍ، ولفظٍ واحد، وأن جميع نسخها متفقةٌ في هذا الزمان، وفيما قبله= كلامُ مجازفٍ يتكلَّم بلا علم، بل يتكلَّم بما يَعْلَم أنه باطل.

الوجه الثامن: أن هذا لو قُدِّر إمكانُه، فإنما يكون منقولًا لو لم يُعْلَم أنه كذبٌ؛ فكيف مع العلم بأنه كذب؟ فإنه يوجد في هذا الزَّمان نسخُ التَّوراة



والإنجيل والزبور والنُّبوَّاتِ مختلفةً متناقضة، والنُّسخ التي عند النَّصارىٰ مختلفة، وهي أيضًا تخالف نسخ اليهود والسَّامرة في مواضع، وحينئذٍ فإذا قالت النَّصارىٰ: نُسَخنا هي الصحيحة. لم يكن هذا أولىٰ من قول اليهود: نُسَخنا هي الصحيحة، بل معلومٌ أنّ اعتناء اليهود بالتَّوراة أعظمُ من اعتناء النَّصارىٰ.

ثم بعد هذا ما ذكروه لا يكفي إن لم يُعلم أن نسخَهم توافقُ النُّسخَ التي عند اليهود حتىٰ السَّامرة، وهذا غيرُ معلوم.

وإن قالوا: إذا خالف نقل اليهود لنقل الحواريِّين لم يُلتفَت إليه لأنهم معصومون= كان هذا مبنيًّا علىٰ دعوىٰ عصمتهم، وقد عُرف فسادُه[1].

وإذا قالت النَّصارىٰ: نحن ننقلها عن الحواريِّين المعصومين. قالت اليهود: نحن ننقلها عن موسىٰ المعصوم باتفاق أهل الملل، أو عن[2] المعصوم باتفاق اليهود والنَّصارىٰ وكثيرٍ من المسلمين، فالتوراة باتِّفاق الخلق مأخوذةٌ عن موسىٰ بن عمران، وهو معصوم، وإنما يَطْعَنُ مَنْ يطعن في نقل بعضها لانقطاع التَّواتر في أثناء المدَّة لما خُرِّبَ بيتُ المقدس، ولم يبق فيه ساكنٌ أكثرَ من سبعين سنة، فيقول بعض الناس: إن بعض ألفاظها غُيِّر حينئذ، ويقول بعضهم: لم تُغَيَّر ألفاظُ جميع النُّسخ، وإنما غُيّر ألفاظ بعض النُّسخ، وانتشرت النُّسخ المغيَّرةُ عند كثيرٍ من الناس حتىٰ لا يعرفوا غيرها.

ثم بنو إسرائيل لم يَزَلْ فيهم نبيٌّ بعد نبيٍّ حتَّىٰ جاء المسيح، وبعد المسيح فلم يزالوا خلقًا كثيرًا لا يمكن تواطؤهم في مشارق الأرض ومغاربها علىٰ تغيير نسخ التَّوراة، بخلاف الإنجيل؛ فإنه إنَّما نقله أربعة، ومن كَتَبَ التوراةَ والزبورَ والنُّبوَّاتِ من أتباع المسيح فإنما كتبوها من النُّسخ التي كانت بأيدي اليهود.

---

(١) «ثم بعد هذا ما ذكروه لا يكفي... وقد عرف فساده» ليست في (د، ي، ع).

(٢) بعدها في (المطبوع): «العارف» وليست في الأصول.



وإذا قالوا: كانوا معصومين. فهذا ممنوعٌ عند المسلمين واليهود، وعلىٰ تقدير تسليمه فاليهود ينقلونها أيضًا عن المعصوم قبل هؤلاء، فلا يمكن مع هذا أن يدَّعيَ مدَّعٍ أن النُّبوَّات التي عند النَّصارىٰ تواترت عن المعصوم أعظمَ من تواتر ما عند اليهود، بل لا يشكُّ العقلاء العادلون أن نَقْل حروف التَّوراة أصحُّ من نقل حروف الإنجيل.

وهذا أمرٌ يُعْرف من وجوهٍ متعددة؛ فإن التَّوراة أُخذت عن المعصوم باتفاق أهل الملل، وكانت منقولةً قبل المسيح بين الأنبياء وبين[1] بني إسرائيل أعظمَ من نقل الإنجيل، وبعد المسيح نقَلَها اليهود والنَّصارىٰ.

وإذا كان كذلك، فإذا وُجِد ما عند اليهود والسَّامرةِ من نُسَخِ النُّبوَّات يخُالف ما عند النَّصارىٰ في بعض الألفاظ كان هذا دليلًا علىٰ أن هذه الكتبَ ليست ألفاظُها منقولةً عن نصٍّ واحد، وأنه ليس كلُّ لفظٍ من ألفاظها متواترٌ، والله أعلم.

الوجه التاسع: أن جميع ما عندهم من النُّصوص الصَّحيحة لا يدلُّ علىٰ مذهبهم البتَّة نصًّا، بل غاية ما يدَّعون فيها الظهور، وهم منازَعون في ذلك حتىٰ يقال: بل الظَّاهر فيما يحتجُّون به خلافُ قولهم.

ومعلومٌ أن أصول الإيمان التي يؤمن أهل الإيمان بها ويُكَفِّرون من خالفها لا بدَّ أن تكون معلومةً عندهم عن الأنبياء، والعلم لا يحصل بلفظٍ محتمل، فعُلِم أنه لا عِلْم عندهم عن الأنبياء عليهم السلام، وهو مَحَلُّ النِّزاع.

(١) «وبين» ساقطة من (و).



الوجه العاشر: أن أصْرح ما عندهم في التَّثليث هو قوله: «عَمِّدُوا الناس باسم الأب والابن وروح القدس» وعلىٰ هذا القولِ بنَوْا قولهم بالتَّثليث، وأثبتوا لله ثلاثةَ أقانيم.

ولفظ «الأقانيم» لم يَنْطق به أحدٌ من الأنبياء، ولا أحدٌ من الحواريِّين باتِّفاقهم، بل هو ممَّا ابتدعوه، قيل: إنه لفظٌ روميٌّ معناه: الأصل.

ثم أقنوم «الابن» تارةً يقولون: هو علمُ الله، وتارةً يقولون: هو حكمةُ[1] الله، وتارةً يقولون: هو كلمةُ[2] الله، وتارةً يقولون: هو نطق الله[3].

وروحُ القدس تارةً يقولون: هو حياة الله، وتارةً يقولون: هو قدرة الله.

والكتب المنقولةُ عن الأنبياء عندهم ليس فيها تسميةُ شيءٍ من صفات الله لا باسم «ابنٍ»، ولا باسم «روحِ القدس» فلا يوجد أن أحدًا من الأنبياء سمَّىٰ علمَ الله وحكمتَه وكلامه ابنًا، ولا سمَّىٰ حياة الله، أو قدرتَه «روحَ القدس»، بل «روحُ القدس» في كلام الأنبياء يرادُ بها معنًى ليس هو حياةَ الله، كما يراد بها مَلَكُ الله، أو ما يُنَزِّلُه في قلوب الأنبياء والصَّالحين من هُدَاهُ، ونورِه، وتأييدِه، ونحوِ ذلك.

وإذا كان كذلك عُلِمَ أن ما فسَّروا به قولَ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ: «عَمِّدُوا الناسَ باسم الأب والابن وروح القدس» كذبٌ صريحٌ عليه، وكذلك ما فسَّروا به كلام الأنبياء من إثبات الأقانيم الثَّلاثة كذبٌ صريحٌ عليهم، كقولهم: «إله إبراهيم

---

(١) (و): «كلمة».

(٢) (و): «نطق».

(٣) «وتارة يقولون: «هو نطق الله» ليست في (و).

وإلـه إسـحاق وإلـه يعقـوب» أرادوا بـه إثبـاتَ ثلاثـة آلهـة، فـإنَّ هـذا ممـا يُعلـم بالضَّرورة ضلالُهم فيه وافتراؤهم علىٰ الأنبياء، ويُعْلَـم[1] أن إلـه الثلاثـة هـو إلـهٌ واحد، ليس إلهُ إبراهيم إلهًا آخر غير إلهِ إسحاق، حتىٰ لـو قيـل بالأقـانيم فـلا يقول عاقل: إن أحد الأقانيم إلهُ هذا، والأقنومَ الآخرَ إلهُ الآخر، فإن هذا لـم يَقُلْه أحدٌ من العقلاء، لا النَّصارىٰ ولا غيرهم، لا[2] يقولـون: إن الأب إلـهُ إبـراهيم مثلًا، والابنَ إلهُ إسحاق، وروحَ القدس إلهُ يعقوب، بل هم متَّفقـون مـع قـولهم بالتَّثليث أن الجميع إلهٌ واحدٌ لجميع المرسلين، ليس إلهُ هذا أقنوم، وإله الآخر أقنوم آخر، فعلم أن ما يفسِّرون به كلامَ الأنبياء كذب، لا يصـحُّ لا علىٰ تثليثهم الذي ابتدعوه، ولا قولِ أهل التَّوحيد المتَّبعين[3] لرسل الله تعالىٰ.

---

(١) (و): «واعلم».

(٢) «لا» ليست في (ي، ع، ط.النيل).

(٣) «المتبعين» مثبتة من (و) وساقطة من سائر النسخ.

فصل

قال الحاكي عنهم: «فقلت لهم: إذا كانت هذه النُّبوَّات عند اليهود، وهم مُقِرُّون معترفون بها أنها حقّ، وأنها عَتِيدَةٌ[1] أن تَكْمُلَ عند مجيء المسيح؛ فأيُّ حُجَّةٍ لهم يحتجُّون بها عن الإيمان به؟

أجابوا قائلين: إن الله اختار بني إسرائيل واصطفاهم علىٰ الناس له شعبًا في ذلك الزمان، وحيث كانوا في أرض مصر في عبوديَّة فرعون، أرسل إليهم موسىٰ النبيَّ، دلَّهم علىٰ معرفة الله، ووعدهم أن الله يُخَلِّصهم من عبوديَّة فرعون، ويخرجهم من مصر، ويُرِيَهم أرضَ الميعاد التي هي أرض بيت المقدس، فطلب موسىٰ من الله، وعمل العَجائب قُدَّام عيونهم، وضرب أهل مصر العشْر ضرَبَات، وهم يرون ذلك جميعه، ويعلمون أن الله يصنعه لأجلهم، وأخرجهم من مصر بيدٍ قويَّة، وشقَّ لهم البحر، وأدخلهم فيه، وصار لهم الماء حائطًا عن يمينهم وحائطًا عن شمالهم، ودخل فرعون وجميعُ جنوده في البحر، وبنو إسرائيل ينظرون ذلك، فلما برز موسىٰ وبنو إسرائيل من البحر وخلَفهم فرعون بجنوده فيه، أمر الله لموسىٰ أن يردَّ عصاه إلىٰ[2] الماء، فعاد الماء كما كان، وغرق فرعون وجميعُ جنوده في البحر، وبنو إسرائيل يشهدون ذلك، فلما غاب عنهم موسىٰ إلىٰ[3] الجبل ليناجيَ ربه، وأخذ لهم التَّوراة من يد الله، تركوا عبادة الله، ونسوا جميع أفعاله، وكفروا به، وعبدوا رأس العجل من بعد ذلك، ثم عبدوا الأصنام مرارًا كثيرة ليس مرة واحدة، وذبحوا لها الذبائح، ليست

---

(١) (ي): «عقيدة».

(٢) (و): «علىٰ».

(٣) (د، ط.النيل): «أتىٰ».

حيوانات بل بَنِيْهم مع البنات حسبما ذُكر فيما قبل ذلك، وجميع أفعالهم مكتوبةٌ في أخبار بني إسرائيل.

فلما رأىٰ الله قساوة قلوبهم، وغِلَظَ رقابهم وكُفْرَهُم به، ورأىٰ أفعالهم النَّجسة الخبيثة، غضب عليهم وجعلهم مَرْذُولين، وطبع علىٰ قلوبهم فلا يؤمنون، وجعلهم مهانين في جميع الأمم، وليس لهم مُلْكٌ، ولا بلادٌ، ولا نبيٌّ، ولا كاهنٌ إلىٰ الأبد، حسْبَما تنبَّأَت عليهم الأنبياءُ علىٰ ما ذكرناه قبل[1]، وتشهد به كتُبُهُم التي في أيديهم[2] يومنا هذا.

وكذا قال الله لأشعيا: «اذهب إلىٰ هذا الشعب فقل لهم: تسمعون سماعًا ولا تفهمون، وتنظرون نظرًا ولا تبصرون؛ لأن قلب هذا الشعب قد غُلِّظَ، وقد سمعوا بأفهامهم سمعًا ثقيلًا، وقد غمَّضوا أعينهم لئلا يبصروا بها، وسمعوا بآذانهم ولا يفهمون بقلوبهم، ويرجعون إليَّ فأرحمهم»[3].

وقال أشعيا: «قال الله: هكذا مَقَتَتْ نفسي سُبُوْتَكُم، ورءوسُ شهُورِكُم صارت عندي مرذولة» وقال: «وفي ذلك اليوم يقول الله: سأبطل السُّبوتَ والأعيادَ كلَّها، وأعطيكُم سنَّةً جديدةً مختارةً لا كالسُّنَّة التي أعطيتُها لموسىٰ عبدي يوم حُوْرِيب، يوم الجمع الكثير، بل سُنَّةً جديدةً مختارةً أَمَرَ بها وأخرجَها

---

(١) «قبل» ليست في (و).

(٢) حوريب: اسم جبل في «سيناء». انظر: «موسوعة اليهود واليهودية» (٤/ ١١٤).

(٣) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (٦)، الفقرة (٩-١٠): «اذهب وقل لهذا الشعب: اسمعوا سماعًا ولا تفهموا، وانظروا نظرًا ولا تعرفوا، غَلِّظ قلب هذا الشعب، وثقِّل أذنيه وأغمض عينيه، لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأذنيه، ويفهم بقلبه ويرجع فيشفىٰ».



من صهيون»[1]. فصهيون هي أورشليم، والسنة الجديدة المختارة: هي السنة التي تسلَّمناها نحن معشر النصارىٰ من يدي الرسل الحواريِّين الأطهار، الذين خرجوا من أورشليم، وداروا في سبعة أقاليمِ العالم، وأنذروا بهذه السُّنَّةِ الجديدة؛ فأيُّ بيانٍ يكون أوضحَ وأصحَّ من هذا البيان؛ إذ قد أوردناه من قول الله، ولا سيَّما وأعداؤُنا اليهودُ المخالفون لديننا شهدوا لنا بصحَّة ذلك جميعه.

وأما حجَّةُ اليهود في هذه النُّبوَّات يقولون ويعتقدون أنها حقٌّ، وأنها قول الله، لكن يقولون: إنها «عتيدة» فهذه النُّبوَّات مثلما هي عند اليهود كذلك هي عندنا معشر النصارىٰ في اثنين وسبعين لسانًا، فيراها جميعُ الأمم قولًا واحدًا، وأنها قول الله.

وقالت اليهود: نحن مُصَدِّقون بها أن تَكْمُلَ وتَتِمَّ[2] عند مجيء المسيح، لكنَّ المسيح لم يجئ بعد، وأنّ الذي جاء[3] ليس هو المسيح.

هذا قولهم، وكفاهم أنهم يكفرون ويفجُرون[4] مع الكفر، ويقولون: إن المسيح كان ضالًّا مضلًّا، وأمَّا المسيح الحقُّ[5] فعتيدٌ أنه يأتي ويُكمِل نبوَّات الأنبياء إذا جاء، وإذا جاء اتَّبعناه وكنَّا أنصاره، وهذا رأيهم واعتقادهم في السَّيد المسيح؛ فماذا يكون أعظمَ من هذا الكفر الذي هم عليه؟

---

(١) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (١)، الفقرة (١٣-١٤): «رأس الشهر والسبت والدعوة إلىٰ الحفل لا أطيقها إنما هي إثم واحتفال، رؤوسُ شهوركم وأعيادكم كرهتها نفسي صارت عليَّ حملًا وقد سئمت احتمالها».

(٢) «وتتم» ليست في (و).

(٣) كذا العبارة في (د، ي، ع، ط.النيل): «لكن المسيح ينكرون مجيئه ويقولون: ما جاء، وأن الذي جاء...» بدل قوله: «لكن المسيح لم يجئ بعد، وأن الذي جاء».

(٤) (ي، ع، ط.النيل): «ويفتخرون».

(٥) «الحق» ليست في (و).



ولأجل ذلك في هذا الكتاب سمَّاهم: المغضوبَ عليهم لأجل خلافهم لقول الله الذي نطقه علىٰ أفواه الأنبياء، ولما كنا نحن النَّصارىٰ متمسِّكين بما أمرَتْنا به الرُّسل الأطْهار سمَّانا في هذا الكتاب المنعَم عليهم، وأما قولنا في الله: «ثلاثة أقانيم إله واحد» فهو أن الله نطق به وأوضحه في التّوراة وفي كتب الأنبياء، ومن ذلك ما جاء في السِّفر الأول من التَّوراة يقول: «حيث شاء الله أن يخلق آدم قال: لنخلقْ خلقًا علىٰ شبهنا ومثالنا»[1]. فمن هو شبهُه ومثالُه سوىٰ كلمتِه وروحِ قدسه. وحين خالف آدمُ وعصىٰ ربه: «ها آدم قد صار كواحد منا»[2].

وهذا واضحٌ أن الله قال هذا القول لابنه، أي كلمتِه وروحِ قدسه، وقال هذا القول يستهزئ بآدم، أي طلب أن يصير كواحدٍ منا صار عُريانًا مفتَضحًا.

وقال الله عندما أَخسف بسَدُومَ وعامورةَ، قال في التَّوراة: «وأَمْطَرَ[3] الربُّ[4] عند الربِّ من السماء علىٰ سَدُوم وعامورة[5] نارًا وكبريتًا»[6]. أوضح بهذا ربوبيَّة الأب والابن بذكرٍ ثالث[7].

---

(١) جاء في سفر التكوين، الإصحاح الأول، الفقرة (٢٦): «وقال الله: لنصنع الإنسان علىٰ صورتنا كمثالنا».

(٢) جاء في سفر التكوين، الإصحاح (٣)، الفقرة (٢٢): «وقال الرب الإله:هو ذا الإنسان قد صار كواحد منا».

(٣) (ع): «وأمر».

(٤) بعدها في (ع): «من».

(٥) سدوم: مدينة من مدائن قوم لوط، كانت بين الحجاز والشام. «معجم البدان» (٣/ ٢٠٠). وعاموراء: بالعبرانية: قرية من قرىٰ قوم لوط. «معجم البدان» (٤/ ٧١).

(٦) جاء في سفر التكوين، الإصحاح (١٩)، الفقرة (٢٤): «وأمطر الرب علىٰ سدوم وعمورة كبريتًا ونارًا من السماوات».

(٧) «وحين خالف آدم وعصىٰ ربه...والابن بذكر ثالث» ساقطة من (و).

والجواب أن يقال: أما كفر اليهود كلِّهم لما أرسل المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إليهم فلم يؤمنوا به وكفر من كفر منهم قبل ذلك، إما بقتل النبيِّين، وإما بتكذيبهم، إما بالشِّرك، وإما بغير ذلك ممَّا كفروا فيه بما أنزل الله، فهذا حقٌّ.

وهذا[1] هو نظير كفر النصارىٰ كلِّهم الذين بلغتهم دعوة محمدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأقام الله عليهم الحجَّة به فلم يؤمنوا به، وكفر من كفر منهم قبل ذلك بما أنزل الله، إما بتكذيب بعض ما أنزله، وإما بتبديله بغيره[2]، وإما بجعل ما لم يُنزله الله مُنزلًا منه، وإما بغير ذلك مما فيه كفرٌ بما أنزل الله عَزَّ وَجَلَّ.

وكذلك ما ذُكِر من أن الله أقام[3] سُنَّة جديدة، وعهدًا جديدًا، وهو ما بُعث به المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشريعة التي بُعث بها، وفيها تحليلُ بعضِ ما حرَّمه الله في التَّوراة، كما قال في القرآن عن المسيح: ﴿وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران: ٥٠]. فهذا أيضًا حقٌّ.

---

(١) «وهذا» ساقطة من (و، ي).

(٢) «بغيره» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٣) (ي): «أنزل».

فصل

وأما قولكم: «السُّنَّة الجديدة المختارة هي السُّنَّة التي تسلَّمناها من يَدَيِ الرُّسل الأطهار، علىٰ ما تسلموها هم من المسيح عليه السلام».

فيقال: لو كنتم علىٰ تلك السنَّة لم تغيِّروها، لم ينفعكم المُقام عليها إذا كذبتم الرسول النبيَّ الأُمِّيَّ الذي بُعِثَ إليكم وإلىٰ سائر الخلق بسُنَّةٍ أخرىٰ أكملَ من السُّنن[1] التي كانت قبله، كما لم ينفع اليهودَ إذ تمسَّكوا بسنَّة التَّوراة، ولم يتَّبعوا سنَّة المسيح الذي أرسل إليهم، بل من كذَّب برسولٍ واحدٍ فهو كافر.

كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكۡفُرُونَ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيُرِيدُونَ أَن يُفَرِّقُواْ بَيۡنَ ٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَيَقُولُونَ نُؤۡمِنُ بِبَعۡضٖ وَنَكۡفُرُ بِبَعۡضٖ وَيُرِيدُونَ أَن يَتَّخِذُواْ بَيۡنَ ذَٰلِكَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٥٠].

فإنه وإن كانت السُّنَّةُ التي جاء بها المسيح عليه السلام حقًّا، وكلُّ من كان متِّبعًا له[2] فهو مؤمنٌ مسلمٌ من أولياء الله، من أهل الجنة الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنۡ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا فَلَهُمۡ أَجۡرُهُمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ وَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾[3] [البقرة: ٦٢].

وقال تعالىٰ: ﴿كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ لِلۡحَوَارِيِّـۧنَ مَنۡ أَنصَارِيٓ إِلَى ٱللَّهِۖ قَالَ ٱلۡحَوَارِيُّونَ نَحۡنُ أَنصَارُ ٱللَّهِۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٞ مِّنۢ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٞۖ فَأَيَّدۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَىٰ عَدُوِّهِمۡ فَأَصۡبَحُواْ ظَٰهِرِينَ﴾ [الصف: ١٤].

---

(١) (و): «السنتين».

(٢) (و، ي): «لها».

(٣) لم ترد الآية في (ي).

فمن اتبع المسيح كان مؤمنًا، ومن كفر به كان كافرًا.

وقال تعالىٰ: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوۡقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِۖ ثُمَّ إِلَيَّ مَرۡجِعُكُمۡ فَأَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡ فِيمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ۝٥٥ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَأُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗا فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِ وَمَا لَهُم مِّن نَّٰصِرِينَ ۝٥٦ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ٥٥-٥٧].

لكن غيَّرتموها وبدَّلتموها قبل مبعث محمدٍ ﷺ، فصرتم كفارًا بتبديل شريعة المسيح، وتكذيب شريعة محمَّدٍ ﷺ، كما كفرت اليهود بتبديل شريعة التَّوراة، وتكذيب شريعة الإنجيل، ثم كفروا بتكذيب شريعة محمَّدٍ ﷺ، وعلىٰ سائر رسل الله أجمعين.

فإن المسيح لم يَسُنَّ لكم التَّثليث والقولَ بالأقانيم، ولا القولَ بأنه ربُّ العالمين، ولا سنَّ لكم استحلال الخنزير، وغيرَه من المحرَّمات، ولا ترك الختان، ولا الصلاةَ إلىٰ المشرق، ولا اتخاذَ أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله، ولا الشِّركَ واتخاذَ التَّماثيل والصَّليبِ ودعاء الموتىٰ والغائبين من الأنبياء[1] والصَّالحين وغيرهم، وسؤالَهم الحوائج، ولا الرَّهبانيَّة، وغيرَ ذلك من المنكرات التي أحدثتموها، ولم يسنَّها لكم المسيح، ولا ما أنتم عليه هي السُّنة التي تسلَّمتموها من رسل المسيح.

بل عامَّة ما أنتم عليه من السُّنن: أمورٌ محدثةٌ مبتدعةٌ بعد الحواريين: كصومكم خمسين يومًا زمن الربيع، واتخاذِكم عيدًا يوم الخميس والجمعة

(١) (ي): «والأنبياء» بدل: «من الأنبياء».



والسبت، فإن هذا لم يسُنَّه المسيح ولا أحدٌ من الحواريِّين، وكذلك عيد[1] الميلاد والغطاس، وغير ذلك من أعيادكم.

بل عيد الصَّليب إنما ابتدَعَتْه هيلانة الحرَّانية الفُنْدُقانية أمُّ قُسْطَنطين[2]، فأنتم تقولون[3]: إنها هي التي أظهرت الصَّليب، وصنعت لوقت ظهوره عيدًا، وذلك بعد المسيح والحواريِّين بمدَّةٍ طويلةٍ في زمن الملك قُسْطَنطين[4] بعد المسيح بأكثرَ من ثلاثمائةِ سنة.

وفي ذلك الزَّمان أحدثتم «الأمانة» المخالفة[5] لنصوص الأنبياء في غير موضع[6]، وأظهرتم استحلال الخنزير وعقوبةَ من لم[7] يأكلْه، وابتدعتم في ذلك الزَّمان تعظيم الصَّليب، وغير ذلك من بِدَعكم، وكذلك كتب القوانين التي عندكم التي جعلتموها سنَّةً وشريعة، فيها شيءٌ عن الأنبياء والحواريِّين، وكثيرٌ ممَّا فيها ابتدعه مَن بعدهم، لا ينقلونه لا عن المسيح ولا عن الحواريِّين، فكيف تدَّعون أنكم علىٰ السُّنة والشَّريعة التي كان عليها المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، وهذا ممَّا يُعْلَم بالاضطرار والتَّواتر أنه كذبٌ بيِّن.

---

(١) بعدها في (د، ع، ط.النيل): «الحواريين». وقد تقدّم التعريف بهذه الأعياد (١/ ١٨٧).

(٢) تقدّم ذكر هيلانة (١/ ١٨٨).

(٣) (و): «فإنهم يقولون».

(٤) أخّرت عبارة «زمن الملك قسطنطين» في (ي) بعد قوله: «ثلاثمائة سنة».

(٥) «المخالفة» ساقطة من (المطبوع).

(٦) «في غير موضع» ليست في (و).

(٧) «لم» ساقطة من (و، ط.النيل).

فصـل

قـالوا: «وأمـا قولنـا في الله: ثلاثـة أقـانيم، إلـهٌ واحـد، فهـو أنَّ الله نطـق بـه، وأوضحه في التّوراة، وفي كتب الأنبياء، ومـن ذلـك مـا جـاء في السِّـفر الأول مـن التَّوراة يقول: حيث شاء الله أن يخلق آدم. قال الله: «لنخلق خلقًا[1] علىٰ شِبْهِنا ومثالِنا». فمن هو شبهه ومثاله سوىٰ كلمتِه وروحِه؟

وحين خالف[2] آدمُ وعصىٰ ربَّه قال الله تعالىٰ: «ها آدم قد صار كواحدٍ منا». وهو قولٌ واضحٌ أن الله قال هذا القول لابنه وروح قدسه».

والجواب: أن استدلالهم بهذا علىٰ قولهم في المسيح هو في غاية الفساد والضَّلال، فإن لفظ التَّوراة: «نصنع آدم كصورتنا[3] وشبهنا». وبعضهم يترجمه: «نخلق بشرًا علىٰ صورتنا يشبهنا»[4]. والمعنىٰ واحد، وهو كما قال النَّبيُّ ﷺ: «**إِنَّ اللهَ خَلَقَ آدَمَ عَلَىٰ صُورَتِهِ**»[5]، وفي رواية: «**علىٰ صُورَةِ الرَّحْمَنِ**»[6].

فقولهم: «من هو شبهه ومثاله[7] سوىٰ كلمته وروحه» **من أبطل الباطل من وجوه:**

---

(١) (و): «ليخلق خلقنا» بدل: «ليخلق خلقًا».

(٢) (ي): «خلق».

(٣) (ع): «علىٰ صورتنا».

(٤) (د، ع): «شبيهنا».

(٥) «صحيح مسلم» (٢٦١٢) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦) «السنة» لعبد الله بن أحمد (٤٩٨). وذكر الدارقطني أن هذا الحديث يروىٰ مسندًا ومرسلًا، والمرسل أصح. انظر: «العلل» (١٣/ ١٨٨).

(٧) «ومثاله» ليست في (و).

أحدها: أن الله ليس كمثله شيء، وليس لفظ النصِّ: علىٰ مثالنا.

الثاني: أنه لا اختصاص للمسيح بما ذُكر علىٰ كلِّ تقدير، حق وباطل؛ فإنه[1] بأيِّ تفسيرٍ[2] فُسِّر قوله: «سنخلق بشرًا علىٰ صورتنا يشبهنا»= لم يخصَّ ذلك المسيح.

الثالث: أنهم إن أرادوا بالكلمة التي هي شبْهُه ومثالُه صفتَه التي هي العلم القائم به، والحياة القائمة به[3]؛ فالصِّفة لا تكون مثلًا للموصوف؛ إذ الموصوف هو الذَّات القائمة بنفسها، والصِّفة قائمةٌ بها، والقائم بغيره لا يكون مِثْل القائم بنفسه.

وإن أرادوا به شيئًا غيرَ صفاتِه، مثل بدن المسيح وروحه، فذلك مخلوقٌ له، والمخلوق لا يكون مثل الخالق، وكذلك روح القدس، سواء أُرِيد به مَلَكٌ، أو هدًى وتأييد، ليس مِثْلًا لله ﷻ.

الرابع: أنه قال: «لنخلق خلقًا» أو قال: «نخلق آدم» أو «نخلق بشرًا علىٰ صورتنا وشبهنا» وعلىٰ ما قالوه: «نخلق خلقًا علىٰ شِبْهِنا ومثالنا»، وبكل حال، فهذا مخلوق[4]، وكلمة الله وروحُه عندهم[5] غير مخلوق، فامتنع أن يكون المراد بذلك كلمتَه وروحَه.

(١) «فإنه» ليست في (د، ع، ط.النيل).
(٢) (و): «شيء».
(٣) «به» ليست في (و). بعدها في (المطبوعتين): «مثلًا» خلافًا للأصول.
(٤) «مخلوق» ساقطة من (د، ع، المطبوع).
(٥) «عندهم» ليست في (ي).

وإن قالوا: أراد بذلك النَّاسوت المسيحيَّ[1]، فلا فرق بين ذلك النَّاسوت وسائر النَّواسيت، مع أن المراد بذلك النصِّ آدمُ أبو البشر باتِّفاق الأمم، والناسوتُ نفسُه ليس هو كلمةَ الله وروحَه.

الخامس: أنه لو قُدِّر أنه أُرِيد بذلك أن كلام الله يشبه ذاته من بعض الوجوه، مثل كونه قديمًا بقدمه، لم يكن في ذلك ما يدلُّ علىٰ الأقانيم الثلاثة.

وكذلك اللَّفظ المعروف وهو قوله: «سنخلق بشرًا علىٰ صورتنا يشبهنا» فهذا لا يدلُّ علىٰ التَّثليث بوجهٍ من الوجوه، وشِبْهُ الشَّيءِ بالشَّيء يكون لمشابهته له من بعض الوجوه، وذلك لا يقتضي التَّماثل الذي يوجب أن يشتركا فيما يجب، ويجوز، ويمتنع، وإذا قيل: هذا حيٌّ عليمٌ قدير، وهذا حيٌّ عليمٌ قدير، فتشابها في مسمَّىٰ الحيِّ والعليم والقدير لم يوجب ذلك أن يكون هذا المُسَمَّىٰ مماثلًا لهذا المُسَمَّىٰ فيما يجب، ويجوز، ويمتنع.

بل هنا ثلاثة أشياء:

أحدها: القدر المشترك الذي تشابها فيه، وهو معنىٰ كلِّيٌّ لا يختصُّ به أحدهما، ولا يوجد كليًّا عامًّا مشتركًا إلا في علم العالم.

والثاني: ما يختصُّ به هذا، كما يختصُّ الربُّ بما يقوم[2] به من الحياة والعلم والقدرة.

والثالث: ما يختصُّ به ذاك، كما يختصُّ به[3] العبد من الحياة والعلم

---

(١) «المسيحي» ليست في (ي).

(٢) «بما يقوم» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٣) «ذاك كما يختص به» ليست في (د، ي، ع، ط.النيل).

والقدرة، فما اختصَّ به الربُّ ﷻ لا يشْرَكُه فيه العبد، ولا يجوز عليه شيءٌ من النَّقائص التي تجوز علىٰ صفات العبد، وما يختصُّ به العبدُ لا يشْرَكُه فيه الربّ، ولا يستحقُّ شيئًا من صفات الكمال التي يختصُّ بها الربّ ﷻ.

وأما القدر المشترك كالمعنىٰ الكلِّيِّ الثَّابت في ذهن الإنسان، فهذا لا يستلزم خصائص الخالق ولا خصائص المخلوق، فالاشتراك فيه لا محذور فيه.

ولفظ التَّوراة فيه: «سنخلق بشرًا علىٰ صورتنا يشبهنا». لم يقل: علىٰ مثالنا، وهو كقول النَّبيِّ ﷺ في الحديث الصَّحيح: «**لا يَقُولَنَّ أحَدُكُم: قبَّحَ اللهُ وجْهَكَ ووجْهَ من أَشْبَهَ وجْهَك؛ فإنَّ اللهَ تعالىٰ خلَقَ آدمَ علىٰ صُورَتِهِ**»(١). فلم تذكر الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم كموسىٰ، ومحمدٍ ﷺ إلا لفظةَ شِبْهٍ دون لفظِ مِثْل.

وقد تنازع النَّاس: هل لفظ «الشِّبْهِ» و«المِثْلِ» بمعنًى واحدٍ أو معنيين؟ **علىٰ قولين:**

أحدُهما: أنهما بمعنًى واحد، وأن ما دلَّ عليه لفظُ المِثْل مطلقًا ومقيَّدًا يدلُّ عليه لفظ الشِّبْه، وهذا قول طائفةٍ من النُّظَّار.

والثاني: أن معناها مختلفٌ عند الإطلاق لغةً وشرعًا وعقلًا، وإن كان مع التقْييد والقرينة يُراد بأحدهما ما يراد بالآخر، وهذا قول أكثرِ الناس.

وهذا الاختلاف مبنيٌّ علىٰ مسألة عقليَّة، وهو أنه هل يجوز أن يُشْبِهِ الشيءُ الشيءَ من وجهٍ دون وجه؟ **وللنَّاس في ذلك قولان:**

---

(١) تقدم قريبًا.

فمن منع أن يشبهه من وجهٍ دون وجهٍ قال: المثل والشبه واحد.

ومن قال: إنه قد يشبه الشيءُ الشيءَ من وجهٍ دون وجه فرَّق بينهما عند الإطلاق، وهذا قول جمهورِ الناس؛ فإن العقْلَ يعلم أن الأعراض مثلَ الألوان تشتبه في كونها ألوانًا، مع أن السَّواد ليس مثل البياض، وكذلك الأجسام والجواهر عند جمهور العقلاء تشتبه في مُسَمَّىٰ الجسم والجوهر، وإن كانت حقائقها ليست متماثلة، فليست حقيقةُ الماء مماثلةً لحقيقة التُّراب، ولا حقيقةُ النبات مماثلةً لحقيقة الحيوان، ولا حقيقةُ النَّار مماثلةً لحقيقة الماء، وإن اشتركا في أن كلًّا منهما جوهرٌ وجسمٌ وقائمٌ بنفسه.

وأيضًا فمَعْلومٌ في اللُّغة أنه يقال: هذا يُشْبِهُ هذا، وفيه شبهٌ من هذا، إذا أشبهه من بعض الوجوه، وإن كان مخالفًا له في الحقيقة.

قال الله تعالىٰ: ﴿وَأُتُواْ بِهِۦ مُتَشَٰبِهًا﴾ [البقرة: ٢٥]، وقال: ﴿مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧].

﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: ١١٨].

فوَصَف القولين بالتَّماثل، والقلوبَ بالتَّشابه لا بالتَّماثل؛ فإن القلوب وإن اشتركت في هذا القول فهي مختلفةٌ لا متماثلة، وقال النبي ﷺ: «**الحَلالُ بيِّنٌ والحَرامُ بيِّنٌ، وبينَ ذلك أمورٌ متَشَابِهاتٌ لا يعلمُهُن كثيرٌ من النَّاس**»[1].

---

(١) البخاري (٥٢) مسلم (١٥٩٩) عن النعمان بن بشير رضي الله عنه.



فدلَّ علىٰ أنه يعلمها بعضُ الناس، وهي في نفس الأمر ليست متماثلة، بل بعضها حرامٌ وبعضُها حلال.

الوجه السادس: أن قوله: «سنخلق خلقًا علىٰ شبهنا» لا يتناول صفته، مثل كلامه وحياته القائمة به، فإن ذلك ليس بمخلوق، وحينئذٍ فهذا لا يتناول اللَّاهوت الذي يزعمون أنه تدرَّع بالنَّاسوت، فإن اللَّاهوت ليس بمخلوق.

وأما النَّاسوت فهو كسائر نواسيت الناس، لا اختصاص له بأن يكون شبيهًا لله دون سائر النَّواسيت، فقوله: «فمن هو الشّبه المخلوق سوىٰ كلمته وروحه» باطلٌ علىٰ كلِّ تقدير.

وأما قوله: «ها آدم قد صار كواحدٍ منا»، وقولهم: «إن هذا قول واضحٌ[1] أن الله قال هذا القول لابنه وروح قدسه» فإن أرادوا أنه يجعل الذي صار كواحدٍ منا لابنه، كان هذا من أبطل الكلام؛ فإن هذا الابن إن كان المراد به الكلمةَ التي هي صفةٌ لله فتلك لم يُخلق[2] لها أمرٌ يصير كواحدٍ منهم، وتلك لا تُسمَّىٰ آدم، ولا سمَّاها الله ابنًا.

وإن أُريد به ناسوتُ المسيحِ فذاك مخلوقٌ مبتدعٌ يمتنع أن يكون كالقديم الأزَلِيِّ، وأيضًا فإن الله قال هذا عن آدم، وآدمُ ليس هو المسيح، ولا يجوز أن يقال: آدم، ويرادُ به المسيح، كما لا يجوز أن يقال: عصىٰ آدم، ويراد به المسيح، وأيضًا فإنه قال: «ها آدم قد صار كواحد منا» وهذا إشارةٌ إلىٰ أمرٍ قد كان في الزَّمن الماضي، ليس هو إشارةً إلىٰ ما سيكون بعد ذلك بألوفٍ من السِّنين.

---

(١) (و): «فاضح».

(٢) (و، ي): «يحدث».

وإن أرادوا أن الله قال لابنه الذي هو كلمته وروحه: «ها آدم قد صار كواحد منا» أي: أن الله خاطب ابنه وروحه[1] وهذا هو مرادهم، كقولهم: إنه قال هذا القول يستهزئ بآدم، أي إنه طلب أن يصير كواحدٍ منَّا، صار هكذا عريانًا مفتضحًا، ويكون شبهتهم قوله: «منَّا»؛ لأنه عبَّر بصيغة الجمع، وكذلك إن أرادوا هذا بقوله: «نخلق بشرًا علىٰ صورتنا وشبهنا». فاحتجُّوا علىٰ التَّثليث بصيغة الجمع.

وهذا مما احتجَّ به «نصارىٰ نجران» علىٰ النَّبيِّ ﷺ[2]، فاحتجُّوا بقوله تعالىٰ: «إنَّا»، و«نحن» قالوا: وهذا يدلُّ علىٰ أنهم ثلاثة، وكان هذا من المتشابه الذي اتَّبعوه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله، وتركوا المحكم المبيَّن الذي لا يحتمل إلا واحدًا، فإن الله في جميع كتبه الإلهيَّة قد بيّن أنه إلهٌ واحد، وأنه لا شريك له، ولا مِثْل له.

وقوله: «إنا»، و «نحن» لفظٌ يقع في جميع اللُّغات علىٰ من كان له شركاء وأمثال، وعلىٰ الواحد المطاع العظيم الذي له أعوانٌ يطيعونه، وإن لم يكونوا شركاء ولا نظراء، والله تعالىٰ خلق كلَّ ما سواه، فيمتنع أن يكون له شريكٌ أو مثل، والملائكة وسائر العالمين[3] جنودُه تعالىٰ.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وقال تعالىٰ: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [الفتح: ٧].

---

(١) «ها آدم...ابنه وروحه» ساقطة من (ع، د) لانتقال النظر، وتبعتهما (المطبوعة).
(٢) تقدّم ذكر خبر «نصارىٰ نجران» (١/ ٨٥)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٧٣).
(٣) (ع): «الصالحين».

فإذا كان الواحد من الملوك يقول: «إنَّا» و«نحن»، ولا يريدون أنهم ثلاثة ملوك، فمالك الملك ربُّ العالمين، وربُّ كلِّ شيءٍ ومليكُه هو أحقُّ بأن يقول: «إنا» و«نحن» مع أنه ليس له شريكٌ ولا مِثل، بل له جنود السماوات والأرض.

وأيضًا فمن المعلوم أن آدم لم يطلب أن يصير مثل الله، ولا مِثْلَ صفاتِه كعلمه وحياته، وأيضًا فليس في ظاهر اللَّفظ أن الله خاطب صفاتِه بذلك.

وأيضًا فالصِّفة القائمة بالموصوف لا تخاطِب ولا تخاطَب، وإنما يخاطَب[1] الموصوف[2]، ولم يكن قد خلق آدمَ ناسوتَ المسيح، ولا غيره من البشر حتىٰ يخاطب[3]، فعُلم أن دعواهم أن الله خاطَب صفته التي سمَّوْها هم ابنًا وروح قدس= كلام باطل، بل قد يخاطِب ملائكتَه.

وآدم عليه السلام أراد ما أطمعه الشيطان من الخُلْد والمُلْك، كما قال تعالىٰ: ﴿فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ ٱلشَّيْطَٰنُ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ ٱلْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾ [طه: ١٢٠].

(١) بعدها في (ي): «ويخاطَب».
(٢) (د): «المؤمنون». بعدها في (ي): «سواء كان خالقًا أو مخلوقًا».
(٣) (ي): «يخاطبه».

فصل

قالوا: «وقال الله عندما أخْسِفُ بِسَدُومَ وعامُورَةَ، قال في التَّوراة: «وأمطر الربُّ من عند الربِّ من السَّماء علىٰ سَدُومَ وعامورةَ نارًا وكِبْريتًا». أوضح بهذا ربوبيَّة الأب والابن».

والجواب: أن احتجاجهم بهذا من أبطل الباطل؛ لوجوه:

أحدها: أن تسمية الله علمَه وحياتَه ابنًا وربًّا تسميةٌ باطلة، لم يسمِّ موسىٰ في التَّوراة شيئًا من صفات الله باسم «الابن» ولا باسم «الأب»[1]، فدعوىٰ المدَّعي أن موسىٰ عليه السلام أراد بالربِّ شيئًا من صفات الله، أو أن له صفةً تُسَمَّىٰ ابنَه= كلامٌ باطل.

الثَّاني: أنه لو قُدِّرَ أن صفة الله تُسَمَّىٰ بذلك فمعلومٌ أن الذي أمطر كان هو الذي كان المطر عنده، لم يكن المطر عند أحدهما، والآخَر هو الممطِر، كما لا يجوز أن يقال: خُلِق أحدُهما من شيءٍ عند الآخر، ولا أَنْزَل أحدُهما المطر من سحاب الآخر.

الثَّالث: أن الصِّفة لا تفعل شيئًا، ولا عندها شيء، بل هي قائمةٌ بالموصوف، والذَّات المتَّصفة بالصِّفة هي التي تفعل، وعندها يكون ما يكون.

الرَّابع: أن هذا بمنزلة قوله: «أمطر الرب من عنده» لكن جَعَلَ الاسمَ الظَّاهر موضع المضمر إظهارًا[2]؛ لأن الأمر له وحده في هذا وهذا.

---

(١) (د، ي، ع، ط.النيل): «الربّ».

(٢) (و): «إضمارًا».

ومثل هذا في القرآن كقوله: ﴿ٱلْحَآقَّةُ ۝١ مَا ٱلْحَآقَّةُ﴾ [الحاقة: ١ - ٢]. ﴿ٱلْقَارِعَةُ ۝١ مَا ٱلْقَارِعَةُ ۝٢﴾ [القارعة: ١ - ٢]. وقال تعالىٰ: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١]. ﴿تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ [فصلت: ٢]. والله هو المُنْزِل، ولم يقل: «مِنّي».

فصـل

قالوا: «نـذكر ثالـث[1]، وقال داود في الزَّبور في المزْمُور المائة والتِّسعةِ قائلًا: قال الربُّ لرَبِّي: اجلس عن يميني حتىٰ أضع أعداءك تحت موْطأ قدميك»[2].

والجواب من وجوه:

أحدها: أنه لا يجوز أن يراد بـــ «ربّي» شيئًا من صفات الله، فإنه لم يُسَمِّ داودُ ولا أحدٌ من الأنبياء شيئًا من صفات الله ربًا ولا ابنًا[3]، ولا قال أحدٌ لشيءٍ من صفات الله: يا ربِّ ارحمني، ولا قال لعلم الله أو كلامه أو قدرته: يا رب، وإذا لم يكونوا يُسَمُّون صفات الله ربًّا، فلو كان المسيح صفةً من صفاته لم يَجُزْ أن يكون هو[4] المراد بلفظ الربّ، فكيف وناسوتُه أبعدُ عن اللَّاهوت أن يراد بذلك؟

فعُلِم أنهم لم يريدوا بذلك لا اللَّاهوتَ ولا النَّاسوت.

الثاني: أنه قال: «قال الربُّ لربِّي» فأضاف إليه الثَّاني دون الأول، وأنّه[5] هو ربُّه الذي خلقه، وعامَّةُ ما عند النَّصارىٰ من الغُلُوِّ أن يقولوا: «إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقّ»، ويجعلونه خالقًا، أمّا أن يجعلوه أحقَّ من الأب بكونه ربَّ داود، فهذا لم يقولوه، وهو ظاهر البطلان.

---

(١) كذا نُقلت من مقول النصارىٰ بلا ألف النصب. وهي جارية علىٰ لغة ربيعة.

(٢) جاء في سفر المزامير، المزمور (١١٠)، الفقرة (١): «قال الرب لسيدي: اجلس عن يميني حتىٰ أجعل أعداءك موطئًا لقدميك».

(٣) بعدها في (ي): «ولا قال أحد لشيء من صفات الله ابن» وليست في سائر النسخ.

(٤) بعدها في (د، ع، ط.النيل): «الله».

(٥) (ي): «والله».

الثَّالث: أنه ليس في هذا ذكرُ الأقانيم الثلاثة، غايته -لو كان كما تأوَّلوه- أن يكون فيه ذكرُ الابن، وأما الأقانيم الثلاثة فلم يَنْطق بها شيءٌ من كتب الله التي بأيديهم فضلًا عن القرآن، لا بلفظها ولا معناها، بل ابتدعوا لفظ «الأقنوم»، وعبَّروا به عمَّا جعلوه مدلولَ كتب الله، وهي لا تدلُّ علىٰ ذلك، فكانوا في ذلك مترجِمين لكلام الله وهم لم يفهموا معناه، ولا عبَّروا عنه بعبارةٍ تدلُّ علىٰ المراد.

الرابع: أنه قال: «لربِّي» وهذا يراد به السيِّد، كما قال يوسف: ﴿إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]، وقال لغلام الملك: ﴿ٱذۡكُرۡنِي عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ ذِكۡرَ رَبِّهِۦ﴾ [يوسف: ٤٢].

ولهذا ذكر الأوَّل مطلقًا والثاني مقيَّدًا، فيكون المعنىٰ: وقال الله لسيِّدي: قال ربُّ العالمين لسيِّدي، وسماه: «سيِّدًا» تواضعًا من داود وتعظيمًا له؛ لاعتقاده أنه أفضل منه.

فصل

قالوا: «نذكر رابع، وقال في المزمور[1] الثاني: الذي[2] قال لي: أنت ابني وأنا اليوم ولدتك»[3].

والجواب من وجوه:

أحدها: أن هذا ليس فيه تسميةُ صفات الله «علمه وحياته» ابنًا، ولا فيه ذِكْرُ الأقانيم الثلاثة، فليس فيه حجَّةٌ لشيءٍ ممَّا تدَّعونه.

والثاني: أن هذا حجَّةٌ عليهم؛ فإنه هو[4] سمَّىٰ داود ابنه، فعُلِم أن اسم «الابن» ليس مختصًّا بالمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ، بل سمَّىٰ غيره من عباده ابنًا، فعُلِم أن اسم[5] «الابن» ليس اسمًا لصفاته، بل هو اسمٌ لمن ربَّاه من عبيده.

وحينئذٍ فلا تكون تسميةُ المسيح ابنًا لكون الربِّ أو صفتِه اتَّحدت به، بل كما سمَّىٰ داود ابنًا، وكما سمَّىٰ إسرائيل[6] ابنًا فقال: «أنت ابني بِكْري»[7].

وهذا في كتبهم، كما ذُكر[8]، فإن كان ما في كتبهم قولَ الله فلا حجَّة فيه؛ لأنه أراد المربَّىٰ، وإن لم يكن قولَ الله ورسله فلا حُجَّة فيه[9]؛ لأن قول

---

(١) (و، د، ع): «الزبور».

(٢) (ي): «الرب».

(٣) جاء في سفر المزامير، الإصحاح (٢) الفقرة (٧): «أُعْلِنُ حُكْمَ الرب: قال لي: أنت ابني، وأنا اليوم ولدتك».

(٤) «هو» مثبتة من (و) وليست في سائر النسخ.

(٥) «اسم» ليست في (ي).

(٦) (ي): «يعقوب».

(٧) سبق هذا النص مرارًا.

(٨) (و): «كما ذاك في كتبهم» بدل: «كما ذكر».

(٩) (د، ع، ط.النيل): «كما ذاك في كتبهم فلا حجة فيه» بدل: «كما ذكر، فإن كان ما في كتبهم قول الله فلا حجة فيه، لأنه أراد المربىٰ، وإن لم يكن قول الله ورسله فلا حجة فيه».

غير المعصوم ليس بحجة.

الثَّالث: أن قوله: «وأنا اليوم ولدتك» يدلُّ علىٰ حدوث هذا الفعل، وعندهم تولُّد الكلمة التي سمَّوها الابن من الأب قديمٌ أزليّ، كما قالوا في أمانتهم: «وبربٍ واحدٍ يسوع المسيح ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كلِّ الدُّهور، نورٍ من نور، إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حقٍّ من جوهر أبيه، مولودٍ غيرِ مخلوق، مساوٍ الأبَ في الجوهر، الذي به كان كلُّ شيء».

فهذا الابن عندهم مولودٌ من الأب قبل كلِّ الدُّهور، وذاك وُلِدَ[1] في يوم خاطَبَه بعد خلق داود، فلم يكن في هذا المحدَث دليلٌ علىٰ وجود ذلك القديم.

الوجه الرَّابع: أنه إذا كان «الأب» في لغتهم هو الرَّبُّ الذي يُرَبِّي عبدَه أعظمَ مما يربِّي الأب ابنه= كان معنىٰ لفظِ الولادة ممَّا يناسب معنىٰ هذه الأبُوَّة، فيكون المعنىٰ: اليوم جعلتك مرحومًا مصطفًى مختارًا.

والنَّصارىٰ قد يجعلون الخطاب الذي هو ضميرٌ لغير المسيح يراد به المسيح، فقد يقولون: المراد بهذا المسيح، وهذا باطلٌ لا يدلُّ اللَّفظ عليه، وبتقدير صحَّته فهو يدلُّ علىٰ أن المسيح هو النَّاسوت المخلوق، وهو المسَمَّىٰ بالابن، كقوله: «وأنا اليوم ولدتك».

واللَّاهوت عندهم مولودٌ من قبل الدُّهور، وحينئذٍ فإن كان المراد به يومَ ولادته، فالمعنىٰ خلقْتُك، وإن كان يوم اصطفاه فالمراد: اليوم اصطفيْتُك وأحببْتُك[2]، كأنه قال: اليوم جعلتك ولدًا[3] وابنًا علىٰ لغتهم.

---

(١) المثبت من (ي) وفي سائر النسخ: «ولده».

(٢) (و، ي): «واجتبيتك».

(٣) (د، ع، ط.النيل): «والدًا».

فصـل

قالوا: «نذكر خامس. وفي السِّفر الثَّاني من التَّوراة: «وكلَّم الله موسىٰ من العُلَيْقَةِ قائلًا: أنا إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب»[1]. ولم يقل: أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب[2]، بل كرَّر اسم «الإله» ثلاثَ دفوعٍ قائلًا: «أنا إله وإله وإله»؛ لتحقُّق مسألة الثلاث أقانيم في لاهوتيه».

والجواب: أن الاحتجاج بهذا علىٰ الأقانيم الثَّلاثة من أفسد الأشياء، **وذلك يظهر من وجوه:**

أحدها: أنه لو أُريد بلفظ الإله أقنومُ الوجود، وبلفظ «الإله» مرةً ثانيةً أقنومُ الكلمة، وبالثَّالث أقنومُ الحياة= لكان الأقنوم الواحد إلهَ إبراهيم، والأقنوم الثاني إلهَ إسحاق، والأقنوم الثالث إلهَ يعقوب، فيكون كلٌّ من الأقانيم الثلاثة[3] إلهَ أحدِ الأنبياء الثَّلاثة، والأقنومين ليسا بإلهين له.

وهذا كفرٌ عندهم، وعند جميع أهل الملل، وأيضًا فيلزم من ذلك أن يكون الآلهة ثلاثة، وهم يقولون: إلهٌ واحد، ثم هم إذا قالوا: كلٌّ من الأقانيم إلهٌ[4] واحد، فيجعلون الجميع إله كلِّ نبيّ، فإذا احتجُّوا بهذا النصِّ علىٰ قولهم لزم أن يكون إلهُ كلِّ نبيٍّ ليس هو إلهَ النَّبيِّ الآخر، مع كون الآلهة ثلاثة.

---

(١) جاء في سفر الخروج، الإصحاح (٣)، الفقرة (١٥): «وقال الله لموسىٰ ثانية: كذا تقول لبني إسرائيل: الربُّ إله آبائكم، إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب، أرسلني إليكم».

(٢) «إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب، ولم يقل أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب» ليست في (و). وفي: (د، ع، ط.النيل): «ولم يقل أنا إله إسحاق» بدل: « ولم يقل أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب».

(٣) «الثلاثة» ليست في (د، ع).

(٤) بعدها في (و): «وهم إله».

الوجه الثاني: أنه يقال: إن الله رب العالمين، ورب السماوات، ورب الأرض، ورب العرش، ورب كل شيء، فيلزم[1] أن يكون رب السماوات ليس هو رب الأرض[2].

وكذلك[3] يقال: إله موسىٰ، وإله محمد، مع قولنا: إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، أفتكون الآلهة خمسة، وقد قال يعقوب لبنيه: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِى قَالُواْ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ﴾[4].

أفتراه أثبت إلهين: أحدهما إلهه، والآخر إله الثلاثة؟!

الوجه الثالث: أن العطف يكون تارة لتغاير الذوات، وتارة لتغاير الصفات كقوله تعالىٰ: ﴿سَبِّحِ ٱسْمَ رَبِّكَ ٱلْأَعْلَى ① ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ② وَٱلَّذِى قَدَّرَ فَهَدَىٰ ③ وَٱلَّذِىٓ أَخْرَجَ ٱلْمَرْعَىٰ ④ فَجَعَلَهُۥ غُثَآءً أَحْوَىٰ﴾ [الأعلىٰ: ١-٥].

والذي خلق هو الذي قدَّر وأخرج، وكذلك قوله: ﴿إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ﴾ [البقرة: ١٣٣]، وهو هو سبحانه.

وقال إبراهيم الخليل صلوات الله عليه وسلامه لقومه: ﴿أَفَرَءَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ ⑦⑤ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُمُ ٱلْأَقْدَمُونَ ⑦⑥ فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّىٓ إِلَّا رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ⑦⑦ ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ⑦⑧ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ⑦⑨ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾

---

(١) في الأصول: «أفيلزم» والمثبت من (المطبوعتين) والسياق يقتضيه.
(٢) (د، ع، ط.النيل): «أفيلزم أن يكون رب كل شيء» بدل: «فيلزم أن يكون رب السماوات ليس هو رب الأرض».
(٣) «وكذلك» ليست في (د، ع، ط.النيل).
(٤) «ويعقوب أفتكون...وإسماعيل وإسحاق» ساقطة من (د، ع، ط.النيل).

﴿وَٱلَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحۡيِينِ ٨١ وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾[1] [الشعراء: ٧٥-٨٢] والذي خلقه هو الذي يطعمه ويسقيه، وهو الذي يميته ثم يحييه.

فقوله في التَّوراة: «إله إبراهيم وإله إسحاق وإله يعقوب» هو من هذا الباب، ولا يختصُّ هذا بثلاثة، بل يقال هذا في الاثنين والأربعة والخمسة، بحسب ما يقصد المتكلم ذكرَه من الصِّفات، وفي هذا من الفائدة ما ليس في قوله: إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب؛ فإنه لو قيل ذلك لم يُفِدْ إلا أنه معبودُ الثَّلاثة، لا يدلُّ علىٰ أنهم عبدوه مستقِلِّين، كلٌّ منهم عبده عبادةً اختصَّ بها[2] لم تكن هي نفس عبادة الأول.

وأيضًا فإنه إذا قيل: «إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب» دل علىٰ عبادة كلٍّ منهم باللزوم[3]، وإذا قال: «وإله» دلَّ علىٰ أنه[4] معبودُ كلٍّ من الثلاثة، فأعاده باسم الإله الذي يدلُّ علىٰ العبادة دلالةً باللَّفظ المتضمِّن لها، وفي ذلك من ظهور المعنىٰ للسَّامع وتنوعه[5] بصورةٍ له من غير ذكرٍ[6] ما ليس في دلالة الملزوم[7].

---

(١) ﴿وَٱلَّذِيٓ أَطۡمَعُ أَن يَغۡفِرَ لِي خَطِيٓـَٔتِي يَوۡمَ ٱلدِّينِ﴾ ليست في (ي).

(٢) بعدها في (و): «فإذا قيل: إله وإله دلّ علىٰ أنه معبود لكل منهم، وكلٌّ منهم عبده عبادة اختص بها» زيادة ليست في سائر النسخ.

(٣) (و، ي): «بالملزوم».

(٤) «أنه» ليست في (و، ط.النيل).

(٥) المثبت من (و) ولم تحرر في باقي النسخ، ولم يظهر لي سياق الكلام بعده.

(٦) (د، ي، ع، المطبوعتان): «فكر».

(٧) (ي): «اللزوم».

فصـل

قـالوا: «وكـذلك شـهد أشْعِيا بتحقُّـق الثَّالوث بوحدانيَّـةِ جـوهره، وذلـك بقوله: «ربُّ القُوَّات، وبقوله: ربُّ السَّماوات والأرض»[1].

ومثـل هـذا القـول في التَّـوراة والمزامير شيءٌ كثير، حتىٰ إنّ اليهـود إلىٰ هـذا الوقت[2] يقرأون[3] هذه النُّبوَّات ولا يعرفون لها تأويلًا، وهم معترفـون بـذلك ولا ينكرون منه كلمةً واحدة، وإنما قلوبهم مغلوقةٌ[4] عـن فهمـه؛ لقسـاوتها علىٰ مـا ذكرنا قبـل ذلـك، وأنهـم إذا اجتمعـوا في كنيسـتهم كـلَّ سبتٍ يقـف «الحَـزَّان»[5] أمامهم ويقول كلامًا عبرانيًّا هـذا تفسيره، ولا يجحدونـه: نُقَدِّسُـك، ونُعَظِّمُـك، ونُثَلِّث لك تقديسًا مثلثًا كالمكتوب علىٰ لسان نبيِّك[6].

فيَصْرخ الجميـع مجـاوبين: قـدُّوسٌ قـدُّوسٌ قـدُّوس، رب القُـوَّات، وربُّ السَّماوات والأرض[7].

---

(١) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (٥١)، الفقرة (١٣): «وقـد نسيت صـانعك الـذي بسـط السماوات وأسس الأرض».

(٢) «إلىٰ هذا الوقت» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٣) (و، ي): «يقرّون».

(٤) (ع): «مقلوبة».

(٥) «الحزّان» كلمة كانت تشير إلىٰ أي موظفٍ يقوم بوظيفة معيّنة عند اليهود، مـن بينهـا بعـض الوظائف الدينية، مثل تلاوة التوراة في المعبـد، وإنشـاد القصـائد. وهـي تشـير كـذلك إلىٰ «المرتّـل» وهـو قائـد الإنشـاد في الصلوات اليهوديـة. انظـر: «موسـوعة اليهـود واليهوديـة والصهيونية» (٥/ ٢٢٤).

(٦) بعدها في (و، ي): «أشعيا».

(٧) جاء في سفر أشعيا، الإصحاح (٦)، الفقرة (٧-٨): «وكان هذا ينادي ذاك ويقـول: قـدوس قدوس قدوس رب القوات، الأرض مملوءة من مجده».

فما أوضح إقرارَهم بالثَّالوث، وأشدَّ كفرهم بمعناه، فنحن لأجل هذا البيان الواضح الذي قاله الله في التَّوراة، وفي كتب الأنبياء، فجعلوه[1] ثلاثة أقانيمَ، جوهرًا واحدًا، طبيعةً واحدة، إلهًا واحدًا، أبًا[2] واحدًا، خالقًا واحدًا، وهو الذي نقوله: أبٌ وابنٌ وروحُ قدس».

والجواب: أما ما في كتب الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ من تثنية اسم «الربِّ» عند إضافته إلىٰ مخلوقٍ آخر فهو من نَمَطِ تثنية اسم الإله، وهذا لا يقتضي تعدُّد الأرباب والآلهة، ولهذا لا يقتضي جعلُهم اثنينِ وأربعةً إذا ذكر اللَّفظ مرتين وأربعة.

فكذلك إذا ذكر[3] ثلاث مراتٍ لا يقتضي أن الأرباب ثلاثة، وهم أيضًا لا يقولون بثلاثة أربابٍ وثلاثةِ آلهة، فلو كان هذا يدلُّ علىٰ ثلاثةِ أربابٍ، وثلاثة آلهة، لدلَّ علىٰ نقيض قولهم، بل هم يزعمون أنهم إنما يثبتون إلهًا واحدًا، ولكنهم يتناقضون فيصرِّحون بثلاثة آلهة، ويقولون: هم إلهٌ واحد.

والكتب لا تدلُّ علىٰ قولهم المتناقضِ بوجهٍ من الوجوه.

وأما ما ذكره من اعتراف اليهود بألفاظ هذه النُّبوَّات، ودعواه أنهم لا يعرفون لها تأويلًا، فإن أرادوا بالتَّأويل تفسيرَها وما يدلُّ عليه لفظُها، فهذا ظاهرٌ لا يخفىٰ علىٰ الصِّبيان من اليهود وغيرهم، ولكنَّ النَّصارىٰ ادَّعوا ما لا[4] يدلُّ عليه اللَّفظ.

---

(١) (و، ي): «تجعله».

(٢) (ي): «ربًا».

(٣) المثبت من (و)، وفي باقي النسخ: «كان».

(٤) «لا» ساقطة من (د، ع، ط.النيل).

وإن أرادوا بالتَّأويل معنًى يخالف ظاهر اللَّفظ، فهذا إنما يُحتاج إليه -إن كان يحتاج إليه- إذا كان ظاهره معنًى باطلًا لا يجوز إرادته.

وليس ما ذكروا[1] هنا من هذا الباب، بل الكتب الإلهيَّةُ يكثر فيها مثلُ هذا الكلام عند أهل الكتاب وعند المسلمين، ولا يَفهم منها ثلاثةَ أربابٍ، أو ثلاثةَ آلهةٍ، إلا من اتَّبع هواه بغير هدًى من الله، وقال قولًا مختلفًا، يؤفك عنه من أُفِك، ومثل هذا موجودٌ في سائر الكلام، يقال: هذا أميرُ البلد الفلانيّ، وأمير البلدِ الفلانيّ، وأمير البلد الفلاني، وهو أميرٌ واحد.

ويقال: هذا رسولٌ إلىٰ الأميِّين، ورسولٌ إلىٰ أهل الكتاب، ورسولٌ إلىٰ الجنِّ والإنس، وهو رسولٌ واحد.

(١) (و، د، ع): «ذكر».



فصـل

وأما قولهم: «نُقدِّسك، ونُعظِّمك، ونُثلِّث لك تقديسًا مثلثًا، كالمكتوب علىٰ لسان نبيك أشعيا». وقولُهم: «قدُّوس، قدُّوس، قدُّوس، ربُّ القُوَّات، وربُّ السماوات والأرض».

فيقال: هذا الكلام صريحٌ في أن المثَلَّث هو نفس التَّقديس، لا نفسُ الإله المقدَّس.

وكذلك قولهم: «قدُّوسٌ، قدُّوسٌ، قدُّوسٌ». قدَّسوه ثلاثَ مرات، فإنه قال: «نُقدِّسك، ونُثلِّث لك تقديسًا مثلثًا» فنَصَب التَّقديس علىٰ المصدر الذي يُنصَب بفعلِ التَّقديس، فقال: نُقدِّسك تقديسًا مثلثًا.

فنصَب التَّقديس علىٰ المصدر[1]، كما تقول: سبَّحتُك تسبيحًا مثلثًا، أي سبحتك ثلاث مرات، وقال: نثلِّث لك، أي نثلِّث تقديسًا[2] لك، لم يقل: أنت ثلاثة، بل جعلوا أنفسهم هم الذين يقدِّسون التَّقديس المثلث، وهم يُثلِّثون له، وهذا صريحٌ في أنهم يُسبِّحونه ثلاثَ مرَّات، لا يُسبِّحون ثلاثة آلهة، ولا ثلاثة أقانيم.

وهذا كما في السُّنن[3] عن ابن مسعود، عن النَّبي ﷺ أنه قال: «**إذا قَالَ العَبْدُ في ركُوعِه: سبْحَان رَبِّيَ العَظِيم، ثلاثًا، فقَد تمَّ رُكُوعُه، وذلِكَ أدْنَاه،**

---

(١) «فنصب التقديس علىٰ المصدر» ساقطة من (و، ي).

(٢) (و): «تقديسنا».

(٣) «سنن أبي داود» (٨٨٦) «الجامع» للترمذي (٢٦١) «سنن ابن ماجه» (٨٩٠) قال أبو داود: هذا مرسل، عون لم يدرك عبد الله. وقال الترمذي: حديث ابن مسعود ليس إسناده بمتصل، عون بن عبد الله بن عتبة لم يلق ابن مسعود.

وإذا قَالَ فِي سُجُودِهِ: سبْحَان رَبِّيَ الأعْلَىٰ، ثَلاثًا، فَقَد تمَّ سُجُودُه، وذَلِك أدْنَاه».

والتَّسبيح هو: تقديس الربّ، وأدناه أن يقدِّسه ثلاثَ مرات، فمعناه[1]: قدِّسوه ثلاث مرات، لا تقتصروا علىٰ مرةٍ واحدة.

ولهذا يقولون مجاوبين: قدُّوسٌ، قدُّوسٌ، قدُّوسٌ، فيُقَدِّسونه ثلاث مرات، فعُلِم أن المراد بتثليث التَّقديس[2] ما دلَّ علىٰ[3]لفظه، وما يفعلونه ممتثلين لهذا[4] الأمر، وما يُفعل في نظير ذلك من تثليث تقديسه، وأن يقَدَّس ثلاث مرات، لا أن يكون المقَدَّس ثلاثَ أقانيم، فإن هذا أمرٌ لم ينطق نبيٌّ من الأنبياء به، لا لفظًا ولا معنًى، بل جميعُ الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أثبتوا إلهًا واحدًا له الأسماء الحسنىٰ.

وأسماؤه متعدِّدةٌ تدلُّ علىٰ صفاته المتعدِّدة، ولا يخْتصَّ ذلك بثلاثة أسماء، ولا ثلاث صفات، وليست الصِّفاتُ أقنومًا هو ذاتٌ وصفة، بل ليس إلا ذاتٌ واحدةٌ لها صفاتٌ متعدِّدة، فالتَّعدُّد في الصِّفات لا في الذَّات التي يُسَمُّونها «الجوهر»، ولا في الذَّات والصِّفة التي يُسَمُّونها «الأقنوم».

---

(١) (د، ع): «فمعلوم».
(٢) «التقديس» من (و). وليست في باقي النسخ.
(٣) (و، ي): «عليه».
(٤) (ع): «متمسكين بهذا».

فصـل

قالوا: «فما أعظم[1] إقرارهم في الثَّالوث، وأشدَّ كفرهم بمعناه».

فيقال: هذا من الافتراء الظَّاهر علىٰ اليهود، وإن كان اليهود[2] كفارًا، فلم يكن كفرهم لأجل إنكار الثَّالوث، بل لو أقرُّوا به لكان زيادةً في كفرهم يزيد به عذابهم.

كما أن النَّصارىٰ لما كفروا لم يكن كفرهم بإقرارهم بأن المسيح المبشَّرَ به قد ظهر ليس هو المسيح الدَّجالُ الذي تنتظره اليهود، وإذا خرج كانوا شيعته، ويقتلهم المسلمون معه شرَّ قِتْلة، حتىٰ إن الشَّجر والحجر يقول: يا مسلم[3] هذا يهوديٌّ ورائي تعال فاقتله[4].

بل لو كفروا بالمسيح كما كفرت اليهود لكان ذلك زيادةً في كفرهم.

وعند اليهود وعندكم في التَّوراة من التَّوحيد المحض الذي[5] يُبْطل تثليثكم ما لا يخفىٰ إلا عمَّن أعرض عن ذكر الله الذي أنزله، وهُداه الذي هَدىٰ به عبادَه[6].

---

(١) (و، ي): «أوضح».

(٢) «وإن كان اليهود» ساقطة من (د، ع). (ط. النيل): «وجعلهم» بدل: «وإن كان اليهود».

(٣) «يا مسلم» ليست في (د، ع).

(٤) طرف من «حديث»، تقدّم تخريجه (١/ ٢٦٤).

(٥) «الذي» ساقطة من (د، ع). (ط.النيل): «مما».

(٦) (و، ي): «وهدىٰ به عباده» بدل: «وهُداه الذي هدىٰ به عباده».

فصـل

قالوا: «فنحن لأجل هذا البيان الواضح الذي قاله الله في التَّوراة، وفي كتب الأنبياء نجعل ثلاثة أقانيم: جوهرًا واحدًا، إلهًا واحدًا، ربًّا واحدًا، خالقًا واحدًا. وهو الذي نقوله: أبٌ، وابنٌ، وروحُ قدس».

والجواب من وجوه:

أحدها: أن في التَّوراة والكتب الإلهيَّةِ من إثبات وحدانيَّة الله، ونفي تعدُّد الآلهة، ونفي إلهيَّة ما سواه، ما هو صريحٌ في إبطال قول النَّصارىٰ ونحوهم، وليس فيها ذكرُ الأقانيم لا لفظًا ولا معنًى، حيث يجعلون الأقنوم اسمًا[(١)] للذَّات مع الصفة، والذَّاتُ واحدة، والتعدُّد في الصِّفات لا في الذَّات.

ولا يمكن أن تتَّحد صفةٌ دون الأخرىٰ، ولا دون الذَّات، فيمتنع اتحاد أقنومٍ أو حلُولُه بشيءٍ من المخلوقات دون الأقنومِ الآخَر، ولا إثباتُ ثلاثة أقانيمَ، ولا إثباتُ ثلاث صفاتٍ دون ما سواها في شيءٍ من الكتب الإلهيَّة، ولا كلامِ الحواريِّين، ولا إثباتُ إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حق، ولا تسمية صفات الله مثلَ كلامه وحياته، لا ابنًا، ولا إلهًا، ولا ربًّا، ولا إثباتُ اتِّحاد[(٢)] الربِّ خالق السَّماوات والأرض بشيءٍ من الآدميِّين، ولا حلولُ ذاتٍ وصفةٍ دون ذاتٍ مع الصِّفات الأخرىٰ، بل[(٣)] ولا حلول نفس الصِّفة القائمة به[(٤)] في غيره، لا علمِه ولا كلامه ولا حياته، ولا غير ذلك.

---

(١) (و): «قسيمًا».

(٢) (ي): «حلول».

(٣) «بل» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٤) (د، ع، ط.النيل): «ببدنه» بدل: «القائمة به».

بل جميعُ ما أثبتوه[1] من التَّثليث، والحلول، والاتِّحاد، ليس في كتب الأنبياء التي بأيديهم ما يدلُّ عليه، بل فيها أقوالٌ كثيرةٌ صريحةٌ بنقيض ذلك، مع القرآن والعقل، فهم مخالفون للمعقول، وكتبِ الله المنزَّلة[2].

الثاني: أنهم يقولون: إنما نثبت إلهًا واحدًا. ثم يقولون في أمانتهم وأدلَّتهم وغيرِ ذلك من كلامهم ما هو صريحٌ بإثبات ثلاثة آلهة، فينقضون كلامهم بعضُهم ببعض، ويقولون من الأقوال المتناقضة ما يَعلَم بطلانَه كلُّ عاقلٍ تصوَّره.

ولهذا لا يَنْضَبط لهم قولٌ مطَّرد، كما يقول من يقول من عقلاء الناس: إن النَّصارىٰ ليس لهم قولٌ يعقله عاقل، وليست أقوالهم منصوصةً عن الأنبياء، فليس معهم لا سمعٌ ولا عقل، كما قال الله تعالىٰ عن أصحاب النار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وهم أيضًا يُبطنون خلافَ ما يظهرون، ويَفهم جمهورُ الناس من[3] مقالاتهم خلافَ ما يزعم بعضهم أنه مرادهم، فإنه قد تقدَّم آنفًا من استدلالهم بالتَّوراة، وقوله: «وكلم الله موسىٰ من العليقة قائلًا: أنا إلهُ إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب» قالوا: «ولم يقل: أنا إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، بل كرَّر اسم (إله) ثلاث دفوعٍ قائلًا: أنا إله، وإله، وإله؛ لتحقق[4] مسألة الثلاث أقانيم في لاهوته»[5].

---

(١) (و، ي): «ابتدعوه».
(٢) بعدها في (د، ع): «واحدًا».
(٣) مثبتة من (ي) وليست في سائر النسخ.
(٤) (د، ع): «ليتحقق».
(٥) (و): «لاهوتِيَّته».

فيقال لهم: إن كان هذا التَّكرير لا يقتضي إلا إثبات إلهٍ واحد، فلا حُجَّة لكم فيه، كما لو قال: أنا[1] إله إبراهيم، وإسحاق، ويعقوب، وإن كان يقتضي إثبات ثلاثةِ آلهة: فقد أثبتم ثلاثة آلهة، وأنتم تقولون: لا نُثبت إلا إلهًا واحدًا، وإن كان المعنىٰ: أنه إلهٌ واحدٌ موصوفٌ بأنه معبودُ إبراهيم، ومعبودُ إسحاق، ومعبودُ يعقوب، فلا حُجَّة لكم فيه علىٰ التَّثليث والأقانيم، بحيث تجعلون «الأقنوم» اسمًا للذَّات مع صفة، والذَّاتُ واحدة، فالتعدُّد في الصِّفات لا في الذَّات، ولا يمكن أن تتَّحد صفةٌ دون أخرىٰ، ولا دون الذَّات، فيمتنع اتِّحادُ أقنومٍ وحلولُه بشيءٍ من المخلوقات دون الأقنوم الآخر[2].

الوجه الثَّالث: قولهم: «وهو الذي نقوله: أبٌ، وابنٌ، وروح القدس».

قد تقدَّم أن هذا القول هم معترفون بأنهم لم يقولوه ابتداءً، ولا علموا بالعقل التَّثليث الذي قالوه في أمانتهم، ثم عبَّروا عنه بهذه العبارة، بل هذه العبارةُ منقولةٌ عندهم في بعض الأناجيل: أن المسيح ﷺ أمر أن يُعَمِّدوا الناس بها، وحينئذٍ فالواجب إذا كان المسيح قالها أن يُنْظَر ما أراد بها، ويُنْظَر سائرُ ألفاظه[3] ومعانيها، فيفسَّر كلامُه بلغته التي تكلَّم بها تفسيرًا يناسب سائر كلامه.

وهؤلاء حملوا كلام المسيح والأنبياء عليهم السلام علىٰ شيءٍ لا يدلُّ عليه كلامُهم بل يدلُّ علىٰ نقيضه، فسمَّوا كلامَ الله أو علمه أو حكمته أو نطقه ابنًا،

---

(١) (د، ي، ع): «يا» بدل: «أنا».

(٢) (و): «بحيث تجعلون الأقنوم اسمًا...دون الأقنوم الآخر» ساقطة من (ي) وقد كانت سقطت من (د) ثم ألحقت في الهامش بخط صغير وفي بعضه طمس.

(٣) (و): «ألفاظها».

وهذه تسميةٌ ابتدعوها، لم يسمِّ أحدٌ من الأنبياء شيئًا من صفات الله باسم الابن، ولا باسم الربِّ، ولا إله، ثم لما أحدثوا هذه التَّسمية قالوا: مراد المسيح بالابن هو الكلمة، وهذا افتراءٌ علىٰ المسيح عليه السلام، وحملٌ لكلامه علىٰ معنًى لا يدلُّ عليه لفظُه.

ولفظ «الابن» عندهم في كتبهم يرادُ به من ربَّاه الله تبارك وتعالى، فلا يطلق عندهم في كلام الأنبياء لفظُ «الابن» قطُّ إلا علىٰ مخلوقٍ محدث، ولا يطلق إلا علىٰ النَّاسوت دون اللَّاهوت، فيُسَمَّىٰ عندهم «إسرائيلُ» ابنًا، و«داود» ابنًا لله، والحواريُّون كذلك، بل عندهم في إنجيل «يوحنَّا» في ذكر المسيح إلىٰ خاصَّته: «أتىٰ[1] وخاصَّتُه لم يقبلوه، والذين قبلوه أعطاهم ليكونوا أبناء الله الذي ليس من دم، ولا من[2] مشبَّه لحم، ولا من مشبَّه رجل، بل[3] من الله وُلِدَ»[4].

فهذا إخبارٌ بأنهم يكونون جميعًا أبناء الله، وهم معترفون بأنه[5] ليس فيهم لاهوتٌ يتَّحد بناسوت، بل كلٌّ منهم ناسوتٌ محض، فعُلِم أن الكتب ناطقةٌ بأن لفظ «ابنِ الله» يتناول النَّاسوت فقط، وليس معهم لفظُ ابنِ الله والمراد به صفةٌ من صفات الله، فقولهم: إن المسيح أراد بلفظ «الابن» اللَّاهوت= كذب بيِّنٌ عليه، والمسيح يُسَمَّىٰ «ابنًا» بهذا الاعتبار.

---

(١) المثبت من (و)، وفي باقي النسخ الأظهر أنها: «أبي».
(٢) «من» ليست في (د، ع، ط.النيل).
(٣) «بل» ساقطة من (ي).
(٤) جاء في إنجيل «يوحنّا» الإصحاح (١)، الفقرة (١١-١٤): «جاء إلىٰ بيته فما قبله أهل بيته، أما الذين قبلوه وهم الذين يؤمنون باسمه فقد مكّنهم أن يصيروا أبناء الله، فهم الذين لا من دم ولا من رغبةِ رجلٍ، بل من الله ولدوا».
(٥) (ي): «بأنهم».

و«روح القدس» لم يعبِّر بها أحدٌ من الأنبياء عن حياة الله التي هي صفته، بل «روح القدس» في كتب الله يراد بها الملَك، ويراد بها الهدىٰ والوحي والتأييد، فيقال: روح الله، كما يقال: نور الله، وهدىٰ الله، ووحي الله، وملك الله، ورسول الله، لم يرد به أحدٌ من الأنبياء بقوله: «روح الله»، و[1]«روح القدس» ما يريده الإنسان بقوله: «روحي» فإن الإنسان مركَّبٌ من روحٍ وبدن، وفي بدنه بخارٌ يخرج من القلب ويسْرِي في بدنه، وله جوفٌ يخرج منه هواءٌ ويدخل فيه، فإذا قيل: «روح الإنسان» فقد يراد بها الرُّوح التي مع البدن، وقد يراد[2] بها البخار اللَّطيف الذي في البدن، وقد يراد بها الرِّيح الذي يخرج من جوف البدن ويدخل فيه.

والله ﷻ بإجماع المسلمين، واليهود، والنصارىٰ، ليس هو روحًا وبدنًا كالإنسان، وهو سبحانه «أحدٌ صمد»، لا جوفَ له، ولا يدخل فيه شيء، ولا يخرج منه شيء، لا بخارٌ ولا هواءٌ متردِّد.

وقد يعبِّر بعضُ الناس بلفظ «الروح» عن الحياة، والله تعالىٰ حيٌّ له حياة، لكن لم تُرد الأنبياء عليهم السلام بقولهم: روح القدس حياة الله، بل أرادوا به ما يجعله الله في قلوب الأنبياء ويؤيِّدُهم به، كما يراد بنور الله ذلك، قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ[3] يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَٰلَ لِلنَّاسِ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [النور: ٣٥].

---

(١) (و، ي): «أو».

(٢) «مع البدن وقد يراد» ساقطة من (المطبوع).

(٣) بعدها في (و): «كذلك يضرب الله الأمثال، فضرب الله مثلًا...».

فضرب الله مثلًا للمؤمن الذي جعل صدره كالمشكاة، وقلبُه كالزُّجاجة في المشكاة، ونورُ الإيمان الذي في قلبه -وهو نور الله- كالمصباح الذي في الزُّجاجة، وذلك النُّورُ الذي في قلبه ليس هو نفسَ صفةِ الله القائمة به.

فتبيَّن أن العارف كلَّما تدبَّر ما قالته الأنبياء وما قاله أهل البدع من النَّصارىٰ وغيرهم لم يجد لهم في كلام الأنبياء إلا ما يدلُّ علىٰ نقيض ضلالهم، لا ما يدلُّ علىٰ ضلالهم.

فصـل

قالوا: «وقد علمنا أنه لا يلزمُنا[1] -إذا قلنا هذا- عبادةُ ثلاثـةِ آلهـة، بـل إلـهٍ واحد، كما لا يلزمُنـا إذا قلنـا: الإنسـان ونطقُـه وروحُـه ثلاثـةُ أَنَاسِـيٍّ، بـل إنسـانٌ واحد، ولا إذا قلنا[2]: لهيبُ النار، وضوء النار، وحرارة النـار، ثلاثـة نيـران، ولا إذا قلنا: قرصُ الشَّمس، وضوءُ الشَّـمس، وشـعاع الشـمس ثلاثـةُ شـموس، وإذا كان هذا رأيُنا في الله تقدَّست أسماؤه وجلَّت آلاؤه، فلا لـوم علينـا ولا ذنـب لنـا؛ إذ لم نُهْمِلِ ما تسلَّمناه، ولا نرفضُ ما تقلَّدناه، ونتَّبـع مـا سـواه، ولا سـيِّما أنَّ لنـا هذه الشَّـهادات البيِّـنات، والـدَّلائل الواضـحات مـن الكتـاب الـذي أتـىٰ بـه هـذا الرَّجل»[3].

والجوابُ من وجوه:

أحـدها: أنكـم صـرَّحتم بتعـدُّد الآلهـة والأربـاب في عقيـدة إيمـانكم، وفي استدلالكم وغير ذلك من كلامكم، فليس ذلك شيئًا ألزَمَكُم الناسُ به، بـل أنـتم تُصَرِّحون بذلك، كمـا تقـدَّم مـن قـولكم: «نـؤمن بإلـهٍ واحـد، أبٍ ضـابط الكـل، خالقِ ما يُرىٰ وما لا يُرىٰ، وبربٍّ واحدٍ إيسوع المسيح، ابنِ الله الوحيد، المولود من الأب قبل كلِّ الدُّهور، نورٍ من نور، إلـهٍ حـقٍّ مـن إلـهٍ حـقٍّ، مـن جـوهر أبيـه، مولـودٍ غيـرِ مخلـوق، مسـاوٍ الأبَ في الجـوهر، وبـروح القـدس الـربِّ المحيـي المنبثق من الأب، الذي مع الأب، مسجودٍ له وممجَّد».

---

(١) (و): «يلزم».

(٢) بعدها في (و): «النار و» فتكون العبارة: «ولا إذا قلنا النار ولهيب النار».

(٣) «ولا سيما أن لنا هـذه الشـهادات...هـذا الرجـل» أثبتهـا مـن (ي) وليسـت في سـائر النسـخ. وهي مثبتة في «رسـالة بـولس» (ص٤٢٠-٤٢١) وسيشـير المصـنف إليهـا لاحقًـا ويجيـب عنها.

فهـذا تصـريحٌ بالثلاثـة أربـاب، وأن الابـن إلـهٌ حـقٌّ مـن إلـهٍ حـقّ، ومـع تصريحكم بثلاثة أرباب، وتصريحكم بأن هذا إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، تقولـون: إن ذلك إلهٌ واحد، وهذا تصريحٌ بتعدُّدِ الآلهة مع القول بإلهٍ واحد.

ولو لـم تذكروا ما يقتضي أنه جوهرٌ آخـر لأمكـن أن يُحمـل كلامُكُـم علىٰ عطف الصِّـفة[1]، لكـن كـان يكـون كلامكُـم أعظـمَ كفـرًا، فتكونـون قـد جعلتم المسيح هـو نفسَ الإلـه الواحـد الأب، خـالقِ مـا يُـرىٰ ومـا لا يـرىٰ، وهـذا مـن أعظم[2] كفـركم، مـع أن هـذا حقيقـةُ قـولكم؛ فـإنكم تقولـون: المسـيح هـو الله، وتقولـون: هـو ابـن الله، كمـا ذكـر الله القـوْلَيـنِ عـنكم في كلامـه، وكفَّـركم بـذلك، وليس هذا قولَ طائفةٍ، وهذا قول طائفة[3]، كما يقوله بعض الناس، بل القـولان جميعًا يقولهما فِرَقُ النَّصارىٰ كالنُّسْطُوريَّة، واليعْقوبيَّة، والملكيَّة، ونحوهم.

وهذا أيضًا من تناقضكم؛ فإنه إن كان هو الله لم يكن هو ابن الله، سواءً عُبِّر بالابن عن الصِّفة أو غيرها؛ فإن الأب هـو الـذَّات، والـذَّاتُ ليسـت هـي الصِّـفة، وإن عنىٰ بالابن الذَّاتَ مع صفة الكلام كما تفسِّرون الأقنوم بذلك، فهذه الذَّات متصفةٌ مع ذلك بالحياة والكلام، سواءً عَنَوْا به العلم، أو البيان مع العلم، هو مع الحياة قائمٌ بالأب، والصِّفة ليست عـينَ[4] الموصـوف، بـل ولا يعبَّـر عنهـا بأنهـا ابنُ الموصوف، ولا عَبَّر بذلك أحدٌ من الأنبياء عليهم السلام.

والمقصود أنهم لم يريدوا بقولهم: «وبربٍ واحدٍ إيسـوع المسـيح» عطف

---

(١) بعدها في (ي): «علىٰ الصفة».

(٢) (و، ي): «أعظم من» تقديم وتأخير.

(٣) «وهذا قول طائفة» من (و) وليست في باقي النسخ.

(٤) (د، ع، ط.النيل): «غير».

الصِّفة، وأن هذا هو الأب، كما قال: إله إبراهيم، وإله إسحاق، وإله يعقوب فهذا إلهٌ واحد، والعطف لتغاير الصِّفة، فلو كان المراد بالابن نفسَ الأب لكان هذا خلافَ مذهبهم، ويكونون قد جعلوه إلهًا من نفسه فقالوا: إلهان، بل ثلاثة، وهو واحد.

فهذا لو أرادوه لكان أعظمَ في الكفر، بل قالوا: «وبربٍ واحدٍ، إيسوع المسيح، ابن الله الوحيد، المولود من الأب قبل كل الدُّهور، نورٍ من نور، إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حق، من جوهر أبيه، مولودٍ غيرِ مخلوق» فصرَّحوا بأنه ربّ، وأنه إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقّ، وصرَّحوا بإلهٍ[1] ثانٍ مع الإله الأوَّل.

وقالوا مع ذلك: إنه مولودٌ من الأب قبل كلِّ الدُّهور، وإنه مولودٌ غيرُ مخلوق، فامتنع أن يريدوا بذلك النَّاسوت، فإن النَّاسوت مخلوق.

وهم يقولون: إنَّ الكلمة هي المتولِّدة من الأب، والكلمة صفةُ المتكلّم وقائمةٌ به، والكلام ليس بربٍّ ولا إله، بل هو كلامُ الربِّ الإله، كما أن سائر كلام الله كالتَّوراة، والإنجيل، والقرآن، ليس هو الربَّ والإله.

ثم قلتم: «مساوٍ الأبَ في الجوهر» فاقتضىٰ هذا أن يكون المولود الذي هو الكلمة جوهرًا، وأنه مساوٍ الأب في الجوهر، والمساوِي ليس هو المساوَىٰ.

وهذا يقتضي إثباتَ جوهرٍ ثانٍ مساوٍ الجوهرَ الأول، وهو صريحٌ بإثبات إلهين، ويقولون مع ذلك: «إنه إلهٌ واحدٌ جوهرٌ واحد»، ولا يقال: الجوهر مع العلم الذي يعبِّرون عنه بالأقنوم مساوٍ الجوهر الذي هو الذَّات؛ فإن الجوهر هو الذَّات، وليس هنا جوهران، أحدهما مجرَّدٌ عن العلم، والآخر متَّصفٌ به

---

(١) (و، ي): «بأنه».

حتىٰ يقال: إن أحدَهما مساوٍ للآخر، بل الرَّبُّ تعالىٰ هو الذَّات المتَّصفة بالعلم، فإن كان الأب هو الذَّات المجرَّدة، فالابن أكمل من الأب، وهو الذَّات مع العلم، والأب بعضُ الابن.

وكذلك يلزمهم أن يكون «الابنُ» هو بعضَ روح القدس؛ فإنهم في أمانتهم جعلوا روح القدس هو الربُّ المحْيي، والربُّ المحيي هو الذَّاتُ المتَّصفة بالحياة، والذَّات المجرَّدة بعضُ ذلك، فإن كان الأبُ هو الذَّات المجرَّدة فالابن[1] بعضُ روحِ القدس.

ثم قلتم في أقنوم روح القدس الذي جعلتموه الرَّبَّ المحيي: «إنه منبثقٌ من الأب مسجودٌ له ممَّجد، ناطقٌ في الأنبياء»

فإن كان المنبثق ربًّا حيًّا، فهذا إثباتُ إلهٍ ثالث، وقد جعلتم الذَّات الحيَّةَ منبثقةً من الذَّات المجرَّدة، وفي كلٍّ منهما من الكفر والتَّناقض ما لا يخفىٰ.

ثم جعلتم هذا الثَّالث مسجودًا له، والمسجودُ له هو الإله المعبود، وهذا تصريحٌ بالسُّجود لإلهٍ ثالثٍ، مع ما فيه من التَّناقض، ثم جعلتمُوه ناطقًا في الأنبياء[2]، وهذا تصريحٌ[3] بحلول هذا الأقنوم الثّالث[4] بجميع الأنبياء، فيلزمُكُم أن تجعلوا كلَّ نبيٍّ[5] مركّبًا من لاهوتٍ وناسوت، وأنه إلهٌ تامٌّ، وإنسانٌ تام، كما قلتم في المسيح؛ إذ لا فرق بين حلول الكلمة وحلول روح القدس، كلاهما أقنوم.

---

(١) (د، ع، ط.النيل): «فالأب».

(٢) (ي): «الأشياء» ومحتملة في (و).

(٣) بعدها في (ي): «ثالث».

(٤) «الثالث» ليست في (ي).

(٥) (و، ي): «شيء».

وأيضًا فيمتنع حُلولُ إحدىٰ الصِّفتين دون الأخرىٰ، وحلول الصِّفة دون الذَّات، فيلزم أن يكون الإله الحيُّ النَّاطق بأقانيمه الثَّلاثة حالًّا في كل نبيٍّ، ويكونَ كلُّ نبيٍّ هو ربَّ العالمين، ويقال مع ذلك: هو ابنُه، وفي هذا من الكفر الكثير[1] والتَّناقض العظيم ما لا يخفىٰ، وهذا لازمٌ للنَّصارىٰ لزومًا لا مَحِيد عنه؛ فإن ما ثبت للشيء ثبت لنظيره، ولا يجوز التَّفريق بين المتماثلين.

وليس لهم أن يقولوا: الحلولَ أو الاتّحادَ في المسيح ثبت بالنصِّ، ولا نصَّ في غيره؛ لوجوه:

أحدها: أن النَّصوص لم تدلَّ علىٰ شيءٍ من ذلك، كما قد بُيِّن.

الثاني: أن في غير المسيح من النُّصوص ما شابه النُّصوص الواردةَ فيه، كلفظ الابن، ولفظ حلولِ روحِ القدس فيه، ونحوِ ذلك.

الثَّالث: أن الدَّليل لا ينعكس، فلا يلزم من عدم الدَّليل المعيَّن عدمُ المدلول، وليس كلُّ ما علمَه الله وأكرم به أنبياءه أعْلَمَ به الخلق بنصٍّ صريح، بل من جملة الدَّلالات دلالةُ الالتزام.

وإذا ثبت الحلول والاتِّحاد في أحد الشَّيْئينِ[2] لمعنًى مشتركٍ بينه وبين الشَّيء[3] الآخر وجب التَّسوية بين المتماثلين، كما إذا ثبت أن النَّبيَّ يجب تصديقُه لأنه نبيّ، ويُكَفَّرُ من كذَّبه لأنه نبيّ، فيلزم من ذلك أنه يجب تصديق كلِّ نبيٍّ، وتكفيرُ من كذَّبه.

---

(١) وفي (المطبوعتين): «الكبير».
(٢) (د، ع، ط.النيل): «النَّبيِّين».
(٣) (د، ع، ط.النيل): «النَّبيّ».

الرَّابع: هَبْ أنه لا دليل علىٰ ثبوت ذلك في الغير، فيلزم تجويزُ ذلك في الغير؛ إذ لا دليل علىٰ انتفائه، كما يقولون[1]: إن ذلك كان ثابتًا في المسيح قبل إظهاره الآيات علىٰ قولهم[2]، وحينئذٍ فيلزمهم أن يُجَوِّزُوا في كلِّ نبيٍّ أن يكون الله قد جعله إلهًا تامًّا وإنسانًا تامًّا، كالمسيح، وإن لم يُعلم ذلك.

الخامس: أنه لو لم يقع ذلك، لكنَّه جائزٌ عندهم؛ إذ لا فرق في قدرة الله بين اتِّحاده بالمسيح واتحاده بسائر الآدميِّين، فيلزمُهم تجويزُ أن يجعل الله كلَّ إنسانٍ إلهًا تامًّا وإنسانًا تامًّا، ويكون كلُّ إنسانٍ مركَّبًا من لاهوتٍ وناسوت.

وقد تقرَّب إلىٰ هذا اللَّازم الباطل من قال بأن أرواح بني آدم من ذات الله، وأنها لاهوتٌ قديمٌ أزليٌّ، فيجعلون نصفَ كلِّ آدميٍّ لاهوتًا، ونصفَه ناسوتًا، وهؤلاء يلزمُهم من المُحالات أكثرُ ممَّا يلزم النصارىٰ من بعض الوجوه، والمُحالات التي تلزم النَّصارىٰ أكثرُ من بعض الوجوه.

الوجه الثاني: قولهم: «ولا يلزمنا إذا قلنا هذا عبادةُ ثلاثةِ آلهة، بل إلهٌ واحد، كما لا يلزمنا إذا قلنا: الإنسان وروحُه ونطقُه ثلاثُ أناسيٍّ، ولا إذا قلنا: النارُ وحرُّها وضوءها ثلاثُ نيران، ولا إذا قلنا: الشَّمس وضوءها وشعاعها ثلاثُ شموس».

فيقال: هذا تمثيلٌ باطلٌ لوجوه:

أحدها: أن حرَّ النار وضوءَها القائمَ بها ليس نارًا من نار، ولا جوهرًا من جوهر، ولا هو مساوي النار والشَّمس في الجوهر، وكذلك نُطْقُ الإنسان ليس

---

(١) «يقولون» ليست في (و، ي).

(٢) «علىٰ قولهم» ليست في (د، ع).

هو إنسانًا من إنسان، ولا هو مساوٍ الإنسانَ في الجوهر، وكذلك الشمس وضوءها القائمُ بها وشعاعها القائمُ بها ليس شمسًا ولا جوهرًا قائمًا بنفسه، وأنتم قلتم: «إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ» فقلتم في «الأمانة»: «نؤمن بإلهٍ واحدٍ، أبٍ ضابطِ الكل، وبربٍّ واحدٍ إيسوع المسيح ابنِ الله الوحيد، المولود من الأب قبل كلِّ الدُّهور، نورٍ من نور، إلهٍ حقٍّ من إلهٍ حقٍّ، من جوهر أبيه، مساوي الأب في الجوهر» وقلتم في «روح القدس»: «إنه ربٌّ ممجَّدٌ مسجودٌ له» فأثبتم ثلاثة أرباب.

والثاني: أن الضَّوءَ في الشمس والنار يرادُ به نفسُ الضَّوءِ القائم بها، ويرادُ به الشُّعاعُ القائِمُ بالأرض والجُدران، وهذا مباينٌ لها ليس قائمًا بها، ولفظ النُّور يعبَّر به عن هذا وهذا، وكلاهما صفة قائمة بغيرها وعَرَض، وقد يراد بلفظ النُّور نفسُ النّار ونفس الشَّمس والقمر، فيكون النُّور جوهرًا قائمًا بنفسه، وإذا كان كذلك فهم جعلوا «الأبَ» ربًّا جوهرًا قائمًا بنفسه، و«الابنَ» أيضًا ربًّا جوهرًا قائمًا بنفسه، و«روحَ القدس» ربًّا جوهرًا قائمًا بنفسه.

ومعلومٌ أن ضوء النار والشمس وحرارتَها ليس كلٌّ منهما شمسًا ونارًا قائمةً بنفسها، ولا جوهرًا قائمًا بنفسه، فلو أثبتوا حياة الله وعلمَه أو[1] كلامَه صفتين قائمتين به، ولم يجعلوا هذا ربًّا جوهرًا قائمًا بنفسه، وهذا ربًّا جوهرًا قائمًا بنفسه= لكان قولهم حقًّا وتمثيلُهم مطابقًا، ولكنهم لم يقتصروا علىٰ مجرَّد جعلهما صفتينِ لله حتىٰ جعلوا كلًّا منهما ربًّا وجوهرًا وخالقًا، بل صرَّحوا بأن المسيح الذي يزعمون اتِّحادَ[2] أحدِهما به إلهًا[3] وخالقًا، فلو كان

---

(١) (و، ي): «و».

(٢) (ي): «اتخاذ».

(٣) بعدها في (المطبوعتين): «واحدًا».

نفسَ كلمة الله وعلمَه لم تكن إلهًا خالقًا، فإن كلام الله وعلمَه ليس إلهًا خالقًا، فكيف والمسيح مخلوقٌ بكلمة الله، ليس هو نفسَ كلمة الله؟

الوجه الثالث: أن قولَهم: «الشمس وشعاعها وضوءُها» إن أرادوا بالضَّوء ما يقوم بها، وبالشُّعاع ما ينفصل عنها= فليس هذا مثالَ النار وحرِّها ولهبها؛ إذ كلاهما يقوم بها، وعلىٰ هذا فالشَّمس لم تقم بها إلا صفةٌ واحدةٌ لا صفتين، فلا يكون التَّمثيل بها مطابقًا.

وإن أرادوا بالضَّوء والشُّعاع كلاهما ما يقوم بها، أو كلاهما ما ينفصل عنها، فكلاهما صفةٌ واحدةٌ ليس هما صفتان كالحياة والعلم، فعُلِم أن تمثيلهم بالشَّمس خطأ.

وبعضهم يقول: الشَّمس وحرُّها وضوءها، كما يقولون مثل ذلك في النار، وهذا التَّمثيل أصحُّ لو ثبت أن في جِرْم الشَّمس حرارةً تقوم بها، فإن هذا لم يقم عليه دليل، وكثيرٌ من العقلاء ينكرُه، ويزعم أن جِرم الشَّمس والقمر والكواكب لا توصف بحرارةٍ ولا ببرودة، وهو قول أرِسْطُو وأتباعه.

وأما تمثيلهم بروح الإنسان ونطقه، فإن أرادوا بالرُّوح حياتَه، فليس هذا هو مفهومَ الرُّوح، وإن أرادوا الرَّوح التي تفارقُ بدنه بالموت وتُسَمَّىٰ النفسَ الناطقةَ فهذه جوهرٌ قائمٌ بنفسه ليس عرضًا من أعراضه، وحينئذٍ فيلزم أن يكون روحُ الله جوهرًا قائمًا بنفسه مع جوهرٍ آخرَ نظيرَ بدنِ الإنسان، ويكونَ الربُّ ﷻ مركَّبًا من بدنٍ وروحٍ كالإنسان، وليس هذا قولَ أهل الملل، لا المسلمين ولا اليهودِ والنَّصارىٰ، بل هو كفرٌ عندهم[1]، فتبيَّن أن تمثيلهم بالثلاثة باطل.

---

(١) «بل هو كفر عندهم» ملحقة في هامش (و) وليست في سائر النسخ.



الوجه الرَّابع: أن التَّمثيل إما أن يقع بصفاتِ الشَّمس والنَّار والإنسان، أو النَّفس القائمة بهذه الجواهر، أو بما هو مباينٌ لذلك، كالضَّوء الذي يقع علىٰ الأرض والحيطان والهواء، وغير ذلك من الأجسام إذا قابلت الشَّمس أو النَّار(١)، فإن أريد هذا فهذا شعاعٌ منعكس، وضوءٌ(٢) منقلب، ليس هو صفةً قائمةً بالشَّمس والنَّار.

وإذا أُرِيد بما حلَّ في المسيح هذا، وهذا يسمىٰ نورًا وروحًا، ويسمىٰ نور الله، كما قال تعالىٰ: ﴿ ۞ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ ٱلْمِصْبَاحُ فِى زُجَاجَةٍ ۖ ٱلزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّىٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُّبَٰرَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِى ٱللَّهُ لِنُورِهِۦ مَن يَشَآءُ ﴾ [النور:٣٥]. وقال تعالىٰ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا ۚ مَا كُنتَ تَدْرِى مَا ٱلْكِتَٰبُ وَلَا ٱلْإِيمَٰنُ وَلَٰكِن جَعَلْنَٰهُ نُورًا نَّهْدِى بِهِۦ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا﴾ [الشورىٰ: ٥٢]. فأخبر أنه جعل الرُّوح الذي أوحاه نورًا يهدي به من يشاء.

وقال تعالىٰ: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ كَتَبَ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]، وقال تعالىٰ: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وقال تعالىٰ: ﴿وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِۦ﴾ [الحديد: ٢٨]، وقال تعالىٰ: ﴿وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ ٱللَّهُ لَهُۥ نُورًا فَمَا لَهُۥ مِن نُّورٍ﴾ [النور: ٤٠].

فإذا أُرِيد ما حلَّ في المسيح من الرُّوح والكلمة بهذا المعنىٰ فلا اختصاص للمسيح بذلك، فإن هذا يَحُلُّ في جميع الأنبياء والمؤمنين، وإن كانوا متفاضِلين

---

(١) بعدها في (المطبوعتين): «أو الإنسان أو النفس القائمة بهذه الجواهر» وليست في الأصول.
(٢) (و، ي): «وهو» بدل: «وضوء».

فيه بحسب درجاتهم، وليس هذا الحالُّ فيهم نفسَ صفة الله القائمة به، وإن كان ذلك حاصلًا عنها ومسبَّبًا عنها، لكن ليس هو نفسَ صفةِ الله، وإن كان من الناس من يقول: بل صفة الله التي اتَّصف بها حلَّت في العبد، فهذا القول خطأ؛ فإن صفة الموصوف القائمةَ به يمتنع قيامها بعَيْنِها بغيره، ولكنَّ الإنسانَّ إذا تعلَّم عِلْمَ غيره، وبلَّغ كلام غيرِه يقال: هذا عِلْمُ فلانٍ وكلامُه؛ لأن هذا الثاني بلَّغه عنه، والمقصود هو عِلْمُ الأوَّلِ وكلامه، مع العلم بأن نفس ما قام بذات الأول ليس هو عينَ ما قام بذات الثاني، وإن كان قد يكون مثلَه، وقد يكون الأول هو المقصودَ بالثاني، مثلَ من بلَّغ كلام غيره، فكلام المبلَّغ هو المقصود بالتبليغ، وصفات المبلِّغ - كحركته وصوته- بها يحصل التبليغ؛ ليس هو نفسَ المقصود، وإذا قيل: هذا كلام المبلَّغ عنه، فالإشارة إلىٰ حقيقة الكلام المقصود بالتبليغ، لا إلىٰ ما يختصُّ به المبلِّغ من أفعاله وصفاته، ولهذا شبَّه[1] الناسُ من قال بحلول صفة الربِّ في عبده بالنَّصارىٰ القائلين بالحلول، وهو شبيهٌ بهم من بعض الوجوه.

لكنَّ النَّصارىٰ لا يقولون بحلول صفةٍ مجرَّدة، بل بحلول الأقنوم الذي هو ذاتٌ متَّصفةٌ بالصِّفة، ويقولون: إن المسيح خالقٌ ورازق، وهو خالق آدم ومريم، وهو ولد آدمَ ومريم، وهو خالقٌ لهما بلاهوته، ابنٌ لهما بناسوته.

ويقولون: هو ابنُ الله، وهو الله بلاهوته، ويقولون أيضًا باللَّاهوت والنَّاسوت؛ لأجل الاتحاد، والله كفَّرهم بقولهم[2]: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧] ونحو ذلك.

---

(١) (و، ي): «يشبه».

(٢) بعدها في (و): «له».

وإن أرادوا بتمثيلهم بصفات الشَّمس والنَّار والنفس التمثيلَ بنفس ما يقوم بالشَّمس والنَّار والنَّفْس من الضَّوء والحياة والنُّطق، وجعلوا ما يثبتونه من الأب والابن وروحِ القدس صفاتٍ لله، كما أنَّ هذه صفاتٌ لهذه المخلوقات.

قيل لهم أولًا: لم يعبِّر أحدٌ من الأنبياء عَلَيْهِمُ السَّلَامُ عن صفات الله باسم الأب و[1]الابن وروح القدس، فليس لكم إذا وجدتم في كلام المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أو غيره من الأنبياء ذكرَ الإيمان بالأب والابن وروح القدس أن تقولوا: مُرادُهُم بذلك صفةُ الله التي هي الكلمة و[2]العلم، ولا حياةُ الله؛ إذ كانوا لم يريدوا هذا المعنىٰ بهذا اللفظ، وإنما أرادوا باسم الابن وروح القدس ما هو بائنٌ عن الله عَزَّ وَجَلَّ.

والبائنُ عن الله ليس صفةً لله فضلًا عن أن يكون هو الخالق، فضلًا عن أن يكون البشر المتَّحد به خالقًا، فقد ضلَلْتُم ضلالًا بعد ضلال، ضلالًا حيث جعلتم مراد المسيح وغيرِه بالابن وروح القدس صفةَ الرب، ثم ضلالًا ثانيًا حيث جعلتم الصفةَ خالقًا وربًّا، ثم ضلالًا ثالثًا حيث جعلتم الصِّفة تَتَّحد ببشرٍ هو عيسىٰ، ويُسَمَّىٰ المسيح، ويكون هو الخالقَ ربَّ العالمين، فضلَلْتم في الحلول ضلالًا مثلَّثًا بعد ضلالكم في التَّثليث أيضًا ضلالاتٍ أُخَر، حيث أثبتم ثلاثَ صفاتٍ دون غيرها، وجعلتموها جواهرَ أربابًا، ثم قلتم: إلهٌ واحد. فضلَلْتم ضلالًا مثلَّثًا في التثليث، وضلالًا مثلَّثًا في الاتِّحاد.

---

(١) «الأب و» ساقطة من (د، ي).

(٢) (و): «أو».

وقيل لكم ثانيًا: إذا جعلتم ذلك صفاتٍ لله، كما أن الضَّوْء والنطق والحرارة صفاتٌ لما تقوم بها، امتنع أن تحُلَّ بغيرها، وامتنع مع الحلول أن تكون فاعلةً فعل النَّار والشَّمس والنفس، وأنتم جعلتم الكلمة والحياة حالّةً بغير الله، وجعلتم ما يحُلُّ به إلهًا خالقًا، بل هو الإله الخالق، ومعلومٌ أن أحدًا من العقلاء لا يجعلُ ما يحصلُ فيه ضوءُ النَّار نارًا، ولا ما يحصل فيه شعاع الشَّمس شمسًا، ولا ما يحصل فيه نُطْقُ زيدٍ وعلمُه هو نفسَ زيد، فكان جعْلُكم المسيح هو الخالقَ للعالم مخالفًا لتمثيلكم.

وتبيَّن بذلك أن ما ذكرتموه لا يطابقه شيءٌ من الأمثلة؛ إذ كان كلامًا باطلًا متناقضًا يمتنع تحقُّقُه، فلا يُمثَّل[1] بشيءٍ من الموجودات الثَّابتة المعلومة إلا كان تمثيلًا غير مطابق.

ولهذا يُشَبِّهُون الحلول والاتِّحاد تارةً بحلول الماء في الظَّرف، وتارةً بحلول النَّار في الحديد، وتارةً بالنفس والبدن، وتارةً يقولون بأنهما جوهرٌ واحدٌ اختلطا كاختلاط الماء واللَّبن، وكلُّ هذه الأمثال التي ضربوها لله أمثالٌ باطلة، فإن الماء في الظرف وغيره من الأوعية محتاجٌ إلىٰ وِعَائه، لو انخرق وعاؤه لتبدَّد، وهو محيطٌ به، ولا يتَّصِف الظَّرفُ بشيءٍ من صفات الماء، والربُّ تعالىٰ يمتنع أن يحتاج إلىٰ شيءٍ من مخلوقاته، لا إلىٰ العرش ولا إلىٰ غيره، أو يحيط به شيءٌ من الموجودات؛ إذ هو الظَّاهر فليس فوقه شيء.

(١) (د، ع): «تمثيل».



كما ثبت في الصَّحيح[1] عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَنْتَ الأَوَّلُ فلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بعْدَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ الظَّاهِرُ فَلَيْسَ فَوْقَكَ شَيْءٌ، وَأَنْتَ البَاطِنُ فَلَيْسَ دُونَكَ شَيْءٌ**». فهو غنيٌّ عن كلِّ ما سواه، وكلُّ ما سواه فقيرٌ إليه، ولهذا لم يكن ما وصف الله به نفسه مماثلًا لصفات المخلوقين، كما لم تكن ذاته كذوات المخلوقين، فهو مستوٍ علىٰ عرشه، كما أخبر عن نفسه مع غِنَاه عن العرش.

والمخلوق المستوي علىٰ السَّرير، أو الفُلْكِ، أو الدَّابَّةِ، لو ذهب ما تحته لسقط؛ لحاجته إليه، والله غنيٌّ عن كلِّ ما سواه، وهو الحامل[2] للعرش ولحملة العرش.

وفرقُ النَّصارىٰ الثلاثة يقولون بالاتِّحاد، فلا ينفعهم التَّمثيلُ بحلول الماء في الظَّرف، ولو قُدِّرَ أنهم قالوا بالحلول المجرَّد، مع أن الرَّبَّ لا يحتاج إلىٰ النَّاسوت ولا[3] يحويه ولا يَمسُّه، بل كما خاطب موسىٰ من الشجرة، فهذا يوجب أن النّاسوت لا يتَّصِف[4] بشيءٍ من الإلهيَّة كالشجرة، ثم إنه معلومٌ بالضَّرورة أن الصَّوت الذي كان يُسْمَعُ هو صوت النَّاسوت، فالتمثيل بالشَّجرة أيضًا باطل، كما بُسِطَ في موضعه[5].

وأما الحديد والخشب وغيرُهما إذا ألقي في النَّار فإنه يستحيل نارًا

---

(١) مسلم (٢٧١٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه. في سائر النسخ: (الصحيحين)، والمثبت من (ي).
(٢) بعدها في هامش (و): «قدرته» كذا.
(٣) «ولا» مثبتة من (و) وفي سائر النسخ: بدون «واو».
(٤) (و): «يتصل».
(٥) انظر ما سيأتي (٢/ ٤٥٣).

لاتِّصاله بالنار، لا أَنَّ النَّار الذي استحال إليها كانت موجودةً فحلَّت به، فهذا[1] استحالةٌ بلا حلول، والنَّارُ الذي صارت في الحديدة حادثةٌ عن تلك النارِ[2] ليست إيَّاها، ثم تلك الحديدةُ إذا طُرِقَت وَقَعَ التطريقُ علىٰ النَّار، وكذلك إذا ألقيت في الماء، فلو كان هذا تمثيلًا مطابقًا لكان الضَّرب والصَّلب[3] والإهانة وقع علىٰ اللَّاهوت، وكان اللَّاهوت هو الذي يغتسل بالماء، وهو الذي يأكل ويشرب، وهذا من أعظم الكفر.

ويُحْكَىٰ عن بعض طائفةٍ منهم كاليعقوبيَّة أنه يقول بهذا الكفر، وإن كان كثير منهم كالمَلَكِيَّة والنُّسطُوريَّة ينكره[4] فهو لازمٌ لهم، وكذلك إذا شبَّهوه بالنَّفس والبدن، فإن النفس تتَأَلَّمُ تألُّمَ البدن، وتستحيل صفاتُها بكونها في البدن، وتكتسب عن البدن أخلاقًا وصفات، فلو كان هذا تمثيلًا مطابقًا لزم تَأَلُّم اللَّاهوت بآلام البدن، وأن يكون متألِّمًا بجوع البدن وعطشه وضرْبِهِ وصلْبِهِ، وأن يكون مستحيلًا لما اكتسبه من صفات النَّاسوت الذي هو عندهم بمنزلة البدن للنَّفْس.

وأما قولهم: «إذ لم نُهْمِل ما تسلَّمْناه، ولم نرفض ما تقلَّدْناه».

فقولهم في ذلك بمنزلة قول اليهود للمسيح: «إنا لا نُهْمِل ما تسلَّمْناه، ولا نرفض ما تقلَّدْناه من موسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ».

---

(١) (د، ي، ع، ط.النيل): «فهنا».
(٢) (و): «الحرارة».
(٣) «والصلب» ليست في (د، ي، ع).
(٤) (و): «تذكره».

وجواب الطائفتين من وجهين:

أحدهما: أنكم بدَّلتم وحرَّفتم الكتاب الذي أُنزل إليكم، والشَّرعَ الذي شُرِعَ لكم، وتبديلُ المعاني والأحكام لا ريب فيه عند جميع عقلاء الأنام، وما كان عليه اليهود بعد التَّبْدِيل لم يكن هو الشرعَ الذي شرعه موسىٰ عليه السلام، وما كان عليه النَّصارىٰ بعد التَّبديل لم يكن هو الشرعَ الذي شرعه المسيح عليه السلام.

والثاني: أنكم كذَّبتم بالكتاب الآخَر، والرسولِ الآخَر الذي أُرْسِل إليكم، ومن كذَّب بما[1] أنزل إليه من ربِّه، والرسولَ الذي أُرْسِل إليه كان كافرًا مستحقًّا لعذاب الدُّنيا والآخرة، وإن كان قبل ذلك متَّبعًا[2] لشرع رسولٍ[3] وكتابٍ غير مبدَّل، فكيف إذا كان قد بُدِّل ما بُدِّل من أحكامه ومعانيه؟

(١) المثبت من (و)، وباقي الأصول: «ما».
(٢) (ي): «ممتنعًا» كذا.
(٣) «رسول» ليست في (و).

فصـل

وأما قولهم: «ولنا هذه الشَّهادات والدَّلائل من الكتاب الذي في أيدي هؤلاء القوم».

فيقال: لا يصحُّ استشهادُهم بهذا الكتاب واستدلالُهم به بوجهٍ من الوجوه، فإن الذي قد جاء به قد تواتر عنه أنه أَخبر أنه مرسَلٌ إليهم، وأنهم كفارٌ إذا لم يؤمنوا به، مستحقُّون للجهاد، ومن لم يستحلَّ جهادَهم فهو كافر، والقرآنُ مملوءٌ بكفرهم، فإن كان هذا رسولًا من الله، وقد أخبر بكُفْرِهم= ثبت أنهم كفار؛ فإن الرَّسول لا يقول على الله إلا حقًّا، لا يَكْذِبُ على اللهِ في شيء، ومن كَذَب على الله ولو في كلمةٍ واحدةٍ فهو من الكذَّابين المفترَين على الله الكذب، مستحقٌّ لعقوبة الكذَّابين، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ (٤٤) لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ (٤٥) ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ (٤٦) فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤-٤٧].

وقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا ۖ فَإِن يَشَإِ اللَّهُ يَخْتِمْ عَلَىٰ قَلْبِكَ ۗ وَيَمْحُ اللَّهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ﴾ [الشورى: ٢٤].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ ۙ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ١٠١-١٠٢].

وقال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ ۙ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ ۚ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِن تِلْقَاءِ



نَفۡسِيٓۖ إِنۡ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَيَّۖ إِنِّيٓ أَخَافُ إِنۡ عَصَيۡتُ رَبِّي عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ١٥ قُل لَّوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا تَلَوۡتُهُۥ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَدۡرَىٰكُم بِهِۦۖ فَقَدۡ لَبِثۡتُ فِيكُمۡ عُمُرٗا مِّن قَبۡلِهِۦٓۚ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾ [يونس: ١٥-١٦].

فمتىٰ كانت كلمةٌ من كلمات هذا الكتاب كذبًا علىٰ الله لم يكن كتابَ الله، ولم يكن الذي جاء به رسول الله، فإن الكاذب قد يَصْدُق في أكثر ما يقوله، لكن إذا كذَب في بعض ما يقوله كان كاذبًا، والله تعالىٰ لا يُرسِلُ من يَكْذِبُ عليه؛ فإن المخلوق لا يرضىٰ أن يرسل من يعْلَم أنه يكذب عليه[1]، ولو فعل ذلك دلَّ علىٰ جهله أو عجزه، فكيف يرسلُ ربُّ العالمينَ من يعْلمُ أنه يكْذِب عليه؟!

وحينئذٍ فمتىٰ كذَّبوا بكلمةٍ واحدةٍ ممَّا في الكتاب لم يصحَّ استشهادُهُم واستدلالُهم بشيءٍ ممَّا في الكتاب، وإن صدَّقوا بالكتاب كلِّه لزمهم الإيمان بما جاء به، واتِّباعُ شريعته، والاعترافُ بكُفْر الذين كذَّبوه، وكُفْرِ الذين يقولون: إن الله هو المسيح ابن مريم، وإن الله ثالث ثلاثة.

وهذا بخلاف من آمن بالرَّسول ولم يثبت عنده بعضُ ما نُقل عنه، أو[2] لم يَعْرف معناه، فإن هذا لا يقدح في أصل إيمانه بالرَّسول[3].

فالمسلمون إذا كذَّبوا ببعض ما نُقِل عن موسىٰ والمسيح فهو لطعنهم في النَّاقِل، لا في النَّبيِّ[4] المنقولِ عنه.

---

(١) (ي): «أن يعلم من يكذب عليه» بدل: «أن يرسل من يعلم أنه يكذب عليه». وقوله: «يعلم أنه» ساقطة من (ع).

(٢) (و، ي): «لو».

(٣) «بالرسول» ليست في (و).

(٤) (و): «الشيء».

وأما النصارىٰ فيعلمون أن محمّدًا ﷺ جاء بالقرآن، فطعْنُهم في بعضه طعْنٌ في الرَّسول نفسِه وكفرٌ به، وليس هذا بمنزلة ما مثَّلوا به من الوثيقة التي كُتِبَ وفاؤُها في ظهرها؛ فإن الذي له الدَّيْنُ[1] أقرَّ بالاستيفاء المسقطِ له، فلم يبق هناك حقٌّ له يدَّعيه، بخلاف ما يُخْبِرُ به الذي يقول: إنه رسول الله، فإنه يقول: إن الله أنزل عليَّ هذا الكتاب كلَّه، وأرسلني بكذا وكذا إلىٰ كذا وكذا، فإن كذَب في شيءٍ ممَّا أخبر به عن الله لم يكن الله أرسله، فإن الذي أرسله هو الذي جعله يُبَلِّغُ عنه ما يقولُه بلا زيادةٍ ولا نقص.

وإرسال الله للرَّسول يتضمَّن شيئين:

إنشاءَ الله للرَّسالة، والله حكيم، وهو أعلم حيث يجعل رسالاتِه، لا يجعلها إلا فيمن هو من[2] أكمل الخلق وأصدقِهم.

ويتضمَّن إخبارَ الله عنه بأنه صادقٌ عليه فيما يبلِّغُه عنه ممَّا يقول إن الله أرسله به، فكما صدَّقه بالآيات المعجزات في قوله: إنه أرسلني، فقد صدَّقه بما يقول: إنه أرسلني به؛ إذ التصديق بكونه أرسله من غير معرفةٍ بصدقه فيما يخْبِر به لا فائدة فيه، ولا يحصل به مقصود الإرسال.

والله تعالىٰ عليمٌ بما يشهد به لمن أرسله، بخلاف المخلوق الذي يَبْعث من يظُنُّه يَصْدُق فيما يبلِّغُه عنه، فيَظْهَرُ أنه كذَبَ عليه، والله يعلم عواقب الأمور، والرِّسالة صادرةٌ من علمه وحكمته، وهو عليمٌ حكيم، ومن يكذِبْ علىٰ الله - ولو في كلمةٍ - لم يبلِّغْ عنه ما يقوله علىٰ هذا الوجْه، فلا يكون رسولَه.

---

(١) (المطبوع): «التين» خطأ.

(٢) «من» مثبتة من هامش (و) وليست في سائر النسخ.

ولهذا اتَّفق أهل الملل علىٰ أن الرُّسُل معصومون فيما يبلِّغونه عن الله، لا يكذِبون عليه عمدًا ولا خطأ، فإن هذا مقصودُ الرِّسالة، فكان تمثيلُ هذا بالوثيقة تمثيلًا باطلًا، فإن المدَّعي للإسقاط لم يدَّع كلامًا متناقضًا، بل قال: أقرَرْت بهذا الدَّيْنِ ثم وفَّيْتُك إيَّاه، وأنت تُقِرُّ بوفائِه، وإقرارُك مكتوبٌ في ظهرها، فليس لك أن تحتجَّ بإقراري بالدَّيْن دون إقرارك بالوفاء، بل إمَّا أن تعتبر ما في الوثيقة من إقراري وإقرارك، وإما أن تُبْطِل الأمرين.

وهذا كلامٌ عَدْلٌ، كالشَّريكَيْنِ والمتعاوضَيْن[1]، مثل شريكَي العِنان، إذا قال لصاحبه: إن حصل ربحٌ فهو لي ولك، وإن لم يحصل ربحٌ فلا لي ولا لك.

وكذلك البائع والمؤاجر الذي يقول: إن كان بيننا معاوضةٌ[2] فعليك تسليمُ ما بذلتَه، وعليَّ تسليمُ ما بذلتُه، لا يُسْتَحَقُّ هذا إلا بهذا. فهذا كلُّه كلامٌ عدلٌ وإنصاف.

بخلاف الشَّخص الذي يقال فيه: إنه رسول الله، والكتاب الذي يقال: إنه كلام الله، وإن الله أنزله، فإن هذا إن كان رسولًا صادقًا فجميع ما بلَّغه عن الله حقٌّ، وإن كان كاذبًا لم يكن الله أرسله، فجميع ما بلَّغه عن الله كذبٌ علىٰ الله، فلا يجوز بمجرَّد خبره أن يُنْسَب إلىٰ الله شيءٌ، ولا يُحتجّ بما يُخْبِر به عن الله علىٰ شيء.

ألا ترىٰ أن من ادَّعىٰ الرِّسالة وعُلم أنه كاذبٌ، كالأسود العَنْسِيّ، ومسيْلِمةَ الكذَّاب، وطُلَيْحَةَ الأسديّ، والحارثِ الدِّمشقيّ، وبابا الرُّوميّ، وغير هؤلاء،

---

(١) (د): «المتعاوضين» بلا «واو»، (ي): «المتعارضين»، (ع): «المتفاوضين». والمثبت أنسب لتفريع المصنف علىٰ النوعين.

(٢) (ي): «لي معارضة» بدل: «بيننا معاوضة».

لا يجوز لأحدٍ أن يَحْتَجَّ بشيءٍ مما ذكروا أن الله أرسلهم به، وإن كان ذلك القول قد عُلِم أنه حقٌّ من جهةٍ أخرىٰ، فإنه قد عُلم بكَذِبهم أن الله لم يرسلهم، فأَيّ شيءٍ قالوا: إن الله أنزله عليهم كانوا كاذبين فيه، وَمَنْ[1] عُلِم أنه كاذبٌ في نفس الخبر المعيَّن لم يجز أن يُحتجَّ بجنس الذي عُلم أنه كاذبٌ فيه.

وكذلك لو قال رجل: عندي أن موسىٰ، أو داود، أو المسيح[2] لم يرسلهم الله بشيء، لكن كذَبوا في قولهم: إن الله أرسلهم، فإذا أراد مع هذا أن يحتجَّ بما يَنْقُل من التَّوراة، والزَّبور، والإنجيل عن الله= كان متناقضًا، وكان احتجاجُه باطلًا غيرَ مقبول، بل لو قال: أنا أشكُّ في بعض ما أخبروا به عن الله، هل كذبوا فيه أم لا؟ كان كذلك شكًّا في أن الله أرسلهم، فإن من أرسله الله لا يكْذِب في شيءٍ: لا خطأً ولا عمدًا، ومع شكِّه في ذلك لا يجوز أن يَحتجَّ بشيءٍ مما ينقلونه عن الله؛ لتجويز أن يكونوا كاذِبين في نفس ذلك الذي نقلوه عن الله.

وليس هذا مثلَ رسولِ الواحد من الآدميِّينَ، فإنه قد يكون أرسله، ثم إن الرَّسول صدَق في بعض ما بلَّغه عن مرسِله، وكذَب في البعض، ويجوز علىٰ الآدميِّ أن يُرْسِلَ من يَكْذِب عليه؛ لعدم علمه بكَذِبه، أو عدم حكمته في إرساله.

وأما الربُّ تعالىٰ: فلا يجوز أن يرسِل بنبيّ[3] يكذب عليه[4] لا عمدًا، ولا خطأً، وكذلك الشَّاهد والمخبِر الذي قد عُلم أنه تارةً يصْدُق وتارةً يكذب يمكن أن يُسْتَدلَّ ببعض أخباره الذي يَظْهَرُ فيها صدقُه لدلالاتٍ تقترن بذلك،

---

(١) (و): «وشيء»، (المطبوعتان): «ومتىٰ».

(٢) بعدها في (و): «كذبوا علىٰ الله في بعض ما يخبرون به عن الله، كانوا بمنزلة من» وليست في سائر النسخ.

(٣) (ي): «شيء» كذا، (ط.النيل): «من». (المطبوع): «نبيًّا».

(٤) بعدها في (و): «في شيء».

بخلاف الرَّسول، فإنه إذا كـذَب كِذْبة واحدةً امتنع أن يكون الله أرسله، فصار جميع ما يُبَلِّغُه عن الله هو كاذبٌ في أنَّ الله أرسله به، فكَذِبُه في كلمةٍ واحدةٍ يوجب أنه كاذبٌ في جميع ما بلَّغه عن الله، وأن جميع ما حكاه ورواه عن الله قد كذَب فيه، وإن قُدِّرَ أن ذلك الكلام في نفسه حقٌّ، لكنَّ تبليغَه عن الله، ونقْلَه، وروايته، وحكايته عن الله كَذِبٌ علىٰ الله[1].

وقد أخبر الله أنه ينسخ ما يلقيه الشيطان مما يناقض مقصودَ التَّبليغ، بقوله تعالىٰ ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّآ إِذَا تَمَنَّىٰٓ أَلۡقَى ٱلشَّيۡطَٰنُ فِيٓ أُمۡنِيَّتِهِۦ فَيَنسَخُ ٱللَّهُ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ ثُمَّ يُحۡكِمُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٥٢ لِّيَجۡعَلَ مَا يُلۡقِي ٱلشَّيۡطَٰنُ فِتۡنَةٗ لِّلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَفِي شِقَاقِۭ بَعِيدٖ ٥٣ وَلِيَعۡلَمَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡعِلۡمَ أَنَّهُ ٱلۡحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤۡمِنُواْ بِهِۦ فَتُخۡبِتَ لَهُۥ قُلُوبُهُمۡۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٥٤ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِي مِرۡيَةٖ مِّنۡهُ حَتَّىٰ تَأۡتِيَهُمُ ٱلسَّاعَةُ بَغۡتَةً أَوۡ يَأۡتِيَهُمۡ عَذَابُ يَوۡمٍ عَقِيمٍ﴾ [الحج: ٥٢-٥٥].

وإن قالوا: خبرُه يناقض بعضُه بعضًا، **كان الجواب من وجهين:**

أحدهما: أن هذا أيضًا إن كان حقًّا فإنه[2] يقدح في رسالته، فإن الرَّسول لا يناقض بعضُ خبره بعضًا، ومن كان كذلك لم يصحَّ لكم أن تحتجُّوا بشيءٍ ممَّا جاء به، وإن كان باطلًا لم يرد عليه.

---

(١) «أنه حق من جهة أخرىٰ... كذب علىٰ الله» ساقطة من (د، ع) وقد أشارا في هامش النسختين إلىٰ أن الكلام «يتلوه في وريقة» ولم أجده فيهما.

(٢) «فإنه» ليست في (د، ع، ي).

فعُلِم أن استدلالهم بما في هذا الكتاب علىٰ صحَّة دينهم الذي خالفوا به هذا الكتاب في غاية الفساد، وهو جمعٌ بين النَّقيضين، واستدلالٌ بما في الكتاب علىٰ ما يوجِبُ بطلانَ الاستدلال بشيءٍ ممَّا في الكتاب.

وإذا كانت النتيجة تستلزم فسادَ بعضِ مقدِّمات الدَّليل بطل الاستدلال بذلك الدَّليل الذي لا يصحُّ إلا بصحَّة مقدِّماته، فإذا كانت مقدِّمتُه لا تصحُّ إلا مع فساد نتيجته، ونتيجتُه مستلزمةً لفساد مقدمته= كان الجمع بين صحَّة المقدِّمة والنَّتيجةِ جمعًا بين النَّقِيضين.

وكذلك من استدلَّ بشيءٍ من الكتاب علىٰ ما يناقض ما في الكتاب، كاستدلال النَّصارىٰ بآياتٍ فيه علىٰ صحَّة دينهم، كان تناقضًا[1]؛ فإنه إن صحَّ ذلك الدَّليل بأنه مَدَحَ دينَهم مع ذمِّه= كان متناقضًا[2]، والكتاب المتناقض لا يكون كتابَ الله.

وإن فسد أحدُهما، إما فساد ذَمِّهم[3]، وإما فساد مَدْحِه، فالكتاب الذي فيه فسادٌ لا يكون كتابَ الله، فيلزم أن لا يكون كتاب الله علىٰ التَّقديرَينِ، فلا يصحُّ الاستدلال به من جهة كونه خبرَ الله.

وأما الاستدلال به من جهة كون المتكلِّم به رجلًا عالمًا حكيمًا، وهذا لا يفيد العلم؛ إذ ليس معصومًا إلا الأنبياءُ عَلَيْهِمْ السَّلَامُ، والنَّصارىٰ يجوِّزون أن يكون معصومًا غيرُ الأنبياء، فبتقدير أن يكون كذلك فهو حجَّةٌ عليهم.

---

(١) (و): «متناقضًا».
(٢) (د، ع): «تناقضًا».
(٣) (و): «دينه»، (المطبوعتان): «دينهم».

وإن قالوا: هو رجلٌ عالمٌ ليس برسولٍ من الله.

قيل لهم: فهذا قولُه ليس بحجّةٍ؛ لجواز أن يخطئ، ولكن يُعتضد بقوله، وأما إذا ادَّعىٰ أن الله أرسله وهو لم يرسله بهذا الكتاب كلِّه، فهذا كذَّابٌ لا يُحتجُّ بشيءٍ من كلامه، ولا يكون مثلُ هذا عدلًا، فضلًا عن أن يكون حكيمًا، بل هو من الذين افترَوْا علىٰ الله كذبا: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِىَ إِلَىَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَىْءٌ﴾ [الأنعام: ٩٣].

والجوابُ الثاني: أنّا قد بيَّنا ما ذكروه أنه لا يناقض شيئًا مما أخبر به، وأنه ليس في هذا الكتاب تناقضٌ يحتجُّون به بوجهٍ من الوجوه.

وأما قولهم: وأعظم حُجَّتِنا ما وجدناه فيه من الشَّهادة لنا بأن الله جعلنا فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة.

فيقال: بل ما ذكروه حجَّةٌ عليهم لا لهم، فإن الله أخبر المسيح أنه جاعل الذين اتَّبعوه فوق الذين كفروا إلىٰ يوم القيامة، وخبر الله حقٌّ، ووعد الله صدق، والله لا يخلف الميعاد، فلما اتَّبع المسيحَ من آمن به جعلهم الله فوق الذين كفروا به من اليهود وغيرهم.

ثم لمّا بعث الله محمّدًا ﷺ بالدِّين الذي بعث به المسيحَ وسائرَ الأنبياء قبله، وكان محمَّدٌ ﷺ مصدِّقًا لما جاء به المسيح، وكان المسيح مبشِّرًا برسولٍ يأتي من بعده اسمه «أحمد»= صارت أمة محمّدٍ ﷺ أتبعَ للمسيح عليه السلام من النَّصارىٰ الذين غيَّروا شريعته وكذَّبوه فيما بشَّر به، فجعل الله أمَّة محمَّدٍ ﷺ فوقَ النَّصارىٰ إلىٰ يوم القيامة، كما جعلهم أيضًا فوق اليهود إلىٰ يوم القيامة.

والنَّصارىٰ بعد النسخ والتبديل ليسوا متَّبعين المسيح، لكنَّهم أتبعُ له من

اليهود الذين بالغوا في تكذيبه وسبِّه، فإنهم كذَّبوه أوَّلًا، وكذَّبوا محمَّدًا ﷺ ثانيًا، فصاروا أبعد عن متابعة المسيح من النصارىٰ، فكانوا مجعولين فوق اليهود.

والمؤمنون أمَّةُ محمَّدٍ ﷺ، هم المتَّبعون للمسيح عليه السلام، ومن سواهم كافرٌ به[1]، فأمّةُ محمّدٍ ﷺ فوق اليهود والنَّصارىٰ إلىٰ يوم القيامة، ولهذا لمَّا جاء المسلمون يقاتلون النَّصارىٰ غلبوهم، وأخذوا منهم خيارَ الأرض: الأرض المقدَّسة، وما حولَها من مصرَ والجزيرةِ وأرض المغرب[2]، ولم يزل المسلمون منتصرين علىٰ النّصارىٰ، ولا يزالون إلىٰ يوم القيامة لم تنتصر النَّصارىٰ[3] قطُّ علىٰ جميع المسلمين، وإنما تنتصر علىٰ طائفةٍ من المسلمين بسبب ذنوبهم، ثم يُدِيلُ[4] الله المؤمنين عليهم.

ولو كان النَّصارىٰ هم المتَّبعين للمسيح عليه السلام، والمسلمون كفارًا به لوجب أن ينتصروا علىٰ جميع المسلمين؛ لأن جميع المسلمين ينكرون إلهيَّة المسيح ويكفِّرون النّصارىٰ، فعُلِم أن المتَّبعين للمسيح هم المسلمون دون النّصارىٰ.

---

(١) «به» ليست في (و).

(٢) (د، ع، ط.النيل): «العرب».

(٣) «النصارىٰ» ساقطة من (و).

(٤) (و، المطبوعتان): «يؤيد».

فصــل

قالوا: «وأما تجَسُّم كلمة الله الخالقة التي بها خَلَقَ كلَّ شيء، وتجسُّدُها بإنسانٍ مخلوق، وهو الذي أُخذ من مريمَ العذراء المصطفاةِ التي فُضِّلَت علىٰ نساء العالمين، واتَّحدَتِ الكلمةُ به اتحادًا بريًّا من اختلاطٍ، أو تغيُّرٍ، أو استحالة، وخاطب الناس كما خاطب الله موسىٰ النبيَّ من العَوْسَجَة، ففعل المُعْجِز بلاهوته، وأظهر العجْزَ[1] بناسوته، والفِعْلان هما من المسيح الواحد».

والجواب: أن في هذا الكلام من أنواع الكَذِب، والكفْر، والتّناقض أمورًا كثيرة، وذلك يظهر بوجوه:

الأول: أن قولهم: «كلمة الله الخالقة التي بها خَلَقَ كلَّ شيء» كلامٌ متناقض؛ فإن الخالق هو الإله الخالق، وهو خلَق الأشياء بكلامه، وهو قوله: «كن»، فالخالق لم تُخلق به الأشياء، بل هو خلقها، والكلام الذي به خُلِقَت الأشياء ليس هو الخالق لها، بل به خَلق الخالقُ الأشياء، والفرق بين الخالق والمخلوق، وبين ما به خَلَق الخَالِقُ= معقول.

وهؤلاء جعلوا الخالق هو الذي به خُلِقَت[2] المخلوقات، فجعلوا الكلمة هي الخالق، وجعلوا المخلوقات خُلِقَت بها.

وإيضاح هذا: أن الكلمة إن كانت مجرَّد[3] الصِّفة، فالصِّفة ليست خالقة، وإن كانت الصِّفة مع الموصوف فهذا هو الخالق، ليس هذا هو المخلوق به.

---

(١) (و): «المعجز».

(٢) (و): «خلقت به».

(٣) (د، ي، ع): «مجردة».

والثاني: قولهم: «تجسُّدها بإنسان مخلوق» وقولهم: «تجسُّم كلمة الله» فإن قولهم: «تجسَّمت، وتجسَّدت» يقتضي أن الكلمة صارت جسدًا وجسمًا بالإنسان المخلوق، وذلك يقتضي انقلابها جسدًا وجسمًا، وهذا يقتضي استحالتَها وتغيُّرها، وهم قالوا: «اتحادًا بريًّا من تغيُّرٍ واستحالة».

الثالث: قولهم: «اتحدت الكلمة به اتحادًا بريًّا من اختلاطٍ، أو تغيُّرٍ، أو استحالة» كلامٌ متناقضٌ أيضًا؛ فإن الاتِّحاد أن يصيَّر الاثنان واحدًا، فيقال قبل الاتحاد كان اللَّاهوت جوهرًا، والناسوت جوهرًا آخر، وإن شئت قلت: كان هذا شيئًا، وهذا شيئًا، أو هذا عينًا قائمةً بنفسها، وهذا عينًا قائمةً بنفسها، فبعد الاتحاد إما أن يكونا اثنين كما كانا أو صار الاثنان واحدًا، فإن كانا اثنين كما كانا فلا اتِّحاد، بل هما متعدِّدان كما كانا متعدِّدَين، وإن كانا قد صارا شيئًا واحدًا، فإن كان هذا الواحد هو أحدَهما، فالآخر قد عُدِم، وهذا عَدَمٌ لأحدهما لا اتِّحاده، وإن كان هذا الذي صار واحدًا ليس هو أحدَهما، فلا بد من تغييرِهِما واستحالتِهما، وإلا فلو كانا بعد الاتِّحاد اثنين باقيين بصفاتهما لم يكن هناك اتحاد.

فإذا قيل: «اتحد اتحادًا بريًّا من اختلاطٍ أو تغيُّرٍ أو استحالة» كان هذا كلامًا متناقضًا، ينقضُ بعضُه بعضًا؛ فإن هذا إنما يكون مع التَّعدُّد والمباينة لا مع الاتِّحاد.

يوضِّح ذلك: أنه إذا اتَّحد الماء واللبن، أو الماء والخمر، ونحو ذلك، كان الحاصل من اتِّحادهما شيئًا ثالثًا ليس ماءً محضًا ولا لبنًا محضًا، بل هو نوعٌ ثالث، وكلٌّ من الماء واللَّبن قد استحال وتغيَّر واختلط، وأما اتِّحادٌ بدون ذلك فغير معقول.

ولهذا عَظُم اضطراب النَّصارىٰ في هذا الموضع وكُثَر اختلافهم وصار كل



منهم يَرُدُّ علىٰ الآخر ما يقوله، ويقول هو قولًا يكون مردودًا، فكانت أقوالهم كلُّها باطلةً مردودة؛ إذ كانوا قد اشتركوا في أصل فاسدٍ يستلزم أحدَ أمورٍ كلُّها باطلة، فأيُّ شيءٍ أُخِذ من تلك اللَّوازم كان باطلًا، ولا بدَّ له منها، فيأخذ هذا بعضَ اللَّوازم فيردُّه الآخَرُ، ويأخذ الآخَرُ لازمًا آخر فيرُدُّه الآخر.

وهذا شأن جميع المقالات الباطلة، إذا اشترك فيها طائفةٌ لزمها لوازمُ باطلة، وفساد اللَّازم يدلُّ علىٰ فساد الملزوم، فإنه إذا تحقَّق الملزوم تحقَّق اللازم، وإذا انتفىٰ اللَّازم انتفىٰ الملزوم.

وهذا يتبيَّن **بالوجه الرابع** وهو أن يقال: كثيرٌ من النَّصارىٰ يقول: إنهما بعد الاتِّحاد جوهرٌ واحد، وطبيعةٌ واحدة، ومشيئةٌ واحدة.

وهذا القول يُضاف إلىٰ اليعْقُوبِيَّة.

ويقولون: إن اللَّاهوت والناسوت اختلطا وامتزجا، كما يختلط الماء واللَّبن، والماء والخمر، وهذا القول هو حقيقة الاتِّحاد، لا يُعقل الاتِّحاد إلا هكذا، لكنَّ فسادَه ظاهرٌ لعقول الناس، فإذا كان هذا لازمًا لقول النَّصارىٰ وفساده ظاهرٌ، كان فساد اللازم يدلُّ علىٰ فساد الملزوم، فإن حقيقة هذا القولِ أن الذي كان يأكل ويشرب، ويبول ويتغوَّط، والذي ضُرب وبُصق في وجهه، ووُضِع الشَّوكُ علىٰ رأسه هو ربُّ العالمين.

ونفس تصَوُّرِ هذا القول ممَّا يوجب العلم ببطلانه، وتنزيهِ الله عن ذلك، وأن قائله من أعظم المفترين علىٰ الله، قال تعالىٰ: ﴿وَقَالُوا۟ ٱتَّخَذَ ٱلرَّحْمَٰنُ وَلَدًا ﴿٨٨﴾ لَّقَدْ جِئْتُمْ شَيْـًٔا إِدًّا ﴿٨٩﴾ تَكَادُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ ٱلْأَرْضُ وَتَخِرُّ ٱلْجِبَالُ هَدًّا ﴿٩٠﴾ أَن دَعَوْا۟ لِلرَّحْمَٰنِ وَلَدًا ﴿٩١﴾ وَمَا يَنۢبَغِى لِلرَّحْمَٰنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا ﴿٩٢﴾ إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴿٩٣﴾ لَّقَدْ أَحْصَىٰهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا

﴿٩٤﴾ وَكُلُّهُمْ ءَاتِيهِ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٨٨-٩٥].

الوجه الخامس: قولهم: «وخاطب الناس كما خاطب الله موسىٰ من العَوْسَجة» يوجِبُ أن يكون الذين كلَّمهم المسيح ممَّن آمن به وكفر به، بمنزلة[١] موسىٰ بن عمران الذي كلمه الله تكليمًا.

ومعلومٌ أن تكليم الله لموسىٰ ﷺ مما فضَّله به علىٰ غيره من النَّبيِّين، فإن كان آحاد الناس بمنزلة موسىٰ بن عمران لزم أن يكون كلٌّ من آحاد الناس في ذلك بمنزلة موسىٰ بن عمران، وهذا مما يُعْلَم فسادُه بالاضطرار من دين الرُّسل.

الوجْهُ السَّادس: أنه من المعلوم أن خطاب الله لأنبيائه ورسله أفضلُ من خطابه لمن ليس بنبيٍّ ولا رسول، والمسيح عليه السلام لم يكلِّم عامَّة النَّبيِّين والمرسلين، بل لم يكلِّم إلا ناسًا منهم من آمن به، ومنهم من كفر.

والتَّحقيق أنه لم يكلِّم أحدًا من رسل الله، ولكنَّ النَّصارىٰ يزعمون أن الحواريِّين رسل الله، وهذا باطل، ولو سُلِّم فلم يكلِّم إلا اثني عشر رسولًا، وقد بعث الله قبله رسلًا كثيرين، قد روي في حديث أبي ذرٍّ أن عِدَّتهم ثلاثُمِائةٍ وثلاثةَ عشر[٢].

وقد قال الله في القرآن: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّـٰغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَـٰلَةُ﴾ [النحل: ٣٦] وقال تعالىٰ: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤].

---

(١) (ع، ط.النيل)

(٢) تقدم تخريجه (١/ ٤١٧).

وفي الحديث الذي في المسند[1]، عن بهز بن حكيم، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ أنه قال: «**أَنتُمْ تُوفُونَ سَبْعِينَ أُمَّةً، أَنتُمْ خَيْرُهَا وأَكْرَمُهَا علَىٰ اللهِ عزَّوجَلَّ**» وهذه السَّبعون سواء كانت هي التي هداها أو هي الجميع، فإنه يدُلُّ علىٰ كثرة الرُّسل، ولم يكلِّم الله أحدًا من هؤلاء من بشرٍ حلَّ فيه، فلو كان المكلِّم[2] للناس في عيسىٰ هو الله، لكان تكليمُ الله للذين كلَّمهم عيسىٰ من الكفار والمؤمنين أكملَ من تكليمه رسلَ الله الذين أرسلهم.

الوجْه السّابع: أن النَّاسوت ناسوتُ المسيح هو من جنس سائر النَّواسيت، والإنسانُ لا يستطيع أن يرىٰ الله في الدنيا كما أخبر بذلك موسىٰ وعيسىٰ ومحمَّدٌ ﷺ، فإذا لم يستطع أن يراه كان أن لا يستطيع الاتصالَ به ومماسَّتَه فضلًا عن الاتِّحاد به أولىٰ وأحرىٰ.

الوجْه الثَّامن: أن الله لما كلَّم موسىٰ عليه السلام من الشَّجرة، كان الكلام المسموع مخالفًا لما يُسْمَعُ من كلام الناس، ولهذا لم تُطِقْ بنو إسرائيل سماعَ ذلك الصَّوت، بل قالوا لموسىٰ: صِفْ لنا ذلك، وهذا عندهم في التَّوراة. كما روىٰ الخلال في كتاب «السُّنَّة»[3]، عن أحمدَ بنِ حنبل، فيما رواه من حديث الزهريّ، قال: «**لمَّا سمِع مُوسَىٰ كَلامَ اللهِ قالَ: يَا رَبِّ هذا الذي أسمعُ**[4] **هو كلامُكَ؟ قال: نعَم يا مُوسَىٰ، هو كَلامِي، وإنَّمَا كلمْتُكَ بِقُوَّةِ عشْرةِ آلافِ لسَان،**

---

(١) تقدم تخريجه (١/ ٤١٧).

(٢) (د، ي): «المتكلم». وقد سقطت من (ع).

(٣) لم أجده في المطبوع من الكتاب. وقد أخرج نحوه حرب في «السنة» (٤١١) مرفوعا من حديث جابر رضي الله عنه ولا يصح، وأخرجه الدارمي في «الرد علىٰ الجهمية» (ص١٧٨)، وعبدالله بن أحمد في «السنة» (٥٢٦) من قول كعب الأحبار.

(٤) (ي): «أسمعه»، (ع): «سمعته»، والكلمة مطموسة في (د).

وَلِي قُوَّةُ الأَلْسُنِ كُلِّها، وأنا أقْوَىٰ مِنْ ذلِكَ، وإِنَّمَا كَلَّمْتُكَ علىٰ قَدْرِ ما يُطِيقُ بدَنُك، ولَوْ كلَّمْتُك بأكْثَرَ مِنْ هَذَا لمِتَّ، فلمَّا رجَعَ مُوسَىٰ إلىٰ قَوْمِه قَالُوا لَهُ: صِفْ لنَا كَلامَ رَبِّك. فقالَ: سُبْحَانَ اللهِ، وهَلْ أستَطِيعُ أنْ أصِفَهُ لَكُمْ؟ قالَوا: فَشَبِّهْهُ لنَا. قالَ: هَلْ سَمِعْتُمْ أصْوَاتَ الصَّوَاعِقِ التِي تُقْبِلُ في أحْلَىٰ حَلاوَةٍ سَمِعْتُمُوهَا، فَكَأَنَّه مِثْلُهُ».

وأما المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ فكان كلُّ أحدٍ يسمع صوتَه كصوت سائر الناس، لم يتميَّز عنهم بما يوجِب أن يكونوا سمعوا كلام الله كما سمعه موسىٰ بن عمران.

الوجه التاسع: أن الجنِّيَّ إذا حلَّ في الإنسيِّ، كما يحُلُّ في المصروع ويتكلَّم علىٰ لسانه، فإنه يتغيَّر الكلام، ويعرف الحاضرون أنه ليس هو كلامَ الإنسيِّ، مع أنه يتكلَّم بلسان الإنسيِّ، وحركة أعضائه، فَيَعْلَمُ أن الصَّوت حصل بحركة بدن الإنسيّ، مع العلم بأنه قد تغيَّر تغيُّرًا خالف به المعهودَ من كلام الإنسيّ، والإنسان الذي حلّ فيه الجنِّيُّ يغيبُ عقلُه، ولا يشعر بما تكلَّم الجِنِّيُّ علىٰ لسانه.

فربُّ العالمين سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ لو حلَّ في بشرٍ، واتَّحد به، وتكلَّم بكلامه، وكان الكلامُ المسموعُ كلامَ الله المسموعَ منه، لكان يظهر من الفرق بين ذلك وبين المعهود من كلام الإنسيِّ ما هو في غاية الظُّهور، وكان يتغيَّر حالُ الإنسيِّ غايةَ التغيُّر؛ فإنَّ الربَّ عَزَّ وَجَلَّ لما تجلَّىٰ للجبل جعله دكًّا، وخرَّ موسىٰ صعقًا، فإذا كان البدن[1] الإنسيُّ لا يثبت لتجلِّيه للجبل، فكيف يثبت لحلوله فيه، وتكلُّمه[2] علىٰ لسانه من غير تغيُّرٍ في البدن؟

---

(١) (و، ي): «بدن».

(٢) (د، ع، ط.النيل): «ويكلمه».

وقد كان الوحي والملائكة إذا نزلت علىٰ الأنبياء في باطنهم يظهر التغيُّر في أبدانهم، فكان النبي ﷺ إذا نزل عليه الوحي ثَقُل حتىٰ يَبْرُكَ به البعير[1]. وإن كان فخذه علىٰ فخِذ أحدٍ ثَقُل حتىٰ كاد يَرُضُّه[2].

وفي «الصَّحيحين»[3] عن عائشة، أن الحارث بنَ هشام[4] قال: يا رسول الله، كيف يأتيك الوحي؟ قال: «**أَحْيَانًا يأتِيني في مِثْلِ صَلْصَلَةِ الجَرَسِ، وهو أشَدُّه عليَّ، فَيُفْصَم عنِّي وقد وعَيْتُ ما قال، وأحيانًا يتمَثَّلُ ليَ المَلَكُ رجُلًا فيُكَلِّمُني فأعِي ما يَقُول**». قالت عائشة: «ولقد رأيته ينزل عليه في اليوم الشَّديد البرد فَيَفْصِم عنه، وإن جبينَه ليتفصَّد عرقًا».

وموسىٰ عليه السلام لما سمع كلام الله مَقَتَ الآدميين؛ لِما وقر في سمعه من كلام الله، وكان النُّور يظهر علىٰ وجهه حتىٰ كان يتبَرْقَع.

والمسيح عند النَّصارىٰ قد اتَّحد به اللَّاهوت من حين عَلِقَتْ به مريم، ولم يزل متَّحدًا به وهو حملٌ في بطنها، يعظُم اتِّحادُه به كلَّما كَبُر، ثم كذلك كان متَّحدًا به وهو صبيٌّ إلىٰ أن رُفع إلىٰ السماء وقعد عن يمين أبيه، وهو متَّحدٌ به عندهم، واللَّاهوت والنَّاسوت جميعًا، ومع هذا لم يتغيَّر بدن المسيح تغيُّرًا يناسب ذلك، ولا ظهر من الأنوار ما يناسب ذلك، بل عندهم أن المسيح قبل أن يُعَمِّدَه «يوحنا» ويرىٰ شِبْهَ الحمامة نازلًا عليه، لم يُظْهِر الآيات، بل كان

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده» (٢٤٨٦٨)، والحاكم في «مستدركه» (٣٨٦٥) عن عائشة رضي الله عنها. وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرّجاه». ووافقه الذهبي.

(٢) أخرجه البخاري (٤٥٩٢) عن زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٣) البخاري (٢) مسلم (٢٣٣٣).

(٤) هو ابن المغيرة، القرشي، من مسلمة الفتح، ثم حسن إسلامه، ولم يزل مجاهدًا حتىٰ أصابته الشهادة يوم اليرموك. انظر: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم (٢/ ٧٦٢).

كآحاد الناس، وأول ما ظهر من الآيات قَلْبُ الماء خمرًا.

وموسىٰ عَلَيْهِ السَّلَامُ بمجرَّد ما سمع الكلام ظهر عليه النور، وأين سَمْعُ الكلام من[1] الاتِّحاد به؟

وموسىٰ لما سمع الكلام، وكلَّمه الله من الشَّجرة، نزلت الملائكة، وظهر[2] من آيات الله وعظمته ما يناسب تكليم الله عَزَّوَجَلَّ.

والربُّ دائمًا عند النَّصارىٰ متَّحِدٌ ببدن المسيح، ولم يُظهِرْ من آيات الربوبيَّة والعظمة إلا ما يظهر أكثر منه لبعض الأنبياء.

الوجه العاشر: أن المخاطِب للنّاس إن كان هو مجموعَ اللَّاهوت والنَّاسوت فكلامه صريحٌ في أنه مخلوقٌ مربوبٌ، يدعو ويسأل، والمجموع ليس بمخلوقٍ يسأل اللهَ ويعبُدُه.

وإن كان هو اللَّاهوت وحده كما يقتضيه كلامهم هذا فهو أبعد وأبعد، وإن كان هو النَّاسوتَ وحدَه فلم يكن اللَّاهوت مخاطِبًا للناس، ولم يكلِّم الله الناس من النَّاسوت كما كلم الله موسىٰ من الشجرة.

وأيضًا فلم يكن فرقٌ بين حقيقة كلام النَّاسوت وكلام اللَّاهوت.

وكلام المسيح الصَّريحُ في أنه مخلوقٌ= كثيرٌ، وهم يُقِرُّون به، لكن يقولون ذلك كلام النَّاسوت. فيقال لهم حينئذٍ: فالمخاطِب للنَّاس هو الناسوت دون اللَّاهوت، وأنتم قلتم: إن الله خاطب الخلق من بدن المسيح كما خاطب موسىٰ من الشجرة.

والخطاب الذي سمعه موسىٰ من الشَّجرة هو كلُّه كلام اللَّاهوت،

---

(١) (و، د، ع): «إلىٰ»، (ي): «إلا للاتحاد به» والمثبت من (المطبوعتين) وهو أوفق للسياق.

(٢) بعدها في (المطبوعتين): «له».

والكلام الذي كان يُسْمَع من المسيح ليس فيه شيءٌ يختصُّ باللَّاهوت، بل عامَّتُه صريحٌ في أنه كلام الناسوت.

الوجه الحادي عشر: أن الله لمَّا كلَّم موسىٰ من الشَّجرة كان الكلامُ كلامَ الله وحده، لم يكن للشَّجرة كلامٌ أصلًا[1] بوجهٍ من الوجوه، فإن كان هذا المثل مطابقًا كان الذي يكلِّم الناس من ناسوت المسيح هو اللاهوتَ وحده.

ومعلومٌ أن في الإنجيل وغيره من النُّصوص الصَّريحة ما يدلُّ علىٰ أن النَّاسوت كان هو المتكلِّم ما يُبيِّنُ الفرقَ الواضح بين هذا وهذا.

الوجه الثاني عشر: أن الذي نادىٰ موسىٰ من الشَّجرة لم يتكلَّم إلا بكلام الرُّبوبيَّة فقال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠]، ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِي وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِيٓ ۝١٤ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسِۭ بِمَا تَسْعَىٰ ۝١٥ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ﴾ [طه: ١٤ - ١٦].

وسائر ما تكلَّم به كلُّه يقتضي أنه كلامُ ربِّ العالمين، وأما المتكلِّم علىٰ لسان المسيح فلم يقل كلمةً من هذا أصلًا، بل كان في كلامه من الإقرار بأنه رسول، وأنه[2] محتاجٌ، وأنه ابن البشر، وغيرُ ذلك ما يناقض من كل وجهٍ كلامَ المنادي لموسىٰ من الشَّجرة، فمن سوَّىٰ بين هذا وهذا كان قد سوَّىٰ بين رب العالمين وبين إنسانٍ من الآدميِّين، وهو أضلُّ من الذين قال الله فيهم: ﴿تَٱللَّهِ إِن كُنَّا لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٩٧ إِذْ نُسَوِّيكُم بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الشعراء: ٩٧ - ٩٨].

---

(١) (ي): «أظهر».

(٢) بعدها في (المطبوعتين): «مخلوق». وضرب عليها في (و).

فإن أولئك جعلوهم أندادًا لله في بعض الأمور مع اعترافهم بأنهم مخلوقون، وهؤلاء الضُّلَّالُ جعلوا هذا الإنسان الذي يتكلَّم هو ربُّ العالمين الذي كلَّم موسىٰ من الشجرة، وقالوا: إن هذا الذي كلَّم العباد هو ذاك الذي نادىٰ موسىٰ من الشجرة.

الوجه الثَّالث عشر: أن يقال: معلومٌ أن الله أجلُّ وأعظمُ وأكبرُ من رسله بما لا يقدر المخلوقُ قَدْرَه، فلو كان هو الذي كلَّم الخلق علىٰ لسان المسيح، وكان الحواريُّون رسلَه الذين سمعوا كلامه منه بلا واسطة، لكان الحواريُّون إما مثل موسىٰ وإما أعظم.

ومعلومٌ أن المسيح نفسه لم تكن له آياتٌ مثل آياتِ موسىٰ فضلًا عن الحواريِّين، فإن أعظمَ آيات المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ إحياءُ الموتىٰ، وهذه الآية[1] قد شاركه فيها غيرُه من الأنبياء كإلياسَ وغيرِه.

وأهل الكتاب عندهم في كتبهم أن غيرَ المسيح أحيا الله علىٰ يديه الموتىٰ، وموسىٰ بن عمران من جملة آياته العصا التي انقلبت فصارت ثعبانًا مبينًا حتىٰ بلعت[2] الحبال والعِصيَّ التي للسَّحرة، وكان غيرَ مرَّةٍ يلقيها فتصير ثعبانًا، ثم يُمْسِكُها فتعود عصًا.

ومعلوم أن هذه آيةٌ لم تكن لغيره، وهي أعظم من إحياء الموتىٰ، فإن الإنسان إذا[3] كانت فيه الحياة، فإذا عاش فقد عاد إلىٰ مثل حاله الأول، والله تعالىٰ يحيي الموتىٰ بإقامتهم من قبورهم، وقد أحيا غير واحدٍ من الموتىٰ في الدنيا.

---

(١) (و، د، ي): «الأمور».

(٢) (ي): «بلغت».

(٣) «إذا» ليست في (ي).

وأما أن[1] خشبةً تصير حيوانًا، ثم تعود خشبةً مرةً بعد مرة، وتبتَلِع الحبال والعصِيّ، فهذا أعجب من حياة الميت.

وأيضًا فالله قد أخبر أنه أحيا من الموتىٰ علىٰ يد موسىٰ وغيره من أنبياء بني إسرائيل أعظمَ مِمَّن أحياهم علىٰ يد المسيح، قال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [البقرة: ٥٥ - ٥٦]، وقال تعالىٰ: ﴿فَقُلْنَا ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا ۚ كَذَٰلِكَ يُحْىِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [البقرة: ٧٣]، وقال تعالىٰ: ﴿۞ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ خَرَجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ ٱللَّهُ مُوتُوا۟ ثُمَّ أَحْيَٰهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣].

وأيضًا فموسىٰ ﷺ كان يُخْرِج يده بيضاءَ من غير سوءٍ، وهذا أعظمُ من إبراء[2] أثر[3] البرص الذي فعله المسيح عليه السلام، فإن البَرَص مرضٌ معتاد، وإنما العجب الإبراءُ منه، وأما بياضُ اليد من غير برصٍ[4] ثم عَوْدُها إلىٰ حالها الأوَّل ففيه أمران عجيبان لا يُعْرف لهما نظير.

وأيضًا فموسىٰ فلق[5] الله له البحر حتىٰ عَبَرَ فيه بنو إسرائيل، وغرِق فيه فرعون وجنودُه، وهذا أمرٌ باهرٌ، فيه من عظمة هذه الآية، ومن إهلاك الله لعدوِّ موسىٰ ما لم يكن مثلُه للمسيح.

---

(١) (د، ط.النيل): «انقلاب»، (ع): «كونها».
(٢) ضرب عليها في (د) وليست في (ع).
(٣) «أثر» ساقطة من (د).
(٤) (و، ي، ع): «مرض».
(٥) (د، ع): «فرق».

وأيضًا فموسىٰ كان الله يطعمُهم علىٰ يده المنَّ والسَّلوىٰ مع كثرة بني إسرائيل، ويُفَجِّر لهم بضربه للحجر كلَّ يومٍ اثنَي عشَر عينًا يكفيهم.

وهذا أعظم من إنزال المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ للمائدة، ومِن قَلْبِ الماء خمرًا، ونحو ذلك مما يُحْكَىٰ عنه صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وكان لموسىٰ في عدوِّه من القمل، والضَّفادع، والدم، وسائر الآيات ما لَمْ يكن مثلُه للمسيح، فلو كان الحواريُّون رسلًا قد كلَّمهم الله مثلَ ما كلَّم موسىٰ من الشَّجرة كانوا مثلَ موسىٰ؛ فكيف والمسيحُ نفسه لم يكن له آياتٌ مثلَ آيات موسىٰ.

ولو كان المسيحُ اللَّاهوتُ الذي كلَّم موسىٰ لكان يُظْهِر من قدرته أعظم مما أظهره علىٰ يد موسىٰ، فإنه لم يَحُلَّ في بدن موسىٰ، ولا كان اللَّاهوت يكلِّم الخلق من موسىٰ، كما يزعمه هؤلاء في المسيح، ومع هذا فالآيات التي أَيَّدَ بها عبده موسىٰ تلك الآيات العظيمة، فكيف تكون آياتُه إذا كان هو نفسَه الذي قد حلَّ في بدن المسيح، وهو الذي يخاطِب الناس علىٰ لسان المسيح؟

الوجه الرابع عشر: أن يقال: إن قولهم: «إن الله خاطب الناس في المسيح كما خاطب موسىٰ النَّبِيَّ من العَوْسَجَة» من أبطل الباطل؛ فإن الله باتِّفاق الأمم كلِّها لم يحُلَّ في الشجرة ولم يتحد بها، كما يزعمون هم أنه حلَّ بالمسيح واتَّحد به، فإنه عندهم حلَّ بباطن المسيح، بل وبظاهره، واتَّحد به باطنًا وظاهرًا، والربُّ تعالىٰ لم يكن في باطن الشَّجرة، ولا حلَّ فيها، ولا اتَّحد بها.

وقول الله: إنه كلَّمه منها، وناداه منها كقوله إنه: نودي من شاطئ الواد الأيمن، وذلك مثل قوله: ﴿هَلْ أَتَىٰكَ حَدِيثُ مُوسَىٰٓ ﴿١٥﴾ إِذْ نَادَىٰهُ رَبُّهُۥ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى﴾

[النازعات: ١٥ - ١٦]، وفي البقعة المباركة، ونحو ذلك، وليس في شيءٍ من ذلك أن الربَّ تعالىٰ حلَّ في باطن الوادي المقدس، أو البقعةِ المباركة، أو الجانب الأيمن، ولا أنه اتَّحد بشيءٍ من ذلك، ولا صار هو وشيءٌ من ذلك جوهرًا واحدًا، ولا شخصًا واحدًا، كما يقول بعض النَّصارىٰ: إن اللَّاهوت والنَّاسوت صارا جوهرًا واحدًا، وبعضهم يقول: صارا شخصًا واحدًا.

بل ولا قال أحدٌ: إنه حلَّ في شيء من ذلك كحُلُول الماء في اللبن، أو النَّار في الحديد، كما يقول بعضهم: إن اللَّاهوت حلَّ في النَّاسوت.

كذلك ولو قُدِّر أن بعض الناس قال شيئًا من المقالات التي لا تدلُّ عليها الكتب الإلهيَّةُ، ولا تُعْلَم بالعقل، لم يكن قولُه حجة؛ إذ لا يُحْتَجُّ إلا بنقلٍ ثابت عن الأنبياء، أو بما يُعلم بالعقل.

الوجه الخامس عشر: أن الذي كلَّم موسىٰ وناداه هو الله رب العالمين، وتكليمُه له من الشجرة من جنس ما أخبر بنُزُوله إلىٰ السماء الدُّنيا، ونزوله يوم القيامة لحساب الخلق، والكلامُ علىٰ ذلك مبسوطٌ في غير هذا الموضع[1].

وأما حلوله في البشر، أو اتِّحادُه به، فيمتنع من وجوهٍ كثيرةٍ عقلًا وسمعًا، مع أنه لم يُخْبِر به نَبِيٌّ.

وما تقوله النَّصارىٰ في غاية التَّناقض؛ فإنهم يزعمون أن المسيح هو الكلمة، وهو الخالق؛ لأن الكلمة والذَّاتَ شيءٌ واحد، فلا يفرِّقون بين الصِّفة والموصوف، ثم يقولون: المتَّحد بالمسيح هو الكلمةُ دون الذَّات التي يُسَمُّونها الأب، ويقولون مع ذلك: إنه لم يتبعَّض، ولم يتجزأ.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٥/ ٢٤٣، ٣٧٤)، (١٧/ ٣٥٠).



ومعلومٌ بصريح العقل أن الكلمة التي هي الصِّفة لا يمكن مفارقتها للموصوف، فلا تَتَّحد وتحُلُّ دون الموصوف، لا سيَّما والمتَّحدُ الحالُّ عندهم هو الخالق، فيجب أن يكون هو الأب، وهم لا يقولون: المتَّحدُ الحالُّ هو الأب، بل هو الابن، وإذا قالوا: إن الابن هو المتَّحد الحالُّ دون الأب، فالمُتَّحد ليس هو الذي ما اتَّحد، والابن اتَّحد، والأب ما اتَّحد.

ويقولون: إن المتَّحد اتخذ عيسىٰ حجابًا احتجب به، ومسكنًا يسكن فيه، خاطب الناس فيه، ويقولون مع ذلك: إنه اتَّحد به، والأب لم يحتجب به، ولم يسكن فيه، ولم يتَّحد به، فلزم قطعًا أن يكون منه شيءٌ اتَّحد، ومنه شيءٌ لم يتَّحد، فالأب لم يتَّحد، والابن اتَّحد، وهذا يناقض قولهم: «لم يتبعَّض» ويُبْطِلُ تمثيلَهم بالمخاطِب من الشجرة، فإنّ ذاك هو الله ربُّ العالمين، ليس هو الابن دون الأب، مع ما ذُكِرَ مِنَ الفروق الكثيرة البيِّنة التي تبين بطلان تمثيل هذا بهذا.

الوجه السَّادس عشر: أن الرَّبَّ ﷻ إذا تكلَّم تكلَّم بكلام الرُّبوبيَّة، فلو كان في[1] المسيح اللَّاهوتُ الذي أَرْسَل موسىٰ وغيرَه= لم يخضع لموسىٰ ولتوراته، ويذكر أنه إنما جاء ليُكْمِلَها لا لينْقُضَها[2]، ولا كان يقوم بشرائعها، فإن ربَّ العالمين أعظمُ وأجلُّ من ذلك، بل لو كان ملَكًا من الملائكة لم يفعل مثل ذلك، فكيف بربِّ العالمين؟

وإذا قالت النَّصارىٰ: فَعَل ذلك خوفًا من بني إسرائيل، أو خوفًا أن يُكَذِّبوه، كان عذْرُهم أقبح من ذنبهم، فربُّ العالمين مِمَّن يَخافُ ﷻ؟!

وموسىٰ لمَّا كان فرعون يُكَذِّبُه، كان يُظْهِر من الآيات ما يُذِلُّ بها فرعونَ

---

(١) «في» ليست في (ي).

(٢) (د، ع، ط.النيل): «لينقصها».

وقومَه، مع عُتُوِّه وعتوِّ قومِه، ولم تكن بنو إسرائيل أعتىٰ من فرعونَ وقومِه، فلو كان هو ربَّ العالمين، كان ما يؤيِّد به نفْسَه من الآيات أعظمَ ممَّا يُؤَيِّد به عبدَه موسىٰ.

ومن عجائب النَّصارىٰ أنهم يدَّعون فيه الإلهيَّة مع ادعائهم فيه غايةَ العجز حتىٰ صُلِب.

وأما المسلمون فيقولون: هو رسولٌ مؤيَّد، لم يُصْلَب، وهذه سنَّته سبحانه في رسله، فإنه يُؤَيِّدُهم وينصُرُهم علىٰ عدوِّهم، كما نصر نوحًا وإبراهيم ومحمَّدًا صلوات الله عليهم وسلامه، فإذا كان لا يجوز أن يكون رسولًا مغلوبًا، فكيف يكون ربًّا مغلوبًا[1] مصْلُوبًا؟!

الوجه السَّابع عشر: قولهم: فَعَلَ المعجز بلاهوته، وأَظْهر العجز بناسوته.

فيقال لهم: إن الله فَعَلَ من المعجزات ما هو أعظم من المعجزات التي ظهرت علىٰ يد المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ ولم يكن متَّحدًا بشيءٍ من البشر، فأيُّ ضرورةٍ له إلىٰ أن يتَّحِد بالبشر إذا فعل معجزاتٍ دون ذلك؟!

الوجه الثامن عشر: أن المسيح ظهرت علىٰ يديه معجزاتٌ كما ظهر لسائر المرسلين، ومعجزاتُ بعضهم أعظمُ من معجزاته، ومع هذا فلم تكن المعجزات دليلًا علىٰ اتِّحاد اللَّاهوت بالنَّبيِّ الذي[2] ظهرت علىٰ يديه، فَعُلم أن الاستدلال بظهور المعجزات علىٰ يديه في غاية الفساد.

الوجه التاسع عشر: أن اللَّاهوت إن كان متَّحدًا بالنَّاسوت لم يتميز فعله عن فعل النَّاسوت؛ فإنهما إذا صارا شيئًا واحدًا كان كلَّ ما فعله من عجزٍ ومعجزٍ هو ذلك الواحد، كالأمثال التي يضربونها لله سبحانه، فإنهم يمثِّلون ذلك بالنَّار

---

(١) «مغلوبًا» ليست في (د، ع، ط.النيل).

(٢) (ي): « بالشيء التي» بدل: «بالنبي الذي».

مع الحديد، والماء مع اللَّبن والخمر.

ومعلومٌ أن الحديدة إذا أُدْخِلت[1] النَّارَ حتىٰ[2] صارت بيضاء كالنَّارِ البيضاء، فَفِعْلُها فعلٌ واحد، ليس لها فِعْلانِ متميِّزان: أحدُهُما بالحديد، والآخَر بالنَّار، بل فيها قُوَّةُ الحَدِيدِ وقُوَّةُ النَّار، بل فيها قوَّةٌ ثالثةٌ ليست قوَّة الحديد ولا قوَّة النَّار؛ إذ ليست حديدًا محضًا ولا نارًا محضة.

وكذلك الماء إذا اختلط باللَّبن والخمر، فالمتَّحد منهما شيءٌ واحد، فِعْلُه فِعْلٌ واحد منه، ليس ماءً محضًا ولا لبنًا محضًا، لا يقول عاقل: إن له فِعْلَيْنِ يتميَّزُ أحدُهما عن الآخر، فِعْلٌ بكونه لبنًا محضًا، وفعلٌ[3] بكونه ماءً محضًا.

فقولهم بالاتحاد يوجب استحالة اللَّاهوت بالنَّاسوت، وأن يصير فِعْلُ المتَّحِد شيئًا واحدًا.

وإن كان اللَّاهوت لم يتَّحِد به فهما اثنان شخصان، وجوهران[4]، وطبيعتان، ومشيئتان، وليس هذا دينُ النَّصارىٰ، مع أن حلولَ الرَّبِّ ﷻ في البشر ممتنع، كما قد بُسط في موضعٍ آخر[5].

وكذلك إذا مثَّلوه بالنَّفس مع البدن؛ فإن النفْس تتغيَّر صفاتها بمفارقة البدن، وكذلك البدن تتغيَّر صفاته بمفارقة[6] الرُّوح له.

---

(١) (و، ي): «دخلت».

(٢) «حتىٰ» ساقطة من (ي).

(٣) (ع، ط.النيل): «فعلًا» بالنصب، وكذا الموضع الذي قبله، (د): الموضع الثاني فقط.

(٤) (د، ع، ط.النيل): «جوهران» بلا «واو».

(٥) «كما قد بسط في موضع آخر» ليس في (د، ع، ط.النيل). وانظر كلام المصنف علىٰ هذه المسألة في «مجموع الفتاوىٰ» (٢/ ٣٨٧).

(٦) (و، ي): «بمقارنة» هذا الموضع والذي قبله.

والإنسان الذي نُفِخَت فيه الرُّوح فصارت بدنًا فيه الرُّوح هو نوعٌ ثالث، ليس فيه بدنٌ محضٌ وروحٌ محض، حتىٰ يقال: إنه يفعل كذا ببدنه، وكذا بنفسه، بل أفعالُه تشترك فيها الرُّوح، فهو إذا أكل وشرِب فالرُّوح تَتَلذَّذ بالأكل والشُّرب، وبها صار آكلًا شاربًا، وإلا فالبدن المَيِّتُ لا يأكلُ ولا يشرب، وإذا نظر واستدلَّ وسمِع ورأىٰ وتعلَّم[1]، فالنَّفْس فعلت ذلك بالبدن، والبدنُ يظهر فيه ذلك، والرُّوح وحدها لا تفعلُ ذلك، وعندهم أن فعل[2] اللَّاهوت بعد الاتِّحاد كفعله قبله، وكذلك فِعْل النَّاسوت، وهذا يناقض الاتحاد.

والقول بهذا مع الاتِّحاد في غاية التَّناقُض والفساد، ولا يُعقل نظيرُ هذا في شيءٍ من الموجودات، ونفسُ المتكلِّم بهذا من النَّصارىٰ لا يتصوَّر ما يقول، ولا يمكنه أن يُمَثِّلَه بشيءٍ معقول[3].

---

(١) (و، ي): «وتعلم، سمع ورأىٰ» بدل: «وسمع ورأىٰ وتعلم».
(٢) بعدها في (د، ع، ط.النيل): «هو فعل» والظاهر أنه حشو.
(٣) هنا نهاية نسختي: (و، ي). وتبدأ بعدها نسخة مكتبة «ليدن» وسيرمز لها بحرف (ل). وهي مكمّلة لنسخة (و) كما سبق شرحه في وصف النسخ الخطية من مقدمة الكتاب.

فصـل

قالوا: «وقد جاء في هذا الكتاب الذي جاء به هذا الإنسان يقول: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

وهذا يوافق قولَنا؛ إذ قد شهد(١) أنه إنسانٌ مثلُنا، أي(٢) بالنَّاسوت الذي أُخِذ من مريم، وكلمةِ الله وروحِه المتَّحدةِ فيه، وحاشا أن تكون كلمةُ الله وروحُه الخالقة مثلَنا نحن المخلوقين، وأيضًا قال في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]، فأشار بهذا القول إلىٰ اللَّاهوت الذي هو كلمة الله التي لم يَدْخل عليها ألم ولا عَرَضٌ، وقال أيضًا: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [آل عمران: ٥٥].

وقال في سورة المائدة عن عيسىٰ أنه قال: ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٧].

فأعنىٰ(٣) بموته عن موت النَّاسوت الذي أُخِذ من مريم العذراء.

وقال أيضًا في سورة النساء: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾ [النساء: ١٥٧-١٥٨].

---

(١) (ل): «يشهد».

(٢) «أي» ليست في (ل).

(٣) تقدّم التنبيه علىٰ هذه الكلمة (١/ ٤١٢).

فأشار بهذا إلىٰ اللَّاهوت الذي هو كلمةُ الله الخالقة[1]، وعلىٰ هذا القياس نقول: إن المسيح صُلِب، وتألَّم بناسوته، ولم يصلب، ولا تألَّم بلاهوته».

والجواب من وجوه:

أحدها: أن يقال: دعواهم علىٰ محمدٍ ﷺ أنه أثبت في المسيح اللَّاهوت والنَّاسوت كما يزعمه هؤلاء النَّصارىٰ فيه هو من الكذب الواضح المعلوم علىٰ محمدٍ ﷺ الذي يُعْلَم من دينه بالاضطرار، كما يُعلم من دينه تصديقُ المسيح عليه السلام وإثباتُ رسالته، فلو ادَّعىٰ اليهوديُّ علىٰ محمَّدٍ ﷺ أنه كان يُكَذِّبُ المسيح ويجحدُ رسالته، كان كدعوىٰ النَّصارىٰ عليه أنه كان يقول: إنه ربُّ العالمين، وإن اللَّاهوت اتَّحد بالنَّاسوت، ومحمّدٌ ﷺ قد أخبر فيما بلغه عن الله ﷻ بكُفْرِ[2] من قال ذلك، وبما يناقِضُ ذلك في غير موضعٍ، كقوله تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [المائدة: ١٧].

وقوله تعالىٰ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۖ وَقَالَ ٱلْمَسِيحُ يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۖ إِنَّهُۥ مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿٧٢﴾ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ ۘ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّآ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۚ وَإِن لَّمْ يَنتَهُوا۟ عَمَّا يَقُولُونَ

---

(١) «وقال في سورة المائدة... كلمة الله الخالقة» ساقطة من (ل).

(٢) (ل): «بتكفير».

لَيَمَسَّنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ أَفَلَا يَتُوبُونَ إِلَى ٱللَّهِ وَيَسْتَغْفِرُونَهُۥ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٧٤﴾ مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ ٱلطَّعَامَ ٱنظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلْآيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرْ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٧٥﴾ قُلْ أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٧٦﴾ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لَا تَغْلُواْ فِي دِينِكُمْ غَيْرَ ٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوٓاْ أَهْوَآءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّواْ مِن قَبْلُ وَأَضَلُّواْ كَثِيرًا وَضَلُّواْ عَن سَوَآءِ ٱلسَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٢ - ٧٧].

وقال تعالىٰ: ﴿ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٣١﴾ يُرِيدُونَ أَن يُطْفِـُٔواْ نُورَ ٱللَّهِ بِأَفْوَٰهِهِمْ وَيَأْبَى ٱللَّهُ إِلَّآ أَن يُتِمَّ نُورَهُۥ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٣٢﴾ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ بِٱلْهُدَىٰ وَدِينِ ٱلْحَقِّ لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُشْرِكُونَ ﴿٣٣﴾ ۞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْأَحْبَارِ وَٱلرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ[1]﴾ [التوبة: ٣٠ - ٣٤].

وقال تعالىٰ: ﴿ ۞ وَلَمَّا ضُرِبَ ٱبْنُ مَرْيَمَ مَثَلًا إِذَا قَوْمُكَ مِنْهُ يَصِدُّونَ ﴿٥٧﴾ وَقَالُوٓاْ ءَأَٰلِهَتُنَا خَيْرٌ أَمْ هُوَ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًۢا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ ﴿٥٨﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا

---

(١) وقع خلط في (ل) بعد الآية (٣١) فكتب: «وقال تعالىٰ...» فأتىٰ بآية سورة الصف: «يريدون ليطفئوا...» ثم ذكر بقية الآيات من سورة التوبة كما أثبتت.

عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾ [الزخرف: ٥٧ - ٦٥]

وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [المائدة: ١١٦ - ١١٧].

فأخبر عن المسيح أنه لم يقل لهم إلا ما أمره الله به[١]: اعبدوا الله ربِّي وربَّكم، وكان عليهم شهيدًا ما دام فيهم، وبعد وفاته كان الله هو الرقيب عليهم.

فإذا كان بعضهم قد غلط في النَّقل عنه، أو في تفسيرِ كلامه، أو تعمَّد تغيير دينه، لم يكن علىٰ المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ من ذلك دَرَك[٢]، وإنما هو رسولٌ عليه البلاغ المبين.

وقد أخبر الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ أن أوَّل ما تكلَّم به المسيح أن قال: ﴿إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا

---

(١) بعدها في (المطبوعتين): «بقوله أن».
(٢) (ل): «شيئًا».

دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّا بِوَٰلِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا﴾ [مريم: ٣٠ - ٣٢].

ثم طلب لنفسه السَّلام فقال: ﴿وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا﴾ [مريم: ٣٣].

والنصارىٰ يقولون: «علينا منه السلام» كما تقوله الغالية فيمن يدَّعون فيه الإلهيَّةَ كالنُّصيْريَّة في عليّ، والحاكميَّة في الحاكم.

الوجه الثاني: أن يقال: إن الله لم يذكر أن المسيح مات ولا قُتل، وإنما قال: ﴿يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [آل عمران: ٥٥] وقال المسيح: ﴿فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة: ١١٧].

وقال تعالىٰ: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾ وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُواْ فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾ وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾ فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُواْ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰاْ وَقَدْ نُهُواْ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ﴾ [النساء: ١٥٥ - ١٦١].

فذمَّ الله اليهود بأشياءَ منها: قولهم علىٰ مريم بهتانًا عظيمًا، حيث زعموا أنها بغيٌّ، ومنها: قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧]. قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧].

وأضاف هذا القول إليهم وذمَّهم عليه.

ولم يذكر النصارىٰ؛ لأن الذين تولَّوا صلْبَ المصلوب المشبَّه به هم اليهود، ولم يكن أحدٌ من النَّصارىٰ شاهدًا هذا معهم، بل كان الحواريُّون خائفين غائبين، فلم يَشْهد أحدٌ منهم الصَّلب، وإنما شهده اليهود، وهم الذين أخبروا الناس أنهم صلبوا المسيح، والذين نقلوا أن المسيح صُلِب من النَّصارىٰ وغيرِهم إنما نقلوه عن أولئك اليهود، وهم شُرَطٌ[1] من أعوان الظلمة، لم يكونوا خلقًا كثيرًا يمتنع تواطؤهم علىٰ الكذب.

قال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ﴾ [النساء: ١٥٧]. فنفىٰ عنه القتل، ثم قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩].

وهذا عند أكثر العلماء معناه قبل موت المسيح، وقد قيل قبل موت اليهوديِّ وهو ضعيف، كما قيل: إنه قبل موت محمَّدٍ ﷺ وهو أضعف، فإنه لو آمن به قبل الموت لنفعه إيمانه به، فإن الله يقبل توبة العبد ما لم يغرغر.

وإن قيل: المراد به الإيمانُ الذي يكون بعد الغرغرة لم يكن في هذا فائدة، فإن كلَّ أحدٍ بعد موته يؤمن بالغيب الذي كان يجحده، فلا اختصاص للمسيح به، ولأنه قال قبل موته، ولم يقل بعد موته، ولأنه لا فرق بين إيمانه بالمسيح وبمحمدٍ صلوات الله عليهما وسلامه، واليهوديُّ الذي يموت علىٰ اليهوديَّةِ يموت كافرًا بمحمَّدٍ والمسيح عليهما الصلاة والسلام، ولأنه قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩].

---

(١) (ع): «شرٌّ»، (د) في الكلمة طمس، والأقرب أنها كالمثبت.

وقوله: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩] فعلٌ مقسمٌ عليه، وهذا إنما يكون في المستقبل، فدلَّ ذلك علىٰ أن هذا الإيمان بعد إخبار الله بهذا، ولو أُرِيد به قبل موت الكتابي لقال: وإن من أهل الكتاب إلا من يؤمن به، لم يقل: ﴿لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ﴾ [النساء: ١٥٩]

وأيضًا فإنه قال: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا يعمُّ اليهود والنصارىٰ، فدلَّ ذلك علىٰ أن جميع أهل الكتاب اليهودِ والنصارىٰ، يؤمنون بالمسيح قبل موت المسيح؛ وذلك إذا نزل آمنت اليهودُ والنَّصارىٰ بأنه رسولُ الله ليس كاذبًا كما تقول اليهود، ولا هو الله كما تقوله النَّصارىٰ.

والمحافظة علىٰ هذا العموم أولىٰ من أن يُدَّعىٰ أن كلَّ كتابيٍّ ليؤمننَّ به قبل أن يموت الكتابيّ، فإن هذا يستلزم إيمانَ كلِّ يهوديٍّ ونصرانيٍّ، وهذا خلاف الواقع، وهو لما قال: «وإن منهم إلا ليؤمنن به قبل موته» دل علىٰ أن المراد بإيمانهم قبل أن يموت هو، علم أنه أُريد بالعموم عمومَ من كان موجودًا حين نزوله؛ أي: لا يتخلَّف[1] منهم أحدٌ عن الإيمان به، لا إيمان من كان منهم ميِّتًا.

وهذا كما يقال: «**إنه لا يبقىٰ بلدٌ إلا دخله الدَّجال إلا مكة والمدينة**»[2]، أي من المدائن الموجودة حينئذ، وسببُ إيمان أهل الكتاب به حينئذٍ ظاهر، فإنه يظهر لكل أحدٍ أنه رسولٌ مؤيَّدٌ ليس بكذَّابٍ ولا هو ربُّ العالمين.

فالله تعالىٰ ذكر إيمانهم به إذا نزل إلىٰ الأرض، فإنه تعالىٰ لما ذكر رفعه إلىٰ الله بقوله: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥] وهو ينزل إلىٰ الأرض

---

(١) (د، ط.النيل): «يختلف».

(٢) جزء من حديث أخرجه البخاري (١٨٨١) ومسلم (٢٩٤٣) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

قبل يوم القيامة ويموت حينئذٍ، أخبر بإيمانهم به قبل موته، كما قال تعالىٰ في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَٰهُ مَثَلًا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿٥٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَجَعَلْنَا مِنكُم مَّلَٰٓئِكَةً فِى ٱلْأَرْضِ يَخْلُفُونَ ﴿٦٠﴾ وَإِنَّهُۥ لَعِلْمٌ لِّلسَّاعَةِ فَلَا تَمْتَرُنَّ بِهَا وَٱتَّبِعُونِ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَا يَصُدَّنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٢﴾ وَلَمَّا جَآءَ عِيسَىٰ بِٱلْبَيِّنَٰتِ قَالَ قَدْ جِئْتُكُم بِٱلْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ ٱلَّذِى تَخْتَلِفُونَ فِيهِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ رَبِّى وَرَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾ فَٱخْتَلَفَ ٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَيْنِهِمْ ۖ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْ عَذَابِ يَوْمٍ أَلِيمٍ﴾[1] [الزخرف: ٥٩ - ٦٥].

وفي «الصحيحين»[2] عن النَّبيِّ ﷺ أنه[3] قال: «**يوشِكُ[4] أن ينْزِلَ فِيكُمُ ابنُ مرْيمَ حكَمًا عدَلًا، وإمامًا مُقسِطًا، فيَكْسِرُ الصَّلِيبَ، ويَقْتُلُ الخِنْزيرَ، ويَضعُ الجِزْيةَ**».

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ ۚ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ ۚ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ ۚ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٥٧ - ١٥٨]. بيان أن الله رفعه حيًّا وسلَّمه من القتل، وبيَّن أنهم يؤمنون به قبل أن يموت. وكذلك قوله: ﴿وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ولو مات لم يكن فرقٌ بينه وبين غيره.

---

(١) (ل) أكمل جزءًا من الآية التي بعدها: ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾.
(٢) البخاري (٣٤٤٨) مسلم (١٥٥) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) «أنه» ليست في (د، ط.النيل).
(٤) (ل): «أوشك».

ولفظ «التوفّي» في لغة العرب[1] معناه: الاستيفاء والقبض، **وذلك ثلاثة أنواع:**

أحدها: توفّي النوم.

والثّاني: توفّي الموت.

والثّالث: توفّي الرُّوح والبدن جميعًا، فإنه بذلك خرج عن حال أهل الأرض الذين يحتاجون إلىٰ الأكل والشُّرب واللِّباس والنوم[2]، ويخرج منهم[3] الغائط والبول، والمسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ توفَّاه الله، وهو في السَّماء الثَّانية إلىٰ أن ينزل إلىٰ الأرض، ليست حاله كحالة أهل الأرض في الأكل والشُّرب، واللِّباس والنوم، والغائط والبول، ونحو ذلك.

الوجه الثّالث: قولهم: «إنه عنىٰ بموته عن موت النَّاسوت» كان ينبغي لهم أن يقولوا علىٰ أصلهم: عنىٰ «بِتَوَفَّيْتُه» عن توفِّي النَّاسوت، وسواءٌ قيل موْتُه أو تَوَفَّيْتُه فليس هو شيئًا غيرَ النَّاسوت، فليس هناك شيءٌ غيره لم يُتَوَفَّ، والله تعالىٰ قال: ﴿إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ﴾ [آل عمران: ٥٥]. فالمُتَوفَّىٰ هو المرفوع إلىٰ الله.

وقولهم: «إن المرفوع هو اللَّاهوت» مخالفٌ لنصِّ القرآن ولو كان هناك موت، فكيف إذا لم يكن؟ فإنهم جعلوا المرفوع غيرَ المتوفَّىٰ، والقرآن أخبر أن المرفوع هو المتوفَّىٰ.

وكذلك قوله في الآية الأخرىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾

---

(١) انظر: «العين» (٨/ ٤١٠)، «لسان العرب» (١٥/ ٤٠٠).

(٢) «والنوم» ليست في (د، ط.النيل).

(٣) «ويخرج منهم» ليست في (ل).

[النساء: ١٥٧-١٥٨] هو تكذيبٌ لليهود في قولهم: ﴿إِنَّا قَتَلْنَا ٱلْمَسِيحَ عِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٥٧] واليهود لم يدَّعوا قتل لاهوت، ولا أثبتوا لله لاهوتًا في المسيح، والله تعالىٰ لم يذكر دعوىٰ قتْلِه عن النَّصارىٰ حتىٰ يقال: إن مقصودهم قتلُ النَّاسوت دون اللَّاهوت، بل عن اليهود الذين لا يثبتون إلا النَّاسوت.

وقد زعموا أنهم قتلوه، فقال تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ﴾.

فأثبت رفع الذي قالوا إنهم قتلوه، وإنما هو النَّاسوت، فعُلِم أنه هو الذي نُفِيَ عنه القتل، وهو الذي رُفع، والنَّصارىٰ معترفون برفع النَّاسوت، لكن يزعمون أنه صُلب، وأقام في القبر، إما يومًا، وإما ثلاثة أيام، ثم صعد إلىٰ السماء، وقعد عن يمين الأب النَّاسوت مع اللَّاهوت.

وقوله تعالىٰ: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا﴾، معناه: أن نَفْيَ قتْلِه هو يقينٌ لا ريْب فيه، بخلاف الذين اختلفوا فإنهم في شكٍّ منه من قتله وغير قتله، فليسوا مستيقنين أنه قتل؛ إذ لا حُجَّة معهم بذلك.

ولذلك كانت طائفةٌ من النَّصارىٰ يقولون: إنه لم يُصْلب، فإن الذين صَلَبوا المصْلوب هم اليهود، وكان قد اشتبه عليهم المسيحُ بغيره، كما دلَّ عليه القرآن، وكذلك عند أهل الكتاب أنه اشتبه بغيره، فلم يعرفوا من هو المسيح من أولئك، حتىٰ قال لهم بعض الناس: أنا أعرفه. فعرفوه.

وقول من قال: «معنىٰ الكلام ما قتلوه علمًا بل ظنًّا» قولٌ ضعيف.

الوجه الرّابع: أنه قال تعالىٰ: ﴿إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [آل عمران: ٥٥].



فلو كان المرفوع هو اللَّاهوت لكان ربُّ العالمين قال لنفسه أو لكلمته: «إني أرفعك إلي».

وكذلك قوله: ﴿بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيۡهِ﴾ [النساء: ١٥٨] فالمسيح عندهم هو الله. ومن المعلوم أنه يمتنع رفعُ نفسِه إلىٰ نفْسِه.

وإذا قالوا: «هو الكلمة» فهم يقولون مع ذلك إنه الإله الخالق، لا يجعلونه بمنزلة التَّوراة والقرآن، ونحوِهما ممَّا هو[1] من كلام الله الذي قال[2] فيه: ﴿إِلَيۡهِ يَصۡعَدُ ٱلۡكَلِمُ ٱلطَّيِّبُ﴾ [فاطر: ١٠] بل عندهم هو الله الخالق الرَّازق ربُّ العالمين، ورَفْعُ ربِّ العالمين إلىٰ ربِّ العالمين ممتنع.

الوجه الخامس: قوله: ﴿وَكُنتُ عَلَيۡهِمۡ شَهِيدٗا مَّا دُمۡتُ فِيهِمۡۖ فَلَمَّا تَوَفَّيۡتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيۡهِمۡ﴾ [المائدة: ١١٧] دليلٌ علىٰ أنه بعد تَوْفِيَتِه لم يكن الرقيبُ عليهم إلا الله، دون المسيح، فإن قوله: ﴿كُنتَ أَنتَ﴾ يدل علىٰ الحصْر، كقوله: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلۡحَقَّ﴾ [الأنفال: ٣٢] ونحو ذلك، فعُلِم أن المسيح بعد تَوْفِيَتِه ليس رقيبًا علىٰ أتباعه، بل الله هو الرقيبُ المطَّلِع عليهم، المُحْصِي أعمالَهم المجازي عليها، والمسيحُ ليس برقيبٍ فلا يطَّلع علىٰ أعمالهم، ولا يحصيها ولا يجازيهم بها.

---

(١) «مما هو» ليست في (ل).

(٢) (ل): «قد يقال» بدل: «قال».



فصـل

قالوا: «وقد سمّاه الله أيضًا في هذا الكتاب خالقًا حيث قال: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

فأشار بالخالق إلىٰ كلمة الله المتَّحدة في النَّاسوت المأخوذِ من مريم؛ لأنه كذا قال علىٰ لسان داود النَّبيِّ: «بكلمة الله خلقت السماوات والأرض»[١]. ليس خالق إلا الله وكلمته وروحه».

وهذا ممَّا يوافق رأْينا واعتقادَنا في السَّيِّد المسيح لذكره؛ لأنه حيث قال: ويخلق لكم من الطِّين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرًا بإذن الله. أي: بإذن لاهوت الكلمة المتَّحدة في النَّاسوت».

والجواب: أن جميع ما يحتجُّون به من هذه الآيات وغيرِها فهو حجَّةٌ عليهم لا لهم.

وهكذا شأن جميع أهل الضَّلال إذا احتجُّوا بشيءٍ من كتب الله وكلام أنبيائِه، كان في نفس ما احتجُّوا به ما يدُلُّ علىٰ فساد قولهم، وذلك لعظمة كُتُبِ الله المُنزَّلة، وما أنْطَقَ به أنبياءَه؛ فإنه جعل ذلك هدًى وبيانًا للخلق، وشفاءً لما في الصدور، فلا بدَّ أن يكون في كلام الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه أجمعين من الهدىٰ والبيان ما يفرِّق الله به بين الحقِّ والباطل، والصِّدق والكذب، لكنَّ الناس يُؤْتَوْنَ من قِبَلِ أنفسهم لا من قِبَلِ أنبياء الله تعالىٰ؛ إمَّا من كونهم لم يتدبَّروا القول الذي قالتْه الأنبياء حقَّ التَّدبر حتىٰ يفقهوه ويفهموه، وإمَّا من جهة أخْذِهم ببعض الحقِّ دون بعض، مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله

---

(١) تقدّم هذا النص (٢/ ٢٢٨، ٢٣٦).



دون بعض[1]، فَيَضِلُّون من جهة ما لم يؤمنوا به، كما قال تعالىٰ عن النَّصارىٰ[2]: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغۡرَيۡنَا بَيۡنَهُمُ ٱلۡعَدَاوَةَ وَٱلۡبَغۡضَآءَ إِلَىٰ يَوۡمِ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾ [المائدة: ١٤].

وإما من جهة نِسْبتهم إلىٰ الأنبياء ما لم يقولوه من أقوالٍ كُذِبتْ عليهم، ومن جهة ترجمة أقوالهم بغير ما تسْتَحِقُّه من التَّرجمة وتفسيرِها بغير ما تستحقُّه من التَّفسير الذي دلَّ عليه كلام الأنبياء صلوات الله وسلامُه عليهم أجمعين، فإنه يجب أن يُفَسَّرَ كلامُ المتكلِّم بعضُه ببعض، ويؤخذَ كلامُه هاهنا وهاهنا، وتُعْرفَ ما عادتُه يعنيه ويريدُه بذلك اللفظ إذا تكلَّم به، وتُعرف المعاني التي عُرِف أنه أرادها في موضعٍ آخر، فإذا عُرِف عُرْفُه وعادتُه في معانيه وألفاظه، كان هذا ممَّا يُستعان به علىٰ معرفة مراده.

وأما إذا استُعْمِل لفظُه في معنًى لم تَجْرِ عادته باستعماله فيه، وتُرِك استعماله في المعنىٰ الذي جرت عادته باستعماله فيه، وحُمِل كلامُه علىٰ خلاف المعنىٰ الذي قد عُرِف أنه يريده بذلك اللَّفظ بِجَعْل[3] كلامه متناقضًا، وتَرْكِ حَمْلِه[4] علىٰ ما يناسب سائر كلامه= كان ذلك تحريفًا لكلامه عن موضعه، وتبديلًا لمقاصده وكذبًا عليه.

---

(١) «مثل أن يؤمنوا ببعض ما أنزله الله دون بعض» ساقطة من (ل) لانتقال النظر.

(٢) (ع): «النبي» كذا.

(٣) (ل): «حتىٰ يجعل» بدل: «بجعل».

(٤) (د، ط.النيل): «ويترك كلامه»، (ع): «وينزل كلامه» بدل: «وترك حمله».

فهذا أصل من ضلَّ في تأويل[1] كلام الأنبياء علىٰ غير مرادهم، فإذا عُرِف هذا، فنقول:

الجواب عما ذكروه هنا من وجوه:

أحدها: أن الله لم يذكر عن المسيح خلقًا مطلقًا، ولا خلقًا عامًّا، كما ذكر عن نفسه ﷻ، فأول ما أنزل الله علىٰ نبيه محمد ﷺ: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ۝٢ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ۝٣ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق: ١ - ٥].

وقال تعالىٰ: ﴿هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ۖ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ ۝٢٢ هُوَ ٱللَّهُ ٱلَّذِى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْمَلِكُ ٱلْقُدُّوسُ ٱلسَّلَٰمُ ٱلْمُؤْمِنُ ٱلْمُهَيْمِنُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْجَبَّارُ ٱلْمُتَكَبِّرُ ۚ سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ۝٢٣ هُوَ ٱللَّهُ ٱلْخَٰلِقُ ٱلْبَارِئُ ٱلْمُصَوِّرُ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الحشر: ٢٢ - ٢٤].

فذَكَر نفسه بأنه الخالق البارئ المصوِّر، ولم يصف قطُّ شيئًا من المخلوقات بهذا لا ملكًا ولا نبيًّا، وكذلك قال تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ۝٦٢ لَّهُۥ مَقَالِيدُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: ٦٢ - ٦٣].

وقال تعالىٰ: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ ٱلْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ ۖ وَخَرَقُوا۟ لَهُۥ بَنِينَ وَبَنَٰتٍۭ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يَصِفُونَ ۝١٠٠ بَدِيعُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ صَٰحِبَةٌ ۖ وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ ۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٠٠ - ١٠١].

ووصف نفسه بأنه ربُّ العالمين، وبأنه ملك يوم الدين، وأنه له الملك

---

(١) «تأويل» ساقطة من (ل).



وله الحمد، وأنه الحيُّ القيُّوم، لا تأخذه سِنةٌ ولا نوم، وأنه علىٰ كل شيءٍ قدير، وبكل شيءٍ عليم، ونحو ذلك من خصائص الرُّبوبيَّة، ولم يصف شيئًا من مخلوقاته: لا ملكًا مقرَّبًا، ولا نبيًّا مرسلًا، بشيءٍ من الخصائص التي يختصُّ بها، التي وصف بها نفسه ﷻ.

وأما المسيح عليه السلام فقال فيه: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ بِإِذْنِى فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِى ۖ وَتُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ بِإِذْنِى﴾ [المائدة: ١١٠].

وقال المسيح عن نفسه: ﴿أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ ٱلطِّينِ كَهَيْـَٔةِ ٱلطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًۢا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۖ وَأُبْرِئُ ٱلْأَكْمَهَ وَٱلْأَبْرَصَ وَأُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ [آل عمران: ٤٩] فلم يذكر إلا خلقَ شيءٍ معينٍ خاصٍّ بإذن الله، فكيف يكون هذا الخالقُ هو ذاك؟

الوجه الثاني: أنه خَلَقَ من الطِّين كهيئة الطَّير، والمراد به تصويرُه بصورة الطَّير، وهذا الخلق يقدر عليه عامَّةُ النَّاس، فإنه يمكن أحدُهم أن يصوِّر من الطِّين كهيئة الطَّير، وغيرِ الطَّير من الحيوانات، ولكنَّ هذا التَّصوير محرَّمٌ، بخلاف تصوير المسيح، فإن الله أذن له فيه.

والمعجزة أنه ينْفُخُ فيه الرُّوحَ فيصيرُ طيرًا بإذن الله ﷻ، ليس المعجزةُ مجردَ خَلْقِه من الطِّين، فإن هذا مشترك.

وقد لعن النَّبيُّ ﷺ المصوِّرين، وقال: «**إن أَشَدَّ النَّاس عذابًا يوْمَ القِيامَةِ المُصَوِّرونَ**»[1]. وفي «الصَّحيح»[2] يقول النَّبيُّ ﷺ: يقول الله تعالىٰ: «ومَنْ

---

(١) البخاري (٥٩٥٠) مسلم (٢١٠٩) عن ابن مسعود رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٧٥٥٩) مسلم (٢١١١) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

أظْلَمُ مِمَّن ذهَبَ يخْلُق كَخَلْقِي، فَلْيَخْلُقُوا ذرَّة، فَلْيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»[1].

الوجه الثالث: أن الله أخبر أن المسيح إنما فَعَل التَّصوير والنَّفخ بإذنه تعالىٰ، وأخبر المسيح عليه السلام أنه فعله بإذن الله، وأخبر الله أن هذا من نِعَمه التي أنعم بها علىٰ المسيح عليه السلام، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا عَبْدٌ أَنْعَمْنَا عَلَيْهِ وَجَعَلْنَاهُ مَثَلًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [الزخرف: ٥٩].

وقال تعالىٰ له: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ﴾ [المائدة: ١١٠].

وهذا كلُّه صريحٌ في أنه ليس هو الله، وإنما هو عبْدُ الله فَعَلَ ذلك بإذن الله، كما فعل مثل ذلك غيرُه من الأنبياء، وصريحٌ بأن الآذِن غيرُ المأذون له، والمعلِّم ليس هو المعلَّم، والمنعَم عليه وعلىٰ والدته ليس هو إيَّاه، كما ليس هو والدته.

الوجه الرابع: أنهم قالوا: أشار بالخالق إلىٰ كلمة الله المتَّحِدة في النَّاسوت. ثم قالوا في قوله: «بإذن الله» أي: بإذن الكلمة المتَّحدة في النَّاسوت.

وهذا يبُيِّن تناقُضهم وافتراءَهم علىٰ القرآن؛ لأن الله أخبر في القرآن أن المسيح خَلق من الطِّين كهيئة الطَّيْر بإذن الله، ففرَّق بين المسيح وبين الله، وبيَّن أن الله هو الآذِن للمسيح، وهؤلاء زعموا أن مراده بذلك أن اللَّاهوتَ المتَّحِدَ

---

(١) «وفي الصحيح يقول... فليخلقوا شعيرة» مثبتة من (ل) وليست في باقي النسخ.

بناسوت المسيح هو الخالق وهو الآذِن، فجعلوا الخالق هو الآذن، وهو تفسيرٌ للقرآن بما يخالف صريح القرآن.

الوجه الخامس: أن اللَّاهوت إذا كان هو الخالق لم يَحْتَجْ إلىٰ أن يأذن لنفسه، فإنهم يقولون: «هو إلهٌ واحد، وهو الخالق» فكيف يحتاج أن يأذنَ لنفسه ويُنعِمَ علىٰ نفسه؟

الوجه السَّادس: أن الخالق إما أن يكون هو الذَّاتُ الموصوفة بالكلام، أو الكلام الذي هو صفةٌ للذَّات، فإن كان هو الكلام فالكلام صفةٌ لا تكون ذاتًا قائمةً بنفسها خالقةً ولو لم تتَّحد بالنَّاسوت، واتحادُها بالنَّاسوت دون الموصوف ممتنعٌ لو كان الاتِّحاد ممكنًا، فكيف وهو ممتنع؟

فقد تبين امتناعُ كونِ الكلمةِ تكونُ خالقةً من وجوه.

وإن كان الخالق هو الذَّات المتَّصفةُ بالكلام، فذاك هو الله الخالق لكلِّ شيءٍ ربِّ العالمين، وعندهم هو الأب، والمسيح عندهم ليس هو الأب، فلا يكون هو الخالق لكلِّ شيء، والقرآن يبيِّن أن الله هو الذي أذِن للمسيح حتىٰ خَلق من الطِّين كهيئة الطَّيْر، فتبيَّن أن الذي خَلق من الطِّين كهيئة الطير ليس هو الله ولا صفةٌ من صفاته، فليس المسيح هو الله ولا ابنٌ قديمٌ أزليٌّ لله، ولكن عبْدُه فَعَلَ بإذنه.

الوجه السّابع: «قولهم: فأشار بالخالق إلىٰ كلمة الله المتَّحدة في النَّاسوت المأخوذ من مريم، لأنه كذا قال علىٰ لسان داود النَّبيِّ: بكلمة الله خُلِقت السماوات والأرض».

يقال لهم: هذا النصُّ عن داود حجَّةٌ عليكم، كما أن التَّوراة والقرآن وسائر ما ثبت عن الأنبياء حجَّةٌ عليكم، فإن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ قال: «بكلمة الله خُلِقت

السَّماوات والأرض» ولم يقل: إن كلمة الله هي الخالقة. كما قلتم أنتم أنه أشار بالخالق إلىٰ كلمة الله.

والفرق بين الخالق للسَّماوات والأرض، وبين الكلمة التي بها خُلِقت السَّماوات والأرض أمرٌ ظاهرٌ معروف، كالفرق بين القادر والقُدْرة، فإن القادر هو الخالق وقد خلق الأشياء بقدرته، وليست القدرة هي الخالقة، وكذلك الفرق بين المريد والإرادة، فإن الله خلق الأشياء بمشيئته، وليست مشيئته هي الخالقة.

وكذلك الدُّعاء والعبادة هو للإله الخالق، لا لشيءٍ من صفاته، فالنَّاس كلُّهم يقولون: يا الله يا ربَّنا يا خالقنا، ارحمنا واغفر لنا، ولا يقول أحد: يا كلام الله اغفر لنا وارحمنا، ولا يا قدرة الله، و يا مشيئة الله، و يا عِلْمَ الله اغفر لنا وارحمنا، والله تعالىٰ يخلق بقدرته ومشيئته وكلامه، وليست صفاته هي الخالقة.

الوجه الثامن: أن قول داود عَلَيْهِ السَّلَامُ: «بكلمة الله خُلِقت السَّماوات والأرض» يوافق ما جاء في القرآن والتَّوراة وغير ذلك من كتب الأنبياء أن الله يقول للشيء: «كن» فيكون، وهذا في القرآن في غير موضع، وفي التَّوراة قال الله: «ليكن كذا ليكن كذا».

الوجه التاسع: قولهم: «لأنه ليس خالقٌ إلا اللهُ وكلمتُه وروحُه»

إن أرادوا بكلمته: كلامَه، وبروحِه حياتَه، فهذه من صفات الله كعلمه وقدرته، فلم يعبِّر أحدٌ من الأنبياء عن حياة الله بأنها روح الله، فمن حَمَلَ كلام أحدٍ من الأنبياء بلفظ «الروح» أنه يُرَاد به حياةُ الله فقد كذب عليه.

ثم يقال: هذه كلامه وحياته من صفات الله كعلْمه وقدرته، وحينئذٍ فالخالق هو الله وحده، وصفاته داخلةٌ في مسمَّىٰ اسمه لا يُحْتَاجُ أن تُجْعَل معطوفةً علىٰ اسمه بواو التَّشْريك التي تُؤْذِنُ أن الله له شريكٌ في خلقه، فإن الله لا شريك له.

ولهذا لما قال الله تعالىٰ: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ [الزمر: ٦٢] دخل كل ما سواه في مخلوقاته، ولم تدخل صفاته: كعِلْمِه وقدرتِه ومشيئتِه وكلامِه[1]؛ لأن هذه داخلةٌ في مسمَّىٰ اسمه، ليست أشياء مباينةً له، بل أسماؤه الحسنىٰ متناولةٌ لذاته المقدَّسة المتَّصفةِ بهذه الصفات، لا يجوز أن يرادَ بأسمائه ذاتًا مجرَّدةً عن صفات الكمال، فإن تلك لا حقيقةَ لها، ويمتنع وجود ذاتٍ مجرَّدةٍ عن صفةٍ فضلًا عن وجود ذاته تعالىٰ مجردةً عن صفات كماله التي هي لازمةٌ لذاته، فيمتَنِع تحقُّق[2] ذاته دونها، ولهذا لا يقال: الله وعلمه خلق، والله وقدرته خلق.

وإن أرادوا بكلمته وروحه المسيح، أو شيئًا اتَّحد بناسوت المسيح، فالمسيح عليه السلام كلُّه مخلوقٌ كسائر الرُّسل، والله وحده هو الخالق، وإن شئت قلت: إن أُرِيدَ بالرُّوح والكلمة ما هو صفةٌ لله، فتلك داخلةٌ في مسمَّىٰ اسمه، وإن أريد ما ليس بصفةٍ فذلك مخلوقٌ له كالنَّاسوت[3].

---

(١) من هنا تبدأ نسخة (ح)، وهي نسخة «المتحف البريطاني».

(٢) «تحقق» مثبتة من (ل) وليست في سائر النسخ.

(٣) (ح) وقع تقديم وتأخير وسقط، فقد أتىٰ هنا بكلام سبق قريبًا، من قوله: «وكذلك الدعاء والعبادة... ليكن كذا ليكن كذا»، وفي الورقة التي تليها أتىٰ بكلام مقطوع من قوله: «يقال لهم هذا النص عن دواد... وليست القدرة هي الخالقة» وهو قبل الكلام الأول. ثم بعد ذلك أتىٰ بقوله: «الوجه التاسع... ومشيئته وكلامه»، ثم وقع سقط بمقدار ثلاث عشرة صفحة، إلىٰ قوله: «فصل: وأما قولهم وعلىٰ هذا المثال..» وهو مبتدأ المجلد الثالث.

الوجه العاشر: أن داود عليه السلام لا يجوز أن يريد بكلمة الله المسيح؛ لأن المسيح عند جميع الناس هو اسمٌ للنَّاسوت، وهو عندهم اسمٌ للَّاهوت والنَّاسوت لمَّا اتَّحدا، والاتِّحاد فِعْلٌ حادثٌ عندهم، فقبل الاتحاد لم يكن هناك ناسوتٌ ولا ما يسمَّىٰ مسيحًا، فعُلِم أن داود لم يُرِدْ بكلمة الله المسيح، ولكن غايتُهم أن يقولوا: أراد الكلمة التي اتَّحدت فيما بعدُ بالمسيح، لكنَّ الذي خلَق[1] بإذن الله هو المسيح، كما نطق به القرآن بقوله: ﴿يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[2] [آل عمران: ٤٥].

فالكلمة التي ذكرها، وأنها هي التي بها خُلقت السماوات والأرض ليست هي المسيح الذي خَلَقَ من الطِّين كهيئة الطير بإذن الله، فاحتجاجُهم بهذا علىٰ هذا احتجاجٌ باطل، بل تلك الكلمة التي بها خُلقت السَّماوات والأرض لم يكن معها ناسوتٌ حين خُلِقت باتِّفاق الأمم، والمسيح لا بدَّ أن يدخل فيه النَّاسوت، فعلم أنه لم يُرد بالكلمة المسيح[3].

(١) بعدها في (ل): «الطير».
(٢) «كما نطق به القرآن... ومن المقربين» ساقطة من (ح).
(٣) هنا نهاية النسخة «النعمانية» المشار إليها بـ (ع).

فصل

قالوا: «وقال أيضًا في موضع آخر: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران: ٥٩]. فأعنىٰ بقوله: مثل آدم[١] إشارةً إلىٰ الناسوت المأخوذ[٢] من مريمَ الطَّاهرة؛ لأنه لم يَذْكُر هاهنا اسم المسيح إلا ذكر عيسىٰ فقط.

وكما أن آدم خُلِق من غير جماعٍ ولا[٣] مباضَعَة، فكذلك جسد[٤] السَّيِّدِ المسيح خُلِقَ من غير جماعٍ ومباضَعَة، وكما أن جسد آدم ذاق الموت، فكذلك جسد المسيح ذاق الموت.

وقد يُبَرْهَنُ بقوله: رأينا أيضًا قائلًا: إن الله ألقىٰ كلمته إلىٰ مريم، وذلك حسب قولنا معشر النَّصارىٰ: إن كلمة الله الأزليَّةَ الخالقة حلَّت في مريم، وتجسَّدت بإنسانٍ كامل، وعلىٰ هذا المثال نقول: في السَّيِّد المسيح طبيعتان: طبيعةٌ لاهوتيَّة: التي هي طبيعةُ كلمةِ الله وروحِه، وطبيعةٌ ناسوتيَّة: التي أخذت من مريم العذراء واتحدت به، ولِما تقدم به القول من الله تعالىٰ علىٰ لسان موسىٰ النَّبيِّ إذ يقول: «أليس هذا الأبُ الذي خلقك وبراك واقتناك».

قيل: وعلىٰ لسان داود النَّبيِّ «روحك القدس لا تُنزع مني» وأيضًا علىٰ لسان داود النبي: «بكلمة الله تشدَّدت السَّماوات، وبروح فاه جميع فواهن».

وليس يدل هذا القول علىٰ ثلاثة خالقين، بل خالق واحد: الأب ونطقه:

---

(١) (المطبوعتان): «عيسىٰ».

(٢) (المطبوعتان): «البشرية المأخوذة».

(٣) «لا» ليست في (د، ط.النيل).

(٤) (ل): «حينئذ».

أي كلمته[1]. وروحه: أي حياته.

والجواب من وجوه:

أحدها: أن قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] كلامٌ حقٌّ؛ فإنه سبحانه خلق هذا النوع البشريَّ علىٰ الأقسام الممكنة؛ ليبيّن عمومَ قدرتِه، فَخَلَق آدم من غير ذكرٍ ولا أنثىٰ، وخلق زوجته حواءَ من ذكرٍ بلا أنثىٰ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١] وخَلَقَ المسيح من أنثىٰ بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكرٍ وأنثىٰ، وكان خَلْقُ آدم وحواء أعجبَ من خلق المسيح، فإن حواء خُلِقت من ضِلَعِ آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح في بطن مريم، وخَلْقُ آدم أعجبُ من هذا وهذا، وهو أصل خَلْق حواء.

فلهذا شبَّهه الله بخلق آدم الذي هو أعجب من خلق المسيح، فإذا كان سبحانه قادرًا أن يخلقه من تراب، والتراب ليس من جنس بدن الإنسان، أفلا يقدر أن يَخْلُقه من امرأةٍ هي من جنس بدن الإنسان؟ وهو سبحانه خَلَقَ آدم من تراب، ثم قال له: «كن» فيكون، لمَّا نفخ فيه من روحه، فكذلك المسيح نفخ فيه من روحه وقال له: «كن» فيكون، ولم يكن آدم بما نفخ فيه من روحه لاهوتًا وناسوتًا، بل كلُّه ناسوت، فكذلك المسيح كلُّه ناسوت، والله ﷻ ذكر هذه الآية في ضمن الآيات التي أنزلها في شأن النصارىٰ، لما قدم علىٰ النبي ﷺ «نصارىٰ نجران»[2] وناظروه في المسيح، وأنزل الله فيه ما أنزل، فبيَّن فيه قول الحق الذي

---

(١) (د): «وكلمته أي: نطقه» بدل: «ونطقه أي: كلمته».

(٢) تقدّم ذكر خبر «نصارىٰ نجران» (١/ ٨٥)، وانظر: «سيرة ابن هشام» (١/ ٥٧٣).

اختلفت فيه اليهود والنصارىٰ، فكذَّب الله الطائفتين: هؤلاء في غلوهم فيه، وهؤلاء في ذمهم له.

وقال عقب هذه الآية: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ ﴿٦١﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْقَصَصُ الْحَقُّ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٦٢﴾ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِالْمُفْسِدِينَ ﴿٦٣﴾ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦١ - ٦٤].

وقد امتثل النبيُّ ﷺ قولَ الله فدعاهم إلىٰ المباهلة، فعرفوا أنهم إن باهلوه أنزل الله عليهم لعنته، فأقرُّوا بالجزية وهم صاغرون، ثم كتب النَّبيُّ ﷺ إلىٰ هرقل ملك الروم بقوله تعالىٰ: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران: ٦٤] إلىٰ آخرها[١].

وكان أحيانًا يقرأ بها في الرَّكْعَةِ الثَّانيةِ من ركعتَي الفجر، ويقرأ في الأولىٰ بقوله:

﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾[٢] [البقرة: ١٣٦].

وهذا كله يبيِّن به[٣] أن المسيح عبدٌ ليس بإله، وأنه مخلوقٌ كما خلق آدم،

---

(١) البخاري (٧) مسلم (١٧٧٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٢) حديث القراءة في ركعتي الفجر أخرجه مسلم (٧٢٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٣) «به» ساقطة من (ل).

وقد أمر أن يباهِل من قال: إنه إله، فيدعو كلٌّ من المتباهلين أبناءَه ونساءه وقريبه المختصَّ به، ثم يبتهلُ هؤلاء وهؤلاء ويدعون الله أن يجعل لعنته على الكاذبين، فإن كان النصارىٰ كاذبين في قولهم: هو الله، حقَّتْ اللعنة عليهم، وإن كان من قال: ليس هو الله بل عبد الله كاذبًا، حقَّتْ اللعنة عليه، وهذا إنصافٌ من صاحب يقينٍ، يعلم أنه علىٰ الحق.

والنصارىٰ لمَّا لم يعلموا أنهم علىٰ الحقِّ نكلوا عن المباهلة، وقد قال عقب ذلك: ﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْقَصَصُ ٱلْحَقُّ ۚ وَمَا مِنْ إِلَٰهٍ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٦٢] تكذيبًا للنصارىٰ الذين يقولون: هو إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقٍّ، فكيف يقال: إنه أراد أن المسيح فيه لاهوت وناسوت، وأن هذا هو الناسوت فقط دون اللاهوت؟

وبهذا ظهر الجواب عن قولهم: قال في موضعٍ آخر: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ﴾ [آل عمران: ٥٩]، فأعنىٰ بقوله: عيسىٰ، أشار إلىٰ البشريَّةِ المأخوذة من مريم الطَّاهرة، لأنه لم يذكر[1] هاهنا اسم المسيح إلا ذكر عيسىٰ فقط.

فإنه يقال: عيسىٰ هو المسيح، بدليل أنه قال: ﴿مَّا ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ﴾ [المائدة: ٧٥]. فأخبر أنه ليس المسيح إلا رسول، ليس هو بإله، وأنه ابن مريم، والذي هو ابن مريم هو الناسوت، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۖ وَلَا تَقُولُوا۟ ثَلَٰثَةٌ ۚ ٱنتَهُوا۟ خَيْرًا لَّكُمْ ۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ ۖ سُبْحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٌ ۘ لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا

(١) بعدها في (د، ط.النيل): «الناسوت».

﴿١٧١﴾ لَّن يَسْتَنكِفَ ٱلْمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبْدًا لِّلَّهِ وَلَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ٱلْمُقَرَّبُونَ ۚ وَمَن يَسْتَنكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ [النساء:١٧١- ١٧٢]

وقال تعالىٰ: ﴿وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ۖ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ ۖ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ ۚ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ ۚ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ﴾ [التوبة: ٣٠]

وقال تعالىٰ: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ [المائدة: ١٧].

الوجه الثاني: أن ما ذكروه من موته قد بيَّنَّا أن الله لم يذكر ذلك، وأن المسيح لم يمُت بعد(١)، وما ذكروه من أنه صُلب ناسوتُه دون لاهوته باطلٌ من وجهين: فإن ناسوته لم يُصْلب، وليس فيه لاهوت، وهم ذكروا ذلك(٢) دعوىٰ مجردة فيكتفىٰ في مقابلتها بالمنع.

لكن نقول في الوجه الثالث: إنهم في اتِّحاد اللَّاهوت بالنَّاسوت يشبهونه تارةً باتحاد الماء باللبن، وهذا تشبيهُ اليعقوبيَّة، وتارةً باتِّحاد النَّار بالحديد أو النفس بالجسم، وهذا تشبيه الملكانيَّة وغيرهم.

ومعلوم أنه لا يصل إلىٰ الماء شيءٌ إلا وصل إلىٰ اللَّبن، فإنه لا يتميَّز أحدُهما عن الآخر، وكذلك النار التي في الحديد؛ متىٰ طرق الحديد أو بصق عليه لحق ذلك بالنار التي فيه، والبدن إذا ضُرب وعُذِّبَ لحق ألمُ الضَّرب

---

(١) «بعد» ليست في (ل).

(٢) «ذلك» ليست في (ل).

والعذاب للنَّفس، فكان حقيقةُ تمثيلهم يقتضي أن اللَّاهوت أصابه ما أصاب النَّاسوت من إهانة اليهود، وتعذيبهم له، وإيلامهم[1] له، والصَّلب الذي ادَّعوه، وهذا لازمٌ علىٰ القول بالاتِّحاد؛ فإن الاتِّحاد لو كان ما يصيب أحدَهما لا يَشْركه الآخَرُ فيه لم يكن هنا اتحادٌ، بل تعدُّد.

الرَّابع: أن هؤلاء الضُّلَّالَ لم يكفهم أنْ جعلوا إلهَ السَّماوات والأرض متَّحِدًا ببشرٍ في جوف امرأة، وجعلوه له مَسْكَنًا، ثم جعلوا أَخابِث خلق الله أمسكوه وبصقوا في وجهه، ووضعوا الشَّوك علىٰ رأسه، وصلبوه بين لِصَّيْنِ، وهو في ذلك يستغيث بالله، ويقول: «إلهي إلهي لم تركْتَنِي» وهم يقولون: الذي كان يسمع الناس كلامَه هو اللَّاهوت، كما سمع موسىٰ كلام الله من الشَّجرة، ويقولون: «هما شخصٌ واحد» ويقول بعضهم: «هما[2] مشيئةٌ واحدة، وطبيعةٌ واحدة».

والكلام إنما يكون بمشيئة المتكلِّم، فيلزم أن يكون المتكلِّم الدَّاعي المستغيث المصلوب هو اللَّاهوت، وهو المستغيث المتضرِّع، وهو المستغاث به. وأيضًا فهم يقولون: إن اللَّاهوت والنَّاسوت شخصٌ واحد، فمع القول بأنهما شخصٌ واحد، إما أن يكون مستغيثًا، وإما أن يكون مسْتَغاثًا به، وإما أن يكون داعيًا، وإما أن يكون مدعوًّا، فإذا قالوا: إن الدَّاعي هو غيرُ[3] المدعُوّ، لزم أن يكونا اثنين لا واحدًا، وإذا قالوا: هما واحدٌ فالدَّاعي هو المدعُوُّ.

الوجه الخامس: أن يقال: لا يخلو إما أن يقولوا: إن اللَّاهوت كان قادرًا علىٰ دفعهم عن ناسوته، وإما أن يقولوا: لم يكن قادرًا، فإن قالوا لم يكن قادرًا

(١) (د، ط.النيل): «وإتلافهم».
(٢) (المطبوعتان): «لهما».
(٣) (د): «عبد» كذا.



لزم أن يكون أولئك اليهود أقدرَ من ربِّ العالمين، وأن يكون ربُّ العالمين مقهورًا مأسورًا مع قومٍ من شرارِ اليهود، وهذا من أعظم الكفر والتنقُّص بربِّ العالمين، وهذا أعظم من قولهم: إن لله ولدًا، وإنه بخيل، وإنه فقير، ونحوَ ذلك مما يَسُبُّ الكفارُ به[1] ربَّ العالمين.

وإن قالوا: كان قادرًا؛ فإن كان ذلك من عُدوان الكفار علىٰ ناسوته وهو كارهٌ لذلك، فسُنَّةُ الله في مثل ذلك نَصْرُ رُسُلِه المستغيثين به، فكيف لم يُغِثْ ناسوتَه المستصرخَ به، وهذا بخلاف من قُتِلَ من النَّبيِّين وهو صابر، فإن أولئك صبروا حتىٰ قُتِلوا شهداء، والنَّاسوت عندهم استغاث وقال: «إلهي إلهي لماذا تركتني؟».

وإن كان هو قد فَعَل ذلك مكْرًا، كما يزعمون أنه مَكَرَ بالشَّيطان وأخفىٰ نفسه حتىٰ يأخذه بوجهِ حقّ، فناسوتُه أعلمُ بذلك من جميع الخلق، فكان الواجب أن لا يجزع[2] ولا يَهْرُب؛ لما في ذلك من الحكمة، وهم يذكرون من جَزَعِ النَّاسوت وهربه ودعائه ما يقتضي أنَّ كلَّ ما جرىٰ عليه كان بغير اختياره.

ويقول بعضهم: «مشيئتهما واحدة»؛ فكيف شاء ذلك وهرب ممَّا يكرهه الناسوت، بل لو يشاء اللَّاهوت ما يكرهه كانا متباينين، وقد اتفقا علىٰ المكر بالعدوّ، ولم يجزع النَّاسوت، كما جرىٰ ليوسف مع أخيه لمَّا وافقه علىٰ أنه يجعل الصُّواع في رحله، ويُظهِرُ أنه سارق، لم يجزع أخوه لما ظهر الصُّواع في رحله كما جزع إخوته حيث لم يعلموا، وكثيرٌ من الشُّطَّار[3] العيَّارين[4]

---

(١) (د): «ينسب به الكفار».

(٢) (ل): «يخرج».

(٣) الشطَّار: جمع شاطر: وهو: الذي أعيىٰ أهله ومؤدِّبهُ خبثا. «العين» (٦/ ٢٤٣).

(٤) يقال: غلامٌ عيَّار: نشيطٌ في المعاصي. والعرب تمدح وتذمُّ به. «تاج العروس» (١٣/ ١٧٧).

يُمسكون ويُصلبون وهم ثابتون صابرون، فما بال هذا يجزع الجزع العظيم الذي يصفون به المسيح، وهو يقتضي غاية النقص العظيم مع دعواهم فيه الإلهية.

الوجه السَّادس: قولهم: «إنه كلمته وروحه» تناقضٌ منهم؛ لأنه عندهم أقنوم الكلمة فقط، لا أقنوم الحياة(١).

الوجه السَّابع: قولهم: «وقد برْهَنَ بقوله رأينا أيضًا في موضعٍ آخر قائلًا: إن الله ألقىٰ كلمته إلىٰ مريم، وذلك حسب قولنا معشر النصارىٰ: إن كلمة الله الخالقة الأزليَّةَ حلَّت في مريم واتحدت بإنسانٍ كامل».

فيقال: أما قول الله في القرآن فهو حقّ، ولكن ضللتم في تأويله كما ضللتم في تأويل غيره من كلام الأنبياء، وما بلّغوه عن الله، وذلك أن الله تعالىٰ قال: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ ٱسْمُهُ ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ ﴿٤٥﴾ وَيُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِى ٱلْمَهْدِ وَكَهْلًا وَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٤٦﴾ قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ قَالَ كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٤٥ - ٤٧].

ففي هذا الكلام وجوهٌ تُبيِّن أنه مخلوق، ليس هو ما يقوله النصارىٰ، منها أنه قال: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ وقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾ نكرةٌ في الإثبات تقتضي أنه كلمة من كلمات الله، ليس هو كلامه كله كما يقوله النصارىٰ.

ومنها: أنه يبيِّن مراده بقوله: ﴿بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ﴾، وأنه مخلوقٌ حيث قال: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٤٧﴾﴾ [آل عمران: ٤٧]، كما قال في الآية الأخرىٰ: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن

(١) «الوجه السادس... لا أقنوم الحياة» ساقطة من (ل) وقد ألحقت في هامش (د).

﴿تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] وقال تعالىٰ في سورة كهيعص: ﴿ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَۖ قَوۡلَ ٱلۡحَقِّ ٱلَّذِي فِيهِ يَمۡتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٖۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [مريم: ٣٤ - ٣٥].

فهذه ثلاثُ آياتٍ في القرآن تبيِّن أنه قال له: «كن» فيكون. وهذا تفسير كونه كلمةً منه.

وقال ﴿ٱسۡمُهُ ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ﴾ [آل عمران: ٤٥] أخبر أنه ابن مريم، وأخبر أنه وجيهٌ في الدنيا والآخرة، ومن المقرَّبين، وهذه كلها صفة مخلوق، والله تعالىٰ وكلامه الذي هو صفته لا يقال فيه شيءٌ من ذلك.

وقالت مريم: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٞ﴾، فبيَّن أن المسيح الذي هو الكلمة هو ولد مريم، لا ولد الله سبحانه وتعالى.

وقال في سورة النساء: ﴿يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ لَا تَغۡلُواْ فِي دِينِكُمۡ وَلَا تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡحَقَّۚ إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُۖ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦۖ وَلَا تَقُولُواْ ثَلَٰثَةٌۚ ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞۖ سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞۘ لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلٗا ﴿١٧١﴾ لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ عَذَابًا أَلِيمٗا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا﴾ [النساء: ١٧١ - ١٧٣].

فقد نهىٰ النصارىٰ عن الغلوِّ في دينهم، وأن يقولوا علىٰ الله غير الحق،

وبيَّن أن المسيح عيسىٰ ابن مريم رسول الله، وكلمته[1]، وروحٌ منه، وأمرهم أن يؤمنوا بالله ورسله، فبيَّن أنه رسوله، ونهاهم أن يقولوا ثلاثة، وقال: ﴿ٱنتَهُواْ خَيۡرٗا لَّكُمۡۚ إِنَّمَا ٱللَّهُ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ﴾ وهذا تكذيبٌ لقولهم في المسيح أنه[2] إلهٌ حقٌّ من إلهٍ حقّ، من جوهر أبيه.

ثم قال: ﴿سُبۡحَٰنَهُۥٓ أَن يَكُونَ لَهُۥ وَلَدٞ﴾ فنزَّه نفسه وعظَّمها أن يكون له ولد، كما تقوله النصارىٰ. ثم قال: ﴿لَّهُۥ مَا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ فأخبر أن ذلك ملكٌ له، ليس فيه شيءٌ من ذاته.

ثم قال: ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَ﴾ أي: لن يستنكفوا أن يكونوا عبيدًا لله تبارك وتعالى.

فمع هذا البيان الواضح الجليِّ هل يظن ظانٌّ أن مراده بقوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾ أنه إلهٌ خالق؟ أو أنه صفةٌ لله قائمةٌ به؟ وأن قوله: ﴿وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ المراد به أنه حياته، أو روحٌ منفصلةٌ من ذاته؟

ثم نقول أيضًا: أما قوله: ﴿وَكَلِمَتُهُۥٓ﴾، فقد بيَّن مراده أنه خلقه بـ (كن)، وفي لغة العرب التي نزل بها القرآن أن يُسمَّىٰ المفعول باسم المصدر، فيُسمَّىٰ المخلوق خلقًا لقوله: هذا خلق الله، ويقال: دِرْهَمٌ ضَرْبُ الأَمِيرِ، أي: مضروب الأمير، ولهذا يُسَمَّىٰ المأمور به أمرًا، والمقدور قدرة و[3]قدرًا، والمعلوم علمًا، والمرحوم به رحمة، كقوله تعالىٰ: ﴿وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨].

---

(١) بعدها في (المطبوعتين): «ألقاها إلىٰ مريم» زيادة ليست في الأصول.
(٢) «أنه» ساقطة من (ل).
(٣) «قدرة و» ليست في (ل).

وقوله: ﴿أَتَىٰٓ أَمۡرُ ٱللَّهِ فَلَا تَسۡتَعۡجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقال النبي ﷺ: «**يقُولُ الله للجَنَّة: أنتِ رحْمَتِي، أرْحَمُ بكِ منْ أشَاءُ مِنْ عِبَادِي، ويَقُولُ للنَّارِ: أنْتِ عَذَابِي، أُعَذِّبُ بِكِ مَنْ أشَاءُ مِنْ عِبَادِي**». وقال: «**إن الله خَلقَ الرَّحْمةَ يوْمَ خلَقَها مائةَ رحْمَة، أنْزَلَ مِنْها رَحْمَةً وَاحِدَةً فَبِها يَتَراحَمُ الخَلْقُ ويتَعَاطَفُونَ، وأمْسَكَ عِنْدهُ تِسْعَةً وتِسْعِينَ رَحْمَةً، فَإِذَا كَانَ يَوْمُ القِيَامَةِ جَمَعَ هَذِه إلىٰ تِلْكَ، فَرَحِمَ بِهَا الخَلْقَ**»(١).

ويقال للمطر والآيات: هذه قدرةٌ عظيمة، ويقال: غفر الله لك عِلْمَه فيك، أي: معْلُومَه، فتَسْمِيةُ المخْلُوقِ بالكلمةِ كلمةً من هذا الباب.

وقد ذكر الإمام أحمد في «الرد علىٰ الجهميَّة»(٢) وذكره غيرُه: أن النصارىٰ والحلوليَّة والجهميَّة المعطِّلة اعترضوا علىٰ أهل السُّنة، فقالت النَّصارىٰ: القرآن كلام الله غير مخلوق، والمسيح كلمة الله فهو(٣) غير مخلوق، وقالت الجهميَّة: المسيح كلمة الله وهو مخلوق، والقرآن كلام الله فيكون مخلوقًا.

وأجاب أحمد وغيره: بأن المسيح نفسه ليس هو كلامًا، فإن المسيح إنسانٌ وبشرٌ ومولودٌ من امرأة، وكلام الله ليس بإنسانٍ ولا بشرٍ ولا مولودٍ من امرأة، ولكنَّ المسيحَ خُلِقَ بالكلام، وأما القرآن فهو نفسه كلام الله، فأين هذا من هذا؟

---

(١) تقدّم تخريج هذا الحديث والذي قبله (١/ ٣٦٢).
(٢) (ص١٢٥، ١٢٦).
(٣) (ل): «فيكون».

وقد قيل: أكثر اختلاف العقلاء من جهة اشتراك الأسماء، وما من عاقل إذا سمع قوله تعالىٰ في المسيح عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه كلمته ألقاها إلىٰ مريم إلا يعلم أنه ليس المراد أن المسيح نفسه كلام الله، ولا أنه صفة لله ولا خالق.

ثم يقال للنَّصارىٰ: فلو قُدِّرَ أن المسيح نفْسُ الكلام، فالكلام ليس بخالق، فإن القرآن كلام الله وليس بخالق، والتَّوراةُ كلام الله وليست بخالقة، وكلمات الله كثيرةٌ وليس منها شيءٌ خالق، فلو كان المسيحُ نفسَ الكلام لم يَجُز أن يكون خالقًا، فكيف وليس هو الكلام، وإنما خُلِق بالكلمة، وخُصَّ باسم الكلمة؛ فإنه لم يُخْلَق علىٰ الوجه المعتاد الذي خُلِق عليه غيرُه، بل خرج عن العادة، فخُلِق بالكلمة من غير السُّنة المعروفة في البشر.

وقوله: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ لا يوجب أن يكون منفصلًا من ذات الله، كقوله تعالىٰ: ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مِّنْهُ﴾ [الجاثية: ١٣] وقوله: تعالىٰ: ﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ﴾ [النحل: ٥٣]

وقال تعالىٰ: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾ [النساء: ٧٩] وقال تعالىٰ: ﴿لَمْ يَكُنِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ وَٱلْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ ٱلْبَيِّنَةُ ﴿١﴾ رَسُولٌ مِّنَ ٱللَّهِ يَتْلُوا۟ صُحُفًا مُّطَهَّرَةً﴾ [البينة: ١ - ٢]

فهذه الأشياء كلُّها من الله وهي مخلوقة، وأبلغ من ذلك روح الله التي أرسلها إلىٰ مريم، وهي مخلوقة، فالمسيح الذي هو روحٌ من تلك الرُّوح أولىٰ أن يكون مخلوقًا، قال تعالىٰ: ﴿فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧ - ١٩].

وقد قال تعالىٰ: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا﴾ [التحريم: ١٢].

وقال: ﴿وَٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا وَجَعَلْنَٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ٩١]. فأخبر أنه نفخ في مريم من روحه، كما أخبر أنه نفخ في آدم من روحه، وقد بيَّن أنه أرسل إليها روحَه ﴿فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ﴿١٧﴾ قَالَتْ إِنِّىٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحْمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ﴿١٨﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَٰمًا زَكِيًّا ﴿١٩﴾ قَالَتْ أَنَّىٰ يَكُونُ لِى غُلَٰمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِى بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ﴿٢٠﴾ قَالَ كَذَٰلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَىَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُۥٓ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ﴿٢١﴾ فَحَمَلَتْهُ﴾ [مريم: ١٧ - ٢٢]

فهذا الرُّوح الذي أرسله الله إليها ليهب لها غلامًا زكيًّا مخلوق، وهو روح القدس الذي خُلِق المسيح منه ومن مريم، فإذا كان الأصل مخلوقًا فكيف الفرع الذي حصل به؟

وقوله عن المسيح: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ خَصَّ المسيح بذلك لأنه نفخ في أمِّه من الرُّوح، فحَبَلَت به من ذلك النفخ، وذلك غير روحه التي يشاركه فيها سائر البشر، فامتاز بأن حبلت به من نفخ الرُّوح، فلهذا سُمِّي روحًا منه؛ ولهذا قال طائفةٌ من المفسِّرين[1]: «روحٌ منه» أي: رسولٌ منه، سمَّاه باسم الرُّوح الرَّسول الذي نَفَخَ فيها، فكما يُسَمَّىٰ «كلمة»، يُسَمَّىٰ «روحًا»؛ لأنه كُوِّن بالكلمة، لا كما يُخْلَقُ الآدميّون غيره، ويُسَمَّىٰ «روحًا»؛ لأنه حَبَلَت به أمُّه بنفْخِ الرُّوح الذي نُفِخَ فيها، لم تحبل به من ذكرٍ كغيره من الآدميين، وعلىٰ هذا فيقال: لما خلق من

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٧/ ٧٠٣)، «تفسير ابن كثير» (٢/ ٤٧٩).

نفخ الروح ومن مريم سُمِّي «روحًا» بخلاف سائر الآدميِّين، فإنه يُخْلَقُ من ذكرٍ وأنثىٰ، ثم يُنْفَخُ فيه الرُّوح بعد مضيِّ أربعةِ أشهر.

والنَّصارىٰ يقولون في أمانتهم: «تجسَّد من مريم ومن روح القدس». ولو اقتصروا علىٰ هذا، وفسَّروا روح القدس بالمَلَكِ الذي نَفَخَ فيها وهو روح الله، لكان هذا موافقًا لما أخبر الله به، لكنهم جعلوا «روح القدس» حياة الله وجعلوه ربًّا، وتناقضوا في ذلك، فإنه علىٰ هذا كان ينبغي فيه أقنومان: أقنوم الكلمة، وأقنوم الرُّوح، وهم يقولون: ليس فيه إلا أقنوم الكلمة، وكما يسمَّىٰ المسيح «كلمة»؛ لأنه خُلِقَ بالكلمة يسمَّىٰ «روحًا»؛ لأنه حلَّ به من الرُّوح.

فإن قيل: فقد قال في القرآن: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُۥ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ﴾ [الزمر: ١].

وقد قال أئِمَّة المسلمين وجمهورُهم: القرآنُ كلام الله غيرُ مخلوقٍ، منه بدأ.

وقال في المسيح: ﴿وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١] قيل: هذا بمنزلة سائر المضاف إلىٰ الله إن كان عينًا قائمةً بنفسها، أو صفةً فيها كان مخلوقًا، وإن كان صفةً مضافةً إلىٰ الله كعلمه وكلامه ونحو ذلك، كان إضافة صفة، وكذلك ما كان(١) عينًا قائمةً أو صفةً قائمةً(٢) بغيرها كما في السَّماوات والأرض والنعم، والرُّوح الذي أرسله إلىٰ مريم، وقال: ﴿إِنَّمَآ أَنَا۠ رَسُولُ رَبِّكِ﴾ [مريم: ١٩] كان مخلوقًا، وإن كان صفةً لا تقوم بنفسها، ولا يتَّصف بها المخلوق كالقرآن لم يكن مخلوقًا؛ فإن ذلك قائمٌ بالله، وما يقوم بالله لا يكون مخلوقًا.

---

(١) (ل، ط.النيل): «وكذلك ما منه إن كان» بدل: «وكذلك ما كان».

(٢) بعدها في (ط.النيل): «تعيّن» ولم تحرر في (د).

والمقصود هنا بيان بطلانِ احتجاج النَّصارىٰ، وأنه ليس لهم في ظاهر القرآن ولا باطنه حجَّة، كما ليس لهم حجَّةٌ في سائر كتب الله، وإنما تمسَّكوا بآياتٍ متشابهات، وتركوا المحكم، كما أخبر الله عنهم بقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] والآية نزلت في النَّصارىٰ، فهم مرادون من الآية قطعًا.

ثم قال: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران: ٧] وفيها قولان وقراءتان، منهم من يقف عند قوله: ﴿إِلَّا ٱللَّهُ﴾ ويقول: الرَّاسخون في العلم لا يعلمون تأويل المتشابه، لا يعلمه إلا الله. ومنهم من لا يقف، بل يصل بذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ [آل عمران: ٧] ويقول: الرَّاسخون في العلم يعلمون تأويل المتشابه.

وكلا القولين مأثورٌ عن طائفةٍ من السَّلف[1]، وهؤلاء يقولون: قد يكون الحال من المعطوف دون المعطوف عليه كما في قوله تعالىٰ ﴿وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ﴾ [الحشر: ١٠] أي: قائلين. وكلا القولين حقٌّ باعتبار؛ فإن لفظ «التأويل» يراد به التَّفسير، ومعرفة معانيه، والرَّاسخون في العلم يعلمون تفسير القرآن.

قال الحسن البصريّ: «لم يُنْزِل الله آيةً إلا وهو يحبُّ أن يعلم فيم نزلت، وماذا عنىٰ بها»[2].

---

(١) انظر: «تفسير الطبري» (٦/ ٢١٠).

(٢) أخرجه الثعلبي في تفسيره (١/ ٨٦) بسنده عن الحسن، قال: «والله، ما أنزل الله آية إلّا وهو يحب أن نعلم فيم أنزلت، وما معناها».

وقد يعنىٰ بـ «التأويل»: ما استأثر الله بعلمه من كيفية ما أخبر به عن نفسه، وعن اليوم الآخر، ووقت السَّاعة، ونزول عيسىٰ، ونحوِ ذلك، فهذا التَّأويل لا يعلمه إلا الله.

وأما لفظ «التأويل» إذا أُرِيد به صرف اللَّفظ عن ظاهره إلىٰ ما يخالف ذلك لدليلٍ يقترن به، فلم يكن السَّلف يريدون بلفظ «التأويل» هذا، ولا هو معنىٰ «التأويلِ» في كتاب الله ﷻ.

ولكنَّ طائفةً من المتأخِّرين خَصُّوا لفظ «التأويل» بهذا، بل لفظ «التأويلِ» في كتاب الله يراد به ما يؤول إليه الكلام، وإن وافق ظاهره، كقوله تعالىٰ: ﴿هَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا تَأۡوِيلَهُۥۚ يَوۡمَ يَأۡتِي تَأۡوِيلُهُۥ يَقُولُ ٱلَّذِينَ نَسُوهُ مِن قَبۡلُ﴾ [الأعراف: ٥٣].

ومنه تأويل الرؤيا، كقول يوسف الصديق: ﴿هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَٰيَ مِن قَبۡلُ﴾ [يوسف: ١٠٠] وكقوله: ﴿إِلَّا نَبَّأۡتُكُمَا بِتَأۡوِيلِهِۦ﴾ [يوسف: ٣٧] وقوله: ﴿ذَٰلِكَ خَيۡرٌ وَأَحۡسَنُ تَأۡوِيلًا﴾ [النساء: ٥٩] وهذا مبسوطٌ في موضعٍ آخر(١).

والمقصود هنا أنه ليس للنَّصارىٰ حجَّةٌ لا في ظاهر النصوص ولا في باطنها، كما قال تعالىٰ: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمَسِيحُ عِيسَى ٱبۡنُ مَرۡيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلۡقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرۡيَمَ وَرُوحٞ مِّنۡهُ﴾ [النساء: ١٧١] والكلمة عندهم هي جوهر، وهي ربٌّ لا يُخلق بها الخالق، بل هي الخالقة لكلِّ شيء، كما قالوا في كتابهم: «إن كلمة الله الخالقةَ الأزليَّةَ حلَّت في مريم».

والله تعالىٰ قد أخبر أنه سبحانه ألقاها إلىٰ مريم، والربُّ سبحانه هو الخالق، والكلمة التي ألقاها ليست خالقة، والخالق لا يلقيه شيء، بل هو يلقي غيرَه.

---

(١) انظر: «مجموع الفتاوىٰ» (٣/ ١٦٥، ٤/ ٦٨).

وكلمات الله نوعان: كونيَّةٌ، ودِينيَّة.

فالكونيَّة: كقوله للشيء: «كن» فيكون.

والدِّينيَّة: أمرُه وشرعه التي جاءت به الرُّسل، وكذلك أمرُه وإرادته وإذنه[1] وإرساله وبعثه، ينقسم إلىٰ هذين القسمين.

وقد ذكر الله تعالىٰ إلقاء القول في غير هذا، وقد قال تعالىٰ: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا﴾ [النساء: ٩٤]، وقال تعالىٰ: ﴿وَإِذَا رَءَا ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ شُرَكَآءَهُمْ قَالُوا۟ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ شُرَكَآؤُنَا ٱلَّذِينَ كُنَّا نَدْعُوا۟ مِن دُونِكَ ۖ فَأَلْقَوْا۟ إِلَيْهِمُ ٱلْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿٨٦﴾ وَأَلْقَوْا۟ إِلَى ٱللَّهِ يَوْمَئِذٍ ٱلسَّلَمَ﴾ [النحل: ٨٦ - ٨٧] وقال تعالىٰ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة: ١]

وأما لقَّيْتُه القول ولقَّيته فتلقَّاه، فذاك إذا أردت أن تُحفِّظَه، بخلاف ما إذا ألقيتَه إليه، فإن هذا يقوله فيما خاطبه به وإن لم يحفظه، كمن ألقيت إليه القول إنكم لكاذبون، وألقوا إليهم السَّلام، وليس هنا إلا خطابٌ سمعوه لم يحصل نفسُ صفةِ المتكلِّم في المخاطَب، فكذلك مريم إذا ألقىٰ الله كلمتَه إليها وهي قول: «كن»، لم يلزم أن تكون نفسُ صفته القائمةِ به حلَّت في مريم، كما لم يلزم أن تكون صفتُه القائمة به حلَّت في سائر من ألقىٰ إليه كلامَه، كما لا تحصل صفةُ كلِّ متكلِّمٍ فيمن يُلقَىٰ إليه كلامُه.

---

(١) «وإذنه» ليست في (ل).

فهرس موضوعات المجلد الثاني

